الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

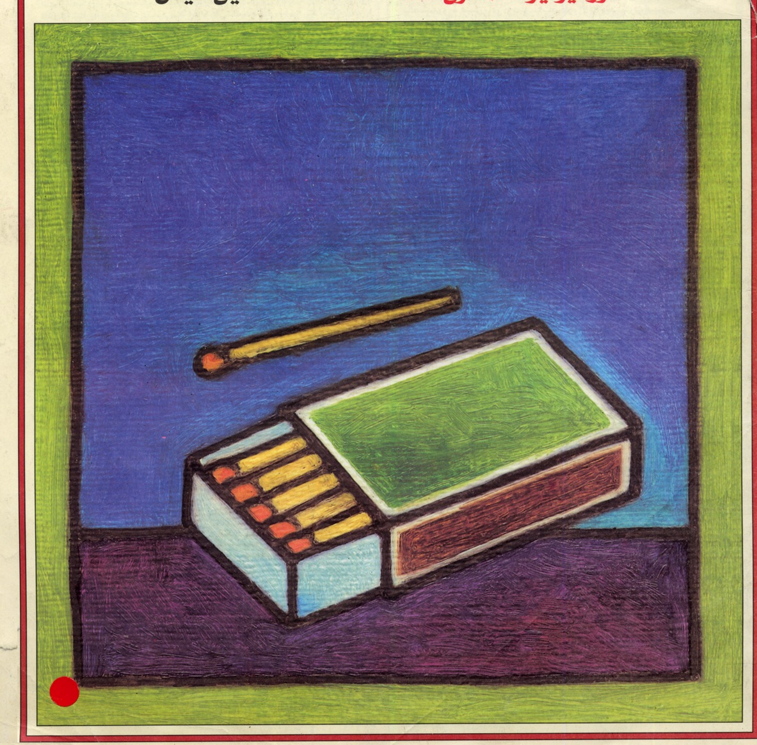
مجلة شهرية . العدد الرابع والأربعون . السنة الرابعة . سبتمبر ٢٠٠٢ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 4 - Issue 44 - September 2002

فى انتظار ثورة!

ثورة يوليو : خمسون عاما

محمد حسنين هيكل



الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الرابعة
العدد الرابع والأربعون
سبتمبر ٢٠٠٢

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إبراهيم العجلونى .. كاتب أردنى.
- أحمد عثمان .. باحث فى التاريخ المصرى القديم، مقيم فى لندن.
- أسعد حليم .. كاتب ومترجم.
- برنارد لويس .. أستاذ دراسات الشرق الأدنى الفخرى بجامعة برنستون.
- ريتشارد هورتون .. رئيس تحرير مجلة «لانسيت» العلمية.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- كريستوفر دى بيليج .. صحفى، ومراسل مجلة الـ «إيكونومست» فى إيران.
- ليلى حافظ .. صحفية.
- ماجدة بركة .. دبلوماسية مصرية.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- ناصر كامل .. ناقد أدبى.
- ناعوم تشومسكى .. أستاذ اللغويات وفلسفة اللغة بمعهد ماستشوستس للتكنولوجيا (MIT).
- نبيل على .. خبير الأبحاث اللغوية العربية والإلكترونية.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى - سعد الدين شحاتة - أحمد اللباد

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٢٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria , France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــــة..

يهــــــــــوديان..

«لا يمكن اعتبار الولايات المتحدة ضحية بريئة فى هجمات سبتمبر إلا إذا كنا نجهل لائحة أفعالها وأفعال حلفائها» التعليق ـ نصًا ـ للبروفيسور الأمريكى نعوم تشومسكى (٧٣ عاما). والنص ورد فى كتابه المثير للجدل «٩/١١» والذى صدر قبل حوالى العام، وبعد شهر واحد من الهجمات على واشنطن ونيويورك. وجمعت فيه، على شكل أسئلة وأجوبة، مقابلات أجرتها الصحافة مع عالم اللغويات الشهير.

التعتيم الإعلامى الأمريكى الذى لاقاه الكتاب باعتباره «يطرح أفكارا غير ملائمة»، لم يمنع أن تصل مبيعاته إلى حوالى ١٢٥ ألف نسخة، وهو ما يثبت انه وجد دائرة من القراء أوسع من الأوساط الجامعية والطلابية التى تتابع أعمال تشومسكى عادة.

جوهر طروحات تشومسكى فى الكتاب تقوم على ان هجمات ١١ سبتمبر تنطوى بالتأكيد على «فظاعات مروعة»، لكن يجدر بالأمريكيين أن يدركوا أنها ليست سوى رد فعل على فظاعات لا تقل عنها حجما ترتكبها السياسة الخارجية الأمريكية منذ سنوات. مشيرًا ـ ربما قبلنا جميعًا ـ إلى «أن الولايات المتحدة قضت عبر القرون على سكانها المحليين (ملايين الأشخاص) واجتاحت نصف المكسيك وتدخلت بعنف فى المنطقة واحتلت هاواى والفيلبين، وقامت على الأخص فى السنوات الخمسين الماضية باللجوء إلى القوة فى جميع أنحاء العالم تقريبا». لاتنس المرتين الوحيدتين فى التاريخ لاستخدام القنبلة الذرية.. ويلاحظ المفكر الأمريكى فى نهاية المطاف أن «هذه هى المرة الأولى التى توجه فيها البنادق فى الاتجاه الآخر».

وتأتى أهمية كتابات مفكر مثل نعوم تشومسكى، اللغوى، والسياسى، وعالم الاجتماع الأمريكى المنشق على «الإجماع العام» فى دوائر صنع القرار والتيار الرئيسى السياسى فى الولايات المتحدة، فى اهتمامه بعلاقة الإعلام بتصنيع إجماع عام يخدم التوجه السياسى للبيت الأبيض. وهو يكرس تحليلاته وأبحاثه فى قراءة ما لا يراد لعامة الناس الوصول إليه، وهو يقول إن ما لا يتحدث عنه السياسيون الأمريكيون « المسكوت عنه» هو أهم بكثير مما يتحدثون عنه فى العلن. وتشومسكى هو الذى نحت المصطلح الذائع الصيت والمُعبر «تصنيع الإجماع» وذلك فى كتاب شهير بنفس العنوان عالج فيه دور الإعلام الغربى فى قولبة عقل رجل الشارع فى الغرب، بمهارة ودهاء ومن دون أن يظهر ذلك معاكساً لشعارات حرية التعبير وتعددية الأصوات.



وتشومسكى الذى يعد من أهم الشخصيات الثقافية على مستوى العالم، واحد من أكثر العلماء تأثيرًا فى علم اللغويات الحديث. وتستخدم نظريات تشومسكى اللغوية بكثرة فى علوم الاتصالات وعلوم الحاسب الآلى. كما أنه من الناحية الأخرى يهودى تصنفه منظمة «بناى بريث» اليهودية ذات الميول الصهيونية ـ بأنه أشد مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية عداءً لإسرائيل. وتصفه كتابات إسرائيلية بأنه يهودى يكره ذاته.

ولد نعوم إفرام تشومسكى عام ١٩٢٨، وحصل على درجته العلمية فى اللغويات عام ١٩٥١ من جامعة بنسلفانيا. بعدئذ فى بداية الخمسينيات سافر إلى إسرائيل ليعيش لفترة فى أحد الكيبوتزات حيث اعتقد فى الطبيعة الاشتراكية والإنسانية لحركة الكيبوتز. بيد أن الغشاوة سرعان ماانقشعت عن عينيه كما يقول ليترك إسرائيل ويعود إلى الولايات المتحدة؛ حيث عمل عام ١٩٥٥ فى جامعة هارفارد، ثم انتقل ليعمل فى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا M. I.T. وما زال يعمل به حتى الآن.

فى عام ١٩٥٧ نشر مؤلفه المهم Syntactic Structures الذى أحدث ثورة فى علم اللغويات الحديث، واعتبر التجاوز الأساسى للبنيوية فى مجال اللغويات. وشكل الإطار لنظريته اللغوية المعروفة باسم النحو التوليدى أو التحويلى أو الكونى، والتى يبدو أنها تشابه ـ بغير قصد ـ فى بعض سماتها أفكارًا للغويين إسلاميين مثل: ابن جنى والعسكرى والجرجانى حيث يرى أن الإدراك اللغوى والقدرة اللغوية هى صفات إنسانية أساسية تكمن فى النوع البشرى وليست مكتسبة. وأن لغة الفرد العادية هى عملية إبداعية، وأن كل كلام هو تجديد فى ذاته، فاللغة ملكة إنسانية وهى ملكة تؤنس الإنسان أيضًا.

وتشومسكى الذى كان عضوًا نشطًا فى حركة «قاوم» Resist الراديكالية التى لعبت دورًا مهمًا فى معارضة التدخل الأمريكى فى فيتنام. له عدة كتب تنتقد السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. ويصفها بأنها ضالة ومضللة، وخادمة وتكيل بمكيالين، وقد تؤدى بالعالم إلى الدمار الكونى؛ لأن الشرق الأوسط من المناطق شديدة الالتهاب فى العالم.

وأهمية ما يكتبه تشومسكى تنبع من ثراء تجربته واتساع اطلاعه على موضوعات متشعبة تبدأ من اللغة وتمر فى الثقافة والإعلام وتتوقف ملياً عند السياسة والاقتصاد ولا تنتهى بالعلاقات بين الشمال والجنوب. وهو فى تفكيكه لأساليب صناعة الرأى العام يستشهد بتجربة ذاتية مر بها خلال حرب الخليج (١٩٩٠). فيقول إن الرأى العام الرسمى والشعبى فى الولايات المتحدة تم تعبئته بشكل مثير ليقف خلف سياسة جورج بوش فى إعلان الحرب، وإن السماح للأصوات المعارضة للحرب بإعلان رأيها عبر شبكات الإعلام الوطنى المسموعة بلغ حده الأدنى. ويتذكر كيف أن «الراديو الوطنى العام» أحد أهم الإذاعات الأمريكية المسموعة فى كل الولايات، قرر أن يتيح لتشومسكى المجال كى يعبر عن رأيه المعارض للحرب. وأن المدة التى منحت له كانت دقيقتين ونصف فقط لشرح وجهة نظره شرط أن يكون قد كتب النص مسبقاً وأن يقرأه مكتوباً ولا يرتجله وأن ذلك سوف يسجل ثم يذاع لاحقاً، أى أنه لن يكون مباشراً على الهواء. ويقول تشومسكى أنه لما قرأ النص ليسجل ثم ليذاع تجاوز المدة المقررة له حيث بلغت مدة التسجيل دقيقتين وستة وثلاثين ثانية، ولذلك طلبوا منه أن يعيد التسجيل ثانية بشكل أسرع حتى لا يتجاوز المسموح.



بعد عام من كتابه «٩/١١» الذى قال عنه يومها انه «بمثابة جرس إنذار»، كيف ينظر تشومسكى لما جرى ويجرى؟

«وجهات نظر» تنشر له مقالا نشرته قبل أيام فقط النسخة الإلكترونية لمجلة Z net وترجمه الأكاديمى السعودى د. حمزة بن قبلان المزينى، والذى هو ـ أيضًا ـ أستاذ فى اللغويات، وأحد أكثر المتابعين لما يكتبه المفكر الأمريكى.



على الطرف الآخر من اتساع الزاوية المعروف، يقف «يهودى آخر» تجاوز السادسة والثمانين من العمر. هو برنارد لويس، الذى أصبح بعد الحادى عشر من سبتمبر الوجه الأشهر ـ بعد بن لادن طبعا ـ على شاشات التليفزيون الأمريكى فى أوقات الذروة. متوليًا ـ فى فرصة نادرة ـ مهمة رسم ملامح الإسلام وأولئك المسلمين «الذين هم دمويون بالسليقة.. أو بالدين».

فالرجل أكاديمى معروف، ومؤرخ يرتدى عباءة الجد والرصانة والتواريخ والمراجع. و يكتب بتكليف فى العديد من المجلات الأمريكية الكبرى. وله فى رأى العديد من المتابعين الجادين طريقته الساحرة فى «ذر السم على قالب الحلوى». وهو ذو قدرة هائلة على قلب الحقائق وتحويلها إلى حقائق أخرى. ويفعل ذلك بأناقة وبلا أى انفعال.

نجح الرجل على مدى عام كامل فى تجسيد الإسلام لمن لايعرفونه فى صورة أسامة بن لادن، الذى هو «مطلوب حيا أو ميتا» حسب ملصقات الـ FBI، وشعار جورج بوش، وقمصان التى شيرت.

و برنارد لويس الأب الشرعى لفكرة «صراع الحضارات» التى أثارها صامويل هانتنغتون عام ١٩٩٣، أصدر قبل أشهر كتابًا أصبح من بين الأكثر مبيعًا. أسماه هو «أين الخطأ».. واعتبره البروفسور إدوارد سعيد « كارثة ثقافية وأخلاقية» يرتكبها أكاديمى مدع «يجتر ويكرر أنصاف الحقائق الاستشراقية، أو أقل من نصف الحقائق». ويكتب سعيد قبل شهرين فى مجلة Harper's «أن لويس لا يتوقف عن اجترار جهله ولا عن تغذيته». وأن «المرء لا يسمح حتى لطالب فى السنوات الأولى بأن يكتب بمثل هذه الخفة» الخالية من الإسناد والتوثيق والمراجع.

أما والحال هكذا، فربما كان من الأفضل أن نقرأ للويس إذا كتب عن «الطعام وتاريخه» وتبقى من الرحمة أحيانًا أن يكتب البعضُ عن الطعام بعيدا من السياسة.. والدين..

وجهات نظر

ثورة يوليو: خمسون عامًا



فى ذكرى مرور نصف قرن على قيامها، اختار الأستاذ هيكل هذه المجلة «وجهات نظر» ليكتب سلسلة مقالاته عن الثورة. والتى بدأها قبل خمسة أعداد طارحًا ومحاولاً الإجابة عن أسئلة منها:

*** هل كانت الثورة فى مصر سنة ١٩٥٢ حتمية، أو ضرورية؟**

*** من هو جمال عبد الناصر ـ الرجل فيه قبل الرئيس أو الزعيم أو الأسطورة؟**

*** ما الذى صنعته ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وما الذى عجزت عنه. وما الذى بقى منها ـ أوضاع ـ بعد نصف قرن، وعلى مداخل قرن جديد؟**

وكان أن طلب منا الأستاذ لأسباب يقدرها، ترتبط ـ كما قال لنا ـ «باهتمامات مفترضة للقارئ فى هذه اللحظات الساخنة» ألا تأخذ مقالاته عن «الخلفيات والجذور.. والأجواء التى مهدت» المكان الطبيعى «لمقال هيكل» الذى اعتاده قارئ هذه المجلة.

أما وقد وصلت الحكاية إلى «باب الحدث» تطرقه. لتفتح لنا نافذة على اللحظة الأهم فى تاريخ مصر فى القرن العشرين، فقد كان طبيعيًا فى هذا المناخ الحافل بمحاولات «للتذكر.. وربما للتدبر»، أن تطلب من هيكل أن يعود مقاله إلى مكانه.. وقد كان.

السؤال الأول:

هل كانت الثورة لازمة؟



محمد حسنين هيكل

«٦»

فى انتظار ثورة!

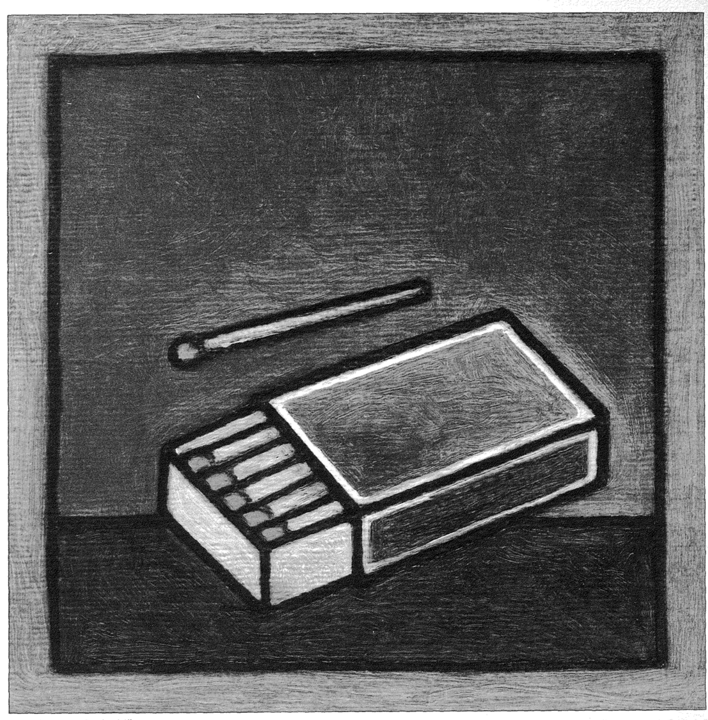
عندما انقضت مواسم الإجازات أواخر صيف سنة ١٩٥١، وبدأ المسافرون إلى أوروبا يرجعون إلى القاهرة بعد غياب أسابيع قضاها بعضهم هناك: (الملك «فاروق» وعروسه «ناريمان» على شواطئ «كابرى» والريفييرا الإيطالية والفرنسية ومنطقة البحيرات ما بين سويسرا وإيطاليا لمدة عشرة أسابيع مثيرة وصاخبة وغالية التكاليف وبمتوسط (١٠٠ ألف جنيه إسترلينى كل يوم فى تقدير السفارة البريطانية فى روما) - و«مصطفى النحاس» (باشا) وقرينته «زينب هانم الوكيل»، وفى رفقتهما «فؤاد سراج الدين» (باشا) معظم الوقت، إلى جانب حاشية قريبة مستعدة للخدمة فور الإشارة، يتقدمها الأستاذ «محمود أبو الفتح» (صاحب جريدة المصرى) - كانت الأحوال فى مصر مختلفة كثيرا عما كانت عليه عندما ركب المسافرون إلى أوروبا بواخرهم قاصدين عبر البحر الأبيض إلى الشمال!

ولم تكن غيبة الصيف فى حد ذاتها كافية لصنع ذلك الاختلاف المحسوس - وإنما الراجح أن تلك الأسابيع كانت فترة تحول «كيفى» لتراكم «كمى» سبقها، وتطورات أُضيفت إليها حتى وقعت لحظة الخلق كما يحدث للجنين فى رحم أمه!

والحاصل أن الأحوال كانت من قبل إجازات الصيف شديدة الوطأة:

● فالطرف المصرى الأول فى معادلة السلطة (وهو القصر) كان فى حالة ضياع أخذته إلى سلسلة من الفضائح تصدعت معها «شرعية العرش»، حتى أن «حسين سرى» (باشا) الذى جاء به الملك إلى رئاسة الديوان - ليكون عازلا أو «مانعة صواعق» بينه وبين الوفد - لم يلبث شهورا فى منصبه حتى وجد نفسه يتلقى أمرا ملكيا بإنهاء مهمته، باعتبار أن الملك لم يعد فى حاجة إلى عازل ولا إلى «مانعة صواعق»، لأن العلاقة بين الطرفين أصبحت «سمنا على عسل». وكان التفسير الذى قدمه «كريم ثابت» (باشا) بتكليف من «فاروق» لحسين سرى (باشا) بما معناه «إن الملك وقد اعتزم أن يتزوج من الآنسة «ناريمان صادق»، يشعر أن وضع «حسين سرى» فى القصر - بوصفه زوج خالة الملكة السابقة «فريدة» - قد يصبح محرجا، وهو من باب الحرص على مشاعره، يعفيه من الإحراج ومن منصبه، حفاظا على أعصابه وكرامته!

وكذلك انطلق «فاروق» فى حياته الخاصة متحررا من كل قيد، إلى درجة أنه وهو فى ذروة سعادته الزوجية للمرة الثانية مع «ناريمان» - تورط فى مشكلة تحرش جنسى مع «فردريكا» ملكة اليونان (زوجة الملك بول) - وكانت «فردريكا» امرأة جميلة وشديدة الجاذبية، ويظهر أن الملك «فاروق» نسى نفسه لحظة كانت فيها ملكة اليونان تزور مصر، وحاول معها بطريقة فجة، إذ إنه عندما قَبَّل خدها كما هى العادة، حاول أن يصل بالقُبْلة إلى شفتيها فأزاحته، وإذا هو يحاول احتضانها، فكان أنها اضطرت للتعامل معه بحزم. وتطورت الفضيحة لأن الملكة «فردريكا» - التى سارعت بمغادرة مصر تحدثت إلى بعض الدبلوماسيين الأمريكيين فى القاهرة، وتسرب الخبر وسُئلَت فيه الملكة نفسها فى حديث مع «ويليام آتوود» وهو من كبار محررى مجلة «لايف» الأمريكية وإذا هى تؤكده - ثم كان أن الحكومة اليونانية رجت الملكة «فردريكا» أن تصدر بيانا يقلل حجم الإساءة إلى ملك مصر، ولم يكن الطلب حرصا على الملك، وإنما - طبقا لبرقية السفارة البريطانية فى أثينا (١٣



للفنان حلمى التونى - زيت على قماش

ديسمبر ١٩٥٠ رقم ١٠٤٥/٥/٥٠) - بسبب مصالح الرعايا اليونانيين فى مصر، الذين توجه وفد منهم إلى سفارة بلادهم فى القاهرة يلحون على تدارك الأزمة بأى شكل، كما أن واحدا من أبرز رجال هذه الجالية وهو المليونير «جورج كوتسيكا» طار على عجل إلى العاصمة اليونانية يشرح للمسئولين هناك خطر غضب ملك مصر على الرعايا اليونانيين فى مملكته.

● ثم إن الطرف الثانى فى معادلة السلطة (وهو حزب الوفد) - كان مشغولا - إلى جانب استرضاء الملك واستباقه إلى تلبية طلباته - بحروبه الأهلية، خصوصا بين مجموعة «فؤاد سراج الدين» (باشا) ومجموعة «نجيب الهلالى» (باشا)، وفى حين أن مجموعة «سراج الدين» استقطبت كبار المُلاك الذين كانوا دائما فى خلفية الحزب وليس فى واجهته - فإن مجموعة «الهلالى» قدمت إلى الواجهة ما أطلق عليه «فؤاد سراج الدين» نفسه وصف حزب الدكاترة: «حامد زكى» - «زكى عبد المتعال» - «أحمد حسين» - «طه حسين».

وأواخر سنة ١٩٥٠ وقع حزب الدكاترة، فقد حاول «زكى عبد المتعال» أن يتصدى لعمليات المضاربة فى بورصة القطن، ثم اضطر إلى وقف المعركة فى منتصف الطريق، فقد تصور فى البداية أن كبار المُضاربين هم أنسباء زعيم الوفد وأصهاره أو وكلاء سكرتير الوفد وأصدقاؤه، وبالتالى فإن التصدى لهم مُباح، لكنه لم يلبث أن اكتشف أن «إلياس أندراوس» (باسم الخاصة الملكية) هو أكبر المضاربين، ومعنى ذلك أن المضى فى الطريق إلى منتهاه مستحيل، وبدأ «زكى عبد المتعال» يتراجع - وكذلك فإن حزب الدكاترة أُصيب بأول صدمة.

وكانت الصدمة الثانية أن الدكتور «حامد زكى» وكان مفروضا أن يكون الأقرب إلى رئيس الوزراء (كوزير دولة للرئاسة) وجد أن «النحاس» (باشا) ليس جاهزا لسماعه، وإنما هو غائب فى عالم خاص به وصفه السير «رالف ستيفنسون» يوم ١٥ يونية ١٩٥١ فى خطاب إلى «هربرت موريسون» وزير الخارجية البريطانية قائلا:

«إن النحاس (باشا) لا يقوم بأى عمل على الإطلاق، ويبدو من كل ما أسمعه أنه يقضى معظم يومه فى الحمام، فقد أُصيب بمرض النظافة، ويُضَيِّع ساعات فى العناية ببدنه، والواقع أن برنامجه كما بلغنى من أقرب الناس إليه أنه منذ استيقاظه وحتى الساعة الحادية عشرة والنصف موجود فى غرفة النوم أو فى الحمام، وقُرب الثانية عشرة ظهرا يخرج ليجرى مقابلة أو مقابلتين أو يقرأ بنفسه - أو يسمع ورقة أو ورقتين تُتْلى عليه، ثم يعود إلى جناحه يختفى فيه من الساعة الثانية بعد الظهر حتى الساعة السابعة مساءً، حين يظهر فى صالون بيته ويتناول عشاءه ثم يأوى إلى فراشه فى الساعة التاسعة».

ويضيف السير «رالف ستيفنسون» بعد ذلك: «لقد جاءنى أحد أصدقاء أسرته وهو «توفيق مفرج» (رجل أعمال ثرى من أصل لبنانى)، وخلال حديثه معى وجدته حريصا أن يفضى إلىَّ بأن «النحاس» (باشا) أبلغه بأنه لم يعد يهمه أن تخرج القوات البريطانية من مصر. ويضيف «مفرج» «إن ذلك هو أيضا رأى «زينب هانم» »!

ثم يتزيد ذلك «الصديق المُقَرَّب من الأسرة» فيقول للسفير البريطانى «إن قرينة «النحاس» (باشا) لم يعد لها شاغل غير زيادة ثروتها، وهى فى ذلك تعتمد على نفوذها الطاغى مع زوجها».

وكذلك وجد الدكتور «حامد

زكى» أنه لا يملك وسيلة إلى مجلس «النحاس» (باشا) أو إلى أذنه ـ وضاع واحد آخر من حزب الدكاترة.

والواقع أن نجما من حزب الدكاترة لم يلحقه غيره ـ وجد طريقه إلى إنجاز مهم فى التعليم، معتمدا على قوة شخصيته وعلى شهرته الأدبية والأكاديمية، وكان ذلك هو الدكتور «طه حسين».



ولم يكن حزب الدكاترة وحده هو الذى تعثر على الطريق، وإنما فقد «فؤاد سراج الدين» نفسه، الكثير. ذلك أن صراعه مع حزب الدكاترة ـ ولو أنه انتهى بفوزه ـ استنزف جزءًا من وقته، ثم إن جزءًا آخر من هذا الوقت ضاع استثمارا غير مأمون فى توثيق علاقة وزير الداخلية مع القصر ـ ولعل ذلك الاستثمار الذى وضعه «فؤاد سراج الدين» (باشا) على القصر جاءه بمردود عكسى، لأن «فؤاد سراج الدين» (باشا) كان هو الذى تصدى للدفاع عن تصرفات القصر ضد منتقديه، وبينهم فى ذلك الوقت بعض أحزاب المعارضة التى تقدمت إليه بعريضة عن سوء الأحوال فى مصر، وجدها القصر متجاوزة للحدود، خصوصا عندما نوقشت طلبات الاعتمادات الخاصة بالقصر (وضمنها تكاليف تجديد اليخت الملكى «المحروسة»).

وفى هذا الصدد تورط «فؤاد سراج الدين» حين أخذ على نفسه أن يقود الحملة الملكية المُضادة على المعارضة، وبهذه الحملة فإن مكانة المجلس التشريعى الأكبر مقاما فى مصر (وهو مجلس الشيوخ) ـ نزلت إلى الحضيض!

[وطبقا لتقرير كتبه السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون» (رقم ٤٦/١٠١٦) فإن تلك المهزلة بدأت سنة ١٩٤١، حين قامت وزارة «حسين سرى» (باشا)، فى غيبة حزب الوفد ـ أيام الغارات الألمانية والإيطالية على مصر والتجاء قيادة الحزب إلى قصور ومزارع شمال الدلتا ـ بتعيين ٢٩ عضوا فى مجلس الشيوخ، وكان ذلك التعيين قد جرى بمقتضى الدستور الذى يجعل نسبة الخُمْسين من أعضاء المجلس معينين بمرسوم ملكى ـ مقابل ثلاثة أخماس بالاقتراع العام ـ ومع ملاحظة أن الأعضاء المُعينين على أساس نسبة الخُمسين تتجدد عضويتهم كل خمس سنوات، وأن هذه النسبة فى المجلس تمثل ٥٩ مقعدا ـ فمعنى ذلك أنه كل خمس سنوات يكون التجديد أو التغيير شاملا لـ ٢٩ مقعدا فى المجلس.

ويستطرد تقرير السفير البريطانى:

● عندما جاءت وزارة «النحاس» (باشا) سنة ١٩٤٢ نتيجة لإنذار بريطانى، فإن الوزارة الوفدية اعتبرت أن التعيينات التى صدرت فى عهد «سرى» (باشا) وفى غيبة الوفد ودون تمثيله ـ ليست دستورية، ولذلك ألغت المرسوم القديم واستصدرت مرسوما بتعيين ٢٩ عضوا فى مجلس الشيوخ راعت أن يكون بينهم ثلاثة عشر وفديا!

● ثم حدث أن وزارة «النحاس» (باشا) أُقيلت فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ وجاءت بدلا منها وزارة «أحمد ماهر» (باشا) وسارعت هذه الوزارة فى ١٦ يناير ١٩٤٥ وأسقطت عضوية الأعضاء الذين اختارتهم وزارة «النحاس» (باشا) سنة ١٩٤٢، واستصدرت مرسوما بتعيين ٢٩ عضوا بدلهم!

وفى ظل هذا التركيب جرى انتخاب الدكتور «محمد حسين هيكل» (باشا) رئيس الأحرار الدستوريين رئيسا لمجلس الشيوخ.

● وعندما عادت إلى الحكم وزارة وفدية برئاسة «النحاس» (باشا) بعد الانتخابات التى أجرتها وزارة «حسين سرى» (باشا) سنة ١٩٥٠، فإن الوزارة الوفدية لم تبادر إلى إسقاط عضوية أعضاء مجلس الشيوخ التسعة والعشرين الذين اختارتهم وزارة «أحمد ماهر» (باشا)، وإنما انتظرت حتى تحصل على موافقة ملكية، خصوصا أنها شعرت بعدم ارتياح الملك لنتائج الانتخابات النيابية التى جاءت بحكومة وفدية ما لبثت أن أكدت له ولاءها. وعندما اطمأن لها، وغضب على خصومها الذين أصبحوا من مُعارضيه هو أيضا ـ فإن الفرصة أصبحت متاحة لمواصلة الطرد والتعيين.

وجاءت اللحظة المناسبة عندما طرح الأستاذ «مصطفى مرعى» استجوابه الشهير أمام مجلس الشيوخ عن تجديد اليخت الملكى «المحروسة» فى إيطاليا بتلك التكاليف الباهظة، وأحس «فؤاد سراج الدين» أن المعارضة دخلت إلى الفخ المنصوب لها، خصوصا عندما طلب إلى رئيس المجلس الدكتور «هيكل» أن يوقف «مصطفى مرعى» عند حده، ولا يسمح له بالخوض فى أمور تتصل بالقصر وتهمه. وعندما لاحظ «فؤاد سراج الدين» (باشا) أن «هيكل» (باشا) لا يستجيب له ـ وَجَّهَ إليه تلك الصيحة التى اشتهرت فى التاريخ السياسى المصرى والتى قال فيها: «إننى أستطيع أن أرى الكرسى (كرسى رئاسة مجلس الشيوخ) يهتز من تحتك».

● وكذلك كان ففى ظرف أيام استصدرت الوزارة مرسوما ملكيا بإسقاط عضوية ٢٩ شيخا عينتهم وزارة «أحمد ماهر» (باشا) سنة ١٩٤٥، بحجة أن تعيينهم (للمرة الثالثة) لم يكن دستوريا ـ وبالطبع فإنها استصدرت مرسوما بتعيين ٢٩ عضوا بدلا منهم.

وكان بين الذين سقطت عنهم العضوية الأستاذ «مصطفى مرعى» (صاحب الاستجواب الشهير) ـ و«أحمد لطفى السيد» (باشا) (المعلم الأول فى مصر الحديثة وأبو الجامعة المصرية) ـ و«إبراهيم عبد الهادى» (رئيس حزب السعديين) ـ و«حسين فهمى» (وزير المالية فى وزارة «حسين سرى») ـ و«فؤاد نجيب إسكندر» (باشا) (وزير الصحة) فى وزارة «إبراهيم عبد الهادى».

ولأن رئيس المجلس لم يكن ضمن الأعضاء التسعة والعشرين الذين تسقط عضويتهم بالجملة بسبب سقوط مرسوم تعيينهم، فإن الوزارة استصدرت مرسوما بتعيين «زكى العرابى» (باشا) رئيسا للمجلس بدلا من «هيكل» (باشا).

وكان بين الشيوخ الذين شملهم مرسوم التعيين الجديد فى عضوية مجلس الشيوخ: «إلياس أندراوس» (باشا) (المستشار المالى للملك «فاروق») ـ و«أحمد عبود» (باشا) (المليونير المصرى الذى تولى هندسة عودة الوفد إلى السلطة) ـ و«محمد أحمد فرغلى» (باشا) (سمسار القطن المشهور الذى تردد اسمه أخيرا فى عمليات المضاربة على القطن) ـ و«محمود أبو الفتح» (صاحب جريدة المصرى الذى أصبح من كبار رجال الأعمال تاركا جريدته لشقيقه الأستاذ «حسين أبو الفتح» ـ الذى تركها بدوره لأخ أصغر منه، حتى يتفرغ هو لإدارة نشاطاته المالية).

ويروى السفير البريطانى السير «رالف ستيفنسون» فى تقريره «إنه على يقين من أن ذلك الانقلاب الجديد فى مجلس الشيوخ جرى بالتفاهم بين «فؤاد سراج الدين» (باشا) ممثل الوفد وبين «كريم ثابت» (باشا) ممثل القصر».



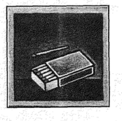
كانت تلك ـ وغيرها ـ لمحات من مجمل الأحوال قبل إجازات صيف سنة ١٩٥١ ـ وكان لابد لكل من يتابع الشأن المصرى أن يدرك أن هذا الذى يجرى فى مصر له كما هى الحياة دائما: ظواهر وبواطن. وإذا كانت تلك هى الظواهر ـ إذن فلابد أن البواطن تعيش حالة «تَخَمُّر» مؤدية بالضرورة إلى تحولات بعيدة الأثر.

ثم زاد على تفاعلات عملية «التَخَمُّر» أن الحالة المصرية دخلت إلى فراغ أو تفريغ مزعج، لأن هذا الذى يجرى فى مصر ذلك الوقت ـ أواخر سنة ١٩٥٠ ومنتصف سنة ١٩٥١ ـ كان له معنى واحد، مجمله أن الطرفين الرئيسيين فى معادلة السلطة داخل مصر منذ ثورة ١٩١٩ وحتى تلك اللحظة ـ وهما القصر رمز الشرعية والوفد ممثل الأغلبية ـ كلاهما ضَيَّع دوره المحورى فى توجيه الشأن المصرى.

والواقع أنه عندما استسلم الوفد دون قيد ولا شرط للملك «فاروق» كى يظل فى السلطة، وحين استسلم الملك «فاروق» دون قيد ولا شرط لأهوائه مطمئنا إلى أن حزب الأغلبية مربوط بطاعته ـ كانت النتيجة انكشافا سياسيا، لأن المؤسستين المصريتين فى ثلاثية السلطة انكفأت كل منهما وتراجعت، وهو ما صنع فراغا موحشا فى قلب الحياة السياسية المصرية.

وبما أن قوانين الطبيعة تعتبر «الفراغ» فى الحياة حالة مستحيلة، فقد حدث فى السياسة المصرية ما يحدث فى طبائع الأشياء، ومؤداه أنه حين يطرأ الفراغ على منطقة، فإن المحيط الأقرب إليها يندفع نحوها بكل حمولاته وعوالقه لكى يملأ ويغطى. أى أن المحيط يتسرب وينفذ، وأن الأطراف تزحف نحو القلب، وأن الهوامش بكل ما فيها تحل محل المتن الذى فك تماسكه وضاع معناه، وذلك بالضبط ما جرى على الساحة المصرية ذلك الصيف ـ سنة ١٩٥١.

وكان المحيط والأطراف والهوامش حول



عندما استسلم الوفد دون قيد ولا شرط للملك «فاروق» كى يظل فى السلطة، وحين استسلم الملك «فاروق» دون قيد ولا شرط لأهوائه مطمئنا إلى أن حزب الأغلبية مربوط بطاعته. كانت النتيجة انكشافا سياسيا، لأن المؤسستين المصريتين فى ثلاثية السلطة انكفأت كل منهما وتراجعت، وهو ما صنع فراغا موحشا فى قلب الحياة السياسية المصرية

قلب السياسة المصرية - حيث كان القصر والوفد من قبل - مناخا مشحونا بعناصر متناقضة: فيها بقايا من جماعة الإخوان المسلمين الغاضبة مما حل بها فى السنوات الأخيرة - وفيها فرق من الشيوعيين ضمت أخلاطا من المصريين والأجانب يظهر بينهم تأثير يهودى ملحوظ - وفيها بقايا من شرائح انبهرت بالفاشية والنازية قبل الحرب وهى الآن مفتوحة على تأثيرات أخرى من كل ناحية تبحث لنفسها عن دور. إلى جانب جماعات بدت رافضة لكل شىء، وهذه الجماعات تظهر فى كل موقع حتى فى حزب السلطة نفسه، الذى برز من داخله جناح معارض أطلق على نفسه وصف «الطليعة الوفدية»، وتزعمه الدكتور «عزيز فهمى» (الابن الأكبر لأحد أقطاب الوفد ورؤساء مجالسه النيابية باستمرار وهو «عبد السلام فهمى جمعة» (باشا) - والحقيقة أن الطلائع الرافضة لكل شىء لم تقتصر على حزب السلطة وحده، وإنما تكاثر وجودها فى كل محفل سياسى، ولمع فيها نجوم من أمثال «مصطفى مرعى» (بك) (وهو فى الأصل رجل قضاء) تمرد على النظام وخرج منه، ومن أمثال «محمد خطاب» (بك) (وهو فى الأصل سكرتير عام مجلس النواب) وقد خرج بدعوة إصلاحية لها صوت مسموع. ومن مفكرين ومثقفين من أمثال الأستاذين «سلامة موسى» و«مريت غالى» والأول منهما ساخط يرى بضرورة الثورة، والثانى منضبط يدعو إلى تطور لم يعد يحتمل الانتظار.

وهكذا كان الصيف فى مصر يزداد سخونة، بينما إجازات أوروبا سواء للهو أو الاستشفاء تعيش عوالمها وتغرق فيها!

١ / رجل يعمل وحده من بعيد!

طرأ على تلك الأجواء الساخنة والمضطربة عنصر آخر فرض نفسه على كافة القوى الموجودة من الأصل على الساحة أو المستدعاة إليها بالفراغ - ذلك أن وزير الخارجية الدكتور «محمد صلاح الدين» الذى كان يمارس دوره منفردا وبتفويض أصلى من «مصطفى النحاس» (باشا) - وضع كل الأطراف أمام طريق مسدود - لا مفر من كسره إذا كان لابد من اجتيازه!

كان الدكتور «محمد صلاح الدين» رجلا متحمسا بوطنيته وصلبا فى اعتقاده بمقتضيات مسئوليته، وقد كان عليه أن يفتح ملفات التفاوض مع الإنجليز لتعديل معاهدة سنة ١٩٣٦، وفى الواقع فإن هذه الملفات كانت مفتوحة بالفعل منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية (١٩٤٥) - فقد كان «محمود فهمى النقراشى» (باشا) سبق وتفاوض وفشل - ولحقه «إسماعيل صدقى» (باشا) ووصل إلى مشروع اتفاق وسقط المشروع أمام معارضة شعبية قوية - ثم عاد «النقراشى» (باشا) إلى الوزارة مرة ثانية وحَمَل القضية المصرية إلى مجلس الأمن، وانتهى المجلس إلى دعوة الطرفين لاستئناف التفاوض مرة أخرى (١٩٤٧) - ثم جاءت حرب فلسطين ١٩٤٨ فحولت الانتباه وشغلت، لكن هذه الحرب نفسها طرحت بشدة موضوع العلاقات مع بريطانيا والأولوية المطلقة لقضية استقلال مصر، وضرورة خلاصها من الاحتلال البريطانى لمصر، الذى استمر أكثر من سبعين عاما، وتركز الآن كله فى منطقة قناة السويس.

....

[وفى لقاء بين الدكتور «محمد صلاح الدين» وبينى فى تونس سنة ١٩٨٢، قال لى الدكتور «محمد صلاح الدين» بنفسه: «إنه كان يشعر أن عمله فى وزارة الوفد الأخيرة، نوع من مهمة إنقاذ وطنى».

فقد رأى و«حزن» لما حل بالنحاس (باشا) (دون أن يدخل فى تفاصيل). ورأى و«تألم» لهذه الحروب الأهلية التى احتدمت فى قلب الحزب. ورأى و«استبد به الخوف» على ما يمكن أن يصل إليه الشأن المصرى فى الأوضاع السائدة.

وكان حلمه إذا نجح فى مهمته واستطاع إخراج القضية الوطنية من المأزق الذى وصلت إليه - أنه يستطيع تحقيق هدفين:

- أولهما: إعطاء «النحاس» (باشا) وحزب الوفد، حلقة للنجاة فى «بحر عاصف».

- والهدف الثانى: استعادة روح الشعب وثقته فى نفسه.

وقد فتح باب التفاوض مع الإنجليز بكل موضوعية وجدية، لكنه ما لبث أن اكتشف أن الإنجليز لم يتركوا له فرصة، بل تراجعوا حتى مشروع «صدقى - بيفن» الذى سبق رفضه - شعبيا - سنة ١٩٤٦].

....

....

كان الدكتور «محمد صلاح الدين» يركز جهده على «قضية الجلاء»، وكان تقديره أن «وعد الجلاء»، وهو حلم الوطنية المصرية الدائم كفيل إذا تحقق بصنع المعجزة. ومع أن قضية السودان راحت تذكره بنفسها، فقد كان تقديره «إنه لا يُعقل فى أجواء عالمية وبعد ميثاق الأمم المتحدة أن يكون هناك حل لمستقبل السودان غير طرح خيار الحق فى تقرير المصير». فإذا كان ذلك فليس هناك شك أن أغلبية سودانية سوف تختار الاستقلال. وكان «صلاح الدين» فوق ذلك يعرف أن «النحاس» (باشا) بتجربة مفاوضاته الطويلة مع الإنجليز خصوصا سنة ١٩٣٠، ثم سنة ١٩٣٦ - أصبح ميالا إلى منطق أن مسألة السودان لا يصح أن تعطل كل شىء، بل إن تفويض «النحاس» (باشا) له عندما اختاره وزيرا للخارجية (١٩٥٠) كان بأهمية التركيز على قضية الجلاء، وأما السودان فكان الرأى أنه مشكلة عويصة، «لأن الإنجليز سبقونا ورتبوا كل شىء لصالحهم هناك». وفى حقيقة الأمر فإن الطلب المصرى بعد الحرب العالمية الثانية فى شأن السودان اقتصر على نقطة واحدة - هى أن يظل السودان تحت «التاج المصرى» (على طريقة الكومنولث البريطانى). وفى هذه المسألة كانت خطة الدكتور «محمد صلاح الدين» أن يحاول الوصول إلى أقصى مدى متاح، ولكن المطلب الذى لابد أن يتحقق كاملا هو «الجلاء الكامل».

على أن استقراء الواقع المصرى والإقليمى والدولى وقتها يكشف أن محاولة الدكتور «محمد صلاح الدين» كانت فى نطاق المستحيل لأسباب عديدة:

● أولها: أن الإنجليز - أو أى طرف دولى آخر - لا يستطيع أن يتنازل عن امتياز استراتيجى لديه إلا إذا كان واثقا أنه:

- إما غير قادر على مقاومة المطالبين بإزاحته عن موقع امتيازه، وبالتالى فمن الأفضل له أن يتفق.

- وإما أنه سوف يحصل فى المقابل على تعويض مناسب يحفظ له جوهر الامتياز الاستراتيجى، حتى وإن قبل التغيير فى شكله.

ولم يكن كلا الاعتبارين واردا فى مفاوضات الدكتور «محمد صلاح الدين»، وكان يجريها - أساسا - مع السفير البريطانى فى القاهرة السير «رالف ستيفنسون» (وذلك فى حد ذاته يكفى لقياس درجة الاهتمام البريطانى بهذه المفاوضات).

د. محمد صلاح الدين

كان الدكتور «محمد صلاح الدين» يركز جهده على «قضية الجلاء»، وكان تقديره أن «وعد الجلاء» وهو حلم الوطنية المصرية الدائم كفيل إذا تحقق بصنع المعجزة. وإنه لا يُعقل فى أجواء عالمية وبعد ميثاق الأمم المتحدة أن يكون هناك حل لمستقبل السودان غير طرح خيار الحق فى تقرير المصير

● وثانيها: أن الإنجليز - وذلك درس التعامل معهم دائما - لا يتفاوضون بجد إلا مع جبهات وطنية تمثل كافة القوى فى البلدان التى يتفاوضون معها. وتلك تجربتهم بالذات فى مصر. فهم لم يتفاوضوا ويصلوا إلى توقيع معاهدة (١٩٣٦) إلا مع جبهة وطنية مصرية يقودها حزب الأغلبية، وكان رئيس هذا الحزب «مصطفى النحاس» (باشا) هو الذى وَقَّع المعاهدة مع وزير الخارجية البريطانية «أنتونى إيدن»!

وفى ظروف سنة ١٩٥١ فإن احتمال قيام جبهة وطنية لم يكن واردا، فضلا عن أن حزب الأغلبية نفسه كان مغلوبا بظروفه، ثم إن مجمل الأحوال فى مصر كان يتردى بسرعة تنبئ بأن أى اتفاق يمكن التوصل إليه - محكوم عليه مقدما بسبب تيارات متعارضة راحت تتدافع فى الواقع السياسى المصرى، وفيها جميعا ما يدعو الحكومة البريطانية إلى التمهل والانتظار وعدم المجازفة مبكرا بحرق أوراق لم يجىء بعد أوان المساومة الجدية حولها.

● وثالثها: أن الحكومة البريطانية كانت تواجه فى الشرق الأوسط تحديات عنيفة أبرزها على وجه التحديد فى إيران، حيث ظهر زعيم وطنى قوى الشكيمة هو الدكتور «محمد مصدق» الذى تمكن بالفعل من محاصرة امتيازات النفط البريطانية فى إيران، ثم استولى على منشآتها الكبرى فى «عبدان»، ومعنى ذلك أن بريطانيا كانت داخلة عند منطقة الخليج فى تحديات لا تستطيع معها أن تقبل بتنازلات عند منطقة السويس.

وكانت مشكلة الدكتور «محمد صلاح الدين» هى ظنه أنه يستطيع استعمال ما يجرى عند مواقع النفط فى إيران لتشديد الضغط على الحكومة البريطانية عند قواعد القوة العسكرية فى السويس - ببساطة لأن الإمبراطوريات لا تتعامل فى العادة بهذا المنطق، خصوصا فى أحوال ضعفها، لأن الضعف فى حد ذاته أكبر محرض على العنف - يدارى أو يعوض!

● ورابعها: أن الإمبراطورية البريطانية كانت فى ذلك الوقت تواجه ضغوطا أمريكية - إمبراطورية تطلب وراثتها فى حياتها. وحدث فعلا أن الدكتور «محمد صلاح الدين» تصور أنه يستطيع الاستعانة بالأحلام الأمريكية الإمبراطورية، وذلك بتشجيع الولايات المتحدة أن تلعب دورا فى

فى انتظار ثورة!

المفاوضات مع مصر، كما بدأت تلعب دورا فى المفاوضات مع إيران (حتى مع الدكتور «محمد مصدق» نفسه). ووقع فعلا أثناء مفاوضات الدكتور «محمد صلاح الدين» مع السير «رالف ستيفنسون» أن السفير البريطانى أشار إلى أن منطقة قناة السويس لا يمكن تركها فراغا أمنيا، وأنه إذا كان على القوات البريطانية أن تجلو، فإن نظاما للدفاع المشترك لابد أن يحل محلها. وكذلك فوجئ الدكتور «محمد صلاح الدين» بأن الولايات المتحدة - التى كان يطلب مساعيها الحميدة فى إقناع بريطانيا بالجلاء عن مصر - هى التى جاءت تعرض عليه معاهدة للدفاع المشترك على أساس حلف إقليمى يضم باكستان وتركيا (وفى مرحلة لاحقة - إسرائيل). وكان السيد «نورى السعيد» رئيس وزراء العراق (فى كل أزمة) قد وصل إلى مصر يحاول إقناع «النحاس» (باشا) بالفكرة، ويحاول أيضا مع الملك «فاروق».

لكن الدكتور «محمد صلاح الدين» الذى رأى الحكومة البريطانية تأخذ منه «الكارت الأمريكى» على حد وصفه، لم يتردد فى رفض مشروع الدفاع المشترك.

(وكان ذلك أول دخول أمريكى ظاهر وعلنى على حلبة السياسة المصرية).

ومن المفارقات أن الملك «فاروق» بعد عودته من إجازة ذلك الصيف الساخن سنة ١٩٥١ - سأل السفير الأمريكى الجديد فى القاهرة «جيفرسون كافرى» كما سأل كثيرين غيره - قبله وبعده:

«ما رأيك فى الدكتور «مصدق» الموجود عندى My Mossadaq، ولم يفهم «كافرى»، وأوضح له الملك «فاروق»: «إنه يتحدث عن الدكتور «محمد صلاح الدين» (يعتبره مصدق المصرى)!

وكذلك كانت خطوط وظلال الصورة التى وجدها العائدون بعد موسم الصيف: كم من المشاكل - يتحول إلى كيف من الأزمات!

وفى واحد من أوائل تقاريره من القاهرة كتب السفير الأمريكى الجديد «جيفرسون كافرى» وهو رجل جاءت به الخارجية الأمريكية من منصب سفيرها فى «باريس» إلى منصب سفيرها فى القاهرة، تحسبا واستعدادا لشرق أوسط تزداد أهميته وترتفع درجة حرارته، قائلا لوزير الخارجية الأمريكية العتيد «دين أتشيسون»:

«ليست فى القاهرة ثورة، وإنما هناك حالة ثورية A State of Revolution». ■

٣ / البحث عن فرص وسط الفراغ!

■■ فى تلك الأوقات كتب القلم المخصوص (البوليس السياسى) تقريرا «سريا للغاية»، رسم فيه ما يمكن اعتباره خريطة لمصادر التهديد على الأمن الداخلى فى مصر، ومن الملحوظ أن نسخة من هذا التقرير ظهرت فى أوراق «حسن يوسف» (باشا) وكيل الديوان، وذلك شىء يمكن فهمه، لكن الذى يصعب فهمه هو أن السفارة البريطانية حصلت على نسخة منه، وصنفته هى الأخرى بوصف «سرى جدا» - وسجلته فى الوثائق البريطانية (تحت رقم ١٦٧ / ١٠١٩) وهو يبدأ بعرض:

إن مشكلة الأمن الداخلى يمكن بحثها تحت خمسة عناوين رئيسية:

١ - الشيوعيون - ٢ - المعارضة - ٣ - الإخوان المسلمين - ٤ - العناصر الإرهابية والمتطرفون - ٥ - أهمية استمرار الأحكام العرفية.

ثم يستطرد التقرير يقول «سوف نحاول هنا أن نناقش كل عنوان من هذه العناوين على حدة وبطريقة مفصلة:

● أولا الشيوعيون: أثبتت الأحكام العُرفية رغم طبيعتها المؤقتة أنها عنصر نافع وضرورى فى مواجهة الشيوعيين، لأنهم يملكون قدرا كبيرا من المرونة يمكنهم من تجديد تنظيماتهم وتوسيع دائرة نشاطهم باستمرار.

وينقسم الشيوعيون فى مصر إلى ثلاث طوائف، ويمارسون عملهم فى ثلاثة مجالات:

(أ) هناك نشاط شيوعى بين المصريين.

(ب) وهناك نشاط شيوعى بين الأجانب.

(جـ) وهناك نشاط شيوعى مُوَجَّه من خارج مصر.

(أ) وبالنسبة للنشاط الشيوعى بين المصريين - فإنه لم يتوقف رغم الأحكام العُرفية، ورغم الاعتقالات التى طالت أعدادا كبيرة من الشيوعيين، ذلك أنهم وهم فى السجن لا يضيعون وقتهم، وإنما ينهمك قادتهم فى تنظيم الخلايا خصوصا بين الطلاب، ويبذلون جهدا تعليميا كبيرا لجعل أتباعهم أكثر التزاما بالعقائد الشيوعية، بحيث يتحولون إلى عناصر قيادية عندما يخرجون من السجن، ومعنى هذا أنهم فى السجن يعمقون نشاطهم ويكثفونه وهم خارج السجن يوسعونه وينشرونه. ومن متابعتنا للنشاط الشيوعى نلاحظ أن وجودهم خارج السجن هو العنصر الأهم فى جعل كتل من الناس تحس بوجودهم عن طريق تأسيس الجمعيات، وطبع المنشورات، والتحريض والدعوة، ولا نبالغ إذا قُلنا أن التحريات تؤكد أن عدد الشيوعيين الآن تضاعف، ففى حين كان عددهم قبل سنتين يُعد بالمئات، فإن عددهم الآن بالألوف. وحتى وقت قريب كان النشاط الشيوعى فى مصر تحريضيا، ولكن تحرياتنا فى الشهور الأخيرة تبين أنهم انتقلوا من التحريض إلى التخطيط، وأنهم الآن يقومون بوضع برامج للعمل تستطيع أن تمارس أعمال الكوماندوز وحرب العصابات.

والواقع أن هذا التحول الذى ينزع إلى العمل المباشر بعد عشر سنوات اقتصر النشاط فيها على التنظير، يشير إلى استعداد الشيوعيين - بتوجيه من الخارج للقيام بعمليات تحريض لجماهير واسعة، خصوصا بين الطلبة والعُمال.

ولاحظنا أن المنشورات الشيوعية التى صدرت أخيرا، تحتوى على هجوم ضد الوفد بعد هُدْنة معه سببها أن بعض القيادات الشيوعية تصورت أن الجناح اليسارى فيه (الطليعة الوفدية) فى مقدوره أن يشد الوفد إلى اليسار، لكن منشورات الشيوعيين الآن لا تؤيد الوفد، وفى اجتماعاتهم فإنهم يقرون أن العناصر اليمينية فى الحزب أصبحت لها الغلبة.

(ب) النشاط الشيوعى بين الأجانب: هذا العنصر فى العمل الشيوعى هو أخطر العناصر فى الوقت الحالى، فمن المعروف أن هناك جاليات أجنبية كثيرة تقيم فى مصر، وأبناء هذه الجاليات من الشباب اعتنقوا الشيوعية وأنشأوا بغرض الدعوة إليها نوادى ومؤسسات قوية، وأنشط العناصر بينهم وأكثرها خطرا هم الجاليات الأرمنية والفرنسية واليونانية.

هناك أيضا جاليات سُلافية من أوروبا الشرقية، ولكن هؤلاء يحصرون معظم نشاطهم فى العمل لحساب قنصليات أوروبا الشرقية المُوالية للاتحاد السوفيتى، وفى بعض المرات فإنهم يعملون لحساب الاتحاد السوفيتى نفسه وعن طريق قنصلياته مباشرة. وقد رصدنا عن طريق رقابة البريد رسائل تحمل تفصيلات دقيقة عن خطط التغلغل الشيوعى فى أوساط الجامعات المصرية والصحافة والجماعات الثقافية والعلمية، واحتوت بعض الرسائل على قوائم طويلة بأسماء من يمكن الاتصال بهم فى مصر، بحيث ترسل إليهم المنشورات والمطبوعات وكُتب الدعاية - مباشرة، وقد تمكنا من اختراق عدد من الشبكات جعلتنا على علم بتحركات واتجاهات هذا النوع من النشاط، بحيث نستطيع متابعته وتعقُّبَه.

(جـ) الجزء السابق من التقرير يغطى البند جـ، وهو البند الخاص بالنشاط الشيوعى المُوَجَّه من الخارج.

٢ - أحزاب المعارضة: أحزاب المعارضة الرسمية (السعديين والأحرار الدستوريين والكتلة) لا قيمة لها، فهى عاجزة عن تنظيم صفوفها وغير قادرة على برنامج موحد ينظم عملها، وبعض الأحزاب الثانوية وضمنها الحزب الوطنى تحاول البحث عن تحالفات مع الإخوان المسلمين وغيرهم بقصد «التهييج فى التركيز على إثارة المطالب الوطنية».

ويصل تقرير القلم المخصوص (البوليس السياسى) إلى مصدر التهديد الثالث فيقول:

فوجئ الدكتور «محمد صلاح الدين» بأن الولايات المتحدة - التى كان يطلب مساعيها الحميدة فى إقناع بريطانيا بالجلاء عن مصر - هى التى جاءت تعرض عليه معاهدة للدفاع المشترك على أساس حلف إقليمى يضم باكستان وتركيا (وفى مرحلة لاحقة - إسرائيل)

٣ـ الإخوان المسلمين:

إن الإخوان المسلمين استأنفوا نشاطهم فور وقف العمل بقانون الأحكام العُرفية ـ فترة إجراء الانتخابات الأخيرة، متصورين أنهم يستطيعون الحصول فى زحمة الحوادث على عدد من مقاعد مجلس النواب، وعندما فشلوا فى تحقيق هذا الغرض أدركوا أن المهمة الرئيسية بالنسبة لهم هى إعادة تنظيم أنفسهم من الأساس بعد الضربات القوية التى تلقوها على يد الوزارات السابقة. لكن الإخوان لديهم فى هذه اللحظة مشكلتان رئيسيتان:

(أ) المشكلة الأولى: هى اختيار مرشد عام يحل محل الشيخ «حسن البنا» وكان المرشحون لهذا المنصب تصارعوا فيما بينهم وأولهم «صالح عشماوى»، والثانى «أحمد حسن الباقورى»، والثالث «مصطفى مؤمن»، والأخير وراءه تأييد كبير من العناصر المتشددة فى الإخوان، رغم أن قسما كبيرا من تنظيم الطلبة فى الإخوان يؤيد ترشيح «عبد العزيز كامل» وهو مدرس فى معهد شبين الكوم.

(ولم يكن الأمن فى هذا السياق على علم كامل بما يجرى داخل الجماعة، ذلك أن الفِرَق المختلفة داخل الجماعات كانت قد تراضت فيما بينها ـ دفعا للفتنة واتقاءً للشر ـ على اختيار مرشح «محايد» يستطيع أن يجنب الأقوياء فى الجماعة مهاوى الشقاق ويعطيها فى نفس اللحظة واجهة محترمة تيسر لها استعادة مشروعية نشاطها بعد كل ما تورطت فيه فِرَقها الجامحة وتعرضت له من ضربات شديدة، وهنا كان التراضى على اختيار المستشار «حسن الهضيبى» ليكون المرشد العام الثانى للإخوان، وعلى ضرورة كتمان اسمه حتى تتكشف الأحوال من ناحية، وتتوفر له بيعة فروع الإخوان وتنظيماتهم فى مصر وخارجها ـ من ناحية أخرى).

ويستطرد تقرير القلم المخصوص (البوليس السياسى):

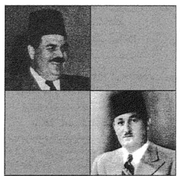
(ب) والمشكلة الثانية أمام تنظيم الإخوان هى قلة مواردهم المالية بعد مصادرة ما كان لديهم من عقارات وموجودات وأرصدة، عندما صدر قرار حل الجماعة، والمسئولون عن عملية تمويل جماعة الإخوان المسلمين الآن هم «منير الدله» و«الباقورى» وتأمل الجماعة أن تجد موارد للتمويل علنية وسرية تمكنها من إعادة إحياء التنظيم الخاص المسلح التابع لها، وهنا فإنه من المهم جدا تشديد الرقابة على الإخوان حتى لا تفاجأ السلطات بعودة الجماعة إلى العنف المسلح فى أى وقت من الأوقات.

٤ـ العناصر الإرهابية والمتطرفة:

هناك الآن فى مجال التحريض السياسى عدد كبير من الشباب التابعين للحزب الوطنى ومن المتطوعين العائدين من فلسطين، يتصورون أن مشاكل البلاد لا يمكن حلها إلا بالخلاص من الساسة القُدامى ولو بالاغتيال، ومعظمهم يعتقد أن الوسائل الدستورية للتعبير ميئوس منها (وهنا أورد التقرير قائمة بأسماء شباب يظن القلم المخصوص أنهم جاهزون للعمل الإرهابى).



بعد هذا التقرير التوصيفى يجىء تقرير ثانٍ عملى يتحدث عن تحالف بين قوى عديدة معارضة يطلق على نفسه وصف اللجنة العُليا للكفاح الشعبى، ويمهد ذلك التقرير الجديد ـ (ومثل التقرير السابق فقد ظهرت نسخة منه فى الديوان الملكى ونسخة أخرى فى الملفات البريطانية) ـ فى مقدمته بملاحظة مهمة تقول «كما هى العادة فإن الذين يريدون أن ينشطوا سياسيا على الساحة مرة واحدة يحاولون الابتعاد قدر ما يمكن عن العاصمة، وتفكيرهم أن قبضة الحكومة فى العاصمة قوية، وبالتالى فإن العمل أسهل عليهم من خارج العاصمة»، وذلك ما فعلته اللجنة العليا للكفاح الشعبى. فقد عقدت بسرعة مؤتمرا عاما فى الإسكندرية تبنت فيه هدف الكفاح المسلح ضد الإنجليز بعد أن تبين فشل المفاوضات المصرية ـ البريطانية التى يقوم عليها وزير الخارجية الدكتور «محمد صلاح الدين».



فؤاد سراج الدين

عبدالعزيز البدراوى

ويستفيض التقرير فى تعداد العناصر المشتركة فى اللجنة العليا للكفاح الشعبى، فيقول إنها «خليط واسع ومتنافر من أحزاب المعارضة، ومن الشيوعيين، ومن الإخوان المسلمين، ومن تنظيمات «مصر الفتاة»، ومن الجمعيات الخاصة مثل لجنة الدفاع عن الحريات الشعبية، واللجنة العُليا للدعوة للمطالب الوطنية، وجمعية أنصار السلام، وحزب العمال المصرى، وتنظيمات أخرى تردد اسمها حديثا مثل «كتائب التحرير». ويُلاحظ التقرير أن الحزب الوطنى جرى تمثيله فى اللجنة العليا للكفاح الشعبى بوجوه جديدة، فقد تقدم إلى واجهته جيل من رجال لهم شهرة ومصداقية مثل «مصطفى مرعى» (بك) والأستاذ «فتحى رضوان». وانضم إليهم «عبد السلام الشاذلى» (باشا) (وهو محافظ سابق لمدينة القاهرة تولى وزارة الشئون الاجتماعية مرة ثم تكرر ظهوره فى استجوابات مجلس الشيوخ)، وكلهم ممن جمعتهم كراهية العصر الراهن كله (القصر والوفد).

وكان أهم ما فى هذا التقرير العملى إشارة جاءت فى نهايته أن «هناك معلومات لم تتأكد حتى الآن، وتشير إلى أن مؤتمرات هذه التجمعات ظهر فيها عدد من الضباط والجنود العائدين من فلسطين».

٣ / مشاعل النار فوق الحقول الخضراء

كانت الظاهرة الأخطر فى الحالة الثورية (كما أسماها السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى») ـ هو ما راح يجرى على نطاق واسع فى الريف المصرى، وأثار أكبر قدر من القلق لدى العائدين من إجازات الصيف فى أوربا (سنة ١٩٥١). ذلك أنه سواء بالنسبة للقصر أو بالنسبة للوفد، كانت ملكية الأرض الزراعية هى الأساس المضمون للثروة، لأن الريف المصرى دائما هو العملاق النائم، والذى يتبدى مستسلما لمقاديره ـ فإذا تململ أو تحرك وقع المحظور.

ومن المفارقات أن ملكية الأرض الزراعية كأساس للتركيب الطبقى فى مصر الحديثة لم تُدرس بالقدر الكافى فى وطنها، وأن أكمل وأوفى دراسة لها جاءت من الجامعة العبرية التى تنبهت مبكرا إلى أن أى معرفة جادة بأوضاع مصر لابد أن تبدأ بدراسة التركيب الطبقى فيها، وإذا كان ذلك فمعناه دراسة توزيع ملكية الأرض، لأنها الأساس الذى قامت عليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية من أواخر القرن التاسع عشر. وكان الذى أشرف على هذه الدراسة فى الجامعة العبرية واحدا من أكثر أساتذتها دأبا وجدا وهو الدكتور «جبرائيل باير».

وعلى وجه التقريب وباختصار فإن مساحة الأرض الزراعية فى مصر (قبل ثورة ١٩٥٢ وقبل السد العالى) ـ كانت فى حدود خمسة ملايين فدان، تتوزع ملكيتها على النحو التالى:

ـ مليون فدان للخاصة الملكية والأوقاف الملكية الخاضعة لإشرافها.

ـ مليون فدان للأسرة المالكة والأوقاف الخيرية الخاضعة لإشراف تفاتيشها الكبيرة.

ـ مليون فدان للأجانب (شركات وأفراد)، (وقد بدأ هؤلاء يبيعون أجزاءً كبيرة من أملاكهم فى أعقاب انتهاء الحرب العالمية ـ ومع ظهور بوادر لحركة وطنية واجتماعية تأثرت بالمناخ العالمى السائد (بعد تلك الحرب)، وقد وجد هؤلاء المُلاك من الأجانب (شركات وأفراد) مشترين من أغنياء الصدفة (أثرياء الحرب) ـ يقبلون على الشراء استكمالا للمكانة الاجتماعية.

ـ مليون فدان للأسر المصرية الكبيرة التى تملكت مساحات شاسعة من الأرض الزراعية (فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، خصوصا بالشراء من أملاك الدائرة السنية عند تصفية ديون الخديو «إسماعيل»).

ـ مليون فدان لكل الفلاحين (حوالى ١٥ مليونا من تعداد سكان يصل إلى ٢١ مليونا) ـ يعملون بأنفسهم وبأولادهم وزوجاتهم على رقع متفرقة من الأرض الزراعية، يحتفظون بملكيتها بما يشبه معجزة تتكرر كل موسم!

وكان هذا التوزيع لملكية الأرض الزراعية تركيبا طبقيا مقسوما بالتساوى ما بين سيطرة الاستبداد أو سيطرة الفقر!



وفى صيف ١٩٥١ وفى مُناخ حالة ثورية حسب تعبير السفير الأمريكى «جيفرسون كافرى» ـ كان ظاهرا للعيان أن هناك بوادر تمرد فى الريف المصرى!

فقد تطاير الشرر لافتا للنظر فى بلدة «كفور نجم» (فى محافظة الشرقية) حيث يوجد تفتيش مساحته ٧٥٠٠ فدان مملوك للأمير «محمد على» (ولى العهد حتى لحظتها).

واشتكى مدير التفتيش للبوليس أن الفلاحين دأبوا على تأخير سداد إيجار الأرض، وهنا قام البوليس بحملة اعتقالات واسعة (أثبتت تحقيقات النيابة فيما بعد أنهم قاموا بحلق رؤوس الفلاحين وأرغموهم على أن يأكلوا شعرهم المحلوق، ثم ألبسوا عددا منهم أزياء نساء، واستعملوا عصيهم «خوازيق» أجلسوا عليها من ظهرت عليهم أمارات التحريض على التمرد).

وفى مزارع «البدراوى» (باشا) فى بلدة «بهوت» اندلعت اضطرابات سببها أن وكلاء الباشا أخذوا من الفلاحين مصاغ زوجاتهم رهنا لسداد الإيجار، ثم إن دائرة الباشا طلبت سداد الإيجار بتوريد حبوب حددت الدائرة سعرها، واندلعت اضطرابات ظهرت على صفحات الأهرام أواخر يونية تحت عنوان «معركة فى عزبة «البدراوى» (باشا) ـ تبادل النار بين الأهالى والبوليس ـ إضرام النار بأجران القمح ـ قتلى وجرحى فى «بهوت»!».

وقام السيد «عبد العزيز البدراوى» (وهو شقيق «زكية هانم» قرينة «فؤاد سراج الدين» (باشا) بعملية

فى انتظار ثورة!

هجوم مُضاد على الفلاحين، وعُذره أنهم حرقوا بعض سيارات الأسرة احتجاجا على تصرفات وكلائها، وكان أن «عبد العزيز البدراوى» أمر بإطلاق النار على الفلاحين، وقاد حملة التاديب ضدهم بنفسه، ونقلت عنه مجلة المصور قوله:

«ليس هناك فى الدنيا مخلوق ألعن من الفلاح، إنه لا يُقدِّر العطف، وإذا أظهرنا الرحمة عليه أصابه الطمع وتحين الفرصة كى ينهبنا، وتلك طبيعة العبيد. لقد بنيت للفلاحين مسجدين وأقمت مستشفى أوقفت عليها ثلاثمائة فدان، ومع ذلك استطاع بعض الأشرار الذين اِنْدَسُّوا وسطهم أن يجروهم، فإذا بهم ينقادون خلفهم دون تَبَصُّر».

وكان المشهد المفاجئ الذى وقع ردا على حملة التأديب أن مئات الفلاحين زحفوا فى الليل على قصر «البدراوى» (باشا) رافعين المشاعل، وهناك كسروا أبواب القصر وأحرقوا الستائر، وطبقا لبلاغ من وكيل الدائرة إلى البوليس، فإن «الفلاحين نهبوا الصالونات والفضيات والأثاث»!



وبداية خريف ١٩٥١ (سبتمبر وأكتوبر) كانت حوادث التمرد فى الريف ظاهرة يومية، وراح كبار المُلاك - وسايرتهم الحكومة - يلقون اللوم على الشيوعيين، ونشرت بعض الصحف عشرات من البرقيات، يحتج أصحابها من رجال الأسر الكبيرة فى الريف على نشاط «الإرهابيين الشيوعيين»، الذين يحرضون على الفتنة والعِصيان وعلى إتلاف الزراعات والمنشآت.

وكان «فؤاد سراج الدين» (باشا) وزير الداخلية - الذى عاد قبل أيام من أوروبا - متأثرا بأجواء أسرته (وكذلك بتقارير وزارته) - قد ترسخ لديه الاعتقاد بأن الشيوعية هى مصدر التهديد الرئيسى للأمن الداخلى.

لكن القصر الملكى بدأ يمارس لعبة أخرى - فقد فوجئ الرأى العام بافتتاحية فى جريدة أخبار اليوم (وهى المتصلة بالقصر وقتها عن طريق «كريم ثابت») عنوانها: «حركة الفلاحين ليست شيوعية».

ثم تستهل افتتاحية أخبار اليوم مقالها بما نصه:

«يُخطئ من يتصور أن حركة الفلاحين فى عزبة «البدراوى» (باشا) حركة شيوعية. ولو اعتقدنا هذا فإننا نعطى الشيوعية شرفا لا تستحقه، ولا يجوز أن نعطى الشيوعية كل هذا الشرف».

وتصل افتتاحية أخبار اليوم إلى حيث تقول:

«استقل يا وزير الداخلية، لأن الشعب كله ينتظر ما سوف تفعله، فالمعركة التى حدثت فى «بهوت» هى معركة بين الفلاحين وبين كبار المُلاك. والفلاحين لا حيلة لهم ولا سلطان، وكبار المُلاك فى نفس الوقت هم أشقاء حرم «فؤاد سراج الدين» (باشا) الذى يهيمن على البوليس».

وتنتهى افتتاحية أخبار اليوم بقولها «اضرب المثل أيها الوزير، واترك منصبك حتى يتحقق العدل»!

وكانت هذه الافتتاحية تحمل معنى يتخطى عباراتها ويتخطى موضوعها أيضا، فقد كانت إشارة واضحة إلى أن حلف القصر والوفد لم يعد قادرا على أن يتحمل أثقال حقائق مستجدة، دفعت كلا الطرفين إلى تبرئة نفسه وإلقاء المسئولية على الطرف الآخر. وكان ذلك منطقيا لأن العادة فى أى «علاقة انتهازية» أن الشركاء يتخلون عن بعضهم إذا بلغوا حافة الخطر، وتوهم كل طرف منهم أنه يستطيع النجاة بنفسه تاركا شريكه للذئاب الجائعة تنشغل به عن مواصلة المطاردة. ■

٤ / ضرائب على غير أرباح!

■ ■ عندما عاد الملك «فاروق» من شهر العسل (وهو فى الحقيقة عشرة أسابيع - أى شهرين ونصف الشهر) - كانت الصورة التى عُرضت عليه «داعية إلى انشغال باله» (طبق وصف «عبد الفتاح عمرو» (باشا) - الذى استُدْعى إلى القاهرة للتشاور فى شأن تعثر المفاوضات بين الدكتور «محمد صلاح الدين» وزير الخارجية وبين السير «رالف ستيفنسون» السفير البريطانى فى القاهرة ووراءه وزارة الخارجية فى لندن).

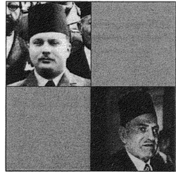
والتقى «عبد الفتاح عمرو» (باشا) مع «حسن يوسف» (باشا) فى شقته المطلة على النيل بشارع الجبلاية فى الزمالك، وسهرا - بالأرق - ليلة طويلة يبحثان هَمّا مشتركا بينهما هو «أحوال الملك»، واستقر رأى الاثنين على ضرورة مصارحته بأن «الأوضاع قاربت مرحلة الخطر». وبما أنه طلب «عبد الفتاح عمرو» (باشا) بوصفه السفير فى لندن لكى يسمع منه تفاصيل الأزمة التى صارت إليها المفاوضات المصرية - البريطانية، إذن فإن الفرصة تطرح نفسها، وتكاد تحدد شخصية من يتحمل مسئوليتها. وكان «حسن يوسف» (باشا) يدرك (دون أسى) أن الملك «تَعَوَّد أن يسمع منه حتى لم يعد السماع مؤثرًا». ثم إن الملك بحكم العادة ظل ينظر إليه كـ«موظف كبير فى القصر» ولا يتفهم دوافعه إلى هذه الخدمة، وأولها أنه «يتحمل ما يتحمله عن إيمان بأهمية «الملكية» كمؤسسة، وكونها نظاما أصلح من غيره فى حكم مصر وضمان استقرارها وتقدمها».

وحسب تعبير «حسن يوسف» (باشا) (فى شهادة مسجلة بصوته) - فقد كانت ميزة «عمرو» أنه زائر يجىء إلى مصر بين فترة وأخرى - مرة فى السنة لا أكثر - وليس فردا من أفراد الحاشية مقيم فى القصر باستمرار. ثم إن «عمرو» بحكم غيابه عن مصر معظم الوقت لم يكن معرضا لدسائس الناحية الأخرى من الحاشية (يقصد «كريم ثابت» و«يوسف رشاد» وغيرهما من هؤلاء الذين يحومون حول الوجه الآخر للقمر - وذلك تعبير «عبد الفتاح عمرو») - زيادة على ذلك فإن «عمرو» بحكم كونه سفير الملك فى لندن والرجل الذى خلصه من «كيلرن» (السفير البريطانى الذى أهانه وأذله مساء ٤ فبراير والذى يُعتبر قناته الموثوق بها لدى الدولة الكبرى المهيمنة على الشأن المصرى) - يملك لدى فاروق (على المستوى الإنسانى وعلى المستوى الرسمى) حظوة تسمح له أن يتحدث بغير تحرج، خصوصا وهو «دبلوماسى بالفطرة» يعرف كيف يقول كل ما لديه بـ«كياسة».

ويروى «عمرو» (باشا) وكلامه مسجل بصوته، إن موعده مع الملك تحدد ظهر يوم فى سبتمبر (١٩٥١) (لم يتذكر تاريخه بالضبط) وأنه جلس معه «أكثر من ساعتين» وفتح قلبه. ولم يذكر «عمرو» (باشا) أمام جهاز التسجيل تفاصيلَ ما قاله للملك، لكنه يتذكر أنه تكلم عن «كل شىء» و«بالقدر وبالأسلوب» اللائق ولو أنه انفعل فى لحظة من اللحظات و«تهدج صوته»، واستأذن جلالة الملك فى فنجان قهوة و«كوب ماء».

ثم خرج «عبد الفتاح عمرو» من مكتب الملك متوجها إلى مكتب وكيل الديوان «حسن يوسف»، ثم قصد الاثنان للغداء معا فى بيت «حسن يوسف»، وطال جلوسهما معا فى غرفة الطعام «أكثر من ثلاث ساعات»، وقد راحا يتذكران تفاصيل التفاصيل من حديث «عمرو عبد الفتاح» إلى «فاروق»، ويتساءلان «أى أثر يمكن أن يتحقق نتيجة له؟».

فاروق



النحاس



كانت تصرفات الملك فى تلك الفترة العصيبة توحى بانه - إذا كان «فاروق» قد استمع إلى ما صارحه به «عبد الفتاح عمرو» (باشا) وربما غيره، (وكانت هناك شواهد تدل على أن الملك عندما عاد من أوروبا وفوجئ بحجم ما وصل إلى الناس من تصرفاته هناك، وراح يبحث ويتحرى الأسباب) - فإن «فاروق» استنتج - ما قابل استعداده ووافق هواه.

● كان الاستنتاج الأول الذى توصل إليه هو أن «الوزارة» قصدت فضيحته أمام الناس بحيث يعرفون جميعا بما كان يفعله فى أوروبا - وقد وجه الملك أصبع الاتهام إلى الدكتور «محمد صلاح الدين» وزير الخارجية شخصيا، وحجته (وليس معروفا من أوحى إليه بها) - أن الدكتور «محمد صلاح الدين» أمر عددا من سفارات مصر وبينهما سفارات روما - وبرن - وباريس أن تحتج على الطريقة التى تناولت بها صحف بلدانها أخبار التصرفات الملكية أثناء مهرجان شهر العسل (ومع أن الملك «فاروق» نفسه وفى اتصال تليفونى من «لوجانو»، طلب من «حسن يوسف» (باشا) أن يحتج على السفارة السويسرية فى القاهرة، لأن الصحافة السويسرية تلاحقه حيث ذهب وبإصرار على التربص والتشهير) - إلا أنه عندما احتجت السفارات المصرية ثم عاد الملك إلى مصر، توصل إلى تفسير غريب لموقف الدكتور «محمد صلاح الدين» - مؤداه: «أن صلاح الدين لم يقصد بالاحتجاج أن يدافع عن الملك، وإنما أراد إثارة أزمات مع الدول التى نشرت صحفها أخبارا عنه، ويكون ذلك دافع الناس حتى يسألوا عما وراء الاحتجاجات، ثم تجيئهم الإجابات بالتفاصيل ويعيدون روايتها فى مجالسهم ويبالغون فيها». وعلى هذا الأساس فإن الاحتجاجات التى أشار بها «صلاح الدين» لم تصدر عن «غضب وطنى»، وإنما صدرت عن «غرض خفى» - هو توسيع نشر «الحكايات» - حتى «يعرف من لم يكن يعرف»!

● والاستنتاج الثانى الذى توصل إليه الملك «فاروق» فى تلك الظروف أن جزءًا من حملة الكراهية ضده، هى بتوجيه من الوزارة لتحويل الأنظار عن الفساد الجارى فيها وعن الصفقات المشبوهة والصراعات المكشوفة.

ومن الغريب أن «كريم ثابت» أقنع الملك «فاروق» بإمكانية القيام بحملة مضادة تكشف مواقع الفساد «الحقيقى» فى البلد وتخفف الضغط عن «القصر». وهكذا دعى إلى

القاهرة خبير علاقات عامة هو المستر «بلوردون هلسبى» وكان من قبل يعمل فى مصر مديرا لتحرير جريدة «الإجيبشيان جازيت»، وبالفعل جاء «هلسبى» إلى القاهرة وعاد إلى لندن ليكتب فى جريدة «ذى ستار» رسالة مستفيضة من القاهرة قال فيها: «إن الذين يتابعون أخبار الملك «فاروق» فى الصحافة البريطانية قد لا يصدقون إلى أى مدى يعمل ملك مصر فى خدمة بلاده، وكيف يعيش حياته جادا وملتزما ومضطرا للعمل مع حكومة فاسدة يرأسها رجل متهالك فى الخامسة والسبعين من عمره، عاجز عن إدارة شئونها، وخاضع لتوجيه زوجته الشابة التى هى القوة الحقيقية فى الحكومة الوفدية من وراء الستار (وظهرت وسط رسالة «هلسبى» صورة لزينب هانم الوكيل ـ قرينة «النحاس» (باشا) ـ كُتِبَتْ تحتها جملة «المرأة الذكية التى تدير كل شىء فى مصر من وراء الستار»!

● والاستنتاج الثالث أن القصر من حقه وواجبه أن يكشف «الوفد» و«النحاس»، وهكذا راح الملك يهاجم الوزارة دون تحرز ويلقى عليها مسئوليات ما حل بالبلد من «تردٍ وتفسخ»:

ـ فالوزارة «مهلهلة» بالانقسامات بين أعضائها الذين لم يعودوا حتى معسكرات، وإنما أصبحوا أفرادا، كل واحد منهم له عالمه وله مطالبه وله معاركه.

● و«فؤاد سراج الدين» يلعب لعبة تحتاج إلى المساءلة، لأن هذه الخطة التى رسمها ـ وراح تنفيذها ـ لتحويل مؤسسة البوليس إلى «عزبة» خاصة له «توحى بأنه يدبر شيئا أو يستعد لشىء» ـ والظاهر حتى من كلام صديقه «كريم ثابت» «إنه فقد الأمل فى رئاسة الوزارة بـ«الذوق»، والآن يريد أن يصل إليها بـ«العافية».

● و«محمد صلاح الدين» يدفع المفاوضات مع الإنجليز إلى أزمة قبل الأوان، وهو متأثر بالدكتور «مصدق» فى إيران ولا يعرف أن «مصدق» أخذ «إيران فى داهية» (رواية «كريم ثابت» (باشا) فى مكتبى فى الأهرام سنة ١٩٥٨، وكان قد جاء يزورنى ويعرض على مذكراته عن أيام خدمته فى القصر).

● ووسط هذه الفوضى كلها فإن «النحاس» مقيم فى بيته أسير أمراضه ووساوسه الصحية إلى درجة أنه لم يعد يقابل أحدا غير قرينته، ولا يتحرك حتى فى البيت إلا ووراءه تابع خاص يحمل زجاجة كحول مطهر يغسل بها يديه إذا لامست يد أى إنسان آخر، حتى من العاملين فى البيت.

....

....

[والحقيقة أنه فى تلك الأيام وعندما كان «النحاس» (باشا) يضطر إلى الخروج من بيته لمناسبة لا يستطيع أن يتخلف عنها، فقد كان يتبعه باستمرار سكرتير (وأحيانا ضابط من حراسته الخاصة) ـ يحمل زجاجة كولونيا لكى يغسل بها الباشا يديه، وقد رأيت ذلك المشهد بنفسى فى احتفال أقيم فى النادى السعدى فى إحدى المناسبات الوطنية أواخر سنة ١٩٥٠ (وفى الغالب احتفال عيد الجهاد ـ ١٣ نوفمبر ١٩٥٠) ويومها اضطر «النحاس» (باشا) إلى مصافحة كثيرين، لكنه كل مرة كان يلتفت خلفه ويطلب «كولونيا»، وفى البداية لم أفهم سر الطلب ثم عرفته من «محمود سليمان غنام» (باشا)].

....

....

وهكذا استنتج الملك «فاروق» أن رئيس الوزراء الذى «عفا» عنه وقَبِلَ بفتح صفحة جديدة معه وترك له كل شىء واثقا فيه ـ لم يعد صالحا لخدمته وأنه فقد قيمته، وأكثر من ذلك أصبح عبئا عليه.



وفى هذه الأجواء المضطربة فإن ما عُرِف بوصف قضية الأسلحة الفاسدة راح يملأ أجواء مصر، ويضع الملك نفسه فى قفص الاتهام، ذلك لأن الروايات تناثرت فى كل المحافل ـ وفى الصحف ـ تتحدث عن عمليات لشراء السلاح جرت على عجل بعد قرار الملك بدخول حرب فلسطين سنة ١٩٤٨، على غير رغبة رئيس الوزراء «محمود فهمى النقراشى» (باشا)، وعلى غير استعداد عسكرى يطمئن إليه فى معركة خارج حدود مصر (بمنطق ذلك الوقت).

وتمضى الروايات لتقول «إنه فى شعور الملك بدوره فى قرار الحرب، فإنه اعتبر نفسه مسئولا عن توفير السلاح للجيش بكل وسيلة، وهكذا انشغل عدد من أفراد حاشيته أو من أصدقائهم بعمليات لشراء الأسلحة والذخائر، ومعظمه مما كان باقيا فى مخازن أوروبا (إيطاليا بالذات) من أيام الحرب العالمية الثانية. وكان الحلفاء قد كدسوا هناك جبالا من العتاد استعدادا لغزو إيطاليا من الجنوب إلى الشمال، لكن الملك «فيكتور عمانوئيل» اختصر لهم المهمة فاعتقل الزعيم الفاشستى «موسولينى» وأعلن استسلام إيطاليا.

وكان معروفا وذائعا على أوسع نطاق فى العالم أن مواقع كثيرة فى إيطاليا لا تزال مزدحمة بمخازن السلاح والذخيرة، وأن هناك سوقا مفتوحة لمن يطلب ويعرض الثمن المناسب.

والمشكلة أن البعثات التى ذهبت لشراء السلاح لم تدرك أن هذا السلاح الباقى من أيام الحرب العالمية، ظل أعواما (أربعة أو خمسة) مكشوفا فى العراء، ومن ثم أصابته بالضرورة عوامل الجو وأثرت على صلاحيته.

وفى الغالب فإن بعض البعثات أدركت أنها تشترى سلاحا فقد بعض صلاحيته، لكنها اشترته كبضاعة عليها طلب، والمحتاج على استعداد لقبولها بحالتها الراهنة وتحمل مسئوليتها ـ كيفما جاءت.

وأخيرا فإن بعض البعثات ومعها عدد من التجار والسماسرة قدموا فواتير لمشترياتهم مُبالغا فيها، وكان على أولئك المحتاجين أن يدفعوا!

وهنا فإن ما سُمى «بصفقة الأسلحة الفاسدة» أصبح أزمة ضمن الأزمات التى أدت إلى سقوط هيبة النظام الملكى، لأن الاتهامات فى خاتمة المطاف كانت واصلة إلى القصر، وإلى الملك شخصيا.

إن ما سُمى «بصفقة الأسلحة الفاسدة» أصبح أزمة ضمن الأزمات التى أدت إلى سقوط هيبة النظام الملكى، لأن الاتهامات فى خاتمة المطاف كانت واصلة إلى القصر، وإلى الملك شخصيا



....

....

[والراجح أن الملك الذى كان يعتقد ببراءته، رد بغضب وربما بحماقة على الاتهامات التى التصقت به وبسمعته.

وفيما بعد، وعقب قيام الثورة كان موضوع الأسلحة الفاسدة واحدا من ذرائعها، جرت تحقيقات فى قضية الأسلحة الفاسدة ـ وظهرت فى التحقيق مسألتان:

ـ الأولى: أنه كانت هناك بالفعل أسلحة فاسدة، لكن نسبة هذه الأسلحة الفاسدة كانت فى الحدود التى يمكن تصورها، وعلى ضوء الظروف التى تمت فيها مشترياتها ـ مع وجود مبالغات فى الأسعار استفاد منها بعضهم.

ـ ثم إن الضجة التى أثيرت حول هذه القضية كانت وراءها جماعات متنافسة من الموردين، وحين نجح بعضهم فى إبرام صفقاته، ولم ينجح بعضهم «الآخر» ـ فإن المعركة بين الطرفين أعطت للقضية حجما يفوق واقعها.

ـ ولعل أكثر ما ضايق الملك «فاروق» (فى حديث له مع «نجيب الهلالى» (باشا) سنة ١٩٥١ ـ وكان قد قابله سرا كما قابل ساسة غيره، بينهم «حافظ عفيفى» (باشا) ـ يستطلع رأيهم فى تردى أحوال «البلد») ـ «إن الناس صدقوا أننى تاجرت فى السلاح، وأننى أتحمل مسئولية دم كثير «ساح» فى فلسطين»!]

....

[والشاهد أنه يمكن تشبيه قضية «الأسلحة الفاسدة» ودورها فى تعرية النظام الملكى فى مصر، بالدور الذى قامت به قضية عقد الملكة «مارى أنطوانيت» فى سقوط أسرة «البوربون» فى فرنسا على عهد «لويس السادس عشر». فقد استطاعت مغامرة فرنسية هى الكونتيسة «جين فالوا» أن تُقنع الكاردينال «دى روهان» بأن يسترضى الملكة «مارى أنطوانيت» وكانت تُظهر نفورا منه ـ بأن يشترى عقدا نادرا من اللؤلؤ، صنعه الفنان «بوهمر» وهو أشهر مصمم للجواهر وقتها، وثمنه مليون وستمائة ألف فرنك، ويهديه عن طريقها («جين فالوا») إلى «مارى أنطوانيت» ملكة فرنسا، ورتبت «فالوا» إشارات وملابسات معينة جعلت الكاردينال على يقين بأن هديته سوف تُسَلَّم للملكة، فى حين أن «مارى أنطوانيت» لم تكن تعرف شيئا عن الموضوع كله.

وحدث أن العملية انكشفت، وبراءة الملكة ظهرت، وبرغم ذلك فإن قضية عقد اللؤلؤ ظلت تطارد «مارى أنطوانيت» حتى وهى تصعد سلالم المقصلة التى قطعت رقبتها فى ميدان الثورة (الكونكورد الآن) ـ قلب باريس.

والواقع أنه فى الأجواء الحافلة بالاتهامات عن مغامرات وفضائح ـ مالية وغرامية ـ تورطت فيها «مارى أنطوانيت» فعلا، وفى أجواء مخازٍ حقيقية سقط فيها بلاط البوربون ـ فإن كافة التهم أصبحت قابلة للتصديق، لأن اللحظة النفسية مناسبة، ولأن الروايات جاءت متسقة مع الانطباعات الشائعة عن أصحابها من ناحية، ومن ناحية أخرى جاءت متوافقة مع السياق العام للحوادث فى زمن وقوعها.

كذلك حدث فى قضية عقد اللؤلؤ بالنسبة لمارى أنطوانيت.

وكذلك حدث فى قضية «صفقة الأسلحة» بالنسبة لفاروق].

....

....

وعلى أى حال فإن الملك خرج بعد القضية باقتناع لم يتزحزح عنه وهو أن الحكومة لم تُحسن الدفاع عنه (ولعلها لم تحاول) ـ ثم إنه هو نفسه وبمركزه الملكى لم يكن قادرا على الدفاع عن نفسه مباشرة (ولم يكن مُصدَّقا فيه حتى لو حاول).

والنتيجة أن تحالف القصر والوفد تفككت عُراه ـ وأن عهد الصلح بين الاثنين سقطت ضروراته، وأن قُبلة طبعها «النحاس» (باشا) على يد الملك «فاروق» عربونا لولاء بغير حدود تحولت إلى ضريبة على أرباح لم يعد لها فى النهاية وجود! ■

٥ / فـــرســـان الســـاحـــة الفـــارغـــة!

إذا كـان التـوافق ـ إلى درجـة التـواطؤ بين القصر والوفد قد ترك فراغا كبيرا فى قلب السياسة المصرية مما سمح لعناصر الهامش فى المجال السياسى المصرى بأن تندفع إلى قلبه ـ فإن الاختلاف والانشقاق بين الاثنين زاد من مساحة هذا الفراغ، وجعل أجواءه معتمة وداكنة تظهر عليها التحركات وكأنها من أفعال الظلال ـ أشكالا ومساحات غير واضحة وغير محددة!

وكان «على ماهر» (باشا) أول من اعتبر أن الساحة السياسية الراهنة تناديه ـ وتقدم إليها تلك اللحظة لينشئ جماعة أسماها «جبهة مصر». وكان «على ماهر» (باشا) صاحب دور ملتبس فى السياسة المصرية، فقد ناصر قيادة «سعد زغلول» لثورة سنة ١٩١٩، وهو موظف كبير فى وزارة الحقانية، ثم راح ينشق ـ ويبتعد ماشيا فى حقل الشوك الواسع بين الوفد والقصر، خارجا من الولاء لسعد وواصلا إلى العداء معه ومع «النحاس» (باشا) خليفته، حتى ظهر مُقَرَّبا من الملك «فؤاد» وشِبْه قَيِّم على ابنه «فاروق» الذى جلس على العرش و«على ماهر» بجانبه، رئيسا للديوان الملكى (١٩٣٧).

لكن «على ماهر» لم يكن لديه شيء نافع يعطيه للصبى الذى جلس على عرش مصر، بل كان ما لديه لذلك الصبى ـ الذى اعتبرته أغلبية الشعب المصرى وعدا وبُشرى ـ وسوسة تزين الدكتاتورية وتحرض على الدستور كلما سنحت فرصته.

وقد رتب «على ماهر» (باشا) (وهو رئيس الديوان) انقلاب «فاروق» ـ الأول ـ على الأغلبية الوفدية، وكذلك أُقيلت وزارة «النحاس» (باشا)، وخلفتها وزارة برئاسة «محمد محمود» (باشا) رئيس الأحرار الدستوريين لم تستطع أن تحكم، لأن «على ماهر» (باشا) كان يريد رئاسة الوزارة لنفسه. وبالفعل فإنه كان فى ذلك الموقع ـ عندما جاءت الحرب العالمية الثانية ـ ثم خرج منها بإنذار بريطانى ١٩٤٠ ـ لم يلبث أن لحقه إنذار بريطانى آخر ١٩٤٢ جاء بوزارة وفدية يرأسها «النحاس» (باشا)، وكان بين إجراءاتها اعتقال «على ماهر» (باشا) فى مزرعة له فى مديرية البحيرة لم يعد منها إلا بعد أن أصبح شقيقه «أحمد ماهر» (باشا) رئيسا للوزارة فى انقلاب دستورى آخر (أكتوبر سنة ١٩٤٤).

ولم يكن لعلى ماهر (باشا) حزب سياسى، ولا كانت له شعبية جماهيرية ـ وكذلك كان مكانه دائما منطقة الظلال وكان ذلك أكثر اتساقا مع شخصيته وفيها ـ لمسة من الغموض (لعلها من أيام الخدمة فى القصر) ـ ولمسة من العبوس (لعلها من أثر النفى فى مزرعته أو النفى من السلطة) ـ ولمسة من المرارة (لعلها من بقايا طموحه إلى إيقاع الملكة «نازلى» أرملة الملك فؤاد فى غرامه، لكنها أعرضت عنه وأعطت ما عندها لأحمد حسنين (باشا) الذى خلف «على ماهر» على رئاسة الديوان الملكى).

والمهم أن «على ماهر» بقى شخصية ملتبسة ـ غامضة أو على الأقل غير واضحة وغير محددة.

وبرغم ذلك فقد كانت هناك مجموعة من الرجال والنساء أخذهم ذلك المزيج «المُعَقَّد» فى شخصية «على ماهر»، وكان فيهم من اعتبره «رجل الأقدار» الذى يستطيع مواجهة الصعاب وإنقاذ المواقف فى أصعب الأوقات.

....

....

[وكان بين المُعجبين بعلى ماهر (باشا) رجل وسيدة كنت ولا أزال من المُعجبين بنواحى قوة فى شخصية كل منهما:

● الرجل هو الدكتور «محمود عزمى» ـ كان لزمن طويل مؤيدا لـ«على ماهر» (باشا) (فى رئاسته الأولى للوزارة سنة ١٩٣٩)، وكان هو الذى اقترح عليه إنشاء وزارات جديدة (مثل وزارة الشئون الاجتماعية) توسع بعض الشيء مهام الحكم فى مصر ـ لكنه على سنة ١٩٥١ حين بدأ «على ماهر» يقدم نفسه باعتباره «المُنقذ من الضياع» ـ كان الدكتور «عزمى» قد شُفى من الإعجاب به!

● وأما السيدة فهى «روزاليوسف» (الفنانة القديرة التى أصبحت مالكة لمجلة واسعة النفوذ تحمل اسمها) ـ فقد كانت هى التى دعتنى معها تقدمنى إلى «على ماهر» (باشا) ـ فى بيته (ذلك الوقت) فى شارع «مظهر» فى الزمالك. وحاولت السيدة «روزاليوسف» أن تهيئنى (صحفيا شابا متحمسا) للقاء «رجل الأقدار»، وكان قولها ونحن على عتبة باب بيته، إنك الآن سوف تقابل «نمر» السياسة المصرية، وعندما خرجنا بعد ساعتين من «عرين النمر»، سألتنى السيدة «روزاليوسف»: كيف رأيت «على ماهر» (باشا)؟ وأحسست بذكائها أننى لم أقتنع بما رأيت!].

....

....

وفى أجواء الفراغ الموحش الذى اعترى السياسة المصرية بالوفاق ـ ثم بالشقاق ـ بين القصر والوفد، دخل «على ماهر» (باشا) يقدم نفسه باعتباره رجل المواقف الصعبة القادر على ملء الفراغ وعلى انتزاع المستقبل المرتجى من وحشة الحاضر الراهن!

وكانت مشكلة «على ماهر» الحقيقية «أنه ليس فى مقدور رجل أن يتحدث عن المستقبل فى عزلة عن ماضيه، ولا أن يحلم بإنقاذ وطن ليست له فيه قاعدة، لأن خطط العمل الوطنى تحتاج إلى ما هو أكثر من البرامج المكتوبة بواسطة نخب عجزت طول تجربتها عن التواصل مع أوسع الجماهير، وأخيرا فإن الإرادة السياسية لا توفرها قدرة رجل على المناورة، وإنما توفرها قدرته على مد رباط الثقة بينه وبين الناس.

ويستحق التأمل أن أول جهد «لعلى ماهر» (باشا) ـ فى أداء دور المنقذ المُخلص ـ كان موجها إلى السفارة البريطانية. وفى صيف سنة ١٩٥١ يظهر ضمن الوثائق البريطانية تقرير برقم (١٢/ ١٠١٠) كتبه السفير البريطانى فى القاهرة يقول: «أنه منذ فترة و«على ماهر» (باشا) يحاول أن يجد وسيلة

على ماهر

حسن الهضيبى

لم يكن لعلى ماهر (باشا) حزب سياسى، ولا كانت له شعبية جماهيرية. وكذلك كان مكانه دائما منطقة الظلال وكان ذلك أكثر اتساقا مع شخصيته وفيها لمسة من الغموض ولمسة من العبوس ولمسة من المرارة



للاتصال بالسفارة أو بأحد من كبار المسئولين فيها، ومع أنى شخصيا أستغرب محاولة «على ماهر» (باشا) الآن أن يقوم بدور سياسى، فقد وجدنا من الأفضل أن نستكشف ما يريد ولا نصده. لقد كنت أتصور بعد كل ما جرى له وبعد اغتيال شقيقه «أحمد ماهر»، وخلفه «النقراشى» ـ أن الرجل لم يبق له غير أن يلجأ إلى دير يقضى فيه بقية حياته معتزلا ـ إلا أن الرجل الآن يجمع حوله بعض المستقلين، ويظن بمقدوره أن يستقطب من حوله قوى وتيارات يراها فاعلة على الساحة دون توجيه واضح أو قيادة مُعْتَرَف بها. وقد لاحظنا أنه فى الشهور الأخيرة يحاول جس نبض عدد من التيارات لعلها تناصره ـ كلها أو بعضها ـ فى تصوراته عن «إنقاذ ما يمكن إنقاذه»، ونحن نعرف أنه اتصل بالإخوان المسلمين وبالشبان المسلمين (التى يرأسها واحد من أصدقائه هو «صالح حرب» (باشا)) ـ وبساسة ينتمون إلى أحزاب ضعيفة، ووصل به الأمر إلى حد أنه اتصل بمجموعة «إخوان الحرية» وهى جماعة يشك فى أمرها كثير من الوطنيين، ويظنون أننا (السفارة الإنجليزية) نحركها، ومما لاحظناه أن «الباشا» يوحى عن طريق بعض المتصلين به لعدد من السفارات الأجنبية فى القاهرة، بأننا (السفارة البريطانية) راضون عن برنامجه، ويتصور أن ذلك يعطى مصداقية لدعوته!

وعندما وجدنا أن الاتصال به لا ضرر منه، لم نشأ أن يكون الاتصال عن طريق مسئول سياسى، وانتهزنا فرصة أن المستشار القانونى فى السفارة «جون هاملتون» تلقى دعوة من بعض أصدقاء «على ماهر» (باشا) لحضور غداء معه، ورأينا أن يقبلها بشرط أن يوضح موقفه، على أساس أنه يحضر الغداء بصفة اجتماعية وليس بقصد سياسى».



يستطرد التقرير البريطانى (١٢/ ١٠١٠) بعد ذلك إلى القول بأن «جون هاملتون» حضر مأدبة غداء فى بيت «عبد الملك حمزة» (بك) وهو من أقرب المقربين إلى «على ماهر» (باشا)، وهناك سمع عن خطة لعودة «على ماهر» (باشا) إلى رئاسة الديوان الملكى بداية تمهد له (كما حدث من قبل) طريق رئاسة الوزارة «حيث تنتظره مسئولية إنقاذ الموقف». والفكرة التى يدعو لها أصدقاؤه أن هناك فراغا فظيعا فى الحكم لأن رئيس الوزارة الحالية «النحاس» (باشا) أصبح رجلا مُتْعَبا، أصابه «الخَرَف» Gaga (هكذا بالنص) بسبب تقدم السن، والأليق به أن يعتزل ويقضى بقية عمره يتمتع بالثروة التى جمعتها زوجته. وإذا اعتزل «النحاس» (باشا) فإن حزب الوفد يصبح مثله مثل كل الأحزاب بغير سند جماهيرى ولا قيادة تجمع الناس».

تلك مقدمات مشروع أصدقاء «على ماهر» (باشا).

يستطرد التقرير إلى مشهد بعد الغداء جرى فيه اقتياد «جون هاملتون» إلى جلسة منفردة على الشرفة Veranda لمدة ساعتين فى خلوة منفردة مع «على ماهر» (باشا)، هيأها لهما مضيفهما «عبد الملك حمزة» (بك) ـ ويكتب «جون هاملتون» «إن «على ماهر» أراد أن يثبت لى صدق نيته معنا زمن الحرب، وأن يؤكد ولاءه وإخلاصه لنا بما يعنى فى النهاية أننا ظلمناه بشكوكنا فيه وتجنينا عليه، ودخل «الباشا» إلى هذا الموضوع ببراعة يستحق التهنئة عليها، فقد بدأ كلامه بقوله: «إنه عائد من إجازة فى تركيا واكتشف هناك من كل ما سمعه أن دور تركيا معنا فى بداية الحرب كان مماثلا لدور وزارته بالضبط، فقد اتخذت «تركيا» فى الظاهر موقفا محايدا لتغطى به إيمانها بقضية الحلفاء على اعتبار أن موقفها ذلك يخدم الحلفاء بأكثر من المشاركة معهم فى القتال ـ وقال «الباشا» «إن ذلك الموقف كان عين العقل، وأنه ساعد الحكومة البريطانية وخدم مجهودها الحربى». ويكتب «هاملتون» «ومن هنا استطرد «الباشا» إلى أن وزارته سنة ١٩٣٩ فعلت الشيء نفسه، فقد وضعت كل إمكانيات مصر تحت تصرفنا فى تنفيذ أمين لمعاهدة سنة ١٩٣٦، وأكثر من ذلك قامت هذه

الوزارة بأمر منه شخصيا بتجريد الرعايا الطليان والألمان من سلاحهم وحبسهم فى معسكرات اعتقال حتى لا يتحولوا إلى طابور خامس يؤثر على المجهود الحربى، وأكثر من ذلك فإنه وضع تحت تصرفنا كل المعلومات الخاصة لدى حكومته - وكان لديها الكثير عن نوايا إيطاليا، وكان العسكريون البريطانيون يقدرون له (لعلى ماهر) صنيعه، حتى أن الماريشال «ويفل» قائد القوات البريطانية فى الشرق الأوسط بعث له بخطاب شكر سوف نجد نسخة منه فى سجلات السفارة».

ويكتب «هاملتون» «واصل الباشا كلامه منتقلا من الماضى إلى الحاضر قائلا: «إنه لا يعرف سببا لعدم الوصول إلى اتفاق على تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ حتى الآن، وأنه كعضو فى لجنة الشئون الخارجية فى مجلس الشيوخ، تصدى لوزير الخارجية «محمد صلاح الدين» قائلا له: «إن سياستك تأخذ مصر إلى الضياع!»».

أضاف «على ماهر» (باشا) قائلا: «إن قضية السودان لا يصح أن تعرقل المستقبل وأن المطلوب هو «صلة رمزية» بين مصر والسودان، وأن مصالح مصر فى السودان متماثلة تماما مع مصالح بريطانيا وذلك يسهل كل شىء». أضاف «الباشا» «أنه ضد تورط مصر فى مشاكل العالم العربى، وأن التعقيدات كلها تجىء من أن الأمين العام للجامعة العربية «عبد الرحمن عزام» (باشا) يتخطى حدود وظيفته وهو «كما رأينا» فى «حوادث المغرب العربى» لا يمارس الدبلوماسية بقدر ما يمارس التحريض»!

وأخيرا وصل «جون هاملتون» المستشار القانونى للسفارة البريطانية فى القاهرة إلى وصف لعلى ماهر (باشا) - بدا وكأنه قراءة فى الغيب، فقد كتب بالحرف «باختصار لقد جعلنى «على ماهر» أشعر بأنه «تاليران» مصرى (كان «هاملتون» يشير إلى السياسى الفرنسى الأشهر الذى عاش أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر - والذى كان وزير خارجية لويس السادس عشر قبل الثورة الفرنسية - ثم أصبح وزيرا لخارجية «نابليون بونابرت» - ثم انتهى وزيرا لعصر ثالث عندما عاد البوربون مرة أخرى إلى قصر التويلرى على عهد لويس الثامن عشر، واستحق «تاليران» بالتالى وصف «رجل لكل العصور»)!

وفى مساحات الظل جاءت إلى الفراغ أيضا قوى توهم أصحابها أنهم شكل المستقبل، وكان فى المقدمة من هذه القوى حفنة الأحزاب والتنظيمات الشيوعية (على اليسار) - ثم كتلة جماعة الإخوان المسلمين (على اليمين).

وعلى نحو ما فإن الشيوعيين تبدوا أمام نظام الحكم تلك الفترة (بالتحديد القصر والوفد) - باعتبارهم مصدر الخطر الحقيقى على النظام، ومصدر الشك ساعتها أن الشيوعيين وراءهم قوة عظمى تساند وتدعم، وأما الإخوان فقد تبدوا عنصرا مقدورا عليه لأنه ليست وراءهم قوة عظمى تماثل الاتحاد السوفيتى. ومع أن الإخوان كانوا هم الذين قاموا بكل الاغتيالات التى شهدتها مصر خلال عشر سنوات سبقت، وكانوا هم الذين فجروا القنابل وأطلقوا الرصاص - فإن خطر الشيوعيين بدا أكبر فى تلك الساعة، وساعد على ذلك اعتقاد بأن الأزمة الاقتصادية والاجتماعية (إلى جانب فساد وَصَفَتْهُ السفارة البريطانية وغيرها بأنه «أسوأ مستوى من الفساد يعرفه العالم») - كله يصب فى خانة الشيوعية، وكذلك راح النظام يعتقد أن فرصة الشيوعية فى استقطاب الجماهير أقرب وأوفر. وربما أن طبائع الأشياء ذاتها كانت تهيئ للطبقة الحاكمة فى مصر ومن موقعها المتميز أن الشيوعية هى العدو، حتى أن بعضهم راح يسوق الأدلة مما جرى فى أوربا الشرقية بقوة الجيش الأحمر فى إيران واليونان وحتى كوريا بالمقاومة المسلحة إلى درجة الحرب الأهلية.

وفى ذلك كان الإخوان هم المستفيدون قبل غيرهم من القوى المتحركة فى ساحة الظلال.

وفى الحقيقة فإن الإخوان المسلمين أحسنوا استغلال الظروف، خصوصا بعد أن فشلت محاولتهم الأولى (منتصف سنة ١٩٥٠) فى دخول الانتخابات، واقتناص عدد من المقاعد مستفيدين بوقف العمل بقانون الأحكام العُرفية فترة إجراء الانتخابات النيابية، وعندما تخلى الحظ عنهم جاء إدراكهم أنهم أمام مهمة إعادة تأسيس وليس أمام مهمة «اقتناص» مقعدين أو ثلاثة فى مجلس النواب، ولعل ذلك كان الإسهام الكبير للرجل الذى وقع عليه اختيارهم، وأبقوا اسمه سرا عن عيون النظام وأجهزة أمنه - حتى تتم البيعة له - وهو المستشار «حسن الهضيبى».

وكان «الهضيبى» كرجل قانون عاش معظم سنوات خدمته على كرسى القضاء مرشدا عاما ثانيا للإخوان مختلفا عن مرشدهم الأول المؤسس «حسن البنا».

وفى حين أن «حسن البنا» كان خطيبا يثير الحماسة فى جمهوره بشعبيته وجاذبيته، فإن «الهضيبى» كان متحدثا يثير الملل لدى سامعيه بحججه وأسانيده، لكن ترسانة «الهضيبى» وليس ترسانة «البنا» - كانت بالضبط ما يلزم للإخوان المسلمين فى تلك الظروف.

وكانت خطة «الهضيبى» - ومن أحاطوا به فى مكتب الإرشاد - خطوة بعد خطوة تدل على تصور مدروس:

١ - رفع قضية أمام مجلس الدولة فترة وقف العمل بقانون الأحكام العُرفية بسبب إجراء الانتخابات النيابية - تطلب إعادة نشاط الجماعة، والحجة «أن قرار الحاكم العسكرى الذى أصدره «محمود فهمى النقراشى» (باشا) رئيس الوزراء سنة ١٩٤٨، استند على قانون الأحكام العُرفية عندما قرر «حل نشاط الجماعة ومصادرة ممتلكاتها وأموالها»، لكن هذا القرار لم يتعرض لإلغاء التصريح بإنشائها، وبالتالى فهذا التصريح قائم، ولا تحتاج الجمعية إلى تصريح جديد حتى تستعيد نشاطها فى ظروف متغيرة - وبالفعل فإن مجلس الدولة أخذ بوجهة نظر محامى الإخوان.

٢ - ثم راح المستشار «الهضيبى» يبعث برسائل طمأنينة إلى كل من يعنيهم الأمر، وكان اهتمامه بادئ الأمر بالوزارة، وذلك حتى لا تعترض على حكم مجلس الدولة فى المدة القانونية المسموح فيها بالاعتراض. وهنا كان «فؤاد سراج الدين» (باشا) فى انتظاره، فهو وزير الداخلية الذى يملك حق الاعتراض فى المهلة القانونية على حكم مجلس الدولة، وفى الواقع فإن «فؤاد سراج الدين» كان على استعداد لعقد صفقة:





وصف «جون هاملتون» - المستشار القانونى للسفارة البريطانية بالقاهرة - «على ماهر» بأنه «تاليران» مصرى مشيرا إلى السياسى الفرنسى الأشهر - والذى كان وزير خارجية لويس السادس عشر قبل الثورة الفرنسية - ثم أصبح وزيرا لخارجية «نابليون بونابرت» - ثم انتهى وزيرا لعصر ثالث عندما عاد البوربون مرة أخرى إلى قصر التويلرى على عهد لويس الثامن عشر



فهو مثله مثل غيره كثيرين يتصور أن «الدين أقدر على مقاومة الشيوعية التى تمثل فى نظره ونظر طبقته من كبار ملاك الأراضى - محرك الخطر الزاحف ودافعه، بشاهد ما يجرى الآن فى الريف المصرى.

يضاف إلى ذلك أن الإخوان المسلمين لديهم القدرة على تكوين تنظيمات فى الشارع السياسى، تستطيع أن تعترض النشاط الشيوعى فى البلد وتحاصره، وإذا استطاع - وهو وزير الداخلية - أن يتوصل إلى صفقة مع الإخوان فإنه يكون قد صاد: عصافير بحجر واحد.

- يضمن قوة تقاوم الشيوعية والشيوعيين.

- ينقل المعركة فى الشارع من كونها مع الوفد أو ضده - إلى معركة بين الشيوعيين والإخوان، فى حين تقف وزارة الداخلية تتفرج على الاثنين - وكلاهما يستنزف قوته.

- وإذا استطاع أن يأخذ الإخوان إلى جانبه، فمعنى ذلك أنه ضمن فى الشارع - سواء أمام القصر أو أمام فرق أخرى متنافسة فى الوفد - صديقا مؤثرا - فاعلا ومقاتلا.

....

....

[وطبقا لشهادة الأستاذ «عبد الفتاح حسن» (باشا) الذى كان وزيرا للدولة فى وزارة الوفد وقوى الصلة بفؤاد سراج، وقد سمعتها منه بعد أن توثقت علاقاتنا خلال ثلاثة شهور قضيناها معا وبرفقة آخرين من الأصدقاء - وضمنهم «فؤاد سراج الدين» (باشا) - فى سجن «مُلحق مزرعة طُرة» ضمن اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ - فهو نفسه («عبد الفتاح حسن») تخوف من «المفاتحات» التى جرت بين «فؤاد» (باشا) وبين الإخوان المسلمين، وقد سأله فيها مباشرة قائلا: «ألا ترى يا «باشا» أن الإخوان المسلمين وحش تصعب مصادقته؟ - ثم ألا ترى أن ظهور الإخوان قريبا من الوفد يمكن أن يسبب إزعاجا لجماهيره الواسعة بين الأقباط؟ - وكان رد «فؤاد سراج الدين» (باشا) وقد اقتنع به «عبد الفتاح حسن» (باشا) «وقتها» - (كذلك أضاف الرجل بأمانة واستقامة - ناسبا اقتناعه إلى زمن معين) - قوله:

«أولا: بالنسبة للوحش، فإن الوحش الذى يعوى معك أفضل من الوحش الذى يعوى عليك.

وثانيا: (أضاف «فؤاد» (باشا)) لقد كان الإخوان وحشا خطرا عندما كان البوليس لا يعرف شيئا عن تنظيماتهم السرية، أما الآن وبعد ما جرى - فإن كل شىء أصبح مكشوفا، فضلا عن أن الإخوان تعلموا الدرس.

وثالثا: فإن الوفد بعلاقة بينه وبين الإخوان المسلمين يستطيع أن «يحتويهم» ويحصر انتشارهم، وذلك أفضل لجماهيره من الأقباط].

....

....

٣ - لكن المستشار «حسن الهضيبى» بعد أن حصل على حكم مجلس الدولة، وضمن عن طريق «المفاتحات» مع «فؤاد سراج الدين» (باشا) أن وزارة الداخلية لن تعترض على عودة الإخوان المسلمين إلى نشاطهم فى ظل شرعية جديدة - ما لبث أن قام بالحركة التالية فى استراتيجيته،

وهي الالتفاف والتوجه نحو القصر. وكان القصر يتابع ما يجرى بين الإخوان ووزير الداخلية بتحفز، وفى اللحظة المناسبة قرر أن يقفز وتقابل القصر والإخوان، وظُهْر ذات يوم كان المستشار «الهضيبى» يتشرف بمقابلة ملكية خرج على أثرها ليصرح للصحفيين بأنها «كانت مقابلة كريمة من ملك كريم».

٤ـ وكانت للمستشار «حسن الهضيبى» خطوة رابعة نصح بها تنظيمات الإخوان، يدعوها إلى العمل فى العلن، وأما العمل فى السر فليس وقته الآن، وحتى عندما وقع استفتاؤه فى موضوع اشتراك عناصر من الإخوان المسلمين فى المقاومة الوطنية الجارية ضد قوات الاحتلال البريطانى فى منطقة القناة ـ كانت فتواه «إن الإخوان عليهم أن يقيموا توازنا بين قوة يصرفونها فى مقاومة الإنجليز (مع غيرهم من فصائل المقاومة) ـ وبين قوة لابد لهم أن يحتفظوا بها حتى لا ينقض عليهم غيرهم ممن يساعدونهم اليوم، لأن قيمة الإخوان فى كل الأوقات تظل مرهونة بقدرتهم.

(وفيما بعد كان هناك من رأوا أن تلك فى الواقع كانت إيماءة المرشد الجديد اعترافا بالنظام الخاص الذى أنشأه المرشد الأول ـ حسن البنا ـ والذى كان الذراع المسلح فى الخفاء للجماعة، ومعنى ذلك أن متطوعى الإخوان كانوا منذورين للمقاومة الوطنية، وأما الجهاز السرى فقد كان مُحتجزا للعمل الداخلى ـ على أن أنصار المستشار «الهضيبى» ينكرون ذلك، ودليلهم أن هذا النظام الخاص داخل الإخوان قام بعملية عصيان علنى ضد «الهضيبى»، وصل فيها إلى حد احتجازه رهينة حتى تُجاب مطالب قدموها له). ▪

٦ / التسابق إلى الهاوية!

▪▪ عندما وقع ذلك الفراغ فى الوسط والقلب من مجال السياسة المصرية، وراحت كل القوى المتناثرة حول الهامش تندفع إلى الداخل لأن قوانين الطبيعة لا تسمح بالفراغ ـ أصبحت الساحة الوطنية خليطا مخيفا من الفوضى.

فالقوى الأصلية التى تراجعت عن «القلب» فى حالة الوئام وفى حالة الخصام، لم تستطع أن تجد لنفسها وسيلة تسترد بها مواقعها الضائعة.

● من ناحية ـ فإن القصر لم يكن قادرا على استعادة زمام المبادرة كمقدمة لنوع من العودة ـ لأن الوقت كان متأخرا، فأسرة «محمد على» كانت من عصر «توفيق» (وضرب الثورة العرابية) ـ وحتى عهد «فؤاد» (ومعاداة الدستور والحركة الوطنية) ـ ضيعت شرعيتها.

وكان أمل الأسرة فى ميلاد جديد يعطيها عُمرا مُضافا (فى أوقات تتساقط فيها العروش الأوروبية ذاتها أمام عواصف الثورة، كما حدث فى الصين وروسيا واليونان والبرتغال) ـ أو أمام عواصف الصراع الإمبراطورى (كما حدث فى النمسا وألمانيا وبلغاريا، وكاد يحدث فى بلجيكا وهولندا والدانمارك لولا معجزة لحظة أخيرة) ـ معلقا بذلك الصبى الذى جاء إلى عرش مصر حسن الطلعة، حلو البسمة، بادى اليقظة يوحى بوعد وبشرى، ومع أن أسرة «محمد على» كانت كارهة بعمق لفرع الملك «فؤاد» وكل ما يمثله، فإنها أقبلت على «فاروق» تحاول أن تتعلق بأذياله إلى مستقبل تظن أنه عمرا جديدا قد كُتِبَ لها.

لكن ما حدَث هو أن الملك «فاروق» خَيَّبْ الآمال، وأكثر من ذلك فتح كل الثغرات التى تستطيع تهديد نظام ملكى.

● ومن ناحية أخرى فإن الوفد لم يكن ـ هو أيضا ـ قادرا على استعادة زمام المبادرة تمهيدا لنوع ما من العودة، والسبب الواضح أن الوفد ـ فى سبيل الوصول إلى السلطة ـ سَلَّم ما كان لديه من أسلحة سواء للإنجليز (فى صفقة ٤ فبراير ١٩٤٢ بالدبابات تحاصر عابدين) ـ أو للقصر (فى صفقة يونية سنة ١٩٥٠ وختم التسليم بتلك القُبْلة التى طبعها «النحاس» (باشا) عهد ولاء على يد الملك «فاروق»).

وربما أن الرجل الوحيد القادر على إنقاذ الوفد كان زعيمه «مصطفى النحاس» (باشا)، لكن الرجل ـ للإنصاف ـ أعطى كل ما عنده، ثم إن المحارب القديم الذى كانه ذات يوم فقد ـ ربما بالسن والمرض ـ كل رغبة فى المقاومة وجاء استسلامه كاملا.

ولم يكن هناك من يحل محل «النحاس» (باشا) لأن انقسام الحزب إلى فرق متنافسة على السلطة، متسابقة إلى المغانم (باستثناء قلة محدودة) ـ أدى إلى حالة ضياع مثير للشجن والخزى، وذلك ما يشعر به أى قارئ للملفات وضمنها الوثائق البريطانية، وبالذات تقريرا كتبه السير «رالف ستيفنسون» إلى وزير خارجيته ـ وفى ذلك التقرير (١٠٤/ ١٠١٨) يقول السفير البريطانى فى القاهرة بالحرف:

«من المدهش أنه لم يعد هناك مصدر قوة للوفد إلا فساده المطلق ـ وتلك ظاهرة من أغرب الظواهر السياسية ولكنها الحقيقة، لأن ذلك الفساد فى الحزب أصبح العنصر الوحيد الذى يجمع كل المستفيدين بمواقعهم فيه ويقرر موقف كل واحد منهم، ويدعوهم جميعا ـ مهما كان ما بينهم ـ إلى المحافظة على البقاء فى الحكم ـ بصرف النظر عن الثمن!».

ويستطرد السير «رالف ستيفنسون» فيقول بالحرف:

«إن فساد حزب الوفد وصل إلى مستوى غير مسبوق فى أى حزب مصرى، فقد تخلى الحزب عن دوره كممثل لتحالف شعبى عريض يعتمد أساسا على الطبقة المتوسطة، وبدلا من ذلك أصبح حزبا من الأغنياء جدا وللأغنياء جدا.

A very rich Party and a Party for "very rich men".

والحزب نفسه يعتمد فى تمويل نشاطه على «عبود» (باشا) ـ لكن كل من فى الحزب يمد يده فى كل ناحية ليحصل على أكثر ما يستطيع أن يطوله ويزيد من غِناه»!

كان مغزى ذلك على الناحيَتين أن القوتين الرئيسيتين فى النظام السياسى المصرى (القصر والوفد) ـ لم تبق لدى أيهما وسيلة ـ وربما إرادة حقيقية ـ فى العودة إلى القلب، لأن مثل هذه العودة تقتضى معركة هائلة مع النفس أولا، ثم مع الطرف الآخر ثانيا ـ لاستعادة الكفاءة والصلابة والعزم التى تُفسح لأى طرف سياسى مكانه على الساحة العامة!

ولم تكن القوى الهامشية التى اندفعت ـ بقوانين الطبيعة إلى ملء الفراغ ـ مستعدة لا بقوة الفكر ولا بقوة الفعل لكى تصنع بديلا:

ـ كانت القوة الأولى ـ فى تقدير الأمن المصرى أيامها وفى تقدير أطراف النظام (القصر والوزارة) ـ هم الشيوعيون. لكن الشيوعيين كانوا معوقين بأوضاعهم.

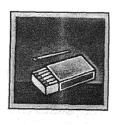
● كانوا أولا ـ مثقلين بالحملة العالمية التى شنتها الحرب الباردة على الشيوعية كعقيدة ـ وكدولة عُظمى تدعى بتجسيد هذه العقيدة.

● وكانوا ثانيا ـ بدون طبقة عاملة كافية فى مصر بسبب ضعف التصنيع ومحدوديته، خصوصا بعد تعثر بنك مصر وأزمته واضطراره إلى طلب تدخل حكومى ينقذه بسرعة من عثرته، سواء كان سببها ضغط الظروف العالمية أو كان نقص الكفاءة فى إدارة البنك. (وقد جرى ذلك فى عهد وزارة «حسين سرى» (باشا) الأولى، وكان الثمن الذى طلبته الوزارة لإنقاذ البنك إقصاء «طلعت حرب» (باشا) رغم أن «طلعت حرب» هو مُنشئ البنك وبانيه).

وبالزيادة على ذلك فإن الوِرَش الضخمة التى أقامتها قوات الحلفاء فى مصر ـ لصيانة معداتها زمن الحرب Ordnnance (واشتهرت وسط عمالها باسم «الأرنوس») ـ فكت عنابرها الكبرى وحملت معداتها إلى مواقع أخرى مع تقدم الحرب، وكان يمكن أن تقوم هذه الورش بدور أساسى فى عملية تصنيع جدى تقوم عليه طبقة عاملة واسعة (وذلك ما حدث فى الهند).

ـ وكذلك كان الشيوعيون فى حالة انكشاف فكرى ومعنوى لأن الحركة الشيوعية لم تستطع أن تستوعب قوة فاعلين رئيسيين: الدين ـ والوطنية.

ـ وأخيرا كان الشيوعيون معوقين بحقيقة أن الأحزاب الشيوعية الرئيسية الثلاثة فى مصر تلك الأيام قامت عليها قيادات من اليهود تمرد



كتب السير «رالف ستيفنسون» السفير البريطانى بالقاهرة إلى وزير خارجيته: «إن فساد حزب الوفد وصل إلى مستوى غير مسبوق فى أى حزب مصرى، فقد تخلى الحزب عن دوره كممثل لتحالف شعبى عريض يعتمد أساسا على الطبقة المتوسطة، وبدلا من ذلك أصبح حزبا من الأغنياء جدا وللأغنياء جدا

عليها صف ثان من الشيوعيين المصريين، والنتيجة أن التنظيمات تفسخت، كما أن خلاياها تبعثرت، ثم إن الاجتهادات الفكرية توزعت حتى أصبحت الحركة الشيوعية فى مصر «جنرالات» بغير «جيوش» - قوادا بغير قوات.

وكان حال الإخوان على النقيض تماما من حال الشيوعيين.



كان الإخوان على النقيض من الشيوعيين - جيوشا بغير جنرالات وقوات بغير قواد! - والأسباب كانت ظاهرة:

- أولا أن العقائد الدينية لها سلطان هائل يدعو المؤمنين إلى خدمة ما يؤمنون به، لكن التاريخ الإسلامى ظلم عقائده بكثرة الرواة والشراح والمفسرين وطلاب الملك وفقهاء العصبية.

- وثانيا لأن العقائد المقدسة تلهم، لكن الإلهام يحتاج إلى مشروعات وخطط، وإذا غابت المشروعات والخطط وكلها من صنع الفكر الإنسانى - فإن غيابها يمكن أن يخلق الأحوال التى حذر منها المرشد العام للإخوان الثانى المستشار «حسن الهضيبى»، حين أطلق شعاره المشهور: «دعاة لا قضاة».

- وثالثا فإنه حتى إذا لم يتحول الإخوان إلى «قضاة» وبقوا فى إطار كونهم «دعاة»، فإن الأمر بالمعروف أمر - وكل أمر ينتظر جوابا، ومعنى ذلك أن الدعوة ليست مجرد تنبيه وإنما هى بعد التنبيه، انتظار لجواب.

- ورابعا فإن اعتماد الدين وحده منهاجا للعمل الوطنى، يقسم الوطن نفسه رأسيا على أساس طائفى، وإذا أصبحت الدولة «إسلامية» فإن أمنها يتوقف على أن يكون - وطنيا.

- وخامسا فإن تعطل الوطنية يأخذ أى بلد خارج حدوده السياسية وخارج إطاره القومى، وهناك تصبح قضايا أمنه وحتى تنميته ومستقبله - مشاعا على آفاق غير محددة وغير معلومة!

وربما أن هذه الأسباب مجتمعة على الناحيتين هى المقادير التى جعلت الشيوعيين والإخوان مثلهم (مهما زاد نفوذهم) - على تناقض ما بين اليسار واليمين - قوى هامشية لا تقدر على ملء الفراغ السياسى فى قلب وطن أو فضاء أمة.

ومهما يكن فإنه من وراء الشيوعيين والإخوان المسلمين اندفعت إلى الفراغ الموحش الذى صنعه اتفاق وانشقاق القصر والوفد - قوى أخرى من أطراف الهامش، فيها خليط متوتر من بقايا أحزاب وتنظيمات سابقة مثل مصر الفتاة (التى غيرت اسمها إلى الحزب الاشتراكى) - ومثل جرائد ومجلات (مثل الملايين والجماهير وغيرها) ظهرت فجأة بظن أن المناخ ملائم لها من تنظيمات، وقد راحت جميعها ترفع لافتات وقف تحتها رجال محبطون، يرفعون شعارات مدوية وأفكارا مرتبكة، لكنها جميعا تحمل أسماء موحية بأكثر من الحقيقة!



كانت كل القوى التى خرجت من «القلب» (مثل القصر والوفد)، وتلك التى اندفعت من هوامش الساحة إلى وسطها (مثل الشيوعيين والإخوان)، وتلك التى جاءت من أطراف الحافة (مثل الحزب الاشتراكى والجرائد الملتهبة بالحماسة التى ظهرت فجأة) - قد تلاقت جميعها على اختلاف ما بينها، وعلى تناقض وسائلها، وعلى اختلاف أغراضها قريبا وبعيدا - من حول القضية الوطنية التى طرحت نفسها بشدة وبحدة، خصوصا بعد أن تعثرت مفاوضات الدكتور «محمد صلاح الدين» فى الوصول إلى حل لمسألة تعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ وبما يحقق لمصر مطلبها «السحرى» وهو مطلب «الجلاء». وكان تعثر المفاوضات قد استدعى بالضرورة كل التجارب السابقة لتحقيق المطلب الوطنى الأسمى، وهى التجارب التى بدأت - عمليا - منذ سكتت مدافع الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥، ثم وجبت - سياسيا وقانونيا - بعد أن حل أجل إعادة النظر فى معاهدة سنة ١٩٣٦، وقد قامت على هذه التجارب - بلا نتيجة - خمس وزارات فى خمس سنوات. والآن سنة ١٩٥١، فإن حكومة تمثل الأغلبية برأسها «مصطفى النحاس» ويتفاوض باسمها الدكتور «محمد صلاح الدين» - وصلت إلى نفس الطريق المسدود، بينما الأجواء الإقليمية (خصوصا فى إيران) ساخنة، والأجواء الدولية (باشتداد الحرب الباردة) حرجة، ثم إن الأوضاع الداخلية فى حالة فوران!

وكادت حالة الفوران تتحول إلى شبه غليان عندما شاع فى المحافل السياسية المصرية مع نهاية موسم الصيف أن الدكتور «محمد صلاح الدين» الذى قابل «النحاس» (باشا) بعد أسبوعين من عودته إلى الوطن بعد مواسم إجازات الصيف - عرض عليه مأزق المفاوضات. وطرح «تصورا» لحسم الموقف وإرغام الطرف البريطانى على أن يكشف أوراقه ويتحمل مسئوليته.

كان الدكتور «محمد صلاح الدين» شبه واثق من أن الطرف البريطانى يتابع تفاعلات الأوضاع الداخلية فى مصر، ويحلم بأنها قد تعفيه من الضغوط التى يمارسها عليه وزير الخارجية - وبالطبع فإن السفارة البريطانية كانت على علم بحلول الشقاق محل الوفاق فى العلاقة بين القصر ووزارة الوفد، وكانت أمنية هذا الطرف البريطانى أن تفرض الأزمة الداخلية نفسها على الساحة قبل أن تتوقف المفاوضات بالكامل، لأن الحكومة البريطانية لم تكن على استعداد - مهما كانت دعاوى المتفاوضين وحججهم وضغوطهم - للجلاء عن مصر إلا إذا احتفظت بقاعدة قناة السويس تحت سيطرتها الكاملة، إما داخل وضع إمبراطورى وإما فى إطار دفاع مشترك يلتحق بحلف الأطلسى، وهو ما بدا أن الدكتور «محمد صلاح الدين» يرفضه واثقا من تأييد «النحاس» (باشا) له نهاية المطاف.

وكانت آخر مماطلات السفارة البريطانية فى تأخير الرد على آخر مقترحات مصرية، أن الحكومة البريطانية القادمة - المحافظين - تحتاج إلى وقت يدرس فيه وزير خارجيتها «أنتونى إيدن» ملفات التفاوض ويقرر بشأنها ما يراه. وكان الإيحاء أن «إيدن» يعرف القضية المصرية كما لا يعرفها غيره، ثم إن رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» من المُقدرين لدور «مصطفى النحاس» (باشا) فى خدمة الحلفاء أيام الحرب العالمية الأخيرة، لكن الدكتور «محمد صلاح الدين» كانت لديه اعتبارات أخرى مؤداها أن «تشرشل» بعودته إلى إدارة شئون الإمبراطورية سوف يكون أكثر تشددا من أى رئيس وزراء عمالى سبقه (كليمنت آتلى).

النحاس باشا — فاروق

نجيب الهلالى — رالف ستيفنسون

كانت فكرة وقف العمل بمعاهدة سنة ١٩٣٦ أو حتى إلغائها اقتراحا جرى طرحه عندما بان تأزم المفاوضات، وعندما سمع «النحاس» (باشا) بالفكرة أول مرة تصدى لها بنفسه وبغضب، ورآها «نوعا من الدس والتشويش على حكومة الوفد»

وفى لقائه مع «النحاس» (باشا) يوم ١٠ سبتمبر ١٩٥١ - طرح الدكتور «محمد صلاح الدين» تصوره ومؤداه:

«إن الوقت قد حان لإعطاء الطرف البريطانى مهلة محددة يتقدم فيها باقتراحات تتفق مع الأمانى المصرية التى أجمع عليها الشعب كله - وإذا لم يحدث ذلك، فإن البديل أمام الجانب المصرى يكون بإيقاف العمل بمعاهدة سنة ١٩٣٦، أو إلغاؤها»، وهنا يكون على الجانب البريطانى كأمر واقع أن يتوقف عن المماطلة - أو يدفع الثمن!

ورد «النحاس» (باشا) على تصور وزير خارجيته بـ: «إن الملك «فاروق» لن يوقع على مرسوم تقدمه الوزارة بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، لأنه عاد إلى عناده - وعناد أبيه القديم - وسوف يجدها فرصة لإقالة الوزارة كى يرضى الإنجليز. ويتعلل أمام الناس بأن وزارة الوفد فشلت لمدة سنة كاملة فى الوصول إلى اتفاق يحقق مطلب الأمة».

ورد الدكتور «محمد صلاح الدين» بهدوء: «إن الملك لن يجرؤ على إقالة الوزارة إذا وضعت أمامه مرسوما بوقف العمل بمعاهدة سنة ١٩٣٦ أو إلغائها، وإلا فهو فى هذه الحالة يتحمل على نفسه مسئولية إقالة وزارة وطنية وضعت الحكومة البريطانية أمام إنذار نهائى».

أضاف الدكتور «محمد صلاح الدين»: «إنه أكثر من ذلك يعتقد أن الملك لن يكون أمامه خيار غير التوقيع إذا تقدمت الوزارة بالمرسوم».

وكانت فكرة وقف العمل بمعاهدة سنة ١٩٣٦ أو حتى إلغائها اقتراحا جرى طرحه عندما بان تأزم المفاوضات، ثم زاد الإلحاح على الفكرة فى أجواء الفوران إلى حد الغليان ربيع وصيف سنة ١٩٥١ - وحدث عندما سمع «النحاس» (باشا) بالفكرة أول مرة أنه تصدى لها بنفسه وبغضب، ورآها «نوعا من الدس والتشويش على حكومة الوفد». ووصل إلى حد القول بأن «الإلحاح على الفكرة رغبة فى التخريب»!

لكنه الآن (١٠ سبتمبر ١٩٥١) استمع إلى وزير خارجيته يعرض عليه تصوراته وتوقعاته. وقد استوقفه فيها اعتبار لفت نظره إلى «أن الملك لن يجرؤ على إقالة الوزارة إذا عرضت عليه مثل هذا المرسوم بوقف أو إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ - وأنه إذا تردد فى التوقيع عليه انكشف وضعف، وإذا وضع توقيعه على المرسوم، فقد أصبح إلى النهاية مرتهنا بسياسات وتصرفات حكومة الوفد».

وكان وصف الدكتور «محمد صلاح الدين» نفسه «إنه أحس وكأن «النحاس» (باشا) يستعيد نفسه وهو يستعيد ما يسمعه من تصورات وتوقعات وزير خارجيته، ويرددها بصوت مسموع ويبدو عليه وكأنه «يمضغها ويبلعها» ويكتشف فيها كل ثانية ميزة إضافية».

وروى الدكتور «محمد صلاح الدين» «أنه حين غادر بيت «النحاس» (باشا) فى الساعة الثانية والربع بعد ظهر ١٠ سبتمبر ١٩٥١، كان شعوره أن زعيم الوفد عاد إليه ذلك «النّاب الأزرق» الذى يعرفه ويعرف صلابته عندما كان يعمل مديرا لمكتبه سنة ١٩٣٦».



وفى النصف الثانى من شهر سبتمبر ١٩٥١، تظهر فى الوثائق البريطانية برقيتان بتوقيع السير «رالف ستيفنسون»:

● البرقية الأولى يقول فيها السفير البريطانى فى القاهرة، موجها الكلام إلى وزير الخارجية بما نصه: «قابلت «النحاس» (باشا) فى بيته يوم ٢١ سبتمبر - ويبدو لى الآن وكأن ما سمعناه حتى من مصادر موثوقة حول إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ليس وشيكا. لقد سلمت للنحاس (باشا) رسالتكم إليه (حول رجاء انتظار الانتخابات البريطانية قبل توقع أى مقترحات جديدة من

لندن)، وقد أدهشنى بوده الزائد تجاهى، ولعله قصد أن يبعث إلىّ برسالة تطمين».

وفى تقريره بعد ذلك أبدى السير «رالف ستيفنسون» استغرابه لأن الود الظاهر للنحاس (باشا) يتعارض مع معلومات تصل إلى السفارة، «بأن الحكومة المصرية لم تعد معنية بأى مقترحات جديدة تتلقاها، «حتى ليبدو كأنهم على استعداد لإعلان رفضهم مقدما بصرف النظر عما يمكن أن نتقدم به إليهم من مقترحات». ثم يضيف «رالف ستيفنسون» «لعله من المفيد أن نسارع إلى إخطارهم بأن لدينا ما نعرضه قبل أن تزداد عليهم الضغوط لإلغاء المعاهدة».

● وفى البرقية التالية - بعد ثلاثة أيام - تتغير الصورة ويكتب السير «رالف ستيفنسون» إلى وزير الخارجية قائلا:

«قابلت الملك «فاروق» اليوم ٢٤ سبتمبر، ووجدته يقول لى: «إن وسائله فى التأثير على قرارات الحكومة محدودة، وأنه على علم بأنهم الآن يعدون مراسيم إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، وإذا قدموها إليه فلن يكون أمامه خيار غير التوقيع عليها».

أضاف الملك «فاروق»: «إنه يعرف ذلك التكتيك التقليدى الذى تتبعه حكومات الوفد، فهى عندما تشعر أن موقفها إزاء القصر يسوء - تبحث عن ذريعة شعبية تخرج بها، وبحيث تُنسب الإقالة إلى مواقف وطنية «اتخذتها الوزارة على غير رِضا العرش أو موافقته».

أضاف الملك «إن «النحاس» يعرف أن هذه معركته الأخيرة، واعتقاده أن زعيم الوفد على استعداد لمجازفة أخيرة وإلى درجة الانتحار - وهو لن يمنعه - بل وليس فى مقدوره أن يمنعه. وإذا حاول فإنه - أى الملك - سوف يضعف نفسه أمام شعبه ويظهر هو متهاونا، بينما «النحاس» هو المتشدد».

والواقع أن الملك «فاروق» كان قد درس موقفه وتأكد من أنه لم يعد أمامه خيار غير أن يترك «النحاس» (باشا) يفعل ما يريد، ثم يتحمل عواقب ما يفعل، وكان الملك - بناء على اقتراح من «حسن يوسف» (باشا) - قد استقبل «نجيب الهلالى» (باشا) سرا وطرح عليه سؤالا: «هل يستطيع «نجيب» (باشا) - وهو الآن «مُحْبَطٌ» ينأى بنفسه عن وزارة الوفد - أن يبذل جهدا إضافيا لينقذ الحزب من نفسه و«النحاس» (باشا) من «بيته»؟!

وأبدى «نجيب الهلالى» (باشا) رأيه بأن - «الوقت تأخر لسوء الحظ».

وكان لدى الملك اقتراح آخر (لم يفصح عن المصدر الذى قدمه إليه) ومؤداه: «إذا كان «نجيب» (باشا) لا يستطيع مباشرة عملية إنقاذ الوفد و«النحاس»، فهل يستطيع إذا كُلِفَ بتشكيل الوزارة فى لحظة أزمة بين القصر والوزارة أن يضمن تأييد كتلة مؤثرة من نواب الوفد تقف معه حِرصا على الوفد وحتى على «النحاس» وإشفاقا من مخاطر انتخابات نيابية جديدة إذا حدثت إقالة الوزارة وتلتها دعوة لانتخابات عامة تجرى فى ظروف غير ملائمة للوفد وأعضائه؟».

وكان رأى «نجيب الهلالى» أن ذلك لم يأتِ وقته بعد (لسوء الحظ أيضا)»!



ويوم ٧ أكتوبر قدم «النحاس» (باشا) إلى الملك «فاروق» مرسوما بإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، ووضع الملك عليه توقيعه، (وأعلنه «النحاس» (باشا) يوم ٨ أكتوبر فى جلسة خاصة عقدها مجلس النواب).

ثم اختار القصر أن ينأى بنفسه بعيدا ويقف ليرقُب مواجهة قادمة بلا شك بين الوفد والإنجليز.

لكن الأمر كان أخطر لأنه لم تكن هناك مواجهة كما توقع البعض، لأن الوزارة أقبلت على «قرار وطنى» أغرتها به اعتبارات حزبية وشخصية فى ظروف هوة واسعة بين القصر والوفد تحولت إلى زحام من الفوضى التهبت فيه نيران الحماسة الوطنية.

على أن العُقْدة فى الموقف ما لبثت أن ظهرت، فقد كانت وزارة الوفد تتصور أن الخطوة التالية فى الأزمة هى الآن فى يد الحكومة البريطانية - لأنها (الحكومة المصرية) اتخذت من جانبها إجراءاتها وقالت كلمتها، وعلى لندن الآن أن ترد.

لكنه فى المقابل تبين أن لندن لا تستطيع أن ترد بمقترحات جديدة لتعديل معاهدة لم تعد قائمة.

وبهذه العُقْدة أصبح الموقف مفتوحا لكل الاحتمالات بما فيها أن تتحول العُقْدة إلى استعصاء لا تظهر فيه بارقة ضوء! ■

٧ / فى انتظار الثورة!

■ ■ كان السفير الفرنسى فى القاهرة تلك الأوقات العصيبة من التاريخ المصرى هو «كوف دى مورفيل»، وأهمية «كوف دى مورفيل» أنه كان الدبلوماسى الأقرب - بكفاءاته ومزاياه - إلى الجنرال «شارل ديجول» رئيس فرنسا الأسطورى ورمز مقاومتها بعد أن استسلمت حكومة فرنسا الرسمية أمام الألمان (يونية ١٩٤٠) - وكانت ثقة «ديجول» فى « دى مورفيل» هى التى دعته فيما بعد إلى اختياره وزيرا لخارجية فرنسا أوائل الستينيات، ثم رئيسا للوزراء منتصف الستينيات. ولم يكن «كوف دى مورفيل» سياسيا شعبيا، وإنما كان واحدا من هؤلاء الناس الذين تتجلى مزاياهم فى إدارة المواقف الصعبة، وتتحمل أعصابهم تداعياتها، وتقدر ملكاتهم الفكرية على النفاذ من سطح الحوادث إلى عمقها، بحثا عن تصور رشيد، وفعل واثق من تقديراته ومتوازن.

وفى ملفات قصر الإليزيه فى باريس تقرير بالغ الأهمية كتبه «كوف دى مورفيل» بوصفه سفير فرنسا فى مصر (مع ملاحظة أن اهتمام فرنسا بمصر تلك الفترة كان متعدد الجوانب: ثقافى (موروث من القرن التاسع عشر) - واستراتيجى (بحكم العلاقة بين شمال البحر الأبيض وجنوبه) - واقتصادى (بواقع وضع فرنسا الخاص فى شركة قناة السويس) - وسياسى (بطبيعة تنافس بريطانى - فرنسى فى الشرق الأوسط ظل فاعلا بعد الوفاق (فاشودة سنة ١٩٠٤) - وبعد تقاسم تركة الخلافة العثمانية بين الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية (اتفاق سايكس بيكو سنة ١٩١٧).

وفى ذلك التقرير بالغ الأهمية الذى كتبه «كوف دى مورفيل» (بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٥١ - والذى يحمل ختم «إدارة مكتب رئيس الجمهورية» بتاريخ ١٥ ديسمبر ١٩٥١) - وإشارة تفيد بأنه «عُرض على رئيس الدولة» - يقول «كوف دى مورفيل»:

«إن السرعة التى تلاحقت بها الحوادث تظهر لأى مراقب أنها حركة تدافع فعل ورد فعل، استدعته أسباب غير موضوعية فى النظر - وفى التعامل - مع الأزمة السياسية بين الحكومة المصرية وحكومة المملكة المتحدة (البريطانية).

ومن الواضح أن أيا من طرفى الأزمة التى استحكمت بسرعة ليس لديه «سيناريو» يوجه خطواته المُقْبِلة، كما أنه ليس هناك منطق عقلانى يبدو حاكما على التصرفات.

وقد تسلسلت الوقائع - فى الفعل ورد الفعل بين الطرفين المصرى والبريطانى - على النحو التالى:

- يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١ - أعلن رئيس الوزراء «مصطفى النحاس» إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، وفتح إعلانه بعبارة حماسية فيها «إنه هو الذى وَقَّع المعاهدة فى صالح مصر، وهو نفسه الذى يلغيها الآن لنفس السبب وهو صالح مصر».

- يوم ٩ أكتوبر ١٩٥١ - أصدر وزير خارجية المملكة المتحدة (البريطانية) بيانا مقتضبا أعلن فيه أن حكومته لا تعترف لا بحق مصر فى إلغاء المعاهدة ولا بقانونية الإجراء الذى أقدمت عليه بإلغائها.

أحمد حسين

حافظ عفيفى

- ويوم ١١ أكتوبر ١٩٥١ - وجهت حكومة المملكة المتحدة (البريطانية) تحذيرا للحكومة المصرية تحملها فيه المسئولية كاملة عن حياة الرعايا الأجانب وعن ممتلكاتهم، لأن إلغاء المعاهدة من جانب واحد والأجواء التى صاحبت الإلغاء، أطلقت العنان لمشاعر مُعادية للأجانب، مما أدى بالفعل إلى وقوع حوادث.

- يوم ١٤ أكتوبر ١٩٥١ - تلقينا فى هذه السفارة (السفارة الفرنسية فى القاهرة) - تقريرا من مكتب المدير المقيم لشركة قناة السويس يفيد أن عددا من موظفى الشركة تعرضوا لاستفزازات واعتداءات استوجبت قرارا منه يطالب كل العاملين فى الشركة بالتزام الحذر، وأن يبتعدوا قدر الاستطاعة عن «الأحياء العربية» وعن أماكن الزحام فى «بورسعيد» و«الإسماعيلية» و«السويس» - تجنبا لأى احتكاك وحِفاظا على سلامتهم، مع العلم بأن هناك اعتداءات وقعت على منشآت فرنسية، بينها مكتب الغرفة التجارية الفرنسية فى الإسماعيلية.

- يوم ٢٠ أكتوبر كتب القُنْصل الفرنسى العام فى الإسماعيلية إلى السفارة يقول: «إن جماعات وفرقا كثيرة من المهيجين المحليين أو القادمين من القاهرة أخذت القانون فى يدها وراحت تحرض على عنف لا تظهر له «بؤرة» تؤثر فى «الأفعال» وتوجهها. ويظهر أنه فى غيبة سياسة حكومية تخطط وتضبط بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ - فإن كل جماعة من «المُهيجين» انطلقت «تفعل» ما تراه مطلوبا أو متلائما مع أوضاعها ووسائلها، وذلك خلق حالة تهديد ليس له مركز يمكن التوجه إليه بخطاب أو بطلب إجراء!

- إن الحكومة البريطانية كانت لديها خطتان لمواجهة أحوال طوارئ فى مصر، وكما تعرفون أن الحكومة البريطانية فى إطار التنسيق المشترك معنا ومع الولايات المتحدة - أعلمتنا باستعداداتها:

● فهناك الخطة المختصرة «القاعدة الثابتة» (Firm Base) وهى تقضى باحتلال كل محافظات القناة، وإعلان حكم عسكرى فيها يتحول عند اللزوم إلى حكومة عسكرية - تنفصل بها المنطقة بالكامل عن العمق المصرى.

● كما أن هناك الخطة الأوسع المسماة

«روديو» (ترويض الحصان الجامح) وهى تشمل إلى جانب احتلال محافظات القناة - تقدم القوات البريطانية لاحتلال دلتا النيل كلها ودخول القاهرة وذلك فى حالتين:

- حالة ما إذا ظهر تهديد على حياة ومصالح الأجانب والأقليات فى العاصمة المصرية.

- وحالة ما إذا كان توسيع العملية ضروريا لتدعيم الموقف فى محافظات القناة.

يستطرد تقرير «كوف دى مورفيل» يقول:

«إننا فى إطار لجنة تنسيق سياسات الشرق الأوسط (التى يلتقى فيها سفراء فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة) - توصلنا إلى مجموعة من التوصيات اتفقنا أن نعرضها على حكوماتنا:

أولا - إنه من الخطر فى الوقت الراهن طرح عملية «روديو» (احتلال الدلتا بما فيها القاهرة) للاعتبار - فتلك عملية كبرى لا تقتضيها حتى الآن حدود الظرف الراهن، ومن الممكن أن تعتبر هذه الخطة - التى تعرف بها الحكومة المصرية سيفا مسلطا على رقبتها - بما يعنى أن تلك الحكومة على وعى مُسْبَق بأن سياساتها سوف تؤدى إلى احتلال كل الأرض المصرية - وذلك عامل ردع له قيمته يفرض على الحكومة المصرية أن تبذل جهدها لتكبح جماح القوى التى أطلقتها من عقالها وشجعتها بغير مسئولية على الانفلات - مع العلم بأن هذه مهمة بالغة الصعوبة لأنها تنطوى على تناقض جوهرى بين ما ذهبت إليه الحكومة المصرية بإلغاء المعاهدة فى جو من التحريض الشديد - وبين ما تفرضه مسئوليتها إزاء المخاطر المحتملة من التمادى فى سياساتها إلى النهاية، ومع ذلك فإنه من الأسلم انتظار التطورات والرد عليها فى حينه.

وكانت العوامل التى دعتنا إلى اتخاذ هذه التوصية بالذات:

١- أن تنفيذ الخطة «روديو» قد يضع الملك «فاروق والحكومة المصرية أو ما تبقى منها - فى مأزق لا مخرج منه، بحيث يضطر كلاهما نهائيا إلى عدم التعاون مع السياسات الغربية كلها وليست البريطانية فقط.

٢- أن هناك احتمالات تتزايد الآن بأن الجيش المصرى العائد من فلسطين يمكن أن يتدخل لمقاومة القوات البريطانية فى زحفها نحو الدلتا وفى اتجاه القاهرة، وذلك يجعل الخطة «روديو» أكثر صعوبة مما كان متوقعا عندما جرى تصميمها وتخصيص القوات اللازمة لتنفيذها.

٣- إن غزو الدلتا والقاهرة يمكن أن يحول المشكلة المصرية إلى أزمة إقليمية وعالمية تخرج عن حدودها بالتفاعل مع الأوضاع القائمة فى فلسطين وإيران والشرق الأقصى.

ثانيا - وقد توصلنا إلى أنه من الألزم قصر الإجراءات العسكرية البريطانية الآن على منطقة قناة السويس كأولوية أولى، لأن القاعدة البريطانية هناك يمكن أن تكون هدفا لمحاولات تخريب ولنوع من حرب العصابات يستطيع تطوير نفسه بالتجربة، أو بمجىء عناصر خارجية تتسلل إلى المنطقة تحت شعارات مقاومة الاستعمار.

ثالثا - لقد وقع اتفاق فى الرأى بيننا على أن التصرفات السياسية المصرية فى هذه اللحظة غير منطقية، وفى الواقع فإنها أقرب إلى أن توصف بـ «الاندفاع إلى الانتحار» - على طريقة الدكتور «محمد مصدق» فى إيران.

وعليه وحتى تتضح الصورة أكثر فإننا نرى الآتى:

- العمل على تخفيف حدة الأزمة الحالية وتبريد درجة حرارتها قدر الإمكان.

- تأجيل أى قرار بشأن العملية العسكرية «روديو» وتركها تهديدا معلقا.

- البدء على الفور بترحيل رعايا بلادنا من كبار السن ثم بعد ذلك غيرهم، بحيث لا تكون هناك دواع ملحة لبقائهم فى مصر.




كان تقرير «كوف دى مورفيل» وصفا للحالة من موقع سفير أجنبى لدولة كبرى فى القاهرة - ومع أنه كان دقيقا، إلا أن الأحوال على الأرض فى منطقة قناة السويس كانت أسوأ - ذلك أنه مع غياب خطة لمواجهة ما بعد إلغاء المعاهدة، فإن التنظيمات والجماعات المبعثرة والمختلفة والتى التقت كلها حول القضية الوطنية، هرعت جميعا إلى الساحة تجرب حظوظها، وكانت المشكلة أن الأعلى صوتا بينها - والأقل فعلا - هى التى ظهرت على الساحة المضطربة (وذلك منطق أحوال الفوضى).

كانت خطة كل تنظيم أن يعلن ما يشاء من النداءات، وأن يطرح ما يوافقه من الشعارات، وأن يذيع الأخبار عما أحرزه من انتصارات دون روية أو تدقيق أو حساب، عارفا أنه فى مثل ذلك الزحام يستطيع كل طرف أن يقول ويسرد ويحكى دون ضابط أو رابط أو رقيب، لأن أحدا ليس فى وسعه أن يتابع ويرصد وينسب فعلا حقيقيا لأصحاب حقيقيين قاموا به!

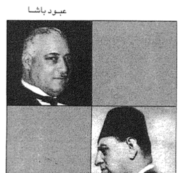
ومع أنه كانت هناك عمليات مقاومة لها قيمة، إلا أن نطاقها ظل محصورا بسبب قوة السيطرة العسكرية البريطانية، التى تسندها إمكانيات ووسائل قاعدة قناة السويس، وهى - وقتها - أضخم القواعد العسكرية فى العالم.

وعلى سبيل المثال، فإنه حين أعلن عمال الشحن فى موانئ القناة إضرابهم عن تفريغ شحنات الإمداد والتموين الواردة إلى القاعدة - حل محلهم بسرعة جنود من الجيش البريطانى (معظمهم من قوات المستعمرات).

وحين بدأت الحكومة تهدد بقطع خطوط المواصلات من الداخل المصرى إلى منطقة قناة السويس (خصوصا من المواد التموينية) - ألمحت الحكومة البريطانية إلى أنها سوف توقف تدفق البترول من معامل التكرير التابعة لشركة «شل» فى السويس إلى القاهرة وغيرها من مدن مصر (وكان لابد من إعادة التقدير).

وحين أعلنت الحكومة أنها سوف توقف وصول المياه العذبة (من نهر النيل) إلى المعسكرات - فإن الحكومة البريطانية أعلنت أنها سوف تعرقل وصول أية إمدادات - بما فيها الطعام والشراب - عن الجيش المصرى

عبود باشا



محمد حيدر باشا



إن حجم المقاومة فى منطقة قناة السويس ظهر على صفحات جرائد الأحزاب والتنظيمات والتجمعات أكبر مما فعل على أرض الواقع، كذلك فإن البيانات التى تسابقت إليها كافة الأطراف، غطت على قيمة أعمال حقيقية قامت بها جماعات من الشباب، وصل إنكارها لذاتها إلى درجة عدم إعلانها عن نفسها ولا عما تقوم به



المرابط وراءها - شمال سيناء - على الحدود فى مواجهة إسرائيل.

وباختصار فإن حجم المقاومة فى منطقة قناة السويس ظهر على صفحات جرائد الأحزاب والتنظيمات والتجمعات أكبر مما فعل على أرض الواقع، كذلك فإن البيانات التى تسابقت إليها كافة الأطراف، غطت على قيمة أعمال حقيقية قامت بها جماعات من الشباب، وصل إنكارها لذاتها إلى درجة عدم إعلانها عن نفسها ولا عما تقوم به.

....

[وأتذكر شخصيا أننى كنت خارج مصر عندما أُلغيت معاهدة سنة ١٩٣٦ (يوم ٨ أكتوبر ١٩٥١)، وتلقيت حيث كُنت خطابا من الصديق الغالى الأستاذ «كامل الشناوى» قال لى فيه:

«ما الذى يدعوك إلى أن تكون الآن خارج مصر تغطى معارك الآخرين، بينما وطنك هنا فى معركة تستحق منك أن تبادر إلى ميدانها؟».

واستجبت لدعوته وعُدتُ سريعا إلى القاهرة، وفى اليوم التالى قصدت إلى منطقة قناة السويس، واتصلت بعدد من التنظيمات العاملة فى مقاومة الاحتلال، ثم ذهبت مع واحدة منها لدورية ليل عُدت منها قُرب الفجر ولم أر شيئا سوى دائرة من الطباشير الأبيض قُرب حاجز الأسلاك الشائكة حول معسكر بريطانى فى منطقة «فايد»، وداخل الدائرة عبارة - بالطباشير أيضا - وبالخط الكبير تقول: «كتائب التحرير مرت من هنا».

وبعد أيام عُدت إلى القاهرة لأكتب افتتاحية لمجلة «آخر ساعة» (وكنت مسئولا عن تحريرها) - أُبْدِى تخوفى من المبالغات التى تحيط بعمليات المقاومة فى منطقة القناة. وختمت ما كتبت قائلا: «إننى لم أفهم حتى الآن لماذا اكتفت «كتائب التحرير التى مرت من هنا» بأن تسجل بالطباشير الأبيض «مرورها»، ولماذا لم تسجل ذلك مثلا بإلقاء قنبلة تترك علامة أكثر مدعاة للاحترام وألزم لمصداقية كتائب التحرير التى مرت من هنا!»].

....

....

والذى حدث أن الحكومة البريطانية - رغم ضيقها ببعض عمليات المقاومة - لم تجد داعيا إلى احتلال مدن القناة بالكامل، وإخضاعها لحكم أو حكومة عسكرية تجد نفسها مسئولة عن إدارة المنطقة بما فى ذلك من توفير الخدمات والسلع لسكانها، وبدلا من ذلك راحت تقوم بإجراءات مطاردة وتمشيط لبعض القرى والمدن التى تعرف أن جماعات المقاومة تتخذها قواعد لعملياتها: على الأرض - أو على الورق!

....

....

[وأتذكر أننى فى ذلك الوقت حضرت فى مدينة «بلبيس» مؤتمرا صحفيا دعا إليه الأستاذ «أحمد حسين» زعيم الحزب الاشتراكى (مصر الفتاة سابقا)، وكان ملخص ما قاله «أحمد حسين»: «إن جماعته وغيرها من جماعات المقاومة أصبحت ترى نفسها مكشوفة بغير غطاء أمام قوات الاحتلال البريطانى، وأن الحكومة المصرية التى ألغت المعاهدة لم توفر لهذه الجماعات أى غطاء سياسى ولم توفر لها دعما بالسلاح والذخائر والمؤن، وذلك تقصير يجعل القاهرة نفسها أولى بالتحرير من مدن القناة، لأن أساس المشكلة هناك».

ولاحظ الأستاذ «أحمد حسين» وجودى ضمن عدد من المراسلين المصريين والأجانب الذين جاءوا ليسمعوه، وقصد نحوى بعد انتهاء المؤتمر يحدثنى عن «افتتاحية آخر ساعة» التى أبديت فيها رأيًا عن «كتائب التحرير التى مرت من هنا»، وتصورت أنه سوف يكون مُعاتبا، لكن ما حدث أنه دعانى إلى العشاء معه فى بيت أحد أنصاره فى «بلبيس»، وجلست أسمعه حتى الواحدة والنصف صباحا. ولم تكن جماعة «أحمد حسين» وحدها هى التى تركت منطقة القناة عائدة إلى القاهرة،

فى انتظار ثورة!

وإنما تصرفت مثلها جماعات أخرى، وكذلك استدار الزحف غير المنظم عائدا إلى القاهرة!

وكانت الصورة فوضى شاملة!

....

....

[وأتذكر أيضا أنه فى تلك الأوقات خطر على فكرى أننى أخطأت تقدير موضع الاحتكاك بين مصر وبريطانيا بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ (وفيها اتفاق الحكم الثنائى للسودان بين مصر وبريطانيا) - وراودنى أنه كان يجب أن أذهب إلى «الخرطوم» وليس إلى الإسماعيلية إذا كنت أبحث عن ذروة الأزمة. وكان السبب الذى دعانى إلى التفكير فى الخرطوم: توقع أن يقوم الإنجليز فى العاصمة السودانية بترحيل كتيبة الجيش المصرى المقيمة هناك، والتى كان يقودها اللواء «البشارى» - كما فعلوا بعد إنذار اغتيال السردار السير «لى ستاك» (سنة ١٩٢٥)، وحين كان إنذارهم إلى «سعد زغلول» هو ضرورة خروج آخر جندى من الجيش المصرى بالكامل من السودان.

وعُدت من الإسماعيلية طائرا إلى الخرطوم أتمنى أن لا تسبقنى الحوادث وتتحرك قبل أن أتواجد هناك لأراقب.

ومرة ثانية لم يحدث ما توقعت أو ما انتظرت، فالكتيبة المصرية موجودة فى ثكناتها لم يصلها شىء من أى طرف (بما فى ذلك رئاسة الأركان فى القاهرة)، وقائدها اللواء «البشارى» يواصل عمله فى مكتبه كعادته كل يوم. وأسوأ من ذلك أنه كانت هناك اتصالات تجرى بين السلطات البريطانية وبين القوى والأحزاب السودانية لترتيب مستقبل السودان بعيدا عن التاج المصرى.

وذهبت أقابل السياسى السودانى الكبير الأستاذ «محمد أحمد محجوب» وإذا هو يبادرنى بقوله:

«من أين جئتم بحكاية وحدة السودان تحت التاج المصرى، ومن قال إننا نريد تاجا، وتاجا مصريا بالذات؟».

ثم أضاف:

«يا أخى نحن بلدان مختلفان، ثم استشهد ببيت من الشعر (وكان هو شاعرا مجيدا) - يقول:

ولو أننا على حجر ذبحنا
جرى الدميان بالخبر اليقين!

أى أن الدماء المصرية والدماء السودانية لا تختلط حتى على المذبح!».

ورتب لى السيد «محمد أحمد محجوب» مقابلة مع الإمام الكبير السيد «عبد الرحمن المهدى» (باشا) - وكان سؤالى الأول له:

«إذا تتفاوضون مع الإنجليز وليس مع مصر فى شأن مستقبل السودان؟».

ورد على الإمام الداهية بقوله:

«لماذا تريدنا أن نتحدث فى شأن مستقبلنا مع المصريين وليس مع البريطانيين؟».

ثم استطرد بهدوء قائلا:

«يا ولدى إن السيد الإنجليزى جاءنا إلى هنا (يقصد إعادة فتح السودان بجيش مصرى يقوده الجنرال البريطانى «كيتشنر») - راكبا عربة مصرية تجرها جياد مصرية وتدفعها من خلف أيد مصرية ويحف بها من الناحيتين حرس مصرى، فمع من تريد للسودان أن يتحدث عن مستقبله؟ مع العربة - أو مع الحرس من الخلف والجانبين - أو مع الجياد التى تُجر؟».

قالها السيد «عبد الرحمن المهدى» (باشا) وسكت وعلى شفتيه ظل ابتسامة أحَدّ من نصل سيف.

(ونشَرْتُ ذلك الحديث فى جريدتى: أخبار اليوم وآخر ساعة).

وعُدت من الخرطوم كما عُدت من الإسماعيلية أسائل نفسى:

«أين يظهر مفعول الأزمة - ومتى؟!».]

....

....



كانت القاهرة تغلى كأنها إناء كبير على نار موقدة!

وكان الملك «فاروق» قد سارع بتعيين «حافظ عفيفى» (باشا) رئيسا لديوانه، لأنه أحس مرة أخرى بحاجته المُلحة إلى عازل بينه وبين الوزارة.

وينقل «عبود» (باشا) إلى السفير البريطانى فى القاهرة (طبقا لتقرير من السير «رالف ستيفنسون» إلى حكومته) إنه سمع من «فؤاد سراج الدين» (باشا) «أن هناك تفكيرا فى تهدئة الأمور بنقل الدكتور «محمد صلاح الدين» من وزارة الخارجية إلى منصب وزارى آخر، وفى الغالب فإنه هو نفسه («فؤاد سراج الدين») سوف يتولى وزارة الخارجية، ثم يضيف «عبود» (باشا) فيما نقله إلى السفير البريطانى على لسان «فؤاد سراج الدين»: «إن صلاح الدين قاد الوزارة والبلد كلها إلى مأزق مستحيل، ولم يعد أمامه حل إلا أن يترك وزارة الخارجية أو يستقيل من الحكومة».

ولعل أغرب ما تضمنته تقارير السفارة البريطانية تلك الساعات، ما كتبه السير «سيسيل كامبل» عميد الجالية البريطانية فى مصر، وكان وقتها حلقة الاتصال بين القصر والحكومة وبين السفارة، مع توتر العلاقات الرسمية بين الطرفين - المصرى والبريطانى - وانقطاع الاتصالات بعد إلغاء المعاهدة - وفى هذا التقرير قال السير «سيسيل كامبل»:

«إن «محمد شعراوى» (باشا) (مليونير مصرى وإقطاعى كبير وابن وحيد لعلى (باشا) شعراوى زميل «سعد زغلول» و«عبد العزيز فهمى» - فى مقابلة المعتمد البريطانى فى مصر السير «وينجت» (باشا) يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٩ (وهو اليوم الذى اعتبر عيدا للجهاد الوطنى) - اتصل به (بالسير «سيسيل كامبل») يبلغه رسالة هامة مؤداها:

«أنه إذا كان فى نية الحكومة البريطانية أن تحتل الدلتا وتدخل القاهرة، فإن عليها أن تُخطر الفريق «محمد حيدر» (باشا) القائد العام للقوات المسلحة مسبقا بنواياها على الأقل بيومين، حتى يضمن «حيدر» (باشا) إبعاد قوات الجيش المصرى عن بعض المواقع التى يُحتمل أن يقع فيها صدام - لأن مشاعر الجيش العائد من فلسطين مستفزة، وقد تقع حركة خاطئة ولو بسوء الفهم تؤدى إلى اشتراكه فى المقاومة المسلحة ضد الجيش البريطانى، وذلك موضع احتكاك خطر لابد من تفاديه!».

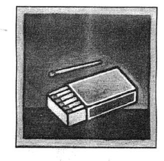
ولعل احتمال مثل هذا الصدام مع جيش مجروح عائد من فلسطين ووسط شعب موجوع بما أحاط به من أزمات - قوّى عزم الحكومة البريطانية على تأجيل خطة «روديو».

وهنا راحت الحكومة البريطانية - وبالطبع غيرها من الحكومات - تراقب مواكب العائدين من منطقة القناة فرقة بعد فرقة، وجماعة بعد جماعة، عائدين بالمرارة والإحباط إلى عاصمة زادت عليها حمولات الأزمة!

ويلتقى السير «رالف ستيفنسون» السفير البريطانى فى القاهرة بحافظ عفيفى (باشا) رئيس الديوان الملكى الجديد (٥٢٥٨/١١/١١/١٠١١) ويتوجه إليه مباشرة بسؤال: «هل ترانا على حافة ثورة فى ظرف شهور؟».

ويرد رئيس الديوان الملكى:

«أخشى أن الثورة الآن ليست مسألة شهور وإنما مسألة أسابيع!».





إرهاب الرد على الإرهاب

نعوم تشومسكي

من المؤكد أن الحادى عشر من سبتمبر سوف سيسجل على أنه يوم فارق فى تاريخ الإرهاب. فقد أدينت الفظائع التى حدثت فى ذلك اليوم فى أنحاء العالم كله بوصفها جرائم خطيرة ضد الإنسانية، مع إجماع يكاد يكون كاملاً على أنه يجب على الدول كافة أن تعمل «على تخليص العالم من مرتكبى الأعمال الشريرة»، وأن «كارثة الإرهاب الشيطانية» - خاصة ذلك الإرهاب العالمى الذى ترعاه الدولة - وباء نشره «الأعداء الجبناء للحضارة نفسها» فى محاولة منهم «للعودة إلى البربرية»، وهو أمر لا يمكن القبول به. أما فيما وراء التأييد القوى لتصريحات القادة السياسيين للولايات المتحدة، فإن التحليلات التى اقتُرحت لتفسير ذلك الحدث تختلف: فيما يخص السؤال المحدد عن الرد المناسب على الجرائم الإرهابية، وفيما يخص المشكلة الأوسع التى تتعلق بتحديد طبيعة هذه الجرائم. وفيما يخص المسألة الثانية تحدِّد التعريفات الأمريكية الرسمية «الإرهاب» بأنه «الاستعمال المخطَّط له للعنف أو التهديد باستعمال العنف من أجل تحقيق أهداف سياسية أو دينية أو أيديولوجية من حيث طبيعتها. وذلك باستخدام التهديد أوالابتزاز أو بَذر الخوف». ويترك هذا التعريف عددا من المسائل معلَّقة، ومنها، مدى قانونية الأعمال التى يقصد منها تحقيق «تقرير المصير، والحرية، والاستقلال، التى يضمنها ميثاق الأمم المتحدة، وهى الأعمال التى يلجأ إليها أولئك الذين حرموا من ذلك الحق.. «خاصة أولئك الذين يرزحون تحت أنظمة ذات طبيعة استعمارية أو عنصرية أو تحت احتلال أجنبى».

وقد أيدت الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٨٧ فى واحدة من أقوى إداناتها لجريمة الإرهاب مثل هذه الأعمال، وكانت نتيجة التصويت في تلك الجلسة ١٥٣ صوتا ضد صوتين. وفسَّرت الولايات المتحدة وإسرائيل تصويتهما ضد ذلك القرار احتجاجا بالنص الدقيق لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة الذى أوردناه هنا. فقد فُهِم هذا النص على أنه يسوغ المقاومة ضد نظام جنوب أفريقيا السابق، الذى كان حليفا للولايات المتحدة، وكان مسئولاً عن قتْل أكثر من مليون ونصف المليون وتدمير ما قيمته ٦٠ بليون دولار فى الدول المجاورة فيما بين ١٩٨٠ و١٩٨٨ فقط، هذا إذا غضضنا النظر عن ممارسات ذلك النظام فى الداخل. وكان يقود تلك المقاومة نيلسون مانديلا رئيس المؤتمر الوطنى الأفريقى، وهو «واحد من أكثر الجماعات الإرهابية فظاعة» كما ورد فى تقرير أصدره البنتاجون فى سنة ١٩٨٨، فى مقابل حزب رينامو الموالى لحكومة جنوب أفريقيا العنصرية الذى وصفه التقريرُ نفسه بأنه «ليس إلا جماعة من المتمردين المحليين» فيما يلاحِظ أن هذه الجماعة ربما كانت مسئولة عن مَقتل مائة ألف مدنى فى موزمبيق فى السنتين السابقتين. وقد فُهم النص نفسُه على أنه يسوغ مقاومة الاحتلال العسكرى الإسرائيلى، الذى كان فى سنته العشرين، وكان مستمرًا فى الاستيلاء على الأراضى فى المناطق «الفلسطينية» المحتلة، وفى ممارساته الفظيعة مدعوما بمساعدات الولايات المتحدة الحاسمة وبتأييدها الدبلوماسى، وتمثَّل الدعم الدبلوماسى الأمريكى بمعارضته الإجماعَ الدولى المستمر لسنين طويلة على وجوب إيجاد حل سلمى.

وعلى الرغم من مثل هذه الاختلافات الأساسية، فالتعريف الرسمى الأمريكى «للإرهاب» يبدو لى كافيًا من أجل الأغراض التى سأتحدث عنها، مع أن هذه الاختلافات تلقى ضوءًا على طبيعة الإرهاب، كما يُنظر إليه من وجهات النظر المختلفة.

دعونى أعد إلى مسألة الرد الملائم. فالبعض يحتج بأن شر الإرهاب «مطلَق» وأنه يستحق «سياسة تماثله فى الإطلاق» للرد عليه، ويبدو هذا كأنه يعنى هجوما عسكريا وحشيا تبعا للمبدأ الذى وضعه بوش، الذى يورَد مشفوعًا بمَا يُشبه الموافقة فى الكتاب الذى يضم الأبحاث الأكاديمية التى تناقش «عصر الإرهاب».. «فإذا وفَّرت ملاذًا للإرهابيين، فأنت إرهابى! وإذا قدمت مساعدة للإرهابيين أو حرَّضتَهم، فأنت إرهابى - وسوف تعامَل كواحد منهم» - ويعكس هذا الكتاب الذى صدر العام الماضى رأيًا سائدًا فى الغرب يأخذ ردَّ الولايات المتحدة وبريطانيا على أنه ملائم وأنه «صِيغَ بعناية»، لكن مدى ذلك الإجماع محدود فيما يبدو، إذا فحصنا الدليل المتوفر، وهو ما سأعود إليه.

وعلى وجه أكثر عمومية، فربما يكون من الصعب أن نجد أحدا يقبل بالمبدأ الذى يقضى بأن الهجوم الجوى الكاسح هو رد ملائم على الجرائم الإرهابية - سواء أكانت الجرائمَ التى حدثت فى الحادى عشر من سبتمبر، أو حتى ما يكون أسوأ منها، وهى التى ليس من الصعب أن نجدها، مع الأسف. ويصح هذا إن نحن تبنينا مبدأ التعميم «الكلِّية»: أى إن كان ما حدث صحيحًا (أو خطأ) بالنسبة للآخرين فهو صحيح (أو خطأ) بالنسبة لنا. أما أولئك الذين لا يرقون إلى الحد الأدنى للمستوى الأخلاقى الذى يقضى بتطبيق المعايير التى يطبقونها على الآخرين على أنفسهم هم - بل تطبيق المعايير الأكثر صرامة على أنفسهم، حقيقةً - فلا يمكن، أبدا، أخذهم بجد حين



يصف أحد الأكاديميين المشهورين الثمانينيات بأنها عقد «إرهاب الدولة»، وعقد «قيام الدولة المتواصل بـ«الإرهاب»، أو رعايتها له، خاصة ليبيا وإيران». أما ما تقوم به الولايات المتحدة فلا يزيد عن كونه ردًا على الإرهاب، عن طريق تبنيها «موقفًا نشيطًا تجاه الإرهاب»!



يتكلمون عن ملاءمة الرد: أو الصح والخطأ، أو الخير والشر.



لننظر الآن فى بعض الحجج القانونية التى قُدمت لتسويغ الهجوم الجوى الذى نفذته الولايات المتحدة وبريطانيا على أفغانستان؛ وأنا هنا لست مهتمًا بقوة هذه الحجج، لكنى مهتم فقط بمقتضياتها، إن كان للمبادئ النموذجية للمعاملة بصورة تعميمية أن يُعمل بها. فيحتج كريستوفر جرينوود بأن للولايات المتحدة الحق فى «الدفاع عن النفس» ضد «أولئك الذين تسببوا فى موت مواطنيها أو هددوهم بالموت أو الخراب»، مستشهدًا بقرار محكمة العدل الدولية الذى اتخذته فى حالة نيكاراجوا. لكن الفقرة التى أوردها إنما تنطبق بشكل أوضح على حرب الولايات المتحدة ضد نيكاراجوا بدلاً من انطباقها على طالبان أو القاعدة، لهذا فإذا ما لجأ إليها لتسويغ هجوم الولايات المتحدة الجوى الكاسح وهجومها البرى فى أفغانستان، فقد كان يحق لنيكاراجوا، إذن، القيام بعمليات هجوم أكثر عنفًا ضد الولايات المتحدة. كما يؤيد أستاذ محترم للقانون الدولى، وهو توماس فرانك، حرب الولايات المتحدة وبريطانيا «فى أفغانستان» انطلاقا من أن «أية دولة مسئولة عن نتائج السماح باستخدام أراضيها لإيذاء دولة أخرى»؛ وهذا قول جيد، ومن المؤكد أنه ينطبق على الولايات المتحدة فى حالة نيكاراجوا، وكوبا، وعدد كبير آخر من الأمثلة، ويشمل ذلك بعض الحالات التى بلغت حدا كبيرا من العنف.

ولسنا بحاجة إلى القول هنا، أنه لا يمكن للعنف فى أىٍّ من هذه الحالات مما يَدخل تحت مسمى «الدفاع عن النفس» ضد الأعمال المستمرة من «الموت والتدمير» أن يكون مقبولا بأية حال، لاحظ أنها «أعمال من العنف» لا تهديدًا به.

ويصح الشيء نفسه فى بعض الاقتراحات الأكثر عمقا للرد الملائم على الفظائع الإرهابية. فيقترح المؤرخ العسكرى مايكل هاوارد «عملية بوليسية تحت مظلة الأمم المتحدة. ضد المؤامرة الإجرامية التى يجب أن يُتعقب أعضاؤها ثم يُحضَرون أمام محكمة دولية، ويحكم عليهم بأحكام عادلة». وهذا اقتراح معقول إلى درجة كبيرة، لكن فكرة أنه ينبغى أن يُطبَّق هذا الاقتراح بصورة تعميمية أمر مما لا يمكن التفكير فيه. فيحتج مدير مركز سياسات حقوق الإنسان فى جامعة هارفارد أن «الرد المناسب الوحيد على أعمال الإرهاب يتمثل فى عمل بوليسى أمين ومحاكمة قانونية فى المحاكم القانونية، ويقرن هذا العمل باستعمال مصمِّم، ومركَّز، لا هوادة فيه للقوة العسكرية ضد أولئك الذين لا يمكن القبض عليهم أو لا يمكن أن يقدموا للعدالة». وهذا يبدو أمرا معقولا كذلك، إذا ما أضفنا الشروط التى اقترحها هاوارد الخاصة بالإشراف الدولى، وإذا لم يُلجأ إلى القوة العسكرية إلا بعد استنفاد الوسائل القانونية. لكن هذا الاقتراح لا ينطبق على ما حدث فى الحادى عشر من سبتمبر (ذلك أن الولايات المتحدة رفضت أن تقدم أى دليل واعترضت على كل الاقتراحات الخاصة بنقل المتهمين).

وإذا ما عدنا إلى مسألة «الرد المسئول»، فمن المحتمل أنه لن تجلب الدعوة لتطبيقه فى المقام الملائم لتطبيقه بكل وضوح إلا الغضب والازدراء. وقد صاغ بعض المهتمين مبادئ أكثر عمومية من أجل تسويغ حرب الولايات المتحدة فى أفغانستان. فقد اقترح باحثان من جامعة أكسفورد مبدأ «التناسب»: وهو «أن مستوى الرد سيحدده مستوى الاضطراب الذى أدخله الاعتداء على القيم الرئيسة فى المجتمع الذى تعرض للهجوم»؛ ويعنى هذا فيما يخص الولايات المتحدة قيم «حرية المواطن الأمريكى فى السعى للارتقاء بمستوى حياته فى مجتمع مفتوح عبر اقتصاد السوق»، وهى القيمة التى هاجمها بشراسة فى يوم الحادى عشر من سبتمبر «المعتدون».. الذين ينتمون إلى مستوى أخلاقى تقليدى يختلف بشكل حاسم عن المستوى الأخلاقى المعهود فى الغرب». ولما كانت «أفغانستان تمثل دولة تحالفت مع المعتدى»، ولأنها رفضت طلب الولايات المتحدة تسليم المتهمين، فيمكن للولايات المتحدة وحلفائها، تاسيسًا على مبدأ التناسب مع مستوى الاضطراب الذى تعرضت له قيم الولايات المتحدة أن تكون محقة ومعذورة أخلاقيًا إذا ما لجأت إلى استعمال القوة ضد حكومة طالبان.



وتاسيسا على افتراض مبدأ التعميم، فإنه يتبع من هذا أنه يمكن للسودان أن تلجأ إلى مستوى بعيد من استعمال القوة ضد حكومة الولايات المتحدة، نتيجة الهجوم الجوى الذى نفذته إدارة الرئيس كلينتون على مصنع الشفاء الكيميائى فى السودان سنة ١٩٩٨م، ونتج عنه «عشرات الآلاف» من حالات الموت بحسب تقديرات السفير الألمانى والمصادر الأخرى الموثوق بها، وهم الذين توافقت نتائجهم مع التقديرات التى قام بها بعض المراقبين المطلعين بعد الحادث مباشرة. لذلك يقضى مبدأ التناسب أن يكون للسودان الحق كله فى أن تنفذ إرهابا كاسحا لكى تثار لنفسها، وهى نتيجة ستكتسب قدرا من القوة إن نحن عمدنا إلى تبنى وجهة النظر القائلة بأن لهذا العمل الذى قامت به «الإمبراطورية» عواقب وخيمة على «الاقتصاد والمجتمع» السودانيين، وهو ما يجعل هذا العمل الفظيع أكثر سوءا من جرائم الحادى عشر من سبتمبر، وهى الجرائم التى بلغت حدا عاليا من السوء، لكن لم يكن لها مثل هذه العواقب.

واقتصر كثير من التعليقات التى تناولت الهجوم الجوى على السودان على مسألة احتمال أن يكون المصنع ينتج أسلحة كيميائية؛ وسواء أكان هذا الاعتقاد صحيحا أم خاطئا، فإنه لا صلة له بـ«المستوى الذى أدخل به هذا الاعتداء الاضطراب على القيم الرئيسة فى المجتمع الذى هوجم»، مثل قيمة البقاء. وأشارت بعض التعليقات إلى أن حالات القتل «التى تسبب فيها هذا الهجوم» لم تكن مقصودة، كما كانت الحال فى بعض الفظائع التى شُجبت عن حق. وربما لا يمكن فى هذه الحالات أن نشك فى أن هذه النتائج الإنسانية المحتملة لم تكن غائبة عن المخططين الأمريكيين. لذلك فلا يمكن لهذا الهجوم أن يُنفذ إلا تبعا لمقتضيات الافتراض الهيجلى القائل بأن الأفريقيين ليسوا إلا «مجرد أشياء»، ليس لحياتهم «قيمة»، وهو موقف يتماشى مع الممارسة بطرق لم يَغفل عنها الضحايا، وهم الذين ربما استخلصوا النتائج كما يرونها عن «التقليدية الأخلاقية للغرب». وقد وجد أحد المشاركين فى الكتاب الذى أصدرته جامعة ييل (تشارلز هيل) أن الحادى عشر من سبتمبر افتتح «الحرب الثانية على الإرهاب». أما الحرب الأولى فقد أعلنتها إدارة الرئيس ريجان حين تسلمت السلطة قبل عشرين سنة، ويعلن هيل بنغمة انتصارية، ثم «إننا انتصرنا»، مع أن الوحش الإرهابى لم يُذبح، بل جُرح فقط.

وكان «الطور الأول من الإرهاب» قضية رئيسة من قضايا الشئون الدولية خلال عقد، في أمريكا الوسطى خاصة، لكن أيضا في الشرق الأوسط. حيث اختار محررو الكتاب الإرهاب على أنه القضية الأهم في سنة ١٩٨٥ وكان في مقدمة الأخبار المهمة في سنوات أخرى. ونستطيع أن نتعلم أشياء كثيرة عن الحرب الحالية على الإرهاب عن طريق تفحص الطور الأول، والكيفية التي يصور بها الآن. فيصف أحد الأكاديميين المشهورين الثمانينيات بأنها عقد «إرهاب الدولة»، وعقد «قيام الدولة المتواصل بـ«الإرهاب، أو رعايتها له، خاصة ليبيا وإيران». أما ما تقوم به الولايات المتحدة فلا يزيد عن كونه ردًا على الإرهاب، عن طريق تبنيها «موقفًا نشيطًا تجاه الإرهاب»! وأوصى آخرون باللجوء إلى استعمال بعض الطرق التي «انتصرنا بها»، وهي العمليات التي أدانت محكمة العدل الدولية ومجلس الأمن (ولم يُذكر هنا استخدام الولايات المتحدة لحق النقض) بسببها الولايات المتحدة «وهي استخدام ما قامت به الولايات المتحدة في نيكاراجوا نموذجًا لتأييد (الولايات المتحدة) لمعارضي حركة طالبان (خاصة قوات التحالف الشمالي)». وقد وجد أحد مؤرخي قضية الإرهاب المشهورين جذورا عميقة لإرهاب أسامة بن لادن: في فيتنام الجنوبية، حيث «مثّلت فعالية إرهاب الفيتكونج ضد جالوت الأمريكي المسلح بالتقنية الحديثة الأمل بألا تكون عقر دار الغرب بمنأى عن الخطر أيضًا».

وتصور هذه التحليلات بمحافظتها على التقاليد المرعية الولايات المتحدة على أنها ضحية بريئة، وهي تدافع عن نفسها ضد الإرهاب الذي ينفذه الآخرون ضدها: أما الفيتناميون (في فيتنام الجنوبية)، والنيكاراجويون (في نيكاراجوا)، والليبيون والإيرانيون (فلم يُذكر شيء عن الألم الذي قاسى منه هؤلاء على أيدي الولايات المتحدة)، وهو ما يصح في حالات القوى المناوئة لأمريكا في العالم كله.

ولا ينظر الناس كلهم إلى هذا الأمر من هذا المنظور. والمكان الأوضح الذي ينبغي لنا أن ننظر إليه هو أمريكا اللاتينية، وهي التي مرت بتجربة غير عادية مع الإرهاب الدولي. فقد أدان الناس هناك هجمات الحادي عشر من سبتمبر بأقسى ما يمكن من التعبير، لكن تلك الإدانة صُحبت في الأعم بالتذكير بالتجربة الخاصة التي مروا بها. فقد لاحظتْ مجلة الأبحاث في جامعة الجزويت في ماناجوا أنه يمكن وصف فظائع الحادي عشر من سبتمبر بأنها تشبه «أرماجدون»، لكن النيكاراجويين مروا بتجربة من «الأرماجدون» خاصة بهم بطريقة موجعة بطيئة« نتيجة للغزو الأمريكي» وهي التي كان لها فيما بعد عواقب وخيمة مؤلمة، كما عاني آخرون أسوأ من ذلك نتيجة للوباء الواسع من إرهاب الدولة الذي اكتسح القارة منذ أوائل الستينيات، وأكثر أسبابه تعود إلى واشنطن. وشارك صحافي من بنما في الإدانة الشاملة لجرائم الحادي عشر من سبتمبر، لكنه أورد ما يذكُره عن قتل ما يزيد عن آلاف الفقراء (وهي جرائم غربية، لذلك فلا يُكتب عنها شيء) حين أمر بوش الأب بالهجوم الجوي على باريو توريللو في ديسمبر ١٩٨٩ خلال عملية الهدف العادل Just cause، التي نُفذت من أجل اختطاف السفاح المتمرد الذي حُكم عليه بالسجن مدى الحياة في فلوريدا بسبب الجرائم التي ارتكبها في الغالب خلال فترة حكمه حين كان يتلقى رواتبه من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. ويلاحظ إيدواردو جاليانو وهو كاتب من أوروجواي أن الولايات المتحدة تزعم أنها تعارض الإرهاب، مع أنها تؤيده في الواقع في

إرهاب الرد على الإرهاب

يلاحظ كاتب من أوروجواي أن الولايات المتحدة تزعم أنها تعارض الإرهاب، مع أنها تؤيده في الواقع في العالم بأجمعه، ويشمل ذلك « أندونيسيا وكمبوديا وإيران وجنوب أفريقيا.. وكذلك في بلدان أمريكا اللاتينية التي نفذ الدكتاتوريون العسكريون فيها موجة من الارهاب بتأييد من الولايات المتحدة

العالم بأجمعه، ويشمل ذلك « أندونيسيا وكمبوديا وإيران وجنوب أفريقيا.. وكذلك في بلدان أمريكا اللاتينية التي مرت بحرب قذرة تحت خطة كوندور»، التي خطط لها الدكتاتوريون العسكريون في أمريكا الجنوبية الذين نفذوا موجة من الإرهاب بتأييد من الولايات المتحدة.

وتصح الملحوظات نفسها على المنطقة الثانية التي تركزت عليها «الحرب على الإرهاب» في الطور الأول، وهي: غربي آسيا. وتمثلت أكبر الفظائع في الغزو الإسرائيلي للبنان سنة ١٩٨٢م، التي نتج عنها قتل عشرين ألفا وتعرض أكثر البلد للتدمير، ويشمل ذلك العاصمة بيروت. ومثل الغزوتين الدمويتين المدمرتين اللتين قام بهما رابين وبيريس في سنة ١٩٩٣ و١٩٩٦، لم يكن لغزو ١٩٨٢ ذريعة من الدفاع عن النفس. ولم يزد تعبير رئيس الأركان رفائيل إيتان في وصفه لهذا الغزو عن كونه تعبيرا عن السياسة المتفق عليها حين أعلن أن القصد من ذلك الغزو كان «تدمير منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها مرشحا للدخول في مفاوضات معنا بخصوص أرض إسرائيل، وهذا مثال نموذجي للإرهاب كما يعرَّف رسميا. وكان الهدف «تنصيب نظام صديق وتدمير منظمة التحرير الفلسطينية التي يقودها عرفات»، كما يكتب المراسل المختص بالشرق الأوسط جيمس بينيت: «وذلك، كما تقول النظرية، لمساعدة الفلسطينيين على قبول الحكم الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة». وربما كان هذا التقرير أول اكتشاف في الصحافة القومية الأمريكية للحقائق التي ينشر عنها بكثافة في إسرائيل في وقت حدوثها، وهي الحقائق التي كانت لا توجد في الولايات المتحدة إلا فيما يكتبه المعارضون. وقد نُفذت تلك العمليات بمساعدة عسكرية وتأييد دبلوماسي أمريكي مهمين خلال إدارتي ريجان وكلينتون، لهذا فهي لا تصنَّف بأنها من أعمال الإرهاب الدولي. كما كان للولايات المتحدة ضلع في الأعمال الأخرى من أعمال الإرهاب في المنطقة خلال الثمانينيات، ومنها: السيارة الموقوتة التي انفجرت في بيروت وأدت إلى مقتل ثمانين شخصا وجرحت مائتين وخمسين، والهجوم الذي أمر به شمعون بيريز لتونس ونتج عنه قتل خمسة وسبعين شخصا، وهو العمل الذي قدمت الولايات المتحدة بعض المساعدات لتنفيذه وامتدحه وزير الخارجية الأمريكي آنذاك جورج شولتز، وهو الذي أدانه مجلس الأمن بالإجماع بوصفه «عملا من أعمال العدوان المسلح» (وامتنعت الولايات المتحدة عن التصويت)؛ والعمليات التي نفذها بيريز وأطلق عليها اسم «القبضة الحديدية» التي وجهت ضد «القرويين الإرهابيين» في لبنان، وهي التي وصلت إلى أعماق جديدة من «المجازر المخطط لها والقتل العشوائي»، كما عبر عن ذلك أحد الصحفيين الغربيين المطلعين اطلاعا مباشرا على شؤون المنطقة، وهو قول أيدته بتوسع التغطية الإعلامية المباشرة. ومرة أخرى، فهذا إرهاب دولي، إن لم يكن أفظعَ جريمة من جرائم الحرب العدوانية.



وينظر إلى سنة ١٩٨٥، في التقارير الصحفية والدراسات العلمية، على أنها تمثل قمة حوادث الإرهاب الشرق أوسطي، ولم يكن ذلك بسبب هذه الأحداث: بل بسبب عمليتين من عمليات الفظاعات الإرهابية قُتل في كل واحدة منهما شخص واحد فقط، وكان المقتول في الحالتين كلتيهما أمريكيا، لكن الضحايا لا ينسون بمثل هذه السهولة.

ويكتسب هذا التاريخ الأخير أهمية خاصة لكون الأشخاص القياديين في «الحرب على الإرهاب» التي أعيد إعلانها قاموا بدور مهم في الحرب الأولى. فيقود الجانب الديبلوماسي الحالي جون نيجروبونتي، مندوب أمريكا في الأمم المتحدة الذي كان سفير ريجان إلى هندوراس، وكانت القاعدة التي تدار منها الفظائع الإرهابية وهي العمليات التي كانت حكومته تدان بسببها في محكمة العدل الدولية كما كانت قاعدة إرهاب الدولة الذي تؤيده أمريكا في البلدان الأخرى من بلدان أمريكا الوسطى، وهي النشاطات التي «جعلت فترة ريجان أسوأ عقد مرَّ على أمريكا الوسطى منذ الغزو الأسباني»، وأكثر تلك الفظائع كانت تدار بإشراف مباشر من نيجروبونتي. ويقود الجانب العسكري للطور الجديد دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع الذي كان مندوب ريجان الخاص للشرق الأوسط خلال السنين التي شهدت أسوأ الفظائع الإرهابية هناك، وهي الأعمال التي بدأتها أو أيدتها حكومتُه.



ولا يقل دلالة عن ذلك حقيقة أن مثل تلك الفظائع لم يتراجع مستواها في السنوات التالية. على الأخص استمرار إسهام واشنطن في «تشجيع الإرهاب» في حالة الصراع العربي الإسرائيلي. وهذا المصطلح من صياغة الرئيس بوش الابن، وقُصد به أن يُطبق، اتباعا للتقاليد المرعية، على الإرهاب الذي يقوم به الآخرون. وإذا تجاوزنا التقاليد المرعية فإننا نجد، مرة أخرى، بعض الأمثلة اللافتة للنظر بشكل كبير. فمن الوسائل البسيطة لتشجيع الإرهاب الاشتراكُ فيه، بتصدير الطائرات المروحية لكي تستعمل في مهاجمة المساكن المدنية وتنفيذ الاغتيالات، مثلا، كما تفعل الولايات المتحدة باطراد مع وعيها التام بما سوف يحدث من عواقب. ومثال آخر أن تمنع إرسال المراقبين الدوليين للحد من العنف. وقد أصرت الولايات المتحدة على انتهاج هذا المسار، حيث استخدمت حق النقض ضد قرار مجلس الأمن الدولي في الرابع عشر من ديسمبر ٢٠٠١ القاضي بإرسال المراقبين. وفي وصفها لانخفاض منزلة عرفات إلى درجة لا تعلو إلا قليلا الدرجةَ التي يحتلها ابن لادن وصدام حسين، تورد الصحافة تقارير مفادها أن الرئيس بوش «غضِب جداً بسبب زيادة تصلب الموقف الفلسطيني.. في مسألة المراقبين الدوليين إلى المناطق الفلسطينية بموجب قرار مجلس الأمن الدولي»؛ أي، بسبب مشاركة عرفات العالم في الدعوة إلى إيجاد بعض الوسائل للحد من الإرهاب.

وقبل عشرة أيام من التصويت على إرسال المراقبين، قاطعت الولايات المتحدة - وهو ما يعني تثبيطَه - مؤتمرا عالميا عقد في جنيف اتُّخذ قرارا يعيد فيه تأكيد انطباق مواثيق معاهدة جنيف الرابعة على المناطق المحتلة، مما يعني أن أغلب الأعمال التي تنفذها الولايات المتحدة وإسرائيل جرائم حرب - وحين تكون تلك الأعمال «مخالفات خطيرة»، كما يمكن وصف أكثرها، جرائم حرب خطيرة. وتشمل هذه تمويل الولايات المتحدة للمستوطنات الإسرائيلية وممارسات «أعمال القتل المقصود، والتعذيب، وعمليات الطرد غير القانونية، والحرمان المقصود من حقوق المحاكمة العادلة المعهودة، والتدمير الواسع للممتلكات ومصادرتها».. وهي العمليات التي تنفذ بصورة غير قانونية وعن قصد.



وتمثّل هذه الاتفاقية، التي وضعت لتأسيس قاعدة لتجريم الجرائم النازية في أوروبا المحتلة بصورة رسمية، مبدأ جوهريا من مبادئ القانون الإنساني الدولي. ويعاد التاكيد باستمرار على انطباقها على المناطق التي تحتلها إسرائيل، ومن تلك الحالات تاكيد جورج

من الوسائل البسيطة لتشجيع الإرهاب الاشتراكَ فيه، بتصدير الطائرات المروحية لكى تستعمل فى مهاجمة المساكن المدنية وتنفيذ الاغتيالات، مثلا، كما تفعل الولايات المتحدة باطراد مع وعيها التام بما سوف يحدث من عواقب

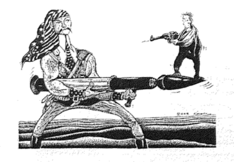
بوش الأب لها حين كان مندوب أمريكا للأمم المتحدة (فى سبتمبر ١٩٧١)، والقرار ٤٦٥ (لعام ١٩٨٠)، الذى أُقر بالإجماع، وهو القرار الذى أدان الممارسات الإسرائيلية التى تؤيدها الولايات المتحدة ووصَفها بأنها «مخالفات صريحة» للاتفاقية؛ والقرار رقم ١٣٢٢ (أكتوبر ٢٠٠٠)، الذى صوَّت فى صالحه ١٤ عضوًا مقابل لا شىء، حيث امتنعت الولايات المتحدة عن التصويت، وهو القرار الذى طلب من إسرائيل «الالتزام التزامًا دقيقًا بواجباتها بموجب اتفاقية جنيف الرابعة»، وهى التى كانت تخالفها فى ذلك الحين بصراحة. وكانت الولايات المتحدة والقوى الأوروبية، بوصفها من الموقعين الأساسيين على الاتفاقية، ملزمَةً بموجب الاتفاقية حرفيا باعتقال المسؤولين عن تلك الجرائم وتقديمهم للمحاكمة بسببها، ويشمل ذلك قادة هذه الدول إذا كانوا مشاركين فى تلك الجرائم. ويعنى استمرار رفض هؤلاء القيام بذلك الواجب أنهم يشجعون الإرهاب بصورة مباشرة وشكل مهم.

وربما يأخذنا البحث فى الصراع بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل من جانب والعرب من جانب آخر بعيدا عما نقصد بحثه هنا. لذا دعنا نتوجه إلى نقطة أبعد فى شمال المنطقة، أى إلى منطقة يمارَس فيها «إرهاب الدولة» على مستوى هائل؛ وأنا أستعير هذا المصطلح من وزير الدولة التركى لحقوق الإنسان، فى إشارته إلى الفظائع الهائلة التى وقعت فى سنة ١٩٩٤؛ ومن إسماعيل بيسكيتشى المتخصص فى علم الاجتماع، الذى أعيد إلى السجن بعد نشر كتابه «إرهاب الدولة فى الشرق الأوسط»، بعد أن قضى خمس عشرة سنة فى السجن عقابا على تسجيله لأعمال القمع التركى للأكراد. وقد أتيحت لى الفرصة لأرى بنفسى عواقب ذلك القمع حين كنت فى زيارة لمدينة ديار بكر العاصمة غير الرسمية للأكراد بعد أشهر من أحداث الحادى عشر من سبتمبر. وكما هى الحال فى أنحاء العالم الأخرى فقد أُدينت جرائم الحادى عشر من سبتمبر إدانة صارمة، لكنها كانت مصحوبة بالتذكير بالهجوم الوحشى الذى تعرض له السكان على أيدى أولئك الذين نذروا أنفسَهم للقيام بمهمة «تخليص العالم من الأشرار»، وعلى أيدى عملائهم المحليين. وقد قدَّر وزير الدولة التركى وآخرون أنه بنهاية سنة ١٩٩٤ طُرد أكثر من مليونى كردى من الريف الذى دُمر، وأكثر من ذلك العدد فى فترة لاحقة، وغالبا ما يُصحب هذا الطرد بتعذيب بربرى وإرهاب وُصف بتفصيلات مؤلمة فى التقارير الدولية لحقوق الإنسان، لكنه أُخفى عن أعين أولئك الذين يدفعون فواتير التكلفة «أى دافعى الضرائب الأمريكيين». وأدى ذلك إلى قتل عشرات الآلاف. أما من بقى منهم - وهم يتحلون بشجاعة لا يمكن وصفها - فيما يشبه الزنزانة حيث أُقفلت محطات الإذاعة وتعرَّض المذيعون للسجن لإذاعتهم الأغانى الكردية، واعتقل الطلاب وعذبوا بسبب تقديمهم طلبات لدراسة بعض المواد الثانوية بلغتهم الأم، كما يمكن أن يتعرض الأطفال لعقوبات قاسية إن اكتشفهم رجال الأمن المنتشرون فى كل مكان وهم يرتدون ملابسهم الكردية الوطنية، كما حُكم على المحامى البارز الذى يرأس منظمة حقوق الإنسان بعد قليل من وجودى هناك لاستعماله الأبجدية الكردية بدلا من الأبجدية التركية التى تكاد تتشابه معها فى احتفال رأس السنة الميلادية؛ وغير ذلك وغير ذلك. وتقع هذه التصرفات تحت تصنيف الإرهاب الدولى الذى ترعاه الدولة. وتقدم الولايات المتحدة لتركيا نسبة ٨٠٪ من أسلحتها، ووصلت إلى أعلى مستوى فى سنة ١٩٩٧، حين تجاوزت نسبة تقديم الأسلحة مستوى ما قدمته الولايات المتحدة لتركيا طوال سنى الحرب الباردة مجتمعة قبل بداية فترة «مقاومة الإرهاب» التى بدأت فى سنة ١٩٨٤ وأصبحت تركيا فى مقدمة المتلقين للأسلحة الأمريكية فى العالم كله، وهو وضع حافظت عليه حتى سنة ١٩٩٩ حين تقدمت عليها كولومبيا، وهى الممارس الأول لإرهاب الدولة فى نصف الكرة الأرضية الغربى.

كما «يُشجَّع» إرهاب الدولة بالسكوت والتضليل. ويتخذ هذا الإنجاز الباهر (من السكوت والتضليل) شكلاً أوضح حين يأتى على خلفية من الثناء العارم على النفس يُمتدح فيه دخولُ السياسة الأمريكية «طورا مشهودا» يتميز بـ«إشعاع روحى»، تحت توجيه قادة نذروا أنفسهم لأول مرة فى التاريخ «للمبادئ والقيم» بدلا من المصالح الضيقة. ويتمثل البرهان على هذه الطهارة الجديدة فى عدم قبولهم بالجرائم التى تُرتكب قريبا من حدود حلف الناتو - لكن بعض الجرائم، بل حتى أسوأ الجرائم، لا يمكن القبول بها وحسب بل تتطلب المشاركة الفاعلة فيها، حين تقع فى داخل حدود الناتو فقط، وهى الجرائم التى لم تكن رد فعل لهجوم الناتو الجوى، ويقع ذلك كله من غير أن يدعو لأى تعليق.



ولم يمر إرهاب الدولة التركى الذى تدعمه الولايات المتحدة من غير أن يلاحظ. فقد أشار التقرير السنوى لوزارة الخارجية عن «جهود واشنطن فى مكافحة الإرهاب» بالتحديد إلى تركيا نظرا «لتجربتها الموجبة» فى مكافحته، بالإضافة إلى الجزائر وأسبانيا، وهما الزميلتان الملائمتان لتركيا فى هذا الشان. وقد أشارت صحيفة نيويورك تايمز إلى هذا التقرير فى خبر احتل الصفحة الأولى من غير أن يتناوله بالتعليق مراسلوها المتخصصون فى الشؤون الدولية. ويذكر السفير روبرت بيرسون فى مقال له نشرته إحدى المجلات المشهورة باهتمامها بالشؤون الخارجية أن الولايات المتحدة «ربما لا يكون لها صديق أو حليف أفضل من تركيا» فى جهودها «لاجتثاث الإرهاب» فى العالم. ويعود الفضل فى ذلك «لكفاءة قواتها العسكرية» التى برهنت عليها فى «حربها ضد الإرهاب» فى منطقة كردستان. لذا «فليس من الغريب» أن تشارك تركيا بإخلاص فى «الحرب على الإرهاب» التى أعلنها الرئيس جورج بوش، معلنة عن شكرها للولايات المتحدة لكونها الدولةَ الوحيدة التى أبدت استعدادها لتقديم التأييد المطلوب للفظائع التى حدثت أثناء ولاية الرئيس كلينتون - وهى الفظائع التى لا تزال مستمرة، وإن كانت على مستوى أقل الآن لأننا «انتصرنا». ومكافأةً لها على هذه الإنجازات تقوم الولايات المتحدة الآن بتمويل تركيا من أجل إرسال قوات برية للاشتراك فى «الحرب على الإرهاب» فى كابل، لكن ليس فى غيرها. ويشهد هذا بأن الإرهاب الدولى المتوحش الذى تدعمه الدولة لم يُغضّ الطرف عنه فحسب، بل يمتدح. وهذا أمر «غير مستغرَب» أيضا. فقد رحبت إدارة الرئيس كلينتون فى سنة ١٩٩٥ بالرئيس الأندونيسى الجنرال سوهارتو، وهو واحد من أسوأ القتلة والمعذِّبين فى أواخر القرن العشرين، بأنه من «النوع الذى يروق لنا من الرجال». ولما استولى على الحكم قبل ثلاثين سنة نُشرت تقارير كثيرة عن «المجازر الكاسحة الرهيبة» التى راح ضحيتها مئات الآلاف من الناس، وكان معظمهم من الفلاحين الذين لا يملكون أراضى خاصة بهم، وقد نُشرت هذه التقارير بصورة دقيقة وهُلِّل لها بفرح تجاوز الحدود. ولما انهزمت نيكاراجوا أخيرا بسبب الإرهاب الأمريكى وصوَّت مواطنوها بالطريقة الصحيحة «وتشومسكى هنا يسخر - المترجم!»، «عمَّ الولايات المتحدة فرَح عظيم» لهذا «الانتصار للطريقة العادلة التى تدير بها الولايات المتحدة الأمور»، كما زعمت العناوين الصحفية حينذاك. ومن السهل مضاعفة هذه الأمثلة. فليس فى ما يجرى الآن أى جديد فى سجل الإرهاب الدولى والرد الذى يستدعيه عند منفذيه.



ودعونا الآن نعد إلى مسألة الرد المناسب على أعمال الإرهاب، خاصة بعد الحادى عشر من سبتمبر.

يُدعى بصورة عامة أن رد فعل الولايات المتحدة وبريطانيا اتُخذ بتأييد دولى واسع. وربما كان هذا صحيحا إن اقتصرنا على رأى النخب فقط. إلا أن قياس الرأى العالمى الذى قامت به شركة جالوب لقياس الرأى لم يجد إلا تأييدا ضئيلا للجوء إلى الوسائل العسكرية بدلا من الوسائل الدبلوماسية. فقد تراوحت نسبة تأييد الوسائل العسكرية فى أوروبا قريبا بين ٨٪ فى اليونان و ٢٩٪ فى فرنسا. أما فى أمريكا اللاتينية فكانت النسبة أدنى من ذلك: فمن ٢٪ فى المكسيك إلى ١٦٪ فى بنما. وكانت نسبة التأييد للهجوم ضد الأهداف المدنية منخفضة حتى إنها لا تكاد تُذكر. بل إنه حتى فى الدولتين اللتين قيس فيهما رأى الناس عن هذا الأمر وتتميزان بتأييد قوى لاستعمال القوة العسكرية، وهما الهند وإسرائيل (حيث كانت أسباب هذا التأييد محكومة بضيق الأفق «الناشئ عن العداء بين كل منهما والمسلمين»، فقد عارضت الأغلبية فى البلدين مثل هذا الهجوم. لذلك فقد كان هناك فى الواقع معارضة كثيفة للسياسات الفعلية المتَّخَذة، وهى التى حولت التجمعات المدنية الكبرى «فى أفغانستان» إلى «مدن أشباح» منذ اللحظة الأولى، كما تقول التقارير الصحفية.

وقد حُذف من قياس الرأى، ومن أكثر التعليقات أيضا، الأثرُ المتوقع للسياسة الأمريكية على الأفغان، حيث كان الملايين منهم على حافة المجاعة قبل الحادى عشر من سبتمبر. فمن الأسئلة التى لم تُثر، هل يدخل فى نطاق الرد المناسب الطلبُ من باكستان منعُ «قوافل الشاحنات التى تحمل كثيرا من الأغذية والمعدات الأخرى للمواطنين الأفغانيين المدنيين»، والتسبب فى انسحاب عمال الإغاثة والنقص الحاد فى الإمدادات الغذائية التى تَركت «ملايين من الأفغانيين.. عرضة لمخاطر المجاعة»، وهو ما استدعى احتجاجات صارمة من منظمات الإغاثة وصدور تحذيرات من احتمال وقوع أزمة إنسانية حادة، وهى النتائج التى أعيد التأكيد عليها بعد نهاية الحرب. ومن الطبيعى أن الافتراضات التى تقبع وراء التخطيط هى التى يجب أن ننظر إليها فى تقييمنا للأعمال التى نُفذت؛ وهذا ما يجب أن يكون واضحا. أما النتائج الفعلية، وهى أمر مختلف، فمن غير المتوقع أن تُعرف، وإن بصورة تقريبية؛ فالمعهود أن يجرى البحث فى جرائم الآخرين بتقصٍ، لكن هذا لا ينطبق على الجرائم التى نرتكبها نحن. وربما نجد بعض المؤشرات فى التقارير التى تصدر أحيانا عن عدد المحتاجين للإعانات الغذائية: إذ وصل عددهم إلى خمسة ملايين قبل الحادى عشر من سبتمبر، وإلى سبعة ملايين ونصف فى نهاية سبتمبر بسبب التهديد بالحرب الجوية، وإلى تسعة ملايين بعد ستة أشهر من ذلك، وليس ذلك بسبب نقص الطعام، الذى كان متوفرا خلال الفترة كلها، بل بسبب المشكلات التى كانت تعترض التوزيع فى الحين الذى تحولت أفغانستان فيه إلى أقاليم يتوزعها أمراء الحرب.

وليس هناك دراسات موثوقة لقياس رأى الأفغانيين، لكن المعلومات «الخاصة بآرائهم» ليست مجهولة تماما. فقد أشار الرئيس بوش منذ البداية إلى أن الولايات المتحدة ستضرب الأفغانيين بالطائرات حتى يسلِّموا الأشخاصَ الذين تتهمهم بالإرهاب. وبعد ثلاثة أسابيع تغيرت أهداف






حضارة العرب
جوستاف لوبون

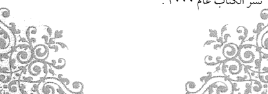
يعد كتاب «حضارة العرب» من أمهات الكتب التى صدرت فى العصر الحديث فى أوروبا لإنصاف الحضارة العربية الإسلامية وإظهار ما للعرب من فضل فى تمدين أوروبا. وقد ألَّف الكتاب العلاَّمة الفرنسى الكبير جوستاف لوبون فى عام ١٨٨٤. وقد راع لوبون، الذى قام برحلات عديدة فى العالم الإسلامى، الجحود الذى ساد فى أوروبا فى القرن التاسع عشر للحضارة الإسلامية والعربية. فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبى من مرقده وأن يُظهره فى صورته الحقيقية قدر ما يستطيع.

وقد سلك لوبون فى تأليف كتابه طريقًا لم يسبقه إليه أحد فجاء جامعًا لعناصر هذه الحضارة وتأثيرها فى العالم شاملاً لعجائبها مفصِّلاً لعواملها، باحثًا فى قيام دولة العرب وفى أسباب عظمتهم وانحطاطهم ومبتعدًا عن أوهام الأوروبيين التقليدية فى العرب والإسلام.

واستعان لوبون بطريقة التحليل العلمى على الخصوص فأوضح فى هذا الكتاب الصلة بين الحاضر والماضى. ووصف العرب وبيئاتهم ودرس أخلاقهم وعاداتهم وطبائعهم ونظمهم ومعتقداتهم وعلومهم وآدابهم وفنونهم وصناعاتهم وتأثيرهم فى المشرق والمغرب وأسباب عظمتهم وانحطاطهم.

وقد ترجم الكتاب الكاتب الراحل الكبير الأستاذ عادل زعيتر الذى ينتمى لأسرة شامية كان لها باع كبير فى الأدب والثقافة والسياسة، وقد بلغ أسلوبه من القوة والبلاغة والابتكار ما يسمو به إلى مصاف بلغاء اللغة العربية.

وأعادت مكتبة الأسرة الصادرة عن الهيئة العامة للكتاب نشر الكتاب عام ٢٠٠٠.




قــدَّر وزيـــر الــدولة التــركى وآخـــرون أنــه بنهــايــة ســنة ١٩٩٤ طــرد أكثــر مــن مليــونى كردى من الريــف الذى دُمر، وأكثر من ذلك العدد فى فترة لاحقة، وغالبا ما يُصحب هذا الطــرد بتعذيب بربرى وإرهــاب وُصــف بتفصــيلات مؤلمــة فى التقارير الدوليـــة لحقـــوق الإنســان

الحرب ليكون القصد منها إزاحة النظام: فسوف يستمر الهجوم الجوى، كما أعلن الأدميرال سير مايكل بويس «حتى يتحقق المواطنون الأفغان أنفسهم» أن هذا «الهجوم الجوى سوف يستمر إلى أن يُغيروا قيادهم». لاحظ أن مسألة هل كانت إزاحة نظام طالبان البائس تسوِّغ الحرب الجوية لم تُذكر، ذلك أن هذا الأمر لم يصبح هدفا للحرب إلا بعد بدء الحرب الجوية. فيمكننا، لذلك، أن نتساءل عن رأى الأفغانيين الذين يمكن للملاحظين الغربيين الوصول إليهم عن هذه الاختيارات - وهى اختيارات تقع، فى الحالتين كلتيهما، فى إطار التعريف الرسمى للإرهاب الدولى.

وفى الوقت الذى تحولت فيه أهداف الحرب إلى تغيير النظام فى أواخر أكتوبر، كان ألفٌ من القادة الأفغانيين مجتمعين فى بيشاور، وكان بعضهم من اللاجئين وبعضهم جاء من داخل أفغانستان، وكانوا كلهم متفقين على إزاحة نظام طالبان. وكان ذلك الاجتماع «مثالا نادرا للتعبير عن الوحدة بين قادة القبائل، وعلماء الشريعة، والسياسيين المتنافرين، والقادة السابقين للمقاتلين»، كما تقول التقارير الصحفية. فقد «دعوا بالإجماع الولايات المتحدة إلى وقف الغارات الجوية»، وتوجهوا بالرجاء لوسائل الإعلام العالمية أن تدعو إلى وضع نهاية «للغارات الجوية على المدنيين الأبرياء»، و«طالبوا بوضع نهاية للغارات الأمريكية على أفغانستان». ودعوا إلى اللجوء إلى وسائل أخرى لإزاحة نظام طالبان المكروه، وهو هدف ظنوا أنه يمكن إنجازه من غير قتل أو تدمير.

وقد نقلت رسالة مماثلة من القائد المعارض عبد الحق، الذى ينظر إليه باحترام كبير فى واشنطن. فقبل أن يدخل أفغانستان، وربما كان ذلك من غير معونة من الولايات المتحدة، حيث قُبض عليه وقُتل، أدان الغارات الجوية وانتقد الولايات المتحدة لرفضها تأييد الجهود التى يقوم بها هو والآخرون «من أجل القيام بثورة من داخل طالبان». وقال إن الغارات الجوية كانت تمثل «عقبة أمام هذه الجهود». وقد أخبر عن بعض الاتصالات بينه وبين قادة طالبان من الصف الثانى وكبار قبائل المجاهدين السابقين، حيث ناقش معهم الكيفية التى يمكن اتخاذها لتنفيذ هذه الجهود، داعين الولايات المتحدة لتعينهم عن طريق المساعدات المالية وأنواع التأييد الأخرى بدلا من معارضة هذه الجهود عن طريق الغارات الجوية. لكن الولايات المتحدة، كما قال، «كانت تحاول استعراض عضلاتها، وتحقيق نصر وإخافة الناس جميعا فى العالم. فهم لم يكن يعنيهم ما يقاسيه الأفغان من آلام أو عدد الناس الذين يمكن أن نفقدهم». وتُبين معاناة النساء الأفغانيات بعضا من المآسى التى كُشف عنها فى وقت تال بعد الحادى عشر من سبتمبر. فقد كان هناك بعض الإشادة، بعد الحرب، ببعض النساء اللاتى تحلَّين بقدر عظيم من الشجاعة وهو ما يمكن أن يستحق الإبراز بوصفه كفاحا للدفاع عن حقوق النساء خلال خمس وعشرين سنة (يمثل هؤلاء النسوة منظمة راوا RAWA، «المنظمة الثورية لنساء أفغانستان») وقد أصدرت هذه المنظمة بيانا (فى الحادى عشر من أكتوبر) يمكن أن يكون خبرا يحتل الصفحات الأولى فى أى مكان ينظر فيه إلى حقوق النساء الأفغانيات بأنها حقيقية، لا أمرا من أمور النفعية. فقد أدان هذا البيان اللجوء إلى «وحش الحرب والتدمير الكاسحين» فى الوقت الذى «تشن فيه الولايات المتحدة عدوانا كاسحا على بلادنا»، وهو الذى سينشأ عنه قدر عظيم من الأذى للأفغانيين الآمنين». وبدلا من ذلك، دَعَون إلى «القضاء على وباء طالبان والقاعدة» عن طريق «انتفاضة شعبية عامة» يقوم بها الشعب الأفغانى نفسه، وهذا وحده الذى «يمكن أن يمنع تكرار الكارثة التى ابتلى بها وطننا ويمنع العودة إلى مثلها..».

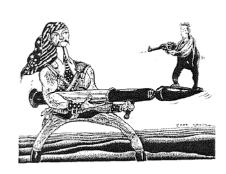
لكن ذلك كله لم يلفت نظر أحد. وربما كان هذا الأمر غامضًا على أولئك الذين يمتلكون السلاح مما جعلهم يشعرون بأن لهم الحق فى تجاهل آراء الأفغانيات اللاتى ظللن يكافحن من أجل الحرية وحقوق النساء لسنوات طويلة، وأن يصرفوا النظر بازدراء واضح عن رغبتهن فى الثورة على نظام طالبان الهش والمكروه من الداخل ومن غير حصول جرائم الحرب التى ستقع لا محالة. وباختصار، لا تمثل مراجعة الرأى الدولى، ويشمل ذلك ما هو معروف من رأى الأفغانيين، إلا تأييدًا ضئيلاً للإجماع المزعوم بين المثقفين فى الغرب عن عدالة قضيتهم.



ومن المؤكد أن أحد ردود فعل النخبة «فى الغرب» صحيح: ويتمثل هذا فى أن من الضرورى البحث عن الأسباب التى كانت وراء جرائم الحادى عشر من سبتمبر. وهذا القدر مما لا يمكن أن يكون موضع شك، وفى الأقل، بين أولئك الذين يودون أن يحدوا من احتمال وقوع جرائم إرهابية جديدة.

وهناك سؤال أدق يتعلق بدوافع الذين قاموا بهذا العدوان. وفيما يخص هذا الشأن، هناك قدر ضئيل من عدم الإجماع. فيتفق المحللون الجادون على أنه بعد إنشاء الولايات المتحدة قواعد عسكرية دائمة فى المملكة العربية السعودية «أصبح ذهن ابن لادن مشغولا بالحاجة إلى طرد القوات الأمريكية من أراضى الجزيرة العربية المقدسة»، وتخليص العالم الإسلامى من «الكذابين والمنافقين» الذين لا يقبلون بشكل الإسلام المتطرف الذى يقول به.

كما كان هناك اتفاق عريض، ومسوَّغ، على أنه «إن لم تعالَج الظروف السياسية والاقتصادية التى كانت وراء نشوء تنظيم القاعدة والجماعات المرتبطة بها، فسوف تستمر الولايات المتحدة وحلفاؤها فى أوروبا



الغربية وغيرها بأن يكونوا هدفا للإرهابيين المسلمين. ومن المؤكد أن هذه الظروف معقدة، لكن بعض العوامل معروف منذ أمد طويل. ففي سنة ١٩٥٨، وهي سنة فارقة في تاريخ فترة ما بعد الحرب الثانية، وجّه الرئيس آيزنهاور موظفي إدارته بأن المشكلة في العالم العربي «تتمثل في وجود حملة كراهية ضدنا، وهي حملة لا توجهها الحكومات بل تؤججها الشعوب»، التي تؤيد جمال عبد الناصر، وكانت تؤيد الاستقلال الوطني العلماني. وكان مجلس الأمن القومي قد أوضح أسباب «حملة الكراهية» قبل ذلك بأشهر: «فتبدو الولايات المتحدة في أعين الأكثرية العربية كأنها تعارض تحقيق أهداف القومية العربية. إذ يعتقد هؤلاء أن الولايات المتحدة تسعى لحماية مصالحها النفطية في الشرق الأدنى عن طريق تأييد - إبقاء الحال على ما هو عليه - ومعارضة التقدم السياسي والاقتصادي..» زيادة على ذلك، فإن هذا الفهم دقيق: «ذلك أن مصالحنا الاقتصادية والثقافية في المنطقة موجّهة بصورة طبيعية إلى تحقيق علاقات أوثق مع تلك العناصر في العالم العربي التي تقع مصالحها الرئيسة ضمن العلاقات السارية مع الغرب وإبقاء الحال على ما هو عليه في بلدانهم».



وظل هذا الفهم مستمرا. فبعد الحادي عشر من سبتمبر مباشرة، بدأت صحيفة وول ستريت جورنال - وهو ما تبعتها فيه صحف أخرى - بتقصي آراء «المسلمين الأغنياء»، أي أصحاب البنوك، والمهنيين، ومديري الشركات متعددة الجنسيات، وما إلى ذلك. ووجدت أنهم يؤيدون بقوة سياسات الولايات المتحدة بصورة عامة، لكنهم يشعرون بمرارة من دور الولايات المتحدة في المنطقة: كتأييدها للأنظمة الفاسدة والقمعية التي تحول دون وجود الديموقراطية والتنمية، وبعض السياسات المحددة، خصوصا فيما يتعلق بفلسطين والعراق. ومع أن آراء سكان الأحياء الفقيرة والقرى لم تستقص إلا أن من المحتمل أن تكون مواقفهم مشابهة، لكنها أكثر قسوة، ذلك أن أكثرية المواطنين، على عكس «الأغنياء المسلمين»، لم توافق أبدا على أن ثروات المنطقة ينبغي أن تتسرب إلى الغرب وعملائه المحليين، بل يجب أن توجه إلى خدمة الاحتياجات الداخلية. ويجد «المسلمون الأغنياء»، بشكل فج، أن لخطابة ابن لادن الغاضبة صدى واسعا، وفي الطبقة التي ينتمون إليها أيضا، ذلك على الرغم من أنهم يكرهونه ويخافونه، وإن لم يكن لذلك من سبب إلا لكونهم من بين أهدافه الرئيسة. ولا شك أن مما يؤدي إلى قليل من الاطمئنان أن نجد الإجابة عن التساؤل الكئيب الذي صدر عن الرئيس جورج بوش، «لماذا يكرهوننا؟»، في استيائهم من حريتنا وحبنا للديموقراطية، أو في فشل ثقافتهم الذي يعود إلى قرون عديدة، أو في عدم قدرتهم على المشاركة في شكل «العولمة» الذي يمكن لهم أن يشاركوا فيه بسعادة. وربما كانت هذه الإجابة مصدرا لبعض العزاء، لكنها ليست حكيمة.

ومع أن فظائع الحادي عشر من سبتمبر مفزعة إلا أنها لا يمكن أن تكون غير متوقعة. فقد خططت بعض المنظمات التي لها علاقة بابن لادن بعض الأعمال الإرهابية الخطيرة خلال التسعينيات، وفي سنة ١٩٩٣ اقتربت بشكل خطير من تفجير مركز التجارة العالمي، وهو ما جاء نتيجة لتخطيط أكثر طموحا. وقد فُهم ما كانوا يفكرون فيه بشكل دقيق، وعلى وجه أكثر احتمالا فإن هذا هو ما فهمتْه الهيئات الاستخبارية الأمريكية التي ساعدت على تجنيدهم وتدريبهم وتسليحهم منذ الثمانينيات واستمرت بالعمل معهم إلى أن هاجموا الولايات المتحدة. وقد أوضح البحث الذي قامت به الحكومة الهولندية عن مذبحة سربرنيتسا أنه في الوقت الذي كان فيه الراديكاليون المسلمون يحاولون نسف مركز التجارة العالمي كانت الشبكات التي كونتها وكالة الاستخبارات الأمريكية تنقلهم من أفغانستان إلى البوسنة، بالإضافة إلى المقاتلين الذين ينتمون إلى منظمة حزب الله الذي تدعمه إيران، وكانت تنقل مقادير هائلة من الأسلحة، عبر كرواتيا، التي استولت على جزء كبير منها. وكانوا قد جيء بهم من أجل الوقوف إلى جانب الولايات المتحدة في حروب البلقان، في الوقت الذي كانت فيه إسرائيل (بالإضافة إلى أوكرانيا واليونان) تسلّح الصرب (وربما كان ذلك باستعمال الأسلحة الأمريكية التي تمدها بها الولايات المتحدة)، وهو ما يفسر سبب «أنه يظهر على القنابل التي لم تنفجر التي تقع على سراييفو بعض العلامات المكتوبة بالعبرية»، كما لاحظ ريتشارد ألدريتش المتخصص البريطاني في العلوم السياسية، في مراجعته لتقرير الحكومة الهولندية. وعلى مستوى أكثر عمومية يُمكن أن تكون فظائع الحادي عشر من سبتمبر مذكرًا فائقا بما يفهمه الناس منذ أمد طويل، وهو: أن الأغنياء والأقوياء، بسبب التقنية المعاصرة، لم يعودوا يتمتعون بما يكاد يكون احتكارا للعنف الذي ساد خلال التاريخ. فمع أن الإرهاب مَخوفٌ في كل مكان، وهو خوف مسوّغ، ولا مشاحة أنه «عودة إلى البربرية»، فليس مستغربا أن يختلف فهم الناس لطبيعته اختلافا بيِّنا في ضوء الاختلاف الكبير بين التجارب، وهي الحقائق التي سوف يَتعامى عنها، على الرغم من خطورتها، أولئك الذين عوّدهم التاريخ على أن يكونوا آمنين في الحين الذي يرتكبون فيه الجرائم الخطيرة جدًا. ■

ترجمة: حمزة المزيني

عن مجلة: Z Net

www.z mag.org



العلم عند العرب

كان حب العرب للعلم عظيمًا، ولم يترك الخلفاء في بغداد طريقًا لاجتذاب أشهر العلماء ورجال الفن في العالم إلا سلكوها، ومن ذلك أن شَهَر أحد أولئك الخلفاء الحرب على قيصر الروم ليأذن لأحد الرياضيين المشهورين في التدريس ببغداد.

وكان العلماء ورجال الفن والأدباء من جميع الملل والنِّحَل، من يونان وفرس وأقباط وكلدان، يتقاطرون إلى بغداد ويجعلون منها مركزًا للثقافة في الدنيا.

وقال أبوالفرج الملطي عن المأمون إنه «كان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكراتهم، عِلمًا منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده. فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدجى وسادة البشر، وأوحشت الدنيا لفقدهم».

وكان أولئك يحيطون بخلفاء بغداد، وكان يمكن لهؤلاء الخلفاء أن يعدوا قصورهم أول قصور العالم وأنضرها.

وكان انتظام مالية الخلفاء سببًا في القيام بأعمال عظيمة تعود على الناس بالخير، كتعبيد الطرق وإنشاء الفنادق والمساجد والمشافي والمدارس في جميع نواحي الدولة، ولاسيما بغداد والبصرة والموصل، إلخ.

واتسع نطاق الزراعة والصناعة، وأنشئت مصانع للنسائج الحريرية في الموصل وحلب ودمشق، وصار العرب يستغلون المالح ومناجم الكبريت والرخام والحديد والرصاص، إلخ.



طعامنا

تاريخ وجغرافيا

برنارد لويس

الدراسة المنهجية للغذاء حديثة نسبيًا، إلا أن المؤرخين حققوا تقدمًا مذهلاً فى هذا المجال. فهذا الضرب من التاريخ، شأنه شأن غيره، يحتاج إلى ما يعينه من أدلة، ومن حسن الحظ أن هذه الأدلة وفيرة فى الشرق الأوسط

[١]

تحدد أرض المعاد بحدودها ثم بموردها الغذائى الوفير والأساسى، فهى «أرض تفيض لبنًا وعسلاً». وتتناول الصلاة الربانية «أبانا الذى فى السموات» الحقائق الخالدة، كما تتناول طلبًا عمليًا، وهو «خبزنا كفافنا أعطنا اليوم». وكان قدماء اليونانيين الوثنيين يتخذون التدابير الخاصة بتوفير غذائهم، متخيلين حياة آلهة جبل الأولمب، حيث الأمبروزيا والرحيق طعام الآلهة وشرابها.

الدراسة المنهجية للغذاء حديثة نسبيًا، إلا أن المؤرخين حققوا تقدمًا مذهلاً فى هذا المجال. فهذا الضرب من التاريخ، شأنه شأن غيره، يحتاج إلى ما يعينه من أدلة، ومن حسن الحظ أن هذه الأدلة وفيرة فى الشرق الأوسط، موطن أقدم الحضارات التى يعرفها التاريخ. ويتكون المصدر الرئيسى للمعلومات التاريخية من المفردات والأسماء الفعلية التى نستخدمها لتسمية ما نأكله ونشربه من غذاء. وفى هذا الأمر، كما فى كل شىء آخر، تعد اللغة مصدرًا أساسيًا للمعلومات يكشف غوامض الكثير من الأمور، وإن كان لا بد من شىء من الحذر فى التعامل معه فى بعض الأحيان. وقد تكفى بضعة أمثلة لبيان قيمة الأدلة اللفظية ومزالقها. وأحد هذه الأمثلة هو أن فاكهة معروفة، تسمى بالإنجليزية orange أخذت اسمها من الفرنسية orange عن الأسبانية naranja العربية «نارنج» عن الفارسية «ناران»، وهى بالطبع تتصل بالكلمة العبرية «إترُج» المأخوذة من الفارسية «تُرُنج». إنه مصطلح مثير ذو أصل شرق أوسطى يمكن تتبعه فى أشكال عديدة يشير إلى الحمضيات.

ولكننا نجد بعد ذلك شيئًا محيرًا. فمعظم لغات أوروبا تستخدم كلمة فارسية الأصل لتسمية هذه الفاكهة، بينما تسمى فى لغات الشرق الأوسط - التركية والفارسية والعربية - «برتقال». فلماذا تتخذ الفاكهة التى نسميها نحن باسم شرق أوسطى اسم إحدى دول غرب أوروبا فى الشرق الأوسط (المقصود هنا البرتغال)؟ لحسن الحظ أنه ليس من الصعب الإجابة عن هذا السؤال. فالمعروف أن «النارنج» هو البرتقال الصغير المر الذى يستخدم فى عمل المربى وإكساب الطعم، وكذلك لأغراض عطرية وطبية. وكان البرتقال الحلو يأتى من الصين ولم يكن معروفًا فى الشرق الأوسط إلى أن جلبه التجار البرتغاليون الذين كانوا قد حصلوا عليه من الشرق الأقصى وداروا به حول رأس الرجاء الصالح، ثم أعادوا تصديره من غرب أوروبا إلى الشرق الأوسط. أما الألمان فحصلوا عليه مباشرة حين أسموه Apfelsin، أى تفاح الصين.

وبالنسبة للخوخ فإن التسمية الإنجليزية مأخوذة عن الكلمة الفرنسية pèche عن الإيطالية pesca إشارة إلى «الفاكهة الفارسية». ووجد المصطلح اليونانى هو الآخر طريقه إلى العبرية فى صورة «أفارسِك». وهذا مسار لفظى إرشادى يمكن تتبعه دون صعوبة كبيرة.



فى بعض الأحيان تضللنا الأسماء. ففى خريف ١٩٤٩ كنت فى تركيا أعمل فى محفوظات الدولة التركية. حدث ذلك فى الوقت الذى كانت تتكون فيه علاقة جديدة بين الولايات المتحدة وتركيا، وهى العلاقة التى أسفرت بعد بضعة أعوام عن ضم تركيا إلى حلف الناتو. ففى عيد الشكر لعام ١٩٤٩ ظن الرئيس ترومان، بناء على نصيحة مستشاريه الخاصين بالطبع، أنها ستكون لفتة ودية وتبعث على السرور أن يقدم ديكًا روميًا للرئيس التركى. وقد لاحظت الدهشة التى عمت استنبول. فى الوقت الراهن قد يفهمون الأمر على الفور. أما فى ذلك الوقت فكان الناس فى تركيا لا يعرفون الكثير عن الولايات المتحدة، وكان هناك قدر كبير من الارتباك. كانوا يقدرون ما كان واضحًا أن المقصود به أن يكون لفتة ودية، ولكنهم كانوا فى شدة الحيرة حين وصل طائر ميت كبير إلى تشانكايا، مقر الرئاسة التركى، وسلمه رسول دبلوماسى خاص.

كان سبب الغموض هو أن الطائر الذى يسمى بالإنجليزية turkey يسمونه بالتركية «هندى». كان طائرًا أمريكيًا لم يعرفه أحد فى نصف الكرة الشرقى قبل اكتشاف الأمريكتين. ورغبة من الأوروبيين فى إعطائه اسمًا يجمع بين الغرابة والاختلاف، تصرفوا تصرفًا معقولاً فى مثل هذا الظرف باختيارهم ما يظنون أنه الأكثر غرابة. وبذلك أسماه البعض «turkey» وأسماه آخرون الطائر الهندى dinde (d'Inde) بالفرنسية، ونظائرها فى اللغات الأخرى. وفى النهاية وصل الطائر إلى الشرق الأوسط، حيث يسمونه بالعربية «ديك حبشى» أو «ديك رومى». وواقع الأمر أن الديك لا هو بالحبشى ولا الرومى، كما أنه ليس تركيًا ولا هنديًا. وكل هذه الأسماء لا تعنى سوى أنه شىء غريب غير مألوف جاء من مكان بعيد غير معروف.

يحدث الشىء نفسه بالنسبة للذرة، هذا الحب المتميز فى أمريكيته. فهى كذلك لم تكن معروفة فى نصف الكرة الشرقى قبل الكشوف الجغرافية. وكان المستوطنون الإنجليز الأوائل يسمونها: (Indian corn القمح الهندى) فالمعروف أن كلمة corn فى اللغة الإنجليزية كانت تعنى القمح، ولا يزال هذا هو معناها فى إنجلترا. ولكنه كان فى أمريكا «القمح الهندى». وفى النهاية لم تكن هناك حاجة لتكرار كلمة «هندى» باستمرار، ولذلك حلت كلمة maize محل corn والذرة فى أوروبا لها أسماء كثيرة. فهى فى اللغة الإيطالية «gran turco الحب الإيطالى»، وفى تركيا يسمونها «مصر»، وكل هذه الأسماء تخدم الغرض ذاته، وهو الإشارة إلى أن هذا شىء أجنبى وغريب.



وهناك طرق أخرى يكون فيها علم اشتقاق الأسماء إما مضللاً أو مرشدًا. ففى العبرية تعنى كلمة «لحم» الخبز، بينما تعنى كلمة «لَحْم» العربيةَ ما يؤكل من جسم الحيوان. ومن الواضح أن مصدر الكلمتين واحد، وهما يدلان على طعام مهم، ولكنه ليس نفس الطعام. وبالمثل فإن «سَمْن» تعنى فى اللغة العربية مسلى الزبد، والكلمة القريبة منها فى اللغة العبرية، وهى «شمِن»، تعنى الزيت. ويكفى التفكير للحظة لبيانَ الفرق. فقد كانت هاتان الكلمتان تعنيان عند العرب الرعاة اللحم والزبد، بينما تعنيان لدى العبرانيين المزارعين الخبز والزيت.

المجموعة الثانية للمصادر هى الأعمال الأدبية بالمعنى الواسع للكلمة. فالبعض منها يتناول الطعام والشراب صراحة. ويندهش المرء من كثرة هذه المصادر التى تعود إلى الماضى البعيد. فلدينا على سبيل المثال كتب الطهى ذات الوصفات فى النقوش المسمارية الآشورية القديمة، وهناك أدب الطهى الموسع إلى حد ما المكتوب بالعربية الفصحى، وكذلك فى الكتابات المتأخرة. والتوابل والبهارات موضوع مهم. فكثيرًا ما يتضح أن السلع نفسها توابل وعطور وعقاقير، وقد أوجدت فى حالاتها الثلاث أدبًا علميًا ضخمًا يشمل كتابًا من تأليف موسى بن ميمون.

ويحظى أدب الرحلات باهتمام خاص. فالحج أحد أركان الإسلام، ومطلوب من كل مسلم الحج إلى الأراضى المقدسة فى مكة والمدينة مرة واحدة على الأقل فى العمر. وكان ذلك يأتى بالحجاج فى كل عام، حيث كانوا يسافرون مسافات طويلة من كل بلاد الإسلام، فيما يعد بكل تأكيد أهم نموذج للتنقل الفردى الطوعى فى العصور ما قبل الحديثة. وسجل الكثير من الحجاج رحلاتهم، بما فى ذلك وصف الأماكن التى زاروها، والناس الذين التقوا بهم، والأطعمة التى صادفوها واستهلكوها أثناء سفرهم.

والمساهمة المهمة التى قدمها مؤرخو العصور الوسطى هى قوائم المكوس والعوائد التى يعرضونها فى بعض الأحيان. وكثير من تلك المكوس كانت تجبى عينيًا، ويمكن أن يوفر ذكر الأماكن والكميات والأسعار أكبر قدر ممكن من المعلومات.

وبالإمكان كذلك معرفة الكثير من الأدب بمعناه الأدق؛ أى القصص والشعر وحتى الحواديت. والنموذج المميز رواه كاتب فارسى من القرن الرابع عشر وفيه يتناول الباذنجان، ويعرف فى اللغة الفارسية باسم «بادنجان»، وقد اشتقت منها كلمة aubergine وغيرها من أسماء الباذنجان الأوروبية:

ذات يوم شعر السلطان محمود بالجوع (تولى الحكم ٩٩٨-١٠١٠) فأحضروا له صحن باذنجان. أعجب الباذنجان السلطان كثيرًا وقال «الباذنجان طعام ممتاز». وهنا استرسل أحد أفراد الحاشية فى مدح الباذنجان. وحين سئم السلطان من هذا الصنف قال «الباذنجان شىء مؤذ». وهنا أخذ الرجل يتحدث بحماس عن أضرار الباذنجان فقال السلطان: «عجبًا لأمرك، ألم تمتدح الباذنجان لتوك؟» فقال الرجل: «بلى، ولكنى من حاشيتك ولست من حاشية الباذنجان».

ويجدر ذكر شاعر فارسى اسمه أبو إسحاق، عادة ما كان يُكتب بوسحاق، وهو معروف ببوسحاق الطعامى لأنه خصص جل إنتاجه الأدبى لكتابة قصائد عن الطعام. ومن الواضح أنه كان مغرمًا بهذا الموضوع. وقد ذاع صيته فى القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر فى شيراز. وكتابه الرئيسى

وسياسة!

عنوانه «كنز الاشتهاء». كما كتب ملحمة بعنوان «ملحمة الأرز المزعفر وفطيرة اللحم»، وقصة نثرية بعنوان «مغامرات الأرز والفطير»، بل إنه وضع قاموسًا لمصطلحات الطبخ بعنوان «علم الطعام» هو فى أغلبه تعريفات هزلية بعض الشىء لمصطلحات الطعام.



الفئة الأخرى التى لها أهمية خاصة فى هذا المجال، وإن كانت أقل فى أهميتها من غيرها، هى الكتابات الدينية والشرعية التى تتناول - بشكل موسع إلى حد كبير فى كثير من الأحيان - ما يجوز أكله وشربه وما لا يجوز، وتضع القواعد والمحظورات المتعلقة بالطعام والشراب. وهذه الكتابات فى المقام الأول يهودية وإسلامية. ذلك أن المسيحيين قد يأكلون ويشربون أى شىء.

وتبدأ هذه الأدبيات بالنصوص الدينية القديمة وتستمر حتى العصر الحديث. وهناك الكثير من النصوص الشرعية والإدارية التى تتناول مشروعية أو عدم مشروعية الأطعمة وتسعيرها وتوزيعها وغيرها من الأمور المتعلقة بها.

والمشكلة المتواترة هى مشكلة الخمر، حيث يُحَرَّم على المسلمين ولا يُحَرَّم على غير المسلمين. وكانت الصعوبات تنشأ حتمًا حين يكون لمجموعتين من الناس، هم اليهود والمسيحيون، الحق فى صنع الخمر وبيعها وشربها، بينما لا يجوز ذلك للأغلبية المسلمة. وهناك العديد من المراسيم واللوائح التى تتناول هذه المسائل، وخاصة كيفية منع اليهود والمسيحيين من بيع الخمر للمسلمين، بل ومشكلة الضيوف المسلمين فى الأعراس اليهودية والمسيحية التى تقدم فيها الخمر.

وتضم الفئة الثالثة من الأدلة وثائق ليست بالأعمال الأدبية، بل هى نصوص توثيقية حقيقية. وهنا كذلك تقدم المحفوظات العثمانية، المركزية والإقليمية، ملايين الوثائق. وهى تغطى كل عملية الطعام من الإنتاج الذى يتضح فى قوائم الضرائب العينية المفصلة، إلى الإعداد والاستهلاك الذى توضحه حسابات المطابخ الخاصة بالقصر والجيش وسلسلة من التكايا التى تقدم وجبات مجانية لذوى الحاجة.

ولدينا كذلك بعض الوثائق الأقدم من ذلك بكثير. ففى وقت ما بين عامى ٨٨٤ و ٨٥٩ قبل الميلاد، كان الملك الآشورى آشور نصربال الثانى يظن أن الأمر يستحق أن يتضمن نقشًا رئيسيًا بالقرب من مدخل عرشه وصفًا لوليمة أقامها. والغرض المعتاد من كل هذه النقوش الملكية هو أن يقول: انظروا كم أنا عظيم، وانظروا كم أنا قوى، وانظروا ماذا حققت. والنمط المعتاد لذلك هو: لقد فتحت الكثير من الأراضى، واستعبدت الكثير من الشعوب.

ولكن آشور نصربال الثانى كان رجلاً أكثر لطفًا وعطفًا، وهو يصف بالتفصيل وليمة دامت عشرة أيام، قُدِّم فيها الطعام والشراب لـ ٦٩٥٧٤ من المدعوين رجالاً ونساءً - وهو أمر لافت للانتباه. وقد صُنِّف الطعام الذى قُدِّم وأُحصى عددًا فى هذا النقش بشىء من التفصيل الشديد: فهناك الكثير من رؤوس الماشية والأبقار والغنم والحملان والغزلان والبط والإوز والحمام وغيرها من الطيور والأسماك والبيض والخبز والخضروات والفواكه والمكسرات والتوابل والبهارات. وكذلك ١٠ آلاف برميل من الجعة و١٠ آلاف قربة نبيذ. وهناك إشارات عديدة فى الكتاب المقدس إلى الولائم الملكية، كالوليمة التى قدمها فرعون (التكوين: ٢٠:٤٠) وسليمان (الملوك الأول ٣:١٥) وأخشويروش (أستير ١: ٣-٥ و٢: ١٨ و٨: ١٧ و٩: ١٧-٢٢) إلا أن وليمة آشور نصربال قد تكون أقدم الولائم التى وصفت بالتفصيل.



وفئة الأدلة الأخرى هى علم الآثار، وخاصة ما يسمى الآن «الكيمياء الأثرية». ومنذ أربعة وأربعين عامًا أجرت بعثة من جامعة بنسلفانيا حفائر فى بعض المناطق الأثرية فى جورديون، وهى موقع فريجى قديم فى وسط تركيا، حيث عثروا على بقايا وليمة جنزية خاصة بأحد الملوك، ربما كان الملك ميداس المعروف نفسه. وكان الملك قد توفى، واتباعًا لعادة ذلك العصر والمكان كان هناك عشاء وداع عظيم له. وسواء أكان الأمر يرجع إلى السُكْر أو الإهمال أو الامتثال للعادة، فهم لم يغسلوا أوانى الطعام. ودُفن الملك مع كل ما تبقى من الوليمة: الصحون القذرة والأكواب التى لم تُغسل وبقايا الطعام.

قيل لنا حين ذهب الأثريون وفتحوا الآثار إن أنوفهم زُكمت من الرائحة العفنة الصادرة عن اللحم الزنخ. ولم يسعهم أن يفعلوا شيئا حيال ذلك الأمر فى حياته، إلا أنه استحدثت منذ ذلك الوقت أساليب جديدة من أجل التحليل الكيميائى للبقايا العضوية. ويوفر هذا التحليل فى الوقت الراهن بيانات مثيرة إلى حد كبير بشأن ما كانوا يأكلونه وما كانوا يشربونه منذ ٢٧٠٠ سنة فى تركيا.

[٢]

ماذا كانت مكونات المطبخ القديم؟ نبدأ بالطبع باللبن والعسل. فاللبن طعام مهم جدًا يمكن تناوله حلوًا أو مخثرًا أو مصفى أو بالعديد من الطرق الأخرى. ويمكن تقسيم الحضارات التى وجدت على هذا الكوكب إلى ثلاث مناطق: منطقة اللبن الحلو، ومنطقة اللبن الرائب، ومنطقة اللا لبن. أما منطقة اللبن الحلو فهى أوروبا والأمريكتان، ومنطقة اللبن الرائب هى الدول الإسلامية والهند، ومنطقة اللا لبن هى الصين واليابان، حيث لا يشربون اللبن أو يستخدمونه فى مطبخهم التقليدى - فلا لبن ولا جبن ولا زبد.

وكان العسل مهمًا كذلك. فلم يكن السكر معروفًا حتى وقت قريب نسبيًا، وكان العسل قبل ذلك هو المُحلِّى الأساسى. كما كان يستخدم فى صنع المشروبات الكحولية. وهناك شواهد على وجود الحبوب منذ زمن بعيد: وهى القمح والشعير والذرة الصيفى. ويبدو أن الأرز جاء من الهند. وهناك بعض الأدلة على أنه زُرع مباشرة قبل دخول الإسلام العراق وإيران، وربما لم يكن قبل ذلك بوقت طويل. ولم يكن العالم اليونانى الرومانى يعرفه.

ولدينا وصف مثير من مصدر عربى قديم خاص بأول مرة يرون فيها الأرز، وكان ذلك وقت الفتح العربى فى القرن السابع. فقد فر بعض الكشافة

الفرس الذين فاجأتهم قوة مسلحة عربية فى المستنقعات تاركين وراءهم سلتين إحداهما بها تمر وكانت الأخرى تحتوى على ما علموا فيما بعد أنه أرز غير مضروب. أمر القائد العربى رجاله قائلاً: كلوا التمر واتركوا هذا الشىء الآخر، ذلك أنه قد يكون سمًا أعده لكم العدو؟ وبذلك أكلوا التمر وابتعدوا عن السلة الأخرى. ولكن بينما كانوا يأكلون أفلتت فرس من مربطها وأخذت تأكل الأرز. أوشك العرب على ذبح الفرس ليأكلوها قبل أن يتسمم لحمها، ولكن صاحبها طلب منهم الانتظار وقال إنه سيتصرف معها فى الوقت المناسب.

وفى صباح اليوم التالى، حين وجدوا أن الفرس لا تزال فى حالة ممتازة، أوقدوا نارًا تحت الأرز وأزالوا القشر بالحرق. «وقال قائدهم: سموا بالله قبل أن تأكلوا. وأكلوا منه ووجدوا أنه أطيب طعام».

وهناك شواهد على وجود الخبز منذ زمن بعيد جدًا، بل إنه كان يحظى بنوع خاص من الاحترام. وهذا نص للغزالى الفقيه المسلم الكبير المتوفى عام ١١١١ فهو يقول فى مقال عن آداب المائدة: يجب أن تأكل من طرف الرغيف، إلا إذا كان هناك القليل من الخبز. ويجب على المرء أن يقضم الخبز وألا يقطعه بسكين، (لم تكن هناك سكاكين وقتها.. المحرر) لأن فى هذا عدم احترام للخبز. فقد ورد عن النبى أنه قال اقطعه بأسنانك. ولا يجب وضع طاسة أو أى وعاء فوق الخبز، بل يوضع فوقه الطعام فقط. كرموا الخبز الذى انزله الله سبحانه وتعالى نعمة من السماء. لا تمسح يدك بالخبز. إذا سقطت لقمة خبز من شخص، لابد أن يلتقطها ويزيل ما عليها من تراب ولا يتركها للشيطان. ولا يزال هناك نوع من احترام الخبز فى أنحاء كثيرة من تلك المنطقة حتى يومنا هذا.



كان اللحم فى معظم فترات الزمن القديم شيئًا نادرًا وثمينًا، وليس بالشىء الخاص بالأشخاص العاديين. إلا أن لدينا إشارات إلى العديد من الطيور والبهائم التى كانت تستهلك، وإلى تلك المحرم أكلها. بل إن بعض المؤرخين يقولون إن تحريم لحم الخنزير وضع حدًا للتوسع الإسلامى. فقد خرج الدين الإسلامى من الجزيرة العربية فى القرن السابع وانتشر شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا بسرعة كبيرة، ثم توقف فى أسبانيا والبلقان والصين، وهى ثلاث مناطق تعتمد اعتمادًا كبيرًا على تربية الخنازير. (المحرر: لا تشير المراجع التاريخية التى كتبها معاصرون للفتوحات الإسلامية إلى أية صلة بين الخنازير وتلك الفتوحات).

وتربط نظرية أخرى حدود التوسع الإسلامى بالزيتون وزراعته وإنتاج زيت الزيتون، الذى هو فى الواقع طعام أساسى فى مطبخ منطقة الشرق الأوسط قاطبة. بل إن الفكرة تبدو مستبعدة أكثر من نظرية لحم الخنزير، حيث انتشر الإسلام رغم ذلك بتوسع كبير فى أماكن لا يُزرع فيها الزيتون ولا يعرفه فيها أحد.

ونجد الكثير من الإشارات إلى الفواكه والخضروات، ومنها التين والتمر والعنب والخوخ. ويعد الباذنجان طعامًا عظيمًا. ويبدو أن التفاح كان من الأهمية بحيث كان اصطلاحًا اشتقاقيًا للفاكهة والخضروات، حتى أن الشىء غير المألوف يسمى بنوع من التفاح. ويصف حاج إيطالى أول مرة يرى فيها الموز فى مصر عام ١٣٨٤ ويسميه «تفاح الجنة». وحين ظهرت البطاطس لأول مرة، وهى بدعة أمريكية، أسماها الفرنسيون pomme de terre تفاح أرضى. وحين كانت إسرائيل الحديثة بحاجة إلى اسمين للبرتقال والبطاطس اللذين لا وجود لهما فى عبرية التوراة والحاخامات، أصبحا نوعين من التفاح: «التفاح الذهبى» و«التفاح الأرضى». وحين أدخلت الطماطم إيطاليا أسموها «pomodoro التفاح الذهبى»، وهو الاسم الذى انتقل فى النهاية إلى اللغة العربية على هيئة «بنادورة» و «بندورة».

ولا بد أن نقول شيئًا عن الأصناف الجانبية والتوابل ومكسبات الطعم والرائحة - وهى أشياء ليست جزءًا من الصنف الرئيسى، ولكنها تستخدم بطرق عديدة لإكسابه نكهة معينة. وهناك الأشياء الواضحة، كالبصل والكرات والثوم، وهناك ما يشهد على وجودها جميعًا فى الزمن القديم. والسكر صنف إضافى لافت للانتباه جاء من الهند عبر إيران، وكان إما غير معروف بالمرة أو معروفًا على نطاق ضيق فى العالم اليونانى الرومانى القديم. ونجد إشارات متفرقة إلى ما قد يكون السكر، ولكن من المؤكد أنهم لم يكونوا يستخدمونه استخدامًا عاديًا لأغراض الطهى، وحين أدخل للمرة الأولى كان يُستخدم لأغراض دوائية. وبعد الفتوحات الإسلامية انتشر السكر انتشار سريعًا جدًا - فى البداية من بلاد فارس إلى مصر ثم إلى شمال أفريقيا ومنها إلى أسبانيا، ومن أسبانيا إلى جزر المحيط الأطلنطى ثم إلى العالم الجديد. ومن العالم الجديد عاد إلى الشرق الأوسط. واستطاعت الدول الأوروبية زراعة السكر فى مزارعها بتكلفة أقل وبكفاءة أكبر من موطنه الأصلى. وحدث الشىء نفسه مع البن بعد ذلك بقليل.

وكانت البهارات شديدة الأهمية بالطبع. وأورد المسعودى الكاتب العربى الكبير الذى عاش فى العصور الوسطى قائمة تضم خمسة وعشرين بهارًا مختلفًا. والغريب أنها لم تتضمن الفلفل الأسود، وهو أكثرها استعمالاً، ويقول لنا مؤلف آخر إن منه سبعمائة نوع. والبهارات مهمة كذلك من ناحية أخرى، وذلك من خلال التجارة مع كل من أوروبا وجنوب شرقى آسيا.

جاء ذكر اللبن كشراب أساسى. والشىء الآخر الأكثر ذكرًا فى الزمن القديم هو المشروبات الكحولية بأنواعها المختلفة، مثل تخمير النبيذ وصنع البيرة. أما التقطير لصنع المشروبات الروحية فقد ظهر فى وقت لاحق. ولدينا الكثير من الأدلة الأدبية والأثرية، بل واللغوية، على تاريخ الخمر.

ورغم التحريم الصريح للمشروبات الكحولية، فقد كانت تشرب بكثرة، وهناك أدب بكامله من شعر الخمر فى اللغات العربية والفارسية والتركية وغيرها من اللغات الإسلامية. (المحرر: من الثابت عند دارس اللغة العربية أن ذكر الخمر فى شعر ما بعد الإسلام كان على سبيل المجاز الذى تعنى به دائمًا البلاغة العربية).

ولكن أين كانوا يذهبون للحصول على الشراب؟ كانت هناك بالطبع حانات فى البلدان الإسلامية، إلا أنه لم يكن هناك تجار خمور. وكان مسموحًا للمسيحيين بصنع الخمر، وكانت الأديرة المسيحية، فى ذلك الوقت وفى وقتنا هذا، وهناك كما فى أى مكان آخر، كثيرًا ما تتخصص فى إنتاج النبيذ الفاخر. ولذلك يكاد الدير يظهر فى الشعر القديم وشعر العصور الوسطى، فى العربية والفارسية، كأنه حانة.

وظهرت المشروبات الساخنة متأخرة جدًا. فربما كانت عصائر الفواكه أو منقوعها تسخن، وإن كان هذا أمرًا مشكوكًا فيه. ولكن المشروبات الساخنة، وهى الشاى والقهوة والكاكاو، لم تكن معروفة بالمرة فى حوض البحر المتوسط والمناطق المجاورة له فى الزمن القديم وفى العصور الوسطى. ونجد إشارات متفرقة فى كتب الرحلات العربية إلى نقع أوراق الشاى فى الصين. ولكنها تصف ذلك بشىء من الحيرة والنفور، ولا يبدو أنهم حاولوا استيراده. وهناك بعض الأدلة على أنه حين غزا المغول إيران فى القرن الثالث عشر جاءوا معهم بشرب الشاى، ولكنها لم تتقبله. ولم يحدث إلا بعد ذلك بوقت طويل أن أعاد الأوروبيون إدخال الشاى فى الشرق الأوسط. وفى بعض الأحيان كان يأتى عن طريق البر من شمال الصين، وفى أحيان أخرى عن طريق البحر من جنوب الصين. والكلمة الصينية الشمالية التى تعنى الشاى هى «تشاى»، أما الكلمة الصينية الجنوبية فيها «تيى»، وهما نطقان مختلفان لنفس الكلمة التى تكتب بنفس العلامة الصينية.



أما البن فهو موثق بشكل أفضل. وموطن البن الأصلى هو الحبشة، وربما أخذ اسمه من منطقة كافا حيث ينمو البن البرى. ولا يسع المرء إلا أن يتعجب من إبداع من اكتشفوا طريقة صنع القهوة من البن. ومعظم الأطعمة والمشروبات بسيطة إلى حد ما. ولكن بالنسبة



المساهمة المهمة التى قدمها مؤرخو العصور الوسطى هى قوائم المكوس والعوائد التى يعرضونها فى بعض الأحيان. وكثير من تلك المكوس كانت تجبى عينيًا، ويمكن أن يوفر ذكر الأماكن والكميات والأسعار أكبر قدر ممكن من المعلومات



للقهوة كان على الناس أن يمروا بعملية طويلة ومعقدة كي يحصلوا على مشروب القهوة من البن الذي ينمو بريًا في كافا. ولكن من حسن الحظ أن هذا حدث من أجلنا جميعًا.

وكان البن يستورد من الحبشة إلى اليمن، ومن اليمن يصدر في القرن السادس عشر عبر الجزيرة العربية إلى مصر وسوريا، ثم إلى تركيا، ومن تركيا إلى أوروبا. وكان الشاي يصل إلى الشرق الأوسط من أوروبا، وأخيرًا من الصين. وكانت القهوة في البداية موضع تعجب واستغراب من الأوروبيين، بل إن بعضهم كان يتحدث عنها بشيء من القرف.

ويعلق على ذلك كتاب إنجليزي شهير، وهو «تشريح الاكتئاب» لمؤلفه روبرت بيرتون الذي كتبه عام ١٦٢١ بقوله:

لدى الأتراك مشروب يسمى كوفا (فهم لا يشربون الخمر) وقد أخذ اسمه هذا من حب في سواد السناج وفي مرارة ... يرتشفون مغليه، ويشربونه بالدرجة التي يتحملونها من السخونة. وهم يضيعون وقتًا كبيرًا في دور الكوفا تلك التي تشبه إلى حد ما دور البيرة أو الحانات التي لدينا، وهناك يجلسون يثرثرون ويشربون تضييعًا للوقت، ولكي يمرحوا معًا، لأنهم يجدون بالتجربة أن هذا النوع من الشراب يساعد حين يستخدم على الهضم ويزيد الهمة والنشاط.

وكما هو الحال بالنسبة للسكر، أخذ الأوروبيون البن إلى مستعمراتهم في جزر الهند الغربية وجنوب شرق آسيا. وبحلول القرن الثامن عشر كان البن والسكر من بين واردات الشرق الأوسط من أوروبا.

وهناك عشبان آخران «يُشربان» في اللغة العربية، مع أنهما ليسا كذلك في الإنجليزية، وهما الحشيش والتبغ. والحشيش بطبيعة الحال متوطن في الشرق الأوسط ويعود وجوده إلى زمن طويل، أما التبغ فأحد الواردات الأمريكية. فقد جاء به التجار الإنجليز في بداية القرن السابع عشر، ومن المفترض أنهم أتوا به من المستعمرات الأمريكية، حيث شاع شيوعًا سريعًا جدًا. وكان هناك جدل طويل حول البن والتبغ بشأن إذا ما كان الشرع يحرمهما أم يبيحهما. ذلك أن التدخين لم يكن محرمًا وحسب، بل كان يعامل كذلك على أنه مضيعة للمال. ولا يزال الوهابيون وتلاميذهم يحرمونه.

[٢]

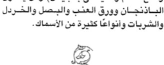
نعرف من التاريخ القديم مكانين لصنع الطعام. أحدهما هو الفرن، ويسمى التنور وهي كلمة تعود إلى العصر الأشوري البابلي. وكان يستخدم لخبيز الخبز وكذلك لصنع الفطائر. أما الثاني فهو المستوقد حيث توقد النار بطريقة أو بأخرى من أجل السلق أو التدميس أو الشواء، وفي بعض الأحيان التحمير، وإن بدا هذا نادرًا نسبيًا، وهو ما يعود بلا شك إلى تكلفة الزيت العالية. ولدينا قدر لا بأس به من المعلومات عن أدوات المطبخ، بل وعن كمية أدوات المطبخ التي يحتفظ بها.

كانت الأطعمة بطبيعة الحال صنفًا مهمًا من أصناف التجارة. ومن الواضح أن جزءًا كبيرًا مما كان الناس يأكلونه قابل للتلف وحجمه كبير وليس غالي الثمن، ولذلك كان غير مناسب لتجارة المسافات البعيدة ولا يحظى باهتمام التجارة. ومع ذلك كان هناك الكثير منه يحظى باهتمام التجار. وكانت البهارات على قدر كبير من الأهمية، وكذلك كان السكر وزيت الزيتون والمشروبات الكحولية. ونجد كذلك أن المكسرات والفواكه المجففة وعسل النحل والشاي والبن والبقول (كالفول والعدس) ضمن قوائم السلع.



ويبدو أن الرحالة الغربيين في عمومهم يتفقون على أن عددًا قليلاً جدًا من الناس، من غير العظماء والأثرياء، كانوا يطهون الطعام في بيوتهم. فقد كان الناس يشترون أطعمة مطهوة من الأسواق، ومن المطابخ، ومن مجموعة شديدة التشعب من الطهاة المحترفين. وتضم قائمة خاصة بمدينة استنبول أعدت بناء على أمر من السلطان مراد الرابع عام ١٦٣٨ وأوردها أوليا شلبي، وهو كاتب تركي من ذلك العصر، «النقابات والحرف» التي في المدينة. ومن بين المهتمين بالطعام، تضم المجموعة الأولى الزراع، وهم من يزرعون الطعام. أما المجموعة الثانية، التي يأتي على رأسها شيخ الخبازين، فتشمل الخبازين والملاحين وخبازي القراقيش وطهاة الحلوى ويليهم الطحانون وتجار الدقيق وصناع الأكياس وصناع النشا وصناع البقسماط. ويأتي بعد ذلك من يسميهم «التجار المصريين»، وهناك مستوردو الأرز والبن والسكر. يأتي بعد ذلك موردو الأرز والعدس وموردو السكر والحلوى، وموردو الشربات والبن. وهو يقول إنهم ثلاثمائة رجل ودكان، جميعهم من اليونانيين وكلهم أغنياء.

وتتكون المجموعة الثانية من القصابين، وهم الدباحون وجزارو اللحم البقري والجزارون اليهود وجزارو الضان، وهناك عدد آخر ممن يهتمون برعاية الحيوانات وذبحها وبيعها. ثم يأتي اللبانون وينقسمون إلى موردي اللبن الجاموسي ولبن الغنم، وتجار الأجبان، وتجار القشدة، وتجار الزبد، وباعة الزبادي. ويلي هؤلاء الطهاة ومن يعدون الطعام للبيع في الأماكن العامة. وهو يعدد أنواعًا مختلفة من الطعام الذي يبيعونه: فهناك اللحوم المجففة واللحوم المملحة، وكذلك الكبدة والكرشة والفواكه والخضروات المخللة والثوم والبصل. وهناك مجموعات عديدة تطبخ للفقراء ونقابة منفصلة للسفرجية. وكل مطبخ به سفرجي واحد على الأقل، حيث ينطق بالبسملة بعد أن يضع الصحن أمام الضيف ويأكل لقمتين ثم يطلب من الضيف أن يأكل. ويفترض أن هذا لبيان أن الطعام غير مسمم. وهناك كذلك الشواءون وطهاة اليخني ومن يعدون البلاو (الأرز بالخضروات والتوابل وقطع اللحم وقد يغطي بالبيض) ومن يعدون الباذنجان وورق العنب والبصل والخردل والشربات وأنواعًا كثيرة من الأسماك.



يبدو أن الشرق الأوسط لم يكن به مطاعم. وفي بداية القرن التاسع عشر زار شيخ مصري من الأزهر اسمه رفاعة رافع الطهطاوي باريس وكتب كتابًا رائعًا عن تجاربه وملاحظاته في الغرب الغامض. ومن بين غرائب باريس التي لاحظها مكان يسمونه مطعمًا. وهو يتهجى كلمة restaurant بالحروف العربية ويشرح معناها.

تقدم المحفوظات العثمانية، المركزية والإقليمية، ملايين الوثائق. وهي تغطي كل عملية الطعام من الإنتاج الذي يتضح في قوائم الضرائب العينية المفصلة، إلى الإعداد والاستهلاك الذي توضحه حسابات المطابخ الخاصة بالقصر والجيش وسلسلة من التكايا التي تقدم وجبات مجانية لذوي الحاجة

ونحن نعتبر وجود الطاولات والكراسي أمرًا مسلمًا به في الأماكن التي نأكل فيها: فنحن نجلس على الكراسي ويقدم لنا الطعام على الطاولات. ولكن هذا ليس قانون الطبيعة بحال من الأحوال. ويبدو أن الطاولات والكراسي كانت موجودة في الشرق الأوسط القديم، ولكنها اختفت في العصور الوسطى والعصور الحديثة. ففي مجتمع الأخشاب فيه نادرة وثمينة، والصوف والجلود رخيصة ووفيرة، كانت هناك ترتيبات مختلفة بالنسبة للجلوس وتقديم الطعام.

ولكن بماذا كانوا يأكلون الطعام؟ هنا كذلك قد نقسم العالم إلى ثلاث مناطق - منطقة أدوات المائدة في الغرب، ومنطقة عودي الأكل في الشرق، وبينهما منطقة الأصابع. ويبدو أن عودي الأكل اختراع قديم جدًا في الشرق الأقصى. أما أدوات المائدة فأحدث من ذلك بكثير في الغرب. كان السكين بطبيعة الحال ضروريًا، ولكنه لم يكن أداة أساسية من أدوات الأكل. كانت الشوكة هي الأداة الأساسية، ويبدو أنها اختراع بيزنطي أدخل بريطانيا في أوائل القرن السابع عشر. وقد وجدها الرحالة البريطانيون في إيطاليا وانبهروا بها أيما انبهار. وكلمة «fork شوكة» الإنجليزية مأخوذة من الكلمة الإيطالية fourchetta. ولوحظ أن الإيطاليين مبالغون في تأنقهم ولا يحبون تلويث أصابعهم أو فوطهم. ونجد عدة إشارات إلى هذه الأداة الجديدة، أي الشوكة، في مسرحيات بن جونسون (المتوفى عام ١٦٣٧). وهي لم تظهر في مسرحيات شكسبير.

ولدينا عدد من الأوصاف للولائم الشرقية قدمها رحالة غربيون، وولائم غربية قدمها رحالة شرقيون. وقد لاحظوا أشياء مختلفة: فقد لفتت أنظارهم أشياء مختلفة. ومن بين ما لفت نظر الرحالة الشرقيين في الغرب هو أن الرجال والنساء يتناولون الطعام معًا. كان ذلك يحدث في الزمن القديم، ولكنه لم يكن معتادًا في العصور الإسلامية، وقد أدهش الزوار الشرق أوسطيين لأوروبا، بل وربما صدمهم. ومن بين هؤلاء الزوار وحيد أفندي السفير العثماني في باريس الذي كتب فيما بين ١٨٠٦ و١٨٠٧ يقول: «في الموائد الأوروبية يكون عدد كبير من النساء حاضرًا. وتجلس النساء على المائدة، بينما يجلس الرجال خلفهن يراقبونهن كالحيوانات الجائعة بينما النساء يأكلن. وإذا أشفقت النساء عليهم أعطينهم شيئًا يأكلونه، وإن لم تأخذهن بهم شفقة ظل الرجال على جوعهم».

لا أعرف أي الموائد حضر، ولكن دعوني أقول وحسب إن ما رواه عن المائدة الغربية ليس أكثر عجبًا مما رواه بعض الرحالة الغربيين عن الحياة في الشرق الأوسط. إلا أن هذه التعليقات تأخذنا إلى منطقة مختلفة، من التاريخ الغذائي وتاريخ الطهي إلى التاريخ الاجتماعي والثقافي. باختصار، من الأكل إلى تناول الطعام. وتلك قصة أخرى. ■

ترجمة: أحمد محمود

The New York Review, May 23, 2002



كريستوفر دى بيليج

أصبحت كلمة «قم» تعنى مؤسسة رجال الدين التى تشمل البلاد بأسرها، ويتضح تأثير قم أكثر ما يتضح فى مركز السلطة فى طهران، والمرشد الأعلى فى إيران

[١]

تتسم مدينة قم الدينية الشيعية الواقعة على بعد خمسة وسبعين كيلومترًا جنوبى طهران بالكآبة وتقوم فى منطقة شبه صحراوية، ويجرى خلالها نهر جف ماؤه. كما أن بها بعض البساتين، وإن لم تكن مشهورة بأى نوع من الخضر أو الفاكهة. فمعظم الخضروات التى تجدها هنا جاءت من مسافات بعيدة. وينتج أهل المدينة نوعًا من الكراميل يثير الغثيان يطعمونه فى بعض الأحيان بالفستق المجروش ويسمونه «سوهان». ولتحاشى آثار الحرارة التى تبعث على النوم، يعمل طلاب المدارس الدينية فى مكتبات تحت الأرض. وفى حالة الباحثين العزاب تتولى الأرامل والنسوة الفقيرات تلبية حاجاتهم الفسيولوجية. ويربط البعض بين قم وأوكسفورد أو كامبردج، ذلك أن طلاب المدارس يرتدون عباءات سوداء ويقيمون فى غرف صغيرة داخل كليات من القرميد يتزاورون فيها. وينتهى التشابه عند هذا الحد. فعلى مر التاريخ الإنجليزى لم تكن الجامعات فى يوم من الأيام على ما هى عليه المدارس فى قم من قوة فى الوقت الراهن.



برزت قم كمدينة حديثة للمدارس بعد استيلاء بريطانيا على ما يعرف الآن بالعراق من العثمانيين فى نهاية الحرب العالمية الأولى. فحين أثار رجال الدين فى النجف ـ وهى مدينة مقدسة لدى الشيعة ـ الثورة ضد البريطانيين طردوهم منها؛ وانتهى المطاف ببعض رجال الدين هؤلاء فى قم التى كان أحد آيات الله البارزين يحييها كمركز للتعليم الدينى. وكان تطور قم لا يزال غير مؤكد: فاعتبارًا من عام ١٩٢٥ كان الشاه رضا بهلوى ينظر إلى الإسلام بصورة عامة ورجال الدين المسلمين بصورة خاصة على أنهم عوائق فى سبيل تحديث إيران. وقد فرض الخدمة العسكرية على رجال الدين وحظر على كل رجال الدين فيما عدا كبار العلماء ارتداء العباءة التقليدية والعمامة. وقد أتى إلى قم لتأديب أحد كبار آيات الله الذى كان قد انتقد طريقة الملكة غير المحتشمة فى ارتداء الملابس.

ازداد استياء رجال الدين من حكم الشاه فى عهد ابن رضا، محمد رضا. إلا أن رجال الدين فى قم كانوا منقسمين بشأن ما إذا كان الإسلام يفرض عليهم معارضة الطاغية معارضة فعالة أم يطالبهم بالتركيز على مهمتهم الأساسية، وهى دراسة الشريعة الإسلامية ونقلها إلى المؤمنين. وفى الستينيات خضع النشطاء لنفوذ آية الله روح الله الخمينى، وفى عام ١٩٧٩، وبعد فرار الشاه وعودة الخمينى من المنفى لإقامة الدولة الوحيدة التى يحكمها فى عالمنا الحديث، كانت طهران عاصمتها بينما قم كانت قلبها.

ومنذ ذلك الوقت وقم تزداد انتعاشًا. وقد ازداد عدد سكانها من رجال الدين من حوالى ٢٥ ألفًا إلى ما يزيد على ٤٥ ألفًا، وتضاعف عدد سكانها من غير رجال الدين ثلاث مرات ليصبح حوالى ٧٠٠ ألف نسمة. ومن الصعوبة بمكان حساب المبالغ الضخمة التى تتدفق فى صورة صدقات وزكاوات إلى آيات الله العشرة الكبار فى قم ـ وهم يسمون «المراجع»، لأن زملاءهم رجال الدين أعلنوا أنهم مؤهلون لأن يكونوا نماذج يمكن للعامة ومن هم دونهم من رجال الدين أن يسلكوا مسلكهم ويتبعوا أحكامهم. (كل مؤمن حر فى أن يختار «المرجع» الذى يعجب به أكثر من غيره، سواء أكان داخل إيران أم خارجها.) وأدت تلك التبرعات، إلى جانب العون الذى تقدمه الدولة للمؤسسات ذات الحظوة، إلى زيادة عدد المدارس فى قم إلى ما يربو على الخمسين مدرسة، وعدد معاهد الأبحاث والمكتبات إلى حوالى ٢٥٠. وتنتج هذه المؤسسات مئات الكتب والدوريات كل عام، وهى تستخدم الإنترنت لنشر نتائج أبحاثها الخاصة بموضوعات مثل الشريعة الإسلامية والتاريخ والفلسفة والاقتصاد السياسى. ويشترى المجلس البلدى المبانى التى تقف فى وجه طريق كبير، من المقرر أن يربط بين ضريح شقيقة أحد أئمة الشيعة الإثنى عشر ومسجد حديث كبير على بعد خمسة كيلومترات، ويهدمها.



وبعد الثورة، رصف طريق سريع بين قم وطهران، مما سهل على الساسة وكبار الموظفين الذهاب والعودة: وإذا كان لديك سائق أرعن، فإنك تقطع الرحلة التى تبدأ من جنوب طهران فى حوالى ساعة. وفى ربيع العام الحالى قام وزير خارجية سوريا برحلة ليلية غير معلنة إلى قم: حيث كان يريد دعمًا من رجال الدين لطلبه الخاص بخفض إيران لمستوى علاقاتها بحزب الله، وهو الطلب الذى يحظى بتشجيع الولايات المتحدة ولبنان. (وقد تلقى ردًا غامضًا.) ويقال إن وزارة الاستخبارات استشارت رجال الدين فى قم بشأن الحكمة من السعى لإقامة علاقات أفضل مع الولايات المتحدة. (وهنا كذلك كان الرد غامضًا: ذلك أن بوش الذى وضع إيران ضمن «محور الشر» أفزع الكثير من رجال الدين، إلا أن بعضهم حذر من إعطاء انطباع بأن إيران تنحنى تحت الضغط.) وفى حال إقصاء الولايات المتحدة لصدام حسين عن السلطة، سيكون للآلاف من رجال الدين العراقيين الموجودين حاليًا فى المنفى فى قم تأثير قوى على مستقبل بلدهم.

أصبحت كلمة «قم»، تعنى مؤسسة رجال الدين التى تشمل البلاد بأسرها، حيث إن المدن الأخرى التى بها مدارس تخضع لها؛ ويتضح تأثير قم أكثر ما يتضح فى مركز السلطة فى طهران، والمرشد الأعلى فى إيران، ورئيسها، ورئيس البرلمان، وكبير القضاة جميعهم من رجال الدين. وكذلك رئيس ونصف أعضاء مجلس الحفظة الذى يضم اثنى عشر رجلاً، وهم مجموعة المراقبة القوية التى يعين المرشد الأعلى أعضاءها من رجال الدين ؛ والواقع أنها تقوم مقام مجلس الشيوخ ويمكنها إبطال التشريعات. وهناك أقلية مهمة تضم ثمانية وثلاثين عضوًا بمجلس تحديد المصالح الذى يعينه المرشد العام لحل المنازعات التى تنشأ بين البرلمان ومجلس الحفظة، وهى من رجال الدين. ويضم مجلس الخبراء الذى يختار المرشد الأعلى ويقيِّمه ويمكنه، من الناحية النظرية، فصله، ستة وثمانين من رجال الدين الذين يُنتخبون بالاقتراع العام ـ ولكن بعد تمحيص مجلس الحفظة للمرشحين أولاً. ومع أن معظم الحكام الإقليميين ليسوا من رجال الدين، فلا بد من حصول حاكم كل إقليم على موافقة ممثل المرشد الأعلى ـ وهو دائمًا من رجال الدين ـ على معظم القرارات المهمة التى يتخذها. وينطبق الشىء نفسه على رؤساء الجامعات.

ونجد فى المستويات الأدنى أن هيمنة رجال الدين أقل تأسيسًا، وإن كانت واضحة. والآلاف من طلاب المدارس، الذين يغادرون قم بعد استكمال سنوات الدراسة الست التى عادة ما تؤهلهم لارتداء عباءة رجال الدين والعمامة، تكون لهم الأولوية فى سباق الوظائف فى الجهاز الإدارى. وغالبًا ما يُمنح أطفالهم أماكن فى أفضل المدارس. وإذا اتهموا بخرق القانون، فإن من يحاكمهم رجال دين آخرون، وعادة ما تكون جلسات المحاكمة مغلقة. وفى بعض مجالات الحكم والنظام الإدارى، مثل القضاء، تحابى شبكة من الخريجين القدامى أشخاصًا من مدارس بعينها عند التعيين فى الوظائف. وتضم المناصب العليا فى وزارة الاستخبارات والقضاء الكثير من خريجى مدرسة حقانى فى قم.

ومع أن الثورة جعلت مهنة رجال الدين أشد نفوذًا وأكثر مزايا، فليس كل رجال الدين سعداء بهذا. وبدلاً من إنهاء الجدل الذى يدور منذ زمن بعيد حول مشاركة رجال الدين فى السياسة، زادته ثورة الخمينى شدة وكثافة. ففى بداية عهد الثورة كان معظم «المراجع» الستة الذين كانوا يقيمون فى إيران والعراق إما معارضين لمبدأ حكم رجال الدين أو يلتزمون الصمت بشأن هذا الموضوع. وكانت مقاومة قم لمحاولة أن تفرض عليها قراءة موحدة للإسلام السياسى تتصل اتصالاً قويًا بتراث المدرسة التعددى. فطلاب المدارس أحرار فى انضمامهم إلى حلقات الدروس الخاصة بالأستاذ الذى يعجبون به أكثر من غيره. وهذا الأستاذ يدرس إلى حد كبير ما يريده، شريطة ألا ينشر آراء تثير الخلاف خارج المدرسة.



خلال العقد الماضى كانت هيبة رجال الدين ومكانتهم آخذة فى التدنى لدى معظم الإيرانيين. ويوضح ذلك إلى حد كبير انخفاض تمثيل رجال الدين فى البرلمان. ففى أول برلمان بعد الثورة كان رجال الدين يمثلون ٥١ بالمائة من إجمالى عدد النواب. أما الآن فهم ١٢ بالمائة فقط. وفى بداية الثمانينيات كان رجال الدين يعاملون باحترام شديد بصورة عامة. والآن يتعرض رجال الدين فى بعض الأحيان للإهانة من تلاميذ المدارس وسائقى التاكسى، وعادة ما يرتدون ملابس عادية حين يغامرون بالخروج من قم. والبعض منهم مستعد للتخلى عن المزايا الرسمية التى يعتقدون أنها سبب استياء العامة منهم. وتحدثت فى قم مع رجال دين قالوا إن هناك تعاطفًا متزايدًا مع عبد الكريم سوروش، وهو عالم دين غير معمم وفيلسوف ينادى بأن يقطع الدين كل صلة له بالسلطة الدنيوية إن هو أراد الاحتفاظ بسلطانه. ويقول رجال الدين هؤلاء إنه بدلاً من أن تؤدى المشاركة فى الحكم إلى تحسين مكانة رجال الدين فقد حطت مشاركتهم من قدر هذه المكانة.

ويبدو أن جزءًا صغيرًا ولكنه مهم من حديث بوش عن «محور الشر» كان يستهدف رجال الدين هؤلاء. وفى طهران ظن الناس أنه لم يكن من اللائق أن يضع الرئيس الأمريكى إيران فى حزمة واحدة مع عراق صدام حسين؛ فهم يتذكرون الوقت الذى ساندت فيه أمريكا صدام أثناء الحرب الإيرانية العراقية فى الثمانينيات. وأبدى البعض دهشته غير مصدق لما قاله بوش عن رعاية إيران الإرهاب ومحاولتها إنتاج أسلحة الدمار الشامل. إلا أن ردود الأفعال فى قم كانت أكثر اهتمامًا بملاحظة الرئيس الأمريكى الخاصة بأن «قلة غير منتخبة تقضى على أمل الشعب الإيرانى فى الحرية». ومع أن بوش كان يشير بصورة عامة إلى ديمقراطية إيران التى لا تعمل بالشكل الصحيح، فإن تعليقاته أعادت إلى أذهان الكثيرين نفوذ آية الله الخمينى الدائم وخاصة الطائفية السياسية التى استغلها الخمينى لتثبيت حكم رجال الدين، وهى «ولاية الفقيه».

فى أواخر الستينيات كان الخمينى يقدم تفسيرًا جديدًا للمذهب الشيعى، مدافعًا عن الصيغة الأساسية لشكل حكومة رجال الدين التى أقامها فى نهاية الأمر. فقد استغل الخمينى المنطق الاستنتاجى والتأويل المتحيز لأقوال الرسول والأئمة الاثنى عشر ليقول إنه لا ينبغى السماح لحكومة رجال الدين أن تنحرف عن سواء السبيل لمجرد غياب الأئمة الذين يقيمونها. وقال إنه عوضًا عن ذلك ينبغى أن يتولى كبار رجال الدين من الشيعة وكبار علماء الشريعة السلطة القضائية والتنفيذية، انتظارًا لعودة الإمام الثانى عشر.

ويمكن فهم «ولاية الفقيه» التى اقترحها الخمينى على أنها توسيع لمجال «الولاية» التى يقترحها الإسلام فى حالة الأيتام القُصَّر، حيث يصبح المجتمع الإسلامى بكامله فى موضع اليتيم ويقوم الفقيه الحاكم مقام ولى الأمر. وعند

عودة الخمينى من المنفى عقب فرار الشاه عام ١٩٧٩ قال إنه يستشهد «بالولاية التى منحنى إياها المشرع الكريم الرسول» فى تعيين حكومة مؤقتة. وأعلن أن معارضة هذه الحكومة «كُفْر».

ويعتقد كثيرون أن الخمينى ربما كان يزدرى الديمقراطية الانتخابية؛ ولكنه اضطر للتوصل إلى حل وسط مع الإسلاميين من غير رجال الدين الذين تأثروا بالأفكار الديمقراطية الحديثة. وطبقًا لما ذكره دانييل برومبرج، صاحب الدراسة المدققة والمتأنية لتراث الخمينى، فإن دستور ١٩٧٩ الذى حوَّل إيران من ملكية إلى «جمهورية إسلامية» كان «خليطًا أيديولوجيًا متنافرًا ... ربما لم يكن له مثيل فى تاريخ النظام الدستورى». وكان ينص على الانتخاب المباشر للرئيس والبرلمان، ويفصل بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية. إلا أنه جعل كل المسئولين خاضعين لمساءلة المرشد الأعلى المُعَيَّن والبرلمان ومجلس الحفظة. وقد أفسد هذا الدستور ما يصفه برومبرج بأنه «تقسيم فوضوى للسلطات» بين مؤسسات الحكومة وهيئاتها المختلفة، فى حين التزم الصمت بشأن كيفية تعايش تلك المؤسسات المتنافسة. وطبقًا لبعض مواد الدستور، فإن السيادة لله؛ فى حين يشير مبدأ إجراء الانتخابات إلى اعتراف بسيادة الشعب كذلك.

كان الخمينى يسيطر على الحكومة الإيرانية التى تضم عناصر مختلفة حتى وفاته فى عام ١٩٨٩، فقد كان وحده من يملك الخبرة الدينية والحاسة السياسية ويتمتع بالشعبية. بل إنه هو نفسه من وضع معايير القيادة الإسلامية. وبما أنه كان يبدى فى بعض الأحيان ازدراءه للانتخابات التى تجرى على النمط الغربى، فقد كان يزعم أن لديه تفويضًا شعبيًا، وهو ما بيَّنته تلك الأعداد الضخمة ممن خرجوا لتحيته وزيارته بعد عودته من المنفى. ويذكِّر هذا كاتب سيرته الممتاز باقر معين بالمبايعة. واستغلت بطانة الخمينى دعوته وأضفت عليه قدسية زائفة أدت بالتالى إلى منح تصريحاته سلطة ملزمة، الأمر الذى سمح له بالتدخل فى الحياة العامة حيثما شاء. وتمكن الخمينى ببطء من النيل من سمعة أحد كبار آيات الله المنشقين، وهو كاظم شريعتمدارى: مع أن مكانة شريعتمدارى الدينية مساوية لمكانته. وأجبرت كلمة من الخمينى مجلس الحفظة على عدم الاعتراض على أى قانون يحظى برضاه. وأدى «مرسوم» صادر عنه إلى إعدام آلاف المسجونين السياسيين، دون اتخاذ الإجراءات الواجبة.

وكان من الواضح أن هالة السلطة التى تحيط بولاية الفقيه سوف تختفى برحيله. وكان إنشاء مجلس تحديد المصالح فى عام ١٩٨٨ قد أراح من تولى بعده منصب المرشد الأعلى من عبء تسوية المنازعات بين البرلمان ومجلس الحفظة. «على سبيل المثال، أنهى مجلس تحديد المصالح فى ٢٦ مايو عملية طويلة من الوساطة بين البرلمان ومجلس الحفظة بشأن مشروع قانون الاستثمار الأجنبى، الذى صار قانونًا الآن». وقبل بضعة أسابيع من وفاة الخمينى، ألغت جلسة خاصة بناء على أوامر منه ما ينص عليه الدستور من ضرورة أن يكون المرشد الأعلى من أعلى درجات رجال الدين، أى أن يكون مَرْجعًا. ومنذ ذلك الوقت يحق للمئات من رجال الدين الأدنى مكانة تولى منصب المرشد الأعلى، شريطة أن يتمتعوا بما يلزم لذلك من تقوى وشجاعة و«مهارات إدارية جيدة». وأُسقط شرطا الاعتراف والموافقة الشعبيان ـ أو ما كان يعرف بالمبايعة ـ باعتباره أحد المعايير. وبعد أن كانت ولاية الفقيه قاصرة على رجل دين يحظى بالتبجيل والتوقير تعتقد الملايين أنه واسطة بينهم وبين الله، يمكن الآن منحها لرجل دين ذى مكانة متوسطة يتمتع بقدر أقل كثيرًا من التأييد.



كان المقصود بالتغييرات تمهيد السبيل لتعيين على خامنه إى، الرئيس، خليفة للخمينى. وكان الخمينى قد فصل قبل شهرين تقريبًا من وفاته آية الله على منتظرى رجل الدين الشهير الذى يحظى بقدر كبير من الاحترام، وكان قد عينه من قبل خليفة له. ومن الواضح أن الخمينى شعر أن منتظرى كان على قدر كبير من الاستقلال فى تفكيره والتعددية فى نظرته. واستاء كثيرون فى قم من تعيين على خامنه إى. ومع أنه كان معروفًا أنه سياسى متمرس وأنه شارك الخمينى فى كثير من آرائه، فقد كان رجل دين من الطبقة المتوسطة العليا وحسب ومُنِح على عجل لقب آية الله. وأزعجت الكثيرين من الإيرانيين فكرة أن الرجل الذى انتخبوه فى يوم من الأيام لمنصب الرئاسة الدنيوى، وهم يعلمون أن بإمكانهم تنحيته، قد أصبح ولى الله الذى لا يمكن لأحد أن يتحداه.

وربما كانت وفاة الخمينى وقتًا مناسبًا للحد من سلطات المرشد الأعلى والمطالبة بأن يأتى بالانتخاب. إلا أن التعديل الدستورى الذى أجراه الخمينى فى آخر لحظة كان يشير إلى الاتجاه المعاكس: فقد زاد الدستور المعدل من سلطات المرشد الأعلى الرسمية ووصف سلطته بأنها «مطلقة»، بصراحة لم تكن موجودة فى الأصل. بل إن الخمينى ألمح فى أحد تصريحاته الأخيرة إلى أن بإمكان المرشد الأعلى اتخاذ أى قرار يرى أنه «فى مصلحة الإسلام والبلاد». ورأى البعض أن هذا منحه سلطة إصدار أوامر إلهية.

[٢]

يبعد منزل آية الله منتظرى فى قم بضع مئات من الياردات عن مزار المدينة، ولكنه لم يزره منذ سنوات. وغير مسموح له بأن يرى من الناس سوى أفراد أسرته، ولا يمكنه مغادرة المنزل إلا فى حالة الضرورة القصوى. ويتحدث إليه حلفاؤه عبر التليفون: كما يمكنهم دق جرس الباب والتحدث إليه عبر الإنتركوم. ومن خلال هذه الاتصالات يواكب منتظرى المناقشات الدينية الجارية وكذلك الفتاوى التى أصدرها غيره من كبار رجال الدين والموقف السياسى فى طهران. وهو يصدر فتاواه الخاصة بأمور الدين ويرد على الأسئلة الفقهية التى يطرحها أتباعه، سواء من خلال الإنترنت أو عن طريق أشرطة الكاسيت التى يوزعها أبناؤه. وفى العام الماضى أرسل مذكرات مطولة عن طريق الإنترنت. وعلى الفور استنكرتها المؤسسة المحافظة وأُلقى القبض على حوالى اثنى عشر من مؤيديه لمساعدته فى إعدادها.

ومنتظرى رجل متورد الوجه يتحدث بلهجة مسقط رأسه نجف آباد. وهو من التواضع بحيث إنك إذا دخلت فى حديث عارض معه قد تحسبه واعظًا جوالاً. والواقع أن منتظرى مرجع يعترف الكل بذكائه، حتى من يختلفون معه؛ وكان وهو طالب صغير فى الحسينية معروف بقدرته على تسميع المحاضرات التى سمعها قبل أسابيع كلمة كلمة. وهو طليق اللسان ويحيا حياة بسيطة ويساوى بين الإسلام والعدالة الاجتماعية. وليس من شيمته التآمر السياسى المعروف عن غيره من رجال الدين. وكان يسعده قبل وضع القيود على حياته الاجتماعية مشاركته الطعام فلاحًا جاء من نجف آباد ليشكو موظفًا فاسدًا



حضارة العرب فى مصر

استقت حضارة العرب فى مصر من الينبوع الذى استقت منه حضارتهم فى سورية وبغداد، وقامت حضارتهم فى مصر بعناصر اقتبسوها من البيزنطيين على الخصوص، ودلت مبانى العرب الأولى فى مصر على ذلك المصدر، ولم يلبث العرب أن تحرروا من المؤثرات الأجنبية كما تدل عليه مبانيهم التى أقيمت بعد مبانى الزمن الأول.

ويتصف عصر الفاطميين، الذى بلغت حضارة العرب فيه بمصر ذروة الرقى، بنضج الفنون وما تؤدى إليه الفنون من الصناعات، وبارت القاهرة بغداد فى الفنون، لا العلوم، فمدارس القاهرة لم تبلغ من الشهرة ما بلغته جامعات بغداد.

وزاد دخل خلفاء مصر على دخل خلفاء بغداد فى نهاية الأمر، وذلك بفضل خصب أراضى مصر وصلاتها التجارية، وكان خلفاء مصر يقفون معظم ذلك الدخل على أمور الترف وبناء القصور، ولم تكن نفقات الإنشاء فى ذلك العهد باهظة فى وادى النيل مادامت أجرة البَنَّاء اليومية فى أوائل القرن الحاضر ثمانين سنتيمًا وأجرة الحَفَّار خمسة عشر سنتيمًا وثمن متر حجر البناء المكعب، ومنه أجرة قلعه ونقله، فرنكًا واحدًا وعشرين سنتيمًا.

وضربت الصناعة والصِّياغة والحياكة والنجارة والزخرفة بسهم كبير فى الكمال فى زمن الفاطميين (٩٧٢ - ١١٧١م) كما روى المؤرخ العربى المقريزى الذى جاء البحث فى آثار زمانه مصدقًا لروايته.





فى طهران ظن الناس أنه لم يكن من اللائق أن يضع الرئيس الأمريكى إيران فى حزمة واحدة مع عراق صدام حسين؛ فهم يتذكرون الوقت الذى ساندت فيه أمريكا صدام أثناء الحرب الإيرانية العراقية



مرتشيًا. وما إن ينصرف الفلاح حتى يرسل منتظرى رسالة غاضبة إلى رئيس ذلك الموظف.

هذه هى على الأقل الصورة التى يرسمها مؤيدوه. والمقصود بها مواجهة الادعاءات المشينة التى يسوقها بعض أقرانه، وخاصة «كتاب الألم» الذى كتبه أحمد الخمينى ابن آية الله الخمينى - الذى توفى - بعد فصل والده منتظرى. وحسبما قاله أحمد فإن عناد منتظرى وسذاجته هما نقطة ضعفه. ففى ذروة الحرب العراقية الإيرانية نادى بمصالحة الأعداء فى الداخل، وقيل إن ذلك يفيد الجماعات المعادية للثورة مثل مجاهدى خلق، الذين يسميهم أتباع آية الله الخمينى «المنافقين». وكتب أحمد الخمينى: «ليس ما أقصده بهذه الرسالة - حاشا لله - الإشارة إلى قبولك أفكار المنافقين والليبراليين وأيديولوجيتهم». فى حين كان ذلك بالطبع هو ما يريد أحمد قوله.

يعتبر منتظرى ديمقراطيًا طبقًا لمعايير إيران الثورية. ولكن ليس هذا ما كان عليه الحال دائمًا. فقد قال فى الأيام التالية للثورة إن الإسلام الشيعى ينبغى أن يكون دين الدولة، رغم وجود أقلية سنية كبيرة فى إيران. وكان لمنتظرى دور كبير فى جعل مبدأ ولاية الفقيه جزءًا من الدستور - الذى طالب بأن يكون «بعيدًا عن كل مبدأ غربى»، وهو لم يدافع عن آية الله شريعتمدارى حين أهانه الخمينى لانتقاده مؤسسة ولاية الفقيه. وكان مؤيدوه قبل فصله يُرهبون الناس بشعار «معارضة منتظرى معارضة لله». وقد أزعج أحدهم، وهو مهدى هاشمى، المسئولين بتأكيد صلته بحزب الله اللبنانى والمجاهدين الأفغان. وفى عام ١٩٨٦ أفشى هاشمى أمر الجهود السرية التى يقوم بها أكبر هاشمى رافسنجانى - الذى كان يدير المجهود الحربى الإيرانى ضد العراق - لشراء أسلحة من عدو إيران اللدود الولايات المتحدة بوساطة من عدو ثان هو إسرائيل. وانتقم رافسنجانى وأُعدم هاشمى.



رغم ذلك كله نجد مسحة من التعددية والتعاطف تسرى فى حياة منتظرى العملية. فقد أرسل رسائل خاصة إلى الخمينى عام ١٩٨٨ يحتج فيها على إعدام آلاف المعارضين المسجونين من مجاهدى خلق بلا محاكمة. ويبدو أن انتقاده لإطالة رافسنجانى أمد الحرب كان باعثه غضبًا حقيقيًا من الخسائر المخيفة فى الأرواح. وقد سعى وهو خليفة للخمينى إلى اختراق السور الذى أقامته بطانة الخمينى الأنانية حوله. وطبقًا لما قاله غلام حسين نادى زميله رجل الدين وحليفه القديم «كان الآخرون يذهبون إلى الخمينى ويداهنونه». أما منتظرى فكان «يقول الحق وينقل شكاوى الناس».

ربما كان من الممكن التغاضى عن الشكوى التى تنقل فى السر، إلا أن منتظرى اتجه إلى العلن عقب انتهاء الحرب مع العراق، حيث كان ينتقد «سوء إدارة» النظام الحاكم و«إنكار حقوق الشعب». وقال إن هناك «مسافة كبيرة بين ما وعدنا به وما أنجزناه». وقد قَبِل فصله بلطف، وربما بارتياح، ولكن الفصل كان صدمة للشعب الذى كان يربط بينه وبين المُثل الثورية. وخلال أوائل التسعينيات ومنتصفها، نفذ رافسنجانى - الذى خلف خامنه إى كرئيس - إصلاحات اقتصادية يبدو كان المقصود بها هو إفادة من كانوا مُنَعَّمين بالفعل. وفى الوقت ذاته كان المحيطون بخامنه إى يشددون أكثر وأكثر على سلطة المرشد الأعلى «المطلقة».

وفى عام ١٩٩٧ انتخبت أغلبية كبيرة محمد خاتمى، رجل الدين الذى يدعو إلى المزيد من الديمقراطية، رئيسًا. وأشيع أن المرشد العام، الذى قيل إنه كان يدعم فى السر منافس خاتمى المحافظ فى الانتخابات، كان يفرض تأثيره على تشكيل الحكومة الجديدة. وفى الوقت نفسه كان بعض رجال الدين يقترحون إعلان خامنه إى مرجعًا. واستنادًا من منتظرى إلى سلطته كواضع لدستور ١٩٧٩، أكد فى خطاب أثار حالة من الإثارة والاهتمام، أن مهمة المرشد الأعلى ليست «التدخل فى كل شىء» وإنما «الإشراف على البلاد». كما هاجم «الأسلوب الملكى» فى إيران، وقال بصراحة إن خامنه إى غير مؤهل لأن يكون مرجعًا، وغير مؤهل لأن يكون مرشدًا أعلى كذلك.

أكد ذلك الخطاب مكانة منتظرى كداعية دينى رفيع المستوى إلى الديمقراطية داخل الجمهورية الإسلامية، فى الوقت الذى حطمه فيه سياسيًا؛ فقد أُغلقت مدرسته الخاصة فى قم، وفُتِّش مكتبه، ووضع تحت الإقامة الجبرية. ومع استثناء واحد، كان زملاء منتظرى من المراجع على قدر كبير من الجبن بحيث لم يدافعوا عنه. وقضت العزلة التى فرضت عليه على أمل تعاونه مع خاتمى؛ فلم يكن بمقدور الرئيس المنتخب إعلان تأييده للرجل الذى هاجمه المرشد الأعلى وأبعده عن الحياة العامة.

تأثرت بذلك قضية الإصلاح. فقد جعل ما حاق بمنتظرى من أذى لجوء الإصلاحيين فى طهران إليه طلبًا للعون فى كفاحهم ضد مجلس الحفظة أمراً مستحيلاً، حيث اعتاد المجلس على إذلالهم بحرمان مؤيدى خاتمى من حق تولى المناصب والاعتراض على كل تشريع يزيد من الديمقراطية أو يحمى الحقوق. وكان منتظرى سيقيم تحالفًا مفيدًا فى المواجهات المستمرة بين مؤيدى خاتمى والقضاة الذين زجوا بعشرات الإصلاحيين فى السجون، وكان منهم رؤساء تحرير الصحف والكُتَّاب ورجال الاقتصاد والعُمَد وغيرهم؛ والواقع أن كل كبار القضاة رجال دين معادون للإصلاح، وجميعهم دون مستوى منتظرى من الناحية الدينية. وإذا كان منتظرى حرًا فى مجادلة خامنه إى عام ٢٠٠٠، فقد كان من المحتمل أن يثنيه عن إصداره أمرًا بإغلاق أكثر من اثنتى عشرة مطبوعة ذات اتجاه إصلاحى، وعن منع مناقشة البرلمان لخطط جعل الصحافة أكثر حرية.

وفى أبريل من العام الحالى، أبلغنى على رضا أمينى، وهو رجل دين محافظ من قم، أن بعض الإصلاحيين الذين ينادون اليوم بإجراء استفتاء على تحديد سلطات المرشد الأعلى كانوا



في عهد الخميني مقتنعين بسلطة المرشد الأعلى المطلقة. وذكرني تعليق أميني بالسؤال المُلح الذي يراودني وأنا أراقب بعض الإصلاحيين في إيران، وهو هل ما يحركهم هو الرغبة في الحد من سلطات المرشد الأعلى، أم أنهم معنيون في المقام الأول بالحد من سلطة علي خامنه إي؟

[٣]

بعد عدة أسابيع من خطاب بوش، عمَّ إيران خوف غير منطقي من هجوم أمريكي وشيك. وتحدث الناس عن شيء آخر أقل أهمية. فقد تجدد الجدل بشأن مزايا إعادة العلاقات مع الولايات المتحدة. (وقد انتهى هذا الآن، وسط مزاعم الإصلاحيين بأن أعضاء ذوي نفوذ في النظام الحالي بدءوا اتصالات سرية مع مسئولين أمريكيين، دون علم الحكومة). وفي مواجهة التهديد الخارجي، توصل الإصلاحيون والمحافظون إلى تفاهم مؤقت. فقد قل عدد الصحف التي تُغلق، وأُطلق سراح الإصلاحيين، ومنهم كل حلفاء منتظري المسجونين ماعدا أحدهم، وقيل إن رئيس محكمة رجال الدين وعد منتظري بحصوله على حريته إن هو توقف عن إصدار بياناته المثيرة للجدل.

وانتهى الخوف المباشر. ولا يزال منتظري قيد الإقامة الجبرية. (ربما أغضب المحافظين ببيان نشرته إحدى الصحف في ٢٢ أبريل أحل فيه نفسه ضمنيًا من إصرار خامنه إي على القضاء على إسرائيل وأقر التعايش بين دولة فلسطينية وأخرى إسرائيلية). وهاهي الصحف ذات الاتجاه الإصلاحي تُغلق من جديد. ورغم وجود مادة في الدستور تضمن الحصانة البرلمانية، صدر حكم بالسجن ستة أشهر ضد عضو بارز في البرلمان يطالب بمزيد من حرية الصحافة وغيرها من الإصلاحات، وقد رفض التقدم بطلب لاستئناف الحكم.

ولا يزال ظل بوش قائمًا. وسوف يؤدي القلق من نواياه، إلى جانب حسابات الساسة الخاصة بالمكسب الذي يمكن أن ينتج عن إثارته أو تهدئته، إلى تعقد الانتخابات البرلمانية في العام المقبل - وهي الانتخابات التي قد يفسدها مجلس الحفظة بسهولة بحرمانه العشرات من أعضاء البرلمان الحاليين من حق الترشيح. وسوف يؤدي القلق بشأن السياسة الأمريكية إلى تعقيد البحث الذي بدأ بالفعل عن مرشح إصلاحي مناسب ليحل محل خاتمي، الذي لا بد أن يترك منصبه بعد انتهاء فترة رئاسته الثانية بعد ثلاثة أعوام. وربما عجَّل بالجدل القومي الكامن بشأن سلطة علماء الدين غير المنتخبين الذين يتحدون إرادة الناخبين التي عبروا عنها.

وحين كنت في قم في ربيع العام الحالي، أشار صديق هناك إلى أنه يصعب العثور على رجل دين محافظ لم يغير آراءه بشأن مشروعية ولاية الفقيه. وهم جميعًا يشعرون الآن بصورة أو بأخرى بضرورة تغيير المنصب بحيث يعبر عن مجتمع يسعى إلى نوع من الحكومة أقل أبوية. وطبقًا لما قاله صادق حقيقت، وهو رجل دين ذو اتجاه إصلاحي، فإنه «حين تكسب الأفكار الديمقراطية أرضًا، يصبح من المستحيل» على السلطات الدينية مقاومة جهود تعديل مبدأ ولاية الفقيه. إذ «لا بد أن يتطور». بل إن المحافظين مثل علي رضا أميني يتفقون على أنه يمكن أن يتغير.



منذ أربع سنوات نشر صديق لحقيقت اسمه محسن كاديوار كتابًا في إيران بعنوان: «حكومة الولاية» أتاح رؤى جديدة في الجدل الدائر حول السلطة القائمة على أساس ديني. ودرس كاديوار الأقوال العشرة التي تنسب للرسول والأئمة ويشيع عرضها كدليل موثق على ضرورة حكم رجال الدين. وطبقًا لما ذكره كاديوار، وهو باحث يحظى بالاحترام، فإن ثمانية من تلك الأقوال قد لا تكون صحيحة. بل إنه يرى أن القولين اللذين يعتبرهما «باتين» لا يمكن أن يكونا مبررًا لتولي رجال الدين السلطة السياسية. ذلك أنهما يمنحان الفقهاء مسئولية «الدعوة إلى العمل بأحكام الإسلام ونشرها وتعليمها».. وليست هناك أدلة باتة على الولاية المطلقة للفقيه المعين».

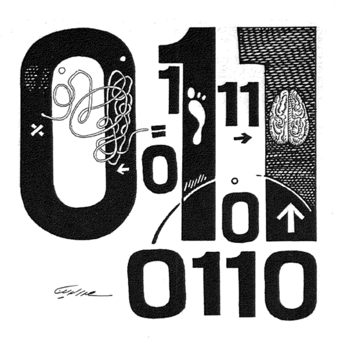
ويدل نشر كتاب كاديوار على أن هناك شيئًا من الانفتاح في المجتمع الإيراني. وبينما يتفق الكثير من الإيرانيين على وجوب تغيير الولاية، فهي لا تتغير. ويقول علي رضا أميني إنه «لكي تتغير، لا بد من الإجماع، وهو ما ليس موجودًا». وتكمن المشكلة فيما يتعلق بتضارب الأفكار المتضاربة في أناس يكرهون بعضهم بعضًا؛ ذلك أن كراهيتهم الشخصية تحول دون ظهور حلول وسط قابلة للتطبيق. وتعد الحرب الأخيرة في أفغانستان مثالاً للصراع السياسي الداخلي الحالي. فقد احتُفي بسقوط طالبان علانية في كل أنحاء إيران. وتعاونت حكومة خاتمي مع التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة بتزويده بالمعلومات الاستخبارية، وكذلك بتقديم قدر كبير من المساعدات للتحالف الشمالي؛ وهي تسعى الآن سعيًا حثيثًا للمساعدة في إعادة إعمار أفغانستان. إلا أن مساعيها قضت عليها قلة من المحافظين المتشددين الذين يبدو أنهم كانوا يساعدون القاعدة وحاولوا القضاء على حكومة حامد قرضاي في كابل.

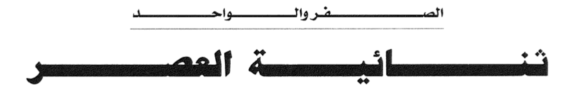
يصعب في هذا الجو المسموم تخيل استطاعة الإصلاحيين إقناع المحافظين بالتخلي طوعًا عن السلطة. كما أن الانفجار الشعبي يظل احتمالاً بعيدًا؛ فمعظم الناس لا يريدون ثورة أخرى، وتدين الشرطة والحرس الثوري بالولاء والطاعة. وما لم يتخذ الإصلاحيون حلفاء لهم في المؤسسة المحافظة، أو يعثروا على طرق جديدة لجعل الجماهير تضغط عليها، فسيكون محكومًا على إيران أن تخضع لشكل صارم من أشكال الحكم الإسلامي. ■

ترجمة: أحمد محمود

بترتيب خاص مع:

Newyork Review of Books





الصفر والواحد

ثنائية العصر

نبيل على

لقد عصفت أعاصير عصر المعلومات بكثير من الأسس التى قامت عليها صروحنا الفلسفية، وهياكلنا المعرفية، ووسائل إنتاجنا ونظمنا الاجتماعية: سياسية كانت أم اقتصادية، إعلامية كانت أم تعليمية، أمنية كانت أم أخلاقية. إنه - أى عصر المعلومات - ذو شغف عظيم بالتحطيم والإحلال وإعادة البناء، ولا غرابة فى ذلك، فمجتمع المعلومات لا يقوم على «طور الإنتاج» كما هى الحال فى النموذج الصناعى، بل هو قائم - كما يقول مارك بوستر - على «طور إعادة الإنتاج»، فكل أصول المعلوماتية وسلعها وخدماتها قابلة للنسخ وإعادة الاستخدام. إن عالمنا فى ظل المتغير المعلوماتى يرتج تحت فعل النقلات النوعية الحادة التى تأتيه من كل صوب وعلى غير لون، وما نشهده حاليا هو مجرد بدايات، فأجندة تكنولوجيا المعلومات مع تلك للهندسة الوراثية، زاخرة بكل ما هو مثير ومرعب فى آن، إلى الحد الذى كادت أن تصبح معه رؤى الخيال العلمى هى نفسها أجندة البحث العلمى.

لقد أعملت تكنولوجيا المعلومات معول الهدم فى كل اتجاه، وراحت تحطم - بلا هوادة - الحواجز الفاصلة بين العديد من المجالات التى كانت تبدو، حتى عهد قريب، متباعدة بل متباينة أحيانا، فها نحن نرى انهيار كثير من الحواجز بين فروع علوم الطبيعيات المختلفة، وبينها وبين علوم الإنسانيات، وبين العلوم والفنون، وبين التكنولوجى والأخلاقى، وبين البيئى والاجتماعى، وبين السياسى والإعلامى، وبين الإعلامى والأمنى، وسؤال البداية هنا: من أين أتت لتكنولوجيا المعلومات قدرة التحطيم الهائلة هذه، والإجابة - كما يراها الكاتب - تكمن فى قيام هذه التكنولوجيا الساحقة بتحطيم العديد من الثنائيات التى تعمق رسوخها فى الفكر الإنسانى، وعلى رأسها أربع ثنائيات حاكمة هى:

* ثنائية المادى واللامادى.
* ثنائية الواقعى والخيالى.
* ثنائية الجماعى والفردى.
* ثنائية الحيوى والفيزيائى.



وليتمهل القراء فى إصدار حكمهم على ما نزعمه هنا، على وعد بتقديم ما يسانده بالعديد من الأدلة والشواهد فى الفقرات القادمة، فما نود أن نؤكده فى هذه المقدمة أن أولوية هذه الثنائيات الأربع ترجع إلى صلتها الوثيقة بثنائيات ذات صلة مباشرة بجوهر الوجود الإنسانى، ونقصد بها: ثنائية المكان والزمان، ثنائية الجسد والعقل، ثنائية الفكر والوجود، ثنائية الفرد والمجتمع. إضافة إلى ذلك، فإن تحطيم هذه الثنائيات الحاكمة يؤدى بدوره، من خلال سلسلة التفاعلات وردود الأفعال، إلى انهيار العدد من الثنائيات الأخرى، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

* ثنائية التعليم والتعلم.
* ثنائية النظرى والتطبيقى.
* ثنائية القريب والبعيد.
* ثنائية الإنتاج والاستهلاك.
* ثنائية البشرى والآلى.
* ثنائية الذاتى والموضوعى.
* ثنائية الوعى واللاوعى.
* ثنائية الحرفى والمجازى.
* ثنائية الشكل والمضمون.
* ثنائية المحسوس والمجرد.

وتأتى ما بعد الحداثة، ذات الصلة الوثيقة بالمعلوماتية فى نظر الكثيرين، لتلقى فى غياهب الشك كل الأسس التى قامت عليها الحداثة، حيث يلح الفكر ما بعد الحداثى على ضرورة إعادة البناء من الصفر، ليطيح - فيما أطاح به - بثنائية الخير والشر، وثنائية الجميل والقبيح، وثنائية العقلانى واللاعقلانى، وغيرها الكثير، حتى جاز للبعض أن يصف عصرنا هذا الذى نعيشه بعصر «نهاية الأضداد».

خلاصة ما قبل: إن الأرض تميد تحت أقدامنا بعد أن تمت الإطاحة بمعظم الركائز الأساسية التى قامت عليها حضارتنا الإنسانية. وعلى ما يبدو فقد كتب على عقل الإنسان رفقة دائمة مع «اللايقين» وقلقه الأزلى، ومن أين يأتيه اليقين وقد طمست ملامح خرائطنا المعرفية التى يعاد تشكيلها مع بداية كل يوم جديد، ولنترك تناول هذه القضايا الشائكة لغيرنا لنركز على هدفنا الرئيسى من وراء الدراسة الحالية ألا وهو طرح تصورنا أن مصدر هذه القدرة الهائلة لتكنولوجيا المعلومات على تحطيم الثنائيات هو «ثنائية الصفر والواحد» التى قامت عليها هذه التكنولوجيا الماحقة الساحقة، إنها - أى ثنائية الصفر والواحد - هى تلك الثنائية الكامنة فى كل ما هو ميكروى، سواء فى ميكرو العناصر الفيزيائية متمثلة فى ثنائية الفعل ورد الفعل، وثنائية الشحنة السالبة والشحنة الموجبة، أو فى الميكروبيولوجى متمثلة فى أبجدية الكود الوراثى الرباعية، والتى هى - فى جوهرها - زوج من ثنائيات الحروف البيولوجية، وكما تكمن ثنائية الصفر والواحد فى الميكروالمادى، تكمن كذلك فى ميكرو العناصر المجردة: فى ميكرو الرياضيات متمثلة فى ثنائية القيم السالبة والقيم الموجبة، وثنائية طرفى المعادلات والمتكافئات، وفى ميكرو المنطق متمثلة فى ثنائية المقدمات والنتائج، وثنائية الصواب والخطأ أساس الحكم فى المنطق الأرسطى. بقول آخر، إن ثنائية الصفر والواحد هى «أبجدية الأبجديات»، أو «أبجدية القاع» التى يصاغ منها كل ما يعلوها من كائنات: محسوسة كانت أو مجردة. لذا فقد غدت هذه الثنائية القاعدية من أهم الأساسيات المعرفية التى تستلزم الإلمام بها من قبل الجميع على اختلاف تخصصاتهم وتوجهاتهم.

سنتناول فى هذه الدراسة ثلاث نقاط أساسية:

* أولا: نشأة الصفر والواحد.
* ثانيا: نشأة الثنائيات.
* ثالثا: ثنائية الصفر والواحد وتحطيم الثنائيات.

أولا: نشأة الصفر والواحد

يعد اكتشاف رقم «الصفر» واحدا من أهم اكتشافات الحضارة الإنسانية بلا منازع، ويرجع الفضل فى اكتشافه إلى الهنود القدامى وديانتهم الهندوسية التى احتفت بالأعداد أيما

إن الأرض تميد تحت أقدامنا بعد أن تمت الإطاحة بمعظم الركائز الأساسية التى قامت عليها حضارتنا الإنسانية. وعلى ما يبدو فقد كتب على عقل الإنسان رفقة دائمة مع «اللايقين» وقلقه الأزلى، ومن أين يأتيه اليقين وقد طمست ملامح خرائطنا المعرفية التى يعاد تشكيلها مع بداية كل يوم جديد



احتفاء. لقد وهب «الصفر» نظام الأعداد العشرى نقطة بداية مثيرة بعد أن كان قبل اكتشافه يبدأ من رقم «واحد»، وهكذا انطلق النظام من عقاله، يولد العشرات والمئات والآلاف والملايين فى سلسلة لامتناهية يمكن أن تعبر عن قيمة الأشياء مهما كبرت أو صغرت، ولولا «الصفر» لما تطورت علوم الحساب والجبر والرياضيات عموما، ولا تطورت - بالتالى - باقى العلوم التى اتخذت من الرياضيات وسيلتها الأساسية لإثبات صحة النظريات وسلامة الفروض واكتشاف القوانين وصياغة القواعد وتقييم النتائج.

ومهما قيل عن أهمية «الصفر» فيما مضى، فلن نوفيه حقه إلا بالنظر إلى أهميته القصوى بالنسبة إلى تكنولوجيا المعلومات، فكما هو معروف، ترتكز هذه التكنولوجيا - أساسا - على نظام الأعداد الثنائى binary system الذى لا يستخدم إلا رقمين فقط هما الصفر والواحد دون غيرهما من الأرقام، وذلك خلافا للنظام العشرى الذى اعتدناه، والذى يتعامل مع الأرقام من صفر إلى ٩ من خلال النظام الثنائى، يتم تمثيل جميع الأعداد بدلالة الصفر والواحد، حيث يمكن بسهولة تحويل الأرقام العشرية إلى نظيرها الثنائى وتوضح القائمة أدناه عينة من نظائر هذا التحويل للأرقام العشرية من صفر إلى ٩.

باستخدام هذه الوحدات الرقمية الأساسية يمكن تحويل أى عدد عشرى مهما كانت قيمته باستبدال الرقم العشرى بنظيره الثنائى، فعدد ٣٢٧٥ المكون من أربعة أرقام عشرية - على سبيل المثال - يناظره فى النظام الثنائى 0011 0010 1111 0101.

مثلها مثل كل الأفكار العظيمة، تبدو فكرة النظام الثنائى بسيطة، إلا أنها تمثل الفكرة المحورية التى قام عليها الكمبيوتر بل تكنولوجيا المعلومات بصفة عامة. إن النظام الثنائى هو بمثابة همزة الوصل بين الرموز المجردة ومقابلها المادى. فنظرا إلى ثنائيته التى لا تسمح إلا بالانتقال ما بين قيمتى الصفر والواحد، لذا يمكن تمثيله بأى عنصر مادى ثنائى الحالة: كالعناصر المعدنية التى يمكن أن تنتقل ما بين حالتى المغنطة وعدم المغنطة، وعناصر المفاتيح الكهربية التى يمكن انتقالها ما بين حالتى القفل والفتح، وعناصر «الترانزيستور»، أو «أشباه الموصلات»، التى يمكن تحويلها من حالة التوصيل الكهربى إلى حالة الفصل الكهربى. هذا من حيث تحويل أرقام النظام الثنائى إلى مقابل مادى، أما من حيث علاقته بالمنطق، فقد اهتدى إليها جورج بوول، عالم الرياضيات الإنجليزى، باكتشافه «الحساب المنطقى» ليقيم همزة الوصل بين نظام الأعداد الثنائى ومنطق أرسطو القائم على ثنائية الصواب والخطأ، وهكذا اكتملت للكمبيوتر الأسس النظرية للتعامل مع العمليات الحسابية والمنطقية، وكل مسألة يتم تحليلها رياضيا أو منطقيا تمهيدا لبرمجتها بواسطة الكمبيوتر تستحيل فى نهاية المطاف إلى قائمة ممتدة من سلاسل الصفر والواحد ولا شىء سواهما. إن الصفر والواحد هما عنصرا الرمز الذريان اللذان تصاغ بهما كل الأفكار والحلول، وتبنى منهما جميع الأرقام والنصوص والأشكال والأصوات، سواء تلك المغذاة بالكمبيوتر، أو المستخرجة بواسطته.

وربما يتبادر إلى ذهن البعض هنا، ما دمنا نتحدث عن عناصر الرمز الذرية، سؤال مؤداه: هل يمكن تحطيم العنصر الذرى الرمزى كما تم تحطيم نظيره الذرى المادى؟! ولنترك من يهوى مثل هذه الأسئلة مع تلك الكلمات التى تركها سقراط لرفاقه قبل أن يرتشف جرعة السم القاتلة، يقول حكيمنا: «لست مقتنعا بعد ذلك أننى أفهم لماذا يتولد الواحد، أو أى شىء آخر، ولماذا يزول، ولماذا يكون إطلاقا»..!!

ومن سقراط إلى فيثاغورث، الذى مجد الأرقام - كما يقول جون ماكليش فى كتابه «العدد» - حتى ارتقى بها إلى مراتب سامية، فكل المخلوقات فى نظره هى كائنات روحانية قوامها الأعداد، وما الروح إلا عدد متحرك ذاتيا ينتقل من جسد إلى آخر. لقد اهتدت حكمة فيثاغورث إلى أن كل الأشياء يمكن تمثيلها فى هيئة أرقام، وتخرج علينا تكنولوجيا المعلومات كل يوم بشاهد جديد يؤكد صحة نبوءة فيلسوفنا الإغريقى، والتالى عينة صغيرة من «حاملات صفة الرقمية» التى أضافتها هذه التكنولوجيا إلى قاموس حياتنا المعاصرة:

* الفضاء الرقمى.
* النقود الرقمية.
* الحرب الرقمية.
* الكلام الرقمى.
* الأرشيف الرقمى.
* الفجوة الرقمية.
* الموسيقى الرقمية.
* الهواتف الرقمية.
* التصوير الرقمى.
* الساعة الرقمية.
* العوالم الرقمية.
* الأقمار الصناعية الرقمية.

وتمتد قائمة الرقمية لتطول أمورا كنا نظن فى الماضى أنها بمنأى عن التدخل التكنولوجى من قبيل: الحنين الرقمى والخلود الرقمى والأجساد الرقمية وهلم جرا.

إن الطابع الرقمى للكمبيوتر وراء كل ما حققه من إنجازات. ولإيضاح ذلك علينا أن ننظر إلى الكمبيوتر بصفته آلة إنجاز عامة يمكن استخدامها فى جميع المجالات، ولكى تكتسب آلة الكمبيوتر صفة العمومية هذه لا بد أن تتعامل بصورة موحدة مع أنساق الرموز المختلفة، من أرقام ونصوص وأصوات وأشكال ثابتة وصور متحركة، وذلك بتحويل هذه الأنساق الرمزية إلى مقابل رقمى مصوغ بالنظام الثنائى سالف الذكر، ويتم ذلك عن طريق ما يعرف بـ «تكنولوجيا الرقمنة» digitization التى تتم بوسائل مختلفة تبعا لطبيعة النسق الرمزى المطلوب رقمنته. وتقوم «الرقمنة» على مفهوم بسيط مفاده: أنه بالإمكان تحويل جميع أنواع المعلومات إلى مقابل رقمى. ودعنا هنا نبدأ بالقول إن هناك أشياء هى بحكم طبيعتها أرقام، مثل عدد صفحات الكتاب، أو عدد السكان، أو معدل مرور السيارات، وهناك خصائص يمكن أن نعبر عنها بقيم رقمية باستخدام طرق القياس المختلفة كالمسافة والزمن والطول والوزن والحجم وما شابه. وما إن نتجاوز هذه الحالات البسيطة حتى يصبح الأمر أكثر صعوبة، فكيف نحيل النصوص والكلام المنطوق والموسيقى والأشكال والقوانين والقواعد إلى أرقام؟! ونستسمح القراء هنا فى قليل من التفاصيل الفنية التى نراها لازمة لما يتلوها من حديث حول أهمية ثنائية الصفر والواحد.

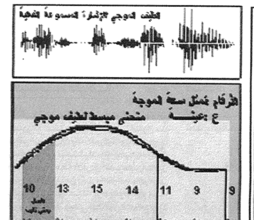
بالنسبة إلى النصوص، والتى قوامها حروف الألفباء، فيعبر عنها بأكواد رقمية تناظر هذه الحروف رقما بحرف (شكل ١)، وفيما يخص الأشكال والصور يتم مسحها إلكترونيا لتتحول إلى مجموعة هائلة من النقاط المتراصة والمتلاحقة. يمكن

شكل ١: أساليب رقمنة النصوص والأشكال والأصوات

الحرف	الكود الثنائي	الحرف	الكود الثنائي
أ	11000111	ح	11001101
ب	11001000	خ	11001110
ت	11001010	د	11001111
ث	11001011	ذ	11010000
ج	11001100	ر	11010001

رقمنة النصوص باستخدام أكواد ثنائية الحروف

رقمنة الصور عن طريق النقاط وتمثيل ووصفها بأكواد رقمية وألوانها ودرجات هذه الألوان



رقمة الإشارة المسموعة عن طريق أخذ عينات على فترات زمنية متساوية - الرسم ادناه لغرض إيضاح الفكرة حيث يصعب إيضاحها على الإشارة المسموعة الفعلية

تمثيل كل نقطة من هذه النقاط رقميا، سواء بالنسبة إلى موضعها أو لونها أو درجة هذا اللون. فبالنسبة إلى الموضع، يعبر عنه بدلالة الإحداثيين: السيني والصادى، كما فى الهندسة التحليلية، وبالتالى تمثيله رقميا بقيمتى هذين الإحداثيين. أما بالنسبة إلى اللون، فهناك أكواد رقمية تغطى «بالتة» جميع الألوان، وطيف ظلالها، ودرجة بريقها أو لمعانها. أما فيما يخص المسموع من الأصوات كالكلام والموسيقى، فيتم رقمنة الطيف الموجى الحامل للإشارة المسموعة عن طريق أخذ عينات من هذا الطيف على فترات زمنية قصيرة: بما يعرف بأسلوب sampling بحيث تمثل هذه العينات نمط التغير الذى يحدث فى شكل الموجة الحاملة لهذه الأصوات صعودا وهبوطا. تمثل هذه العينات رقميا بالقيمة الكمية لسعة الموجة مقرونة بزمن انتقائها، وهكذا.



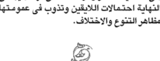
لقد أمكن من خلال الرقمنة سحق جميع أنساق الرموز: أرقاما ونصوصا وأشكالا وأصواتا، إلى ذرات الصفر والواحد، لتسقط الحواجز التى كانت تفصل بينها فى الماضى، وهو الأمر الذى أدى بدوره إلى إمكانية المزج بين هذه الأنساق والتحويل فيما بينها. فيمكن أن نحول الألحان إلى مقابل تشكيلى، والمكتوب إلى مقابل منطوق، وحركات الرقص إلى لحن موسيقى، ولنا حاليا أن نختار ما بين الرقص على عزف الموسيقى أو العزف على حركات الرقص. لقد شبه البعض ما فعلته «الرقمنة» فى مزج أنساق الرموز بما فعلته الحرارة فى صهر عناصر الفلزات فى هيئة سبائك معدنية مختلفة. وبفضلها - أى الرقمنة - خرجت إلى الوجود تكنولوجيا الوسائط المتعددة multi-media التى يمكن أن تتعامل بيسر مع تلك «السبائك الرقمية»، التى انصهرت بداخلها عناصر الرموز المختلفة، وقد استحالت فيضا متدفقا من سلاسل «الصفر والواحد»، أقصى درجات التجريد الرياضى المنطقى.

وهكذا، ومن خلال الرقمنة، أحالت تكنولوجيا المعلومات عالمنا: ظواهره وفكره وإبداعه ونظمه وعلاقاته وأدواته ومنتجاته، إلى عالم يطفو فوق محيطات هائلة من سلاسل «الصفر والواحد»، ثنائية العصر بلا منازع.

ثانيا: نشأة الثنائية

فى مسعاه الدؤوب لإخضاع الواقع لتصوراته، عادة ما يلجأ العقل إلى اختزال هذا الواقع كى يدين لأدواته المعرفية، ويتسق مع ما رسخ فيه من معتقدات وتوجهات. ولتكن البداية من فلاسفة الإغريق الطبيعيين ما قبل سقراط؛ هؤلاء الذين اختزلوا الواقع بأسره إلى عنصر أحادى، كالماء أو الهواء، ترد إليه الموجودات كافة. ويأتى فيثاغورث ليضع بذرة الثنائية فى الفكر الإنسانى: فالكون وتكامله هو وليد اتحاد المتضادات كالخير والشر، والذكر والأنثى، والسكون والحركة، وما شابه. بجانب ذلك، فقد أسهم فيثاغورث، مؤسس علم الحساب، فى نشأة ثنائية «الحساب والهندسة» التى تركها لنا مشاركة مع إقليدس الذى صاغ النظريات الهندسية بصورة منهجية متدرجة، وهى الثنائية التى صمدت قرونا عديدة حتى أطاح بها ديكارت باكتشافه «الهندسة التحليلية» ليقيم بذلك قنطرة الوصل بين الحساب والهندسة. فكل ما هو حسابى يمكن تمثيله هندسيا بالرسم البيانى، وكل ما هو هندسى يمكن تحويله إلى نظير حسابى من الأعداد والمعادلات الرقمية. لقد خلصنا ديكارت على صعيد الرياضيات من هذه الثنائية الحاكمة، إلا أنه على الصعيد الفلسفى قد خرج إلينا بثنائية قاطعة حاسمة. ففى سعى الشك الديكارتى إلى الوصول إلى اليقين، كان لا بد أن ينطلق من نقطة يقين أساسية، فكانت ثنائية «الفكر والوجود» المتمثلة فى الكوجيتو الشهير «أنا أفكر إذن أنا موجود». لقد حرر ديكارت الفكر الأوروبى من أسر فلاسفة الإغريق لينطلق تيار الحداثة متخذا من الثنائيات منهجا أساسيا لاختزال ظواهر الواقع المعقدة، فكانت ثنائيات الجسد والعقل، والمادة الروح، والمخ والعقل، والعضوى واللاعضوى، والذاتية والموضوعية، والوعى واللاوعى، والأنا والآخر، والشكل والمضمون، والعرض والطلب، والمثالية والإمبريقية، وعلوم الطبيعيات وعلوم الإنسانيات، وما شابه، ولا شك أن هذه الثنائيات قد حجبت رؤية المناطق الرمادية ما بين أطراف هذه الثنائيات، وتشابهت على الكثيرين وكأنها غاية الفكر ذاته، لا مجرد وسيلة من ضمن وسائله فى تناول إشكالياته.

لا يفوق احتفاء فيثاغورث بالأعداد إلا احتفاء ديكارت بالرياضيات، وإيمانه العميق أنه بالإمكان حل جميع مشكلات الواقع من خلال علم شامل يقوم على الرياضيات، إنها «الطوبائية الرياضية»، إن جاز القول، التى امتدت حتى شملت علم الأخلاق ذاته كما أسس له سبينوزا الذى سعى لإخضاع سلوك البشر ونوازعهم إلى القواعد العامة للطبيعة، ووصل التطرف الرياضى إلى مداه عند عالم الرياضيات الفرنسى دى لابلاس، الذى ذهب إلى الزعم بإمكان التنبؤ بالمستقبل لو أمكننا صياغة جميع ظواهر الواقع بصورة رياضية، وتوفرت لنا الأداة القادرة على تخزين البيانات التى تمثل هذا الواقع. وكان لا بد أن يؤدى هذا القطع الرياضى الصارم، واليقين العقلانى الراسخ الذى قام عليه، إلى ظهور العديد من الحتميات، نذكر منها على سبيل المثال: الحتمية التاريخية، والحتمية اللغوية، والحتمية البيولوجية، والحتمية الفيزيائية كما تتبدى فى نظريات نيوتن التى أحالت الكون بأسره إلى آلة تعمل كالساعة المنضبطة. ويأتى الفكر ما بعد الحداثى ليعلن الثورة على كل ما هو حتمى يقينى، متخذا من اللايقين والاختلاف والتنوع مدخلا أساسيا للنظر إلى الأمور، ليرفض بذلك أسس العقلانية والتجانس والتوحد التى قام عليها فكر الحداثة، ويرفض - بناء على ذلك - كل الثنائيات والسرديات الكبرى التى أنشأها هذا الفكر من نظريات ونظم وبنى معرفية وأطر فلسفية، ومن أهم الركائز التى يستند إليها فكر ما بعد الحداثة هى المعلوماتية، فهى بلا شك من أمضى الأسلحة فى مواجهة ظواهر التعقد التى تحيطنا من كل صوب، إنها وسيلة استئناس «اللايقين» واحتواء «التنوع» وإضفاء السلاسة على «الاختلاف»، ومرة أخرى فالفضل يرجع فى ذلك إلى «ثنائية الصفر والواحد» التى ترتد إليها فى النهاية احتمالات اللايقين وتذوب فى عمومتها مظاهر التنوع والاختلاف.



ولنختتم حديثنا عن نشأة الثنائيات بسؤال يطرح نفسه هنا وهو: هل لنا أن ننتظر بعد الأحادية والثنائية موجة من الثلاثية؟، خاصة وأن كثيرا من القضايا يتم النظر إليها حاليا من منظور ثلاثى، من أمثلة ذلك:

* الإعلام: المرسل - المستقبل - الرسالة الإعلامية.
* التربية: المدرس - الطالب - المنهج.
* البيئة : الإنسان - التكنولوجيا - المجتمع.
* الإبداع: المبدع - العمل الفنى - المتلقى.
* اللغة : النحو - المعجم - الاستخدام الفعلى للغة.
* الكمبيوتر: البيانات - المعلومات - المعرفة.

لا أحد يدرى، ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن هناك توجها لتطوير تكنولوجيا معلومات ذات أساس ثلاثى، وذلك من خلال استخدام عناصر بيولوجية، وهى كما نعرف ثلاثية الأبعاد بحكم طبيعتها وليست مسطحة ثنائية الأبعاد كما هى الحال فى شرائح السيليكون، ولاشك أن ذلك - لو تم - ستكون له انعكاساته الخطيرة على كل ما مضى، وكل ما هو راهن أو قادم.

ثالثا: ثنائيات الصفر والواحد وتحطيم الثنائيات

الآن، وقد أمهلنا القراء لنمهد إلى ما نهدف إليه من وراء مقالنا، وهو كيف أدت تكنولوجيا المعلومات، ومعولها الثنائى، إلى تحطيم كثير من الثنائيات، نركز حديثنا فيما يلى على الثنائيات الأربع الحاكمة التى أوردناها فى المقدمة. نستهل تناولنا لكل منها بتعريف مختصر لطرفى الثنائية، يتلوه شرح موجز لما نقصده بتحطيم تكنولوجيا المعلومات لها، لنستعرض فى ضوء ذلك بعض الآثار المترتبة عليه.

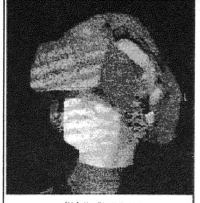
(أ) تحطيم ثنائية المادى واللامادى

ما نقصده بالمادى هنا هو كل ما هو محسوس، سواء كان عضويا أم غير عضوى، أما اللامادى فيشمل كل ما هو مجرد غير محسوس من أفكار ومفاهيم ونظريات وعلاقات، وما شابه. من هذا المنظور، تمثل آلة الكمبيوتر نقلة نوعية مثيرة وحاسمة فى مجال الابتكار التكنولوجى، يمكن لنا إدراكها من خلال تعريفنا لمفهوم «الآلة» أصلا. فالآلة - ببساطة - هى وسيلة مادية لتجسيد فكرة معينة من أجل تنفيذ وظيفة معينة. من خلال التصميم، يتم تحويل هذه الفكرة إلى آليات من التروس والروافع والدوافع والدوائر الكهربية والإلكترونية وما شابه. وهكذا، تتجسد الفكرة بصورة نهائية لا تقبل التغيير، ولا تنفصم عن الشق المادى المنفذ لها، ولا سبيل أمام مستخدم الآلة، الموسومة بفكر مصممها، إلا أن يلتزم بما قرره هذا المصمم بشأن أطوار أدائها وأسلوب استخدامها، ويأتى الكمبيوتر - ولأول مرة - ليعلن «فك الاشتباك» بين فكرة تصميم الآلة والعناصر المادية التى تجسد هذه الفكرة، وذلك من خلال ثنائية الشق المادى المتمثل فى العتاد hardware، والشق اللامادى المتمثل فى البرمجيات software: الفكر الذى يهب الحياة لهذه العناصر المادية الجامدة الخامدة. وعليه، فالكمبيوتر هو «آلة إنجاز خام» يتم توجيهها من خلال البرامج لتنفيذ وظائف محددة. بقول آخر، تتحد الآلة وتتعدد وظائفها مع تعدد برامجها، فنفس الكمبيوتر المستخدم فى مركبات الفضاء هو نفسه - من حيث الأساس - المستخدم فى أدوات المطبخ، والمستخدم فى الحسابات العلمية هو المستخدم فى ألعاب الفيديو، والمستخدم فى تطبيقات نظم الإدارة هو نفسه المستخدم فى الهندسة الوراثية، وهلم جرا.

إن كان الكمبيوتر قد فصل - كما أوضحنا - بين العتاد والبرمجيات، إلا أنه - فى ذات الوقت - قد استحدث وسائل عملية للتحويل بين المادى واللامادى والدمج بينهما، حيث تقوم البرمجيات حاليا بكثير من الوظائف التى كانت تنفذ فيما مضى من خلال عناصر مادية من تروس وروافع ودوافع ومقاومات وملفات ومكثفات وخلافه. على

يعد اكتشاف رقم «الصفر» واحدا
من أهم اكتشافات الحضارة الإنسانية بلا منازع،
ويّرجع الفضل فى اكتشافه إلى الهنود القدامى
وديانتهم الهندوسية التى احتفت بالأعداد أيما احتفاء.
لقد وهب «الصفر» نظام الأعداد العشرى
نقطة بداية مثيرة بعد أن كان قبل اكتشافه
يبدأ من رقم «واحد»



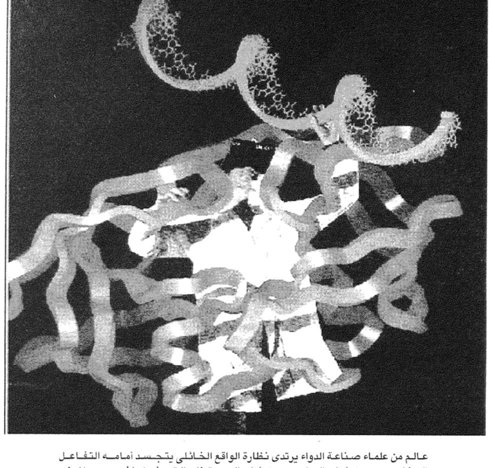


نظارة الواقع الخائلى



حلة البيانات الحساسة

مثال لأدوات التعامل مع نظم الواقع الخائلى



عالم من علماء صناعة الدواء يرتدى نظارة الواقع الخائلى يتجسد أمامه التفاعل الدينامى بين جزيئات الدواء مع جزيئات البروتينات التى يفرزها فيروس المرض

شكل ٢: استخدام الواقع الخائلى لتجسيد المجردات

الجانب الآخر، يمكن تحويل البرمجيات نفسها إلى مقابل مادى، وذلك من خلال ما يعرف بأسلوب «معدنة البرمجيات» metalization، حيث يتم صهر البرامج - أو حرقها وفقا للمصطلح الفنى - فى صلب بلورات شرائح السليكون الإلكترونية لتتحول بذلك تعليمات البرمجة، ذات الطابع الرمزى، إلى مقابل مادى من الدوائر الإلكترونية الدقيقة.

كان لتحطيم ثنائية المادى واللامادى انعكاساته الواضحة فى العديد من المجالات، نكتفى منها هنا بالمجالات التالية: المجال الهندسى - المجال الاقتصادى - المجال الإبداعى، وفيما يلى نبذة مختصرة عن كل منها.

* المجال الهندسى: اقتحمت الهندسة عالم اللاماديات مستحدثة فروعا هندسية جديدة تتعامل مع غير المحسوس مثل: هندسة المعرفة وهندسة اللغة وهندسة النظم، والهندسة الاجتماعية والتكنولوجيا النفسية وخلافه، ولنا أن نتوقع مزيدا من فروع هندسة اللاماديات، فقد تعقدت معظم ظواهر حياتنا بصورة يجب اللجوء فيها إلى الهندسة بصفتها فن التحكم فى النظم المعقدة.

* المجال السياسى: أصبحت القوة السياسية الاستراتيجية مزيجا من القوى الصلدة hard powers المتمثلة فى الأسلحة التقليدية، والقوى الرمزية اللينة soft powers، وخير مثال هنا هو الولايات المتحدة التى أجادت استغلال هذا المزيج اقتصاديا وسياسيا وعسكريا. لقد أيقن الجميع أن المعرفة والمعلومات والإعلام قد أصبحت من أمضى الأسلحة التى يجيد الأقوياء استخدامها، فنراهم يمارسون «الضغط» من خلال القوى التقليدية، ويلجأون إلى «الجذب» من خلال القوى الرمزية، وبهذا يمتزج فرض الحصار وزرع الألغام مع فرض المواقف وزرع الأفكار، ونشر القوات العسكرية مع نشر القنوات الإعلامية، ليصبح لهوائيات هذه القنوات ووابل رسائله الإعلامية قوة تضاهى قوة منصات الصواريخ ووابل قذائفها الصاروخية.

* المجال الاقتصادى: أدى تحطيم ثنائية المادى واللامادى إلى تقويض كثير من الأسس التى قامت عليها النظريات الاقتصادية سواء من حيث وسائل إنتاج السلع والخدمات، أو من حيث طبيعة العلاقة بين الإنتاج والاستهلاك، فكما هو معروف، تختلف أصول المعلومات وسلعها وخدماتها اختلافا جوهريا عن تلك للصناعات التقليدية، ومصدر هذا الاختلاف أن موارد المعلومات - على النقيض من الموارد المادية - تزداد لا تنقص مع الزيادة فى استهلاكها، ولكن أهم الآثار المترتبة على تحطيم ثنائية المادى واللامادى على الصعيد الاقتصادى هى - بلا شك - تلك المتعلقة بنظرية القيمة التى تمثل ركيزة أساسية للنظم الاقتصادية على اختلاف توجهاتها. لقد أضافت تكنولوجيا المعلومات نوعا جديدا من القيمة هو القيمة الرمزية، وأصبح رأس المال الذهنى intellectual capital مناظرا لرأس المال المادى، وأصبحت الملكية الفكرية من أهم الأصول الاقتصادية، تشهد على ذلك مفاوضات اتفاقيات الجات، وما نجم عنها من أوجه النزاع فى هذا الشأن.

* المجال الإبداعى: تشير دلائل عدة أن فن عصر المعلومات سيسوده الطابع الذهنى فيما يعرف بالفن المفهومى conceptual art، حيث يمزج هذا الفن بين الأفكار المجردة، وعناصر الفن التقليدية الأخرى من رسوم ونحوت وموسيقى وأداء حى وخلافه. بالإضافة إلى مزج الإبداعى المجرد بالإبداعى المادى، يجوز لنا هنا أن نشير إلى ما يجرى حاليا فى علم الجمال فيما يخص وضع أسس موضوعية، وأحيانا كمية، لتقييم الأعمال الفنية. إن منظرى الفنون يسعون إلى تجسيد المفاهيم المجردة مثل «شعرية» الشعر، و«روائية» الرواية، وموسيقية اللحن، وتماسك النص وخلافه، وسيلتهم الأساسية فى ذلك هو ما تتيحه تكنولوجيا المعلومات من وسائل عملية لإبراز هذه المفاهيم فى صورة محسوسة، فى هيئة معايير كمية ومؤشرات إحصائية وأنماط مختلفة من شبكات العلاقات.

(ب) تحطيم ثنائية الواقعى والخيالى:

يمثل الواقع الخائلى Virtual Reality ذروة ما وصلت إليه تكنولوجيا المحاكاة الرقمية digital simulation، والتفاعل بين الإنسان والآلة، إنه - أى الواقع الخائلى - ثمرة ما يمكن أن نطلق عليه «هندسة الخيال "imagineering"» التى تجمع فى كل واحد متسق بين العلم والفن والتكنولوجيا، من أجل إقامة عوالم وهمية من صنع الرموز. ويلزم فى بداية تناولنا لتكنولوجيا الواقع الخائلى التأكيد على أن ما سيتلو من حديث بشأنه ليس بالمرة من قبيل الخيال العلمى، بل كل ما سنورده هنا قد استقيناه مما يجرى حاليا فى معامل البحوث ومراكز التطوير.



لتوضيح مدى انتشار مفهوم الواقع الخائلى نورد أدناه عينة من قائمة الكائنات الخائلية التى يضاف إليها كل يوم كائن خائلى جديد:

* جراحة خائلية.
* سياحة خائلية.
* معمل خائلى.
* معبد خائلى.
* سوق خائلية.
* جماعات خائلية.
* مدينة خائلية.
* مكتبة خائلية.
* مدرسة خائلية.
* جنس خائلى!!

وبغض النظر عن تعدد أشكال نظم الواقع الخائلى، وطرائق التعامل معه، تظل الفكرة المحورية لتكنولوجيا الخائلية هى مفهوم الشعور بالانغماس فى تلك العوالم الصناعية المشيدة من الأرقام والرموز، وتعليق إدراكنا بعدم واقعيتها. يتولد

الشعور بالانغماس بفعل ثلاثة عوامل متضافرة هى: خداع الحواس، وتوليد الأشكال المجسمة ثلاثية الأبعاد، ورد فعل النظام ديناميا مع حركة الرأس، أو حركة العين أحيانا، أو حركة الجسد أو الأطراف أو الأصابع. لقد أسقطت تكنولوجيا الواقع الخائلى الحاجز الفاصل بين الواقعى والخيالى، بين الكائن الفعلى والخائل الرمزى الذى يتمثل لنا فى صورة أقرب ما تكون إلى عالم الواقع، ومن خلاله ـ أى الواقع الخائلى ـ ننفذ إلى ما وراء شاشة الكمبيوتر، ولم نعد بذلك فى حاجة إلى التعامل معه من خلال الأدوات التقليدية مثل لوحات المفاتيح والفارة والأقلام الضوئية وغير ذلك، فما أن نرتدى نظارة الواقع الخائلى، أو نرتدى حلة البيانات الحساسة data suite (انظر شكل ٢) حتى ينفتح أمامنا فضاء رمزى من عوالم الوهم نجوب أرجاءها ونتسكع فى مسالكها ونسكن مواقعها، ونتفاعل مع كائناتها الخائلية، نتحسسها ونمسك بها ونقبض عليها ونحاورها ونلاعبها ونراوغها. لقد حررتنا تكنولوجيا الواقع الخائلى من قيود الجسد وقيود النفس وقوانين الطبيعة وقوانين المجتمع. والحال هكذا، فلا عائق أمام من يبحر فى هذا الفضاء الرمزى أن يصعد إلى مجرات النجوم أو يغوص إلى أعماق الأرض والمحيطات، وأن يتجول داخل المفاعل النووى دون ما خوف من شدة حرارته وإشعاعاته الفتاكة، بل يمكنه أيضا أن يقلص جسده ليسرى مع الدماء فى رحلتها عبر الدورة الدموية، أو ينفذ من جدار الخلايا الحية ليعايش ما يجرى بداخلها من عمليات بيولوجية، وكما يمكّن الواقع الخائلى الإنسان من الإبحار فى المكان، يمكنه ـ أيضا ـ من الإبحار إلى أزمنة الماضى الغابرة، واقتحام أزمنة المستقبل القادمة، أو الخلط بينها فيما يعرف بالخلط الزمنى time scrambling.

بسقوط الحاجز بين الواقعى والخيالى تتهاوى ثنائيات عديدة عاشت آمادا طويلة، نكتفى منها هنا بـ:

* ثنائية الحرفى والمجازى.
* ثنائية المحسوس والمجرد.
* ثنائية الوعى واللاوعى.
* ثنائية القريب والبعيد.

ونورد فيما يلى نبذة مختصرة عن كل من هذه الثنائيات.

ثنائية الحرفى والمجازى: لقد سيطرت ثنائية الحرفى والمجازى على أسلوب تعاملنا مع المعنى اللغوى، والذى مازال حتى الآن ـ وربما سيظل ـ مفهوما مراوغا يصعب الإمساك به، وهو ما انعكس بالتالى على أسلوب فهمنا للنصوص، وكان لهذه الثنائية ما لها من أمور جسام فى تفسير النصوص الدينية. لقد أقمنا حوائط الأسمنت بين لغة البسطاء ولغة الشعراء، وجعلنا استخدام الاستعارة وقفا على المبدعين، وتأتى لنا البحوث اللغوية والمعجمية الحديثة لتثبت مدى الخطل فى هذا التعسف الشديد الذى ينطوى عليه التفريق بين الحرفى والمجازى، حيث تنظر إليهما هذه البحوث حاليا بصفتهما طرفين لمسار متصل continuum تتوسع على مداه معانى الألفاظ متخلصة من أسر الحرفية المحضة، منطلقة بقوة الاستعارة فى فضاء الدلالة الرحيب (كمثال بسيط لمسار التوسع المجازى المتدرج انطلاقا من المعنى الحرفى نتتبع هنا معانى فعل يخرج: يخرج من منزله ـ يخرج الوليد من الرحم ـ يخرج اللفظ من الفم ـ يخرج عن مساره ـ يخرج من عزلته ـ يخرج من ورطته ـ يخرج عن طوره ـ يخرج علينا بفكرة). إن الفضاء الرمزى الذى تقيمه تكنولوجيا الواقع الخائلى هو بمثابة معمل يمارس فيه المجاز تجاربه الاستعارية، إنه بستان فسيح يمرح فيه المجاز يزهو بأخيلته وقد تجسدت بصورة ملموسة محسوسة، ليصبح الحب نارا، والجدال حربا، والزمن قطارا، والوقت سيفا إن لم تقطعه قطعك.

ثنائية المحسوس والمجرد: إن الإنسان يفضل ـ أو لنقل تسهل عليه ـ الرؤية والتجسيد والتعامل مع المحسوس. لقد فرض علينا تعقد العالم أن نجرد ظواهره فى هيئة أرقام ورموز وعلاقات، ولكننا نظل فى حاجة إلى أن نتمثل مضمون هذه الأرقام الجافة، نراها أمامنا تنمو وتنزوى وتتراكم وتتلاشى، ونريد أن ندرك مغزى الرموز، نراها حية مقرونة بمعناها ودلالتها داخل سياقاتها الفعلية، وأن نقتفى أثر العلاقات فى نشأتها وصيرورتها، وهى تعلو وتهبط كالأمواج، وتتفرع كأخاديد المياه. وهكذا تتجسد تلك المجردات أمام ناظرينا فى حيوية دافقة، كاشفة لنا عن أسرارها ومغزاها وعلاقاتها. وقد استخدم بالفعل هذا الأسلوب الخائلى الرمزى لتجسيد تقلبات بيانات البورصة ومعاملاتها العديدة السريعة بكل ما تنطوى عليه من كم هائل من المتغيرات والعلاقات الدينامية، وكادت تكنولوجيا الواقع الخائلى أن تصبح وسيلة لا غنى عنها فى صناعة أدوية العلاج بالجينات، حيث يتم من خلالها تجسيد المعلومات البيولوجية لتصور لنا ديناميا، وعلى مستوى الجزئيات الدقيقة، مشاهد المعركة التى تتم بين العقار الجينى، وما يفرزه فيروس المرض من بروتينات وإنزيمات (شكل ٢).

لقد أبدع العقل البشرى وهو يحول الواقعى المحسوس إلى المجرد النظرى، وحان الوقت لهذا العقل أن يمارس الإبداع المعكوس، ونقصد به تحويل المجرد إلى المحسوس، أى أن تتحول الأرقام والرموز إلى شواهد قائمة، والعلاقات إلى جسور عابرة، والبنى المعرفية إلى بنى حقيقية نتجول فى سراديبها، ونصعد ونهبط على سلميات تراتبياتها. لقد حولت مطبعة جوتنبرج الأفكار إلى نقوش غائرة فى مادة الورق، وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتسلب من الورق المطبوع ماديته بعد أن حولته إلى وثائق إلكترونية. وتساؤلنا هنا: هل يمكن لتكنولوجيا الواقع الخائلى أن ترجع بنا من اللامادى إلى المادى مرة أخرى؟ وهل يمكن أن يكون ما نسمعه عن تكنولوجيا «الطباعة ثلاثية الأبعاد»، التى تحول الصور والأشكال إلى مقابلها المجسم، هى بداية رحلة العودة إلى عالم الماديات والمحسوسات؟ إن هذا الترحال المستمر بين المحسوس والمجرد يمثل حركة ذهنية دائبة، غدوا ورواحا، مما يحفظ للعقول حيويتها، ويحميها ضد داء التصلب والجمود، وربما تضيق معه تلك الفجوة، ما بين النظرى والتطبيقى، وبين ما يطرأ على عالم الواقع من ظواهر، وإدراكنا العقلى لماهية هذه الظواهر ومغزاها.

ثنائية القريب والبعيد: لم نعد نفرق بين القريب والبعيد، وبين من يجاورنا ومن يحاورنا على بعد آلاف الأميال، ولقد مكنتنا تكنولوجيا المعلومات من نقل حضورنا ذاته عبر المسافات من خلال عقد المؤتمرات عن بعد، والتى يجرى دمجها حاليا مع تكنولوجيا الأشكال المجسمة ثلاثية الأبعاد holography لتوليد ما يعرف بـ«الرؤوس المجسمة الناطقة»، لكى تنوب عن أصحابها فى لقائهم الخائلى للحوار عن بعد، هذا هو ما يجرى تطويره بالفعل، لكن تكنولوجيا المعلومات تضمر غير ذلك الكثير للإطاحة بثنائية القريب والبعيد، ودعنا نشير هنا إلى مفهوم المدن الخائلية virtual cities الذى يتردد على أسماعنا هذه الأيام، فعن قريب، وعن طريق تكنولوجيا الواقع الخائلى سيتلاقى الأصدقاء فى هذه المدن، صنيعة الأرقام والرموز، دون أن يغادروا أماكنهم، فعلى سبيل المثال: يمكن أن يتواعد شخصان، أحدهما فى طوكيو والآخر فى سان فرانسيسكو، على اللقاء فى مدينة باريس الخائلية، يزورون متاحفها ويتسكعون فى طرقاتها، ويشاهدون أهلها فى خضم حياتهم اليومية. هذا يكفى عن تحطيم ثنائية القريب والبعيد على الصعيد المكانى، لننتقل بحديثنا إلى ما يحدث على الصعيد الزمانى، ومحاولات تكنولوجيا الواقع الخائلى لتحطيم ثنائية «الحديث والقديم». حيث يمكن من خلال المحاكاة الرقمية استحضار الماضى بعصوره القريبة والسحيقة لنعيد فى فضاء الرموز بناء بغداد الرشيد، وإقامة المواكب الجنائزية فى معابد الأقصر، ونسترجع مراحل التطور البيولوجى عبر الأزمنة الجيولوجية المختلفة، بل هناك من يتحدثون عن «الخلود الرقمى»، بمعنى أن يظل الأموات بعد فناء أجسادهم أحياء بيننا، نأنس بوجودهم، ونستهدى بحكمتهم، ونشركهم فيما يستجد فى حياتنا من مواقف وفى أذهاننا من أفكار، وحتى لا يبدو حديثنا الراهن ضربا من «الهرطقة الرقمية» فمن حق القراء علينا هنا بعض من الإيضاح. إن كل إنسان يترك وراءه بقاياه الرمزية من صور وتسجيلات صوتية ومرئية ونتاج فكرى وإبداعى. يمثل ذلك قاعدة معارف متكاملة يمكن استغلالها لكى نبعث صاحبها «رقميا» من جديد، نحاوره ونسأله رأيه فيما مضى، وفيما يستجد من قضايا، ليجيبنا ـ إن عنَّ له ذلك ـ من واقع خبراته المخزنة فى قاعدة معارفه وبرأسه المجسم الناطق المستخلص من تفاصيل صوره المسجلة على شرائط الفيديو، وبصوته المولد صناعيا من مقاطع صوته المسجلة. إنه الخلط الزمنى والتواصل فى أقصى صوره مع الماثل والغائب، ومع الخلف والسلف.

ثنائية الوعى واللاوعى: مازال عالم اللاوعى بمنأى عن المعرفة الدقيقة أو شبه الدقيقة، وليس بأيدينا سوى حفنة قليلة من الوسائل التقريبية لاستظهار اللاوعى من أجل التعرف على بواطنه وبواعثه ومؤثراته وتأثيراته. ومرة أخرى، تعمق تكنولوجيا الواقع الخائلى معرفتنا باللاوعى نتيجة ممارستنا الحياة فى عوالم الرمز بلا خوف وبلا خجل، وربما تصبح حياتنا فى المستقبل ترحال دائم بين دنيا الواقع الفعلى، وبين عوالم الرمز الخائلية، نمارس فيها أحلامنا، وننفس من خلالها عما نكبته فى دخائل نفوسنا. لتطفو خبايا اللاوعى على السطح وقد تحرر ـ كما أسلفنا ـ من قيود الجسد وقوانين الطبيعة وضغوط المجتمع.

خلاصة: لقد وفرت لنا عوالم الواقع الخائلى معملا هائلا نجرى فيه ما يستعصى علينا ممارسته فى عالمنا الفعلى إما بسبب خطورته أو استحالة تنفيذه أو لعدم تواجده أصلا فى دنيا الواقع، وهكذا يمكننا اكتساب خبرات قيادة أضخم الطائرات فى محاكى الطيران flight simulator، وأن نتقن إجراء أدق العمليات الجراحية على الأجساد الرقمية، وأن نتصور ما يمكن أن نصادفه ونحن نهبط على سطح كواكب المجموعة الشمسية. إن الواقع الخائلى بتحطيمه مجموعة الثنائيات السالفة الذكر سيعمل على تضييق المسافة بين الواقع والوعى به، بين ظواهر الواقع وقدرتنا على تفسيرها، لتزداد سرعة اكتسابنا لخبرات التعامل مع هذا الواقع، وهكذا تضيق المسافة تدريجيا بين الفكر والوجود، تلك الثنائية الحاكمة التى أقام عليها ديكارت صرحه الفلسفى.

اقتحمت الهندسة عالم اللاماديات مستحدثة فروعا هندسية جديدة تتعامل مع غير المحسوس مثل: هندسة المعرفة وهندسة اللغة وهندسة النظم، والهندسة الاجتماعية والتكنولوجيا النفسية وخلافه، ولنا أن نتوقع مزيدا من فروع هندسة اللاماديات

(ج) تحطيم ثنـائيـــــة الجمـــاعي والفـــردى:

يقصد بالجماعى هنا كل ما هو مجتمعى وجماهيرى وجملى (كما فى إنتاج الجملة) وكل ما يتعامل مع كتل من العناصر المتعددة، أما الفردى فهو الشخصى الذاتى وكل ما يتعامل مع العناصر المنفردة.

لقد عجزت تكنولوجيا الماضى عن التعامل مع الجماعى نظرا إلى تعدد عناصره وكثافة التفاعل بين هذه العناصر، ناهيك عن الديناميات الهادرة وليدة هذا التفاعل وذاك التعدد. وبنفس القدر - وربما يزيد - عجزت هذه التكنولوجيا عن التعامل مع الفردى بما ينطوى عليه من أمور ظلت إلى وقت قريب بمعزل عن التدخل التكنولوجى، من قبيل اللاوعى والذاتية والخيال والقدرة الإبداعية، وغيرها كثير من مظاهر السلوك الفردى. وكيف إذن لمجهولين أن يلتقيا؟ فكان لا بد أن يؤدى ذلك إلى إقامة حواجز فاصلة بين الجماعى والفردى، وهى الثنائية التى ترددت انعكاساتها ومظاهرها فى أرجاء المجتمع الإنسانى: مؤسساته ونظمه وعلاقاته ووسائل إنتاجه وإبداعه. شتان الفرق بين تكنولوجيات الماضى وتكنولوجيا المعلومات فيما يخص ما تتسم به الأخيرة من قدرات فريدة على التعامل سواء مع الجماعى أو الفردى، فعلى المستوى الجماعى توفر تكنولوجيا المعلومات وسائل عديدة لاحتواء التعدد والتفاعل الدينامى للكيان الجماعى، وهى الوسائل التى تشمل - على سبيل المثال لا الحصر - شبكات الاتصال ونظم المعلومات والإحصائيات وقواعد البيانات ونظم المحاكاة. أما على المستوى الفردى، فقد تجاسرت تكنولوجيا المعلومات - كما سنوضح فى الفقرة التالية الخاصة بثنائية الحيوى والفيزيائى - على اقتحام المناطق الحميمة فى الإنسان الفرد: مخه وحواسه وجسده ووجدانه. نتيجة لهذه القدرات الفريدة توشك تكنولوجيا المعلومات أن تودى بثنائية الجماعى والفردى ساعية إلى المزج بينهما فى أشكال مستحدثة لم تشهدها البشرية من قبل. ولتوضيح ما نقصده هنا سنتناول فيما يلى بإيجاز مظاهر هذا المزج الجماعى - الفردى على جوانب عدة من منظومة المجتمع الإنسانى وهى: الجانب المعرفى - الجانب الإبداعى - الجانب الإنتاجى - الجانب التعليمى - الجانب الأخلاقى - الجانب الإعلامى - الجانب السياسى.

الجانب المعرفى: لا جدال فى أن معرفة الجماعة هى حصيلة معرفة أفرادها، ولم يكن لهذه المقولة أن تتحقق بصورة عملية محسوسة قبل ظهور تكنولوجيا المعلومات، فمعرفة عصر المعلومات سيتم إنتاجها من خلال التفاعل الشبكى بين أفراد موزعين جغرافيا. إن بمقدورنا حاليا تناول مفاهيم عديدة متعلقة بالمعرفة الجماعية من قبيل الذاكرة الجماعية والملكية الفكرية الجماعية، وأخيرا الذكاء الجماعى collective intelligence، ذلك الذكاء الموزع الذى يتم حصده من مصادر المعرفة المختلفة المنتشرة عبر شبكة الإنترنت، وكما عرفه بيير ليفى(*)، إنه الذكاء وليد تبادل الآراء، وتقدير مواقف الآخرين، وتنمية قدرات الفرد من خلال المواكبة والمشاركة والتفاعل. المشكلة هنا أن الذكاء الجماعى يواجهنا بظاهرة معقدة للغاية دون أن يتوفر لدينا حد أدنى من معرفة كيفية التعامل معه علميا وإعلاميا وتربويا واقتصاديا، لقد ركزنا فى الماضى على ذكاء الفرد وذاكرته، ويا ليتنا نجحنا فى ذلك، فقد استعصى علينا إلى الآن تحديد مفهوم الذكاء وعجزنا عن توصيفه وتحليله.

الجانب الإبداعى: ارتبط الإبداع فى الذهن بالفردية والذاتية، وخير ما يعبر عن تلك المقولة الشائعة: «العلم هو نحن أما الفن فهو أنا». إن عصر المعلومات يكاد يجعل من الفن، هو الآخر، عملا يمتزج فيه الجماعى بالفردى. لقد أوشكت قابلية العمل الفنى للامتزاج مع غيره من الأعمال الفنية أن تصبح شرطا أساسيا لفنون عصر المعلومات على اختلاف أنواعها ومدارسها: أدبا وتشكيلا وموسيقى وسينما ومسرحا وأداء حركيا، فبدون قابلية الامتزاج هذه، يصبح العمل الفنى معرضا للاندثار والانزواء فى طى النسيان. خلافا لما كان عليه العهد فى الماضى، فإن فنان عصر المعلومات سينتج ما يمكن أن نطلق عليه «شظايا إبداعية» قابلة للاندماج مع شظايا إبداعية أخرى، فلم تعد مسؤولية الفنان أن يقدم عمله فى صورته النهائية فى هيئة كتاب أو فيلم أو مقطوعة موسيقية، فهذه المسؤولية باتت تقع حاليا على عاتق من سيقوم بصهر هذه الشظايا الإبداعية فى توليفات لانهائية من خلال تكنولوجيا الوسائط المتعددة.

الجانب الإنتاجى: قام إنتاج عصر الصناعة على مفهوم إنتاج الجملة القياسى، فى المقابل تتيح تكنولوجيا المعلومات أنماطا مختلفة من الإنتاج تمزج بين إنتاج الجملة والإنتاج الفردى لتصنيع سلع أو خدمات بمواصفات خاصة وفقا لطلب الزبون customized. وتوفر هذه المرونة فى الإنتاج القدرة على التجاوب السريع والمتنوع لمطالب الأسواق والعملاء.

الجانب التعليمى: حولت تكنولوجيا الصناعة مدارسنا إلى مصانع لإنتاج البشر بالجملة، وكم هو باهظ هذا الثمن الذى دفعته البشرية نتيجة لهذا النمط من تعليم الأعداد الغفيرة، الذى يبدد كثيرا من مواهب المتفوقين ويعجز عن أن يقدم يد العون للمتخلفين، ولا شك أن هذا التعليم الجماعى مسئول عن شيوع «المتوسطية» mediocrity، والنمو المتزايد لجحافل الأغلبية الصامتة. من أجل التخلص من تركة الماضى، تسعى تربية عصر المعلومات إلى المزج بين التعليم الجماعى فى فصول المدارس، وبين التعلم الفردى فى المنازل من خلال الوسائل العديدة للتعلم ذاتيا التى تتيحها تكنولوجيا المعلومات عموما، والإنترنت بصفة خاصة. من جانب آخر، فقد تميعت الحواجز التى كانت تفصل بين المعلم وتلاميذه، فالمعلم يعلّم طلبته ويتعلم منهم فى ذات الوقت، والطالب يتعلم، ويشارك فى ذات الوقت فى عملية التعليم من خلال ما يعرف بالتعليم التكافلى collaborative education.

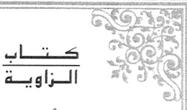


الجانب الأخلاقى: استحدثت تكنولوجيا المعلومات فروعا أخلاقية ذات طابع مغاير تماما لما سبقها. والأمل معقود على تكنولوجيا المعلومات كى تمهد الطريق إلى خلق عالمى، يقوم على المبادئ العامة التى اصطلحت عليها الإنسانية والشرائع والثقافات والحضارات، من قبيل العدل والمساواة والأمانة ورفع المعاناة وأحب لأخيك ما تحب لنفسك. لن ينحصر الأمر، فيما يخص أخلاقيات عصر المعلومات، فى نوعية القيم، بل كذلك - وهو الأهم بالنسبة لنا هنا - فى أسلوب فرض هذه القيم وإشاعتها على المستوى العام أو الجماعى. فلم يعد مجديا ما كان ساريا فى عصر تكنولوجيا الصناعة الذى صاغ الأخلاق فى صورة قوانين وتشريعات. لقد ولّى عصر «حراس البوابات الأخلاقية»، فأخلاق عصر المعلومات، كما تشير دلائل عديدة، سوف تقوم على المزج بين الإلزام الجماعى والالتزام الفردى، والتحول من الرقابة البوليسية إلى الرقابة الذاتية، والجمع بين سلطة القانون ووازع الضمير، أو بقول موجز، وضع المرجع النفسى الفردى جنبا إلى جنب مع المرجع الاجتماعى الجماعى.

الجانب الإعلامى: عنصر آخر من عناصر الإنتاج الجماعى وليد عصر الصناعة هو الإعلام الجماهيرى الذى يبث رسائله إلى الكتل البشرية من المستمعين والمشاهدين. يمثل إعلام الإنترنت نقلة نوعية فى هذا الخصوص، حيث يجمع بين الإعلام الجماهيرى والفردى، فلأول مرة يمكن أن تبث الرسالة الإعلامية إلى شخص معين، أو جماعة معينة، أو إتاحتها لجمهور المتعاملين مع الشبكة. هذا على مستوى الإرسال الإعلامى، أما على مستوى الاستقبال، فقد أضفت عليه تكنولوجيا المعلومات هو الآخر طابعا فرديا، وذلك بعد أن خلصت «المتلقى» للرسالة الإعلامية - ولأول مرة أيضا - من قبضة مرسلها، وذلك عن طريق ما يعرف بأسلوب «فيديو تحت الطلب» video-on-demand، والذى يمكن المتلقى الفرد من انتقاء رسالة الإعلامية وطريقة عرضها والأوقات التى تناسبه لاستقبالها.

الجانب السياسى: وأخيرا وليس آخرا، فقد اقتحمت تكنولوجيا المعلومات صلب عالم السياسة التى باتت فى أمس الحاجة إلى هزة عنيفة تجدد أسسها المعرفية ووسائلها العملية، خاصة فيما يتعلق بالمفهوم السياسى الأساسى ألا وهو مفهوم الديموقراطية. لقد ثبت عجز الممارسات الديموقراطية القائمة على نظام التمثيل النيابى، ويطالب الكثيرون بردها - أى الديموقراطية - إلى نشأتها الأولى، ديموقراطية أسواق أثينا القديمة التى يشارك فيها الجميع، والتى غربت شمسها مع تضخم المجتمعات وامتدادها جغرافيا، ولا يختلف اثنان على أن الديموقراطية ذات صلة وثيقة بأساليب التواصل المتوافرة بين الأفراد بعضهم البعض، وبين الأفراد والمؤسسات. لذا فهناك من يؤكد أن تكنولوجيا المعلومات بما توفره من وسائل اتصالات عديدة ومستحدثة ستؤدى إلى ظهور نمط جديد من الديموقراطية هو الديمقراطية الإلكترونية (أو «الميكروديموقراطية» كما يحلوا للبعض أن يسميها). ولعلنا مازلنا نذكر «روس بيرو» المرشح المستقل فى انتخابات بوش - كلينتون، وكيف جعل من الديموقراطية المباشرة ركيزة حملته الانتخابية، وشرع فى تنفيذ الفكرة بالفعل فيما يعرف بالمجالس المحلية الإلكترونية، حيث تتفاعل أصوات أفراد الجماعة خلال شبكات الاتصالات من أجل الوصول إلى صوت جماعى collective voice يشارك فيه الجميع. التساؤل المطروح هنا: هل يمكن أن يحدث ذلك النقلة النوعية المطلوبة فى الأداء الديموقراطى، أم أنه سيخلق نوعا من فوضى تضارب الآراء والمصالح واختلاف المدارك والخبرات؟!

أيقن الجميع أن المعرفة والمعلومات والإعلام قد أصبحت من أمضى الأسلحة التى يجيد الأقوياء استخدامها، فنراهم يمارسون «الضغط» من خلال القوى التقليدية، ويلجأون إلى «الجذب» من خلال القوى الرمزية، وبهذا يمتزج فرض الحصار وزرع الألغام مع فرض المواقف وزرع الأفكار



كتاب الزاوية



أسباب عظمة العرب

إن الزمن الذى ظهر فيه العرب من العوامل التمهيدية فى قوتهم، وإن لعامل الزمن التمهيدى أهمية كبيرة فى حياة الأفراد والأمم، وإن هناك صفات لا تَبرُز إلا فى وقت معين، فلو ظهر نابليون فى زمن لويس الرابع عشر ما استطاع أن يصير سيد أوروبا، ولو ظهر مُحمَّد أيام سلطان الرومان ما قَدَرَ العرب على الخروج من جزيرتهم لاريب، ولظلَّ التاريخ جاهلاً لهم.

وُلِدَ مُحمَّد فى أحسن الأوقات، وقد رأينا أن العالم المُسنَّ كان متصدعًا فيه من كل جانب، ولم يتوجب على أتباع مُحمَّد إلا أن يَهُزُّوه ليتساقط.

بيد أن القضاء على دولة لا يكفى لإقامة حضارة، ويدل عجز البرابرة الذين وَرِثوا حضارة الرومان فى الغرب، كما ورثها العرب فى الشرق، على ما فى إقامة الحضارات من المصاعب، وإذا كان ذلك العامل التمهيدى مساعداً على إنشاء دولة جديدة وحضارة جديدة فلابد من عوامل أساسية أخرى لإقامتهما مما نُعيِّنُه الآن.

وتأثير العرق من أهم تلك العوامل التى نذكرها:

رأينا أن من أهم خصائص العرق أن يتصف أفراده، على الخصوص، بمشاعر وقابليات متماثلة وأن يوجهوا جهودهم نحو غرض واحد، وهذه المشاعر المتماثلة التى تكونت بتعاقب الوراثة، أى التى تتألف الأخلاق القومية من مجموعها، هى تراث ماض ساعد أجدادنا على تكوينه فنساعد على تكوينه أيضًا من أجل ذُرياتنا، وهذه المشاعر، وإن كانت تختلف بين شعب وشعب لا تختلف إلا قليلاً فى الشعب الواحد.





(د) تحطيم ثنائية الحيوى والفيزيائى:

الحيوى هو العضوى الذى يشمل كل الكائنات الحية، وكل مكوناتها من أعضاء ونظم وخلايا. إنه الكائن ذو القدرة على الحركة الذاتية والتكيف التلقائى مع البيئة، الدينامى دائم التطور نموا أو ضمورا. أما الفيزيائى، أو غير العضوى، فيشمل كل الموجودات المادية غير الحية، التى لا تقدر على الحركة إلا بفعل مؤثر يأتيها من خارجها. لقد قامت منظومة العلوم الطبيعية على مبدأ الفصل بين البيولوجيا (علم الأحياء) والفيزياء (علم الطبيعة)، ولكن الحاجز بين هذين الفرعين الأساسيين للمعرفة الإنسانية على وشك الانهيار حاليا، فهناك من ينظر إلى «الفيزياء» بصفتها حالة خاصة من «البيولوجيا»: حالة «الصفر البيولوجى» أو «بيولوجيا اللاحياة» lifeless biology كما أطلق عليها البعض.

إن المعلوماتية الحيوية تزلزل الأرض التى قامت عليها ثنائية الحيوى والفيزيائى، وخير شاهد على ذلك ما يحدث على جبهتى تكنولوجيا تصنيع الكمبيوتر وتكنولوجيا المخ والأعصاب. فعلى جبهة تصنيع الكمبيوتر يجرى حاليا تطوير شرائح إلكترونية تمزج بين العناصر الحيوية والعناصر الفيزيائية السيلكونية فيما يعرف بتكنولوجيا «البيوسيلكون»، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن تكنولوجيا المعلومات فى طريقها من خلال المعلوماتية الجزيئية molecular informatics إلى تحقيق مستويات من التصغير المتناهى تفوق الخيال، وهو ما سيمكن من صنع كائنات معلوماتية اصطناعية بالغة الصغر ذات قدرة هائلة على حفظ المعلومات ومعالجتها مما يمكن أن نطلق عليه «النانو - روبوت» أو «الفيروس الاصطناعى الحميد» الذى يمكن أن نبعث به داخل أجسادنا ليحط على خلايانا يحاورها بلغة الجينات، اللغة المشتركة التى تتحدث بها خلايا جميع الكائنات الحية. إنها الثورة العارمة التى نشهدها حاليا على ساحة العلاج بالجينات - الذى أشرنا إليه سلفا - حيث تتضافر التكنولوجيا البيولوجية والمعلوماتية فى إصلاح ما يطرأ على الأجساد من خلل ونقص، وهناك - كما تعرف - بحوث تجرى حاليا لإطالة الأعمار من خلال تجديد الخلايا بأساليب تكنولوجية تقوم أساسا على اكتشاف العناصر الجينية التى تتحكم فى الميقات البيولوجى (ساعة أعمارنا).

لقد أصبحت أجسادنا مكشوفة للتدخل التكنولوجى، من استخدام الأطراف والمفاصل الصناعية، ومنظمات دقات القلب والقلوب الاصطناعية، إلى تصنيع الأعضاء البشرية من خلال تكنولوجيا الهندسة الوراثية، وهناك من تمادى إلى حد التكهن بإمكان إعادة تشكيل الجسد الإنسانى وفقا لما نريده له من خلال عملية إحلال شاملة، وليتمعن معنا القراء فى مغزى ما يتردد على ألسنة هؤلاء من أن الجسد الإنسانى إلى زوال body is obsolete.

أما على جبهة تكنولوجيا المخ والأعصاب فالموضوع بلا شك أكثر إثارة وجسارة وجسامة. لقد استغل أهل تكنولوجيا الأعصاب حقيقة أن كلاً من المخ والكمبيوتر يعمل على أساس الإشارات الكهربية وكونهما يشتركان فى كثير من أمور معالجة الأنساق الرمزية، فالمخ - فى نظر هؤلاء - ما هو فى نهاية الأمر إلا آلة فائقة لمعالجة الرموز من خلال تبادل الرسائل البيولوجية - الكهربية. إن هناك هجمة شرسة على المخ البشرى جعلته عرضة للتدخل التكنولوجى المباشر من خلال توجهين رئيسيين:

التوجه الأول: إقامة وسائل لتوصيل المخ البشرى مباشرة مع الكمبيوتر بحيث يمكن قراءة ما بذاكرته من معلومات ومعارف ومفاهيم، ليصبح المخ البشرى أشبه ما يكون بقرص مدمج CD-ROM يتم استرجاع البيانات منه.

التوجه الثانى: وينطلق من اعتقاد البعض أن المخ البشرى لم يعد قادرا على مواجهة تعقد الظواهر من حوله، وهو الأمر الذى يتطلب - فى رأيهم - ضرورة اللجوء إلى مؤازرات اصطناعية تضيفها عليه تكنولوجيا المعلومات، وذلك بزرع عناصر تكنو - أعصابية neuro-technological implant، وذلك بهدف الوصول إلى ذكاء فائق يمكّن الإنسان من حل مشكلاته التى تزداد صعوبة يوما بعد يوم، ودعنا نستمع هنا إلى ما يقوله فرنسوا ليوتارد، فيلسوف ما بعد الحداثة، فى هذا الشأن: «إن الهدف من كل البحوث المعاصرة إما تحرير المخ البشرى من القيود البيولوجية التى تتعرض لها كل الكائنات الحية، وإما تصنيع نظام بديل لا يعتمد أداؤه أصلا على هذه القيود»، وهو الأمر الذى وضعه مركز بحوث «ماكس بلانك» بألمانيا موضع التنفيذ حيث يسعى حاليا إلى تعزيز المخ البشرى بذاكرة اصطناعية، وذلك بزرع شريحة الكترونية داخل المخ البشرى، ذاكرة لا تخبو، ولا تنمحى، تحمل المعارف والمفاهيم دون ما جهد فى تحصيلها، ولا يدرى أحد هل يمكن إحداث نوع من التآلف التعاضدى symbiosis بين المخ البشرى الواهن المتميع ذى المرونة الهائلة، والقدرة الفائقة على التكيف والتداعى؛ وعلى استحداث الجديد وإعادة صياغة القديم، وبين العناصر التكنولوجية الصلدة الصامدة ضد عوامل الزمن ذات القوة الهائلة على معالجة المعلومات وتخزينها بمعدلات تفوق بكثير قدرات المخ البشرى.

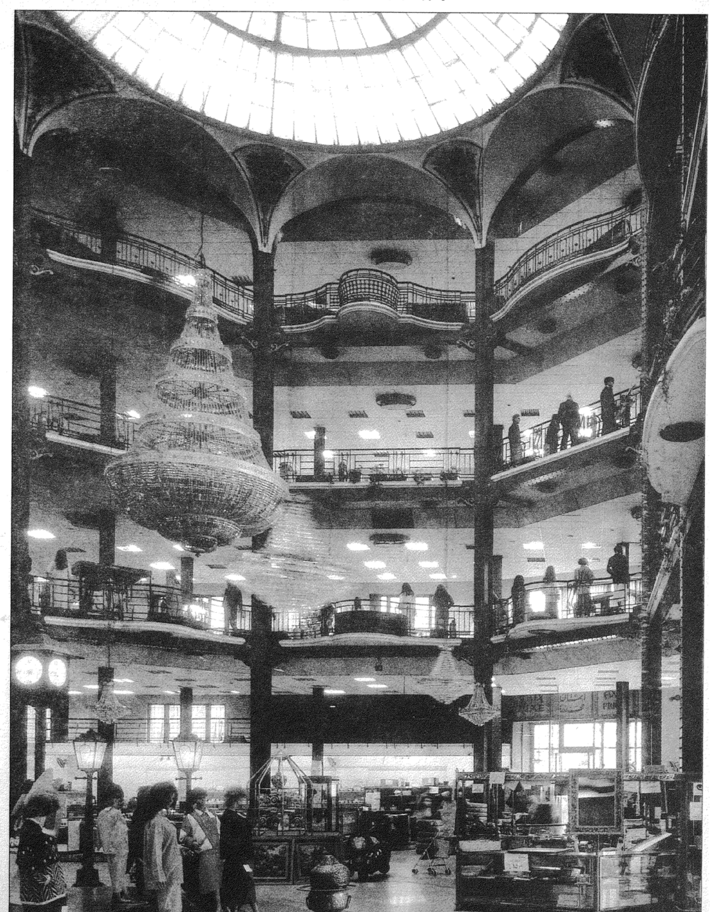
إن تحطيم ثنائية الحيوى والفيزيائى تتجلى فى أقصى صورها فى المواجهة الحاسمة بين البشرية والآلية، ويبقى السؤال هنا: هل تأهلت البشرية لهذا اللقاء؟. فى رأى الكثيرين - ونحن معهم - أنها لم تتأهل بعد، فكيف لهذا «الحوار البشرى - الآلى» أن يحدث فى ظل «الصراع البشرى - البشرى» الذى يشتد أواره فى عالمنا؟! وها هى ثنائية الصفر والواحد على المستوى الميكروى تكاد تفرز ثنائية أخرى على المستوى الماكروى الاجتماعى، ونقصد بها ثنائية الغنى والفقر «بالمعنى المعلوماتى»، متمثلة فيما يعرف حاليا بـ «الفجوة الرقمية» التى تزداد اتساعا يوما بعد يوم، لتفرق بشدة بين من يملك المعلومة ومن يفتقدها. ■

هامش

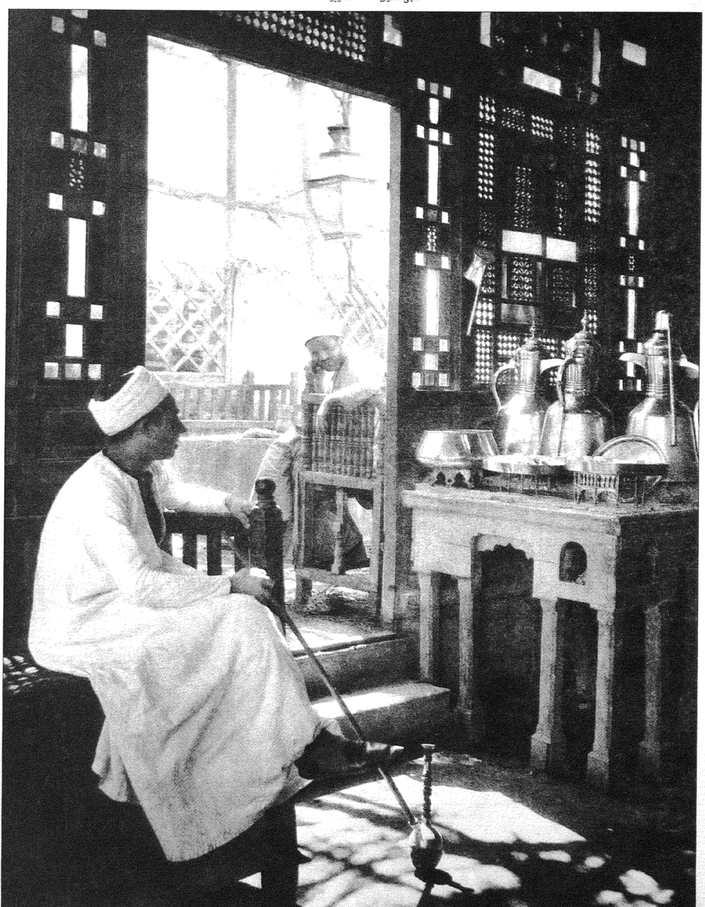
(*) فى كتابه بعنوان «collective intelligence» الذى ترجمه عن الفرنسية روبرت بونونو.

القاهرة مدينة لا تشيخ .. تداخل القديم

صيدناوى الخازندار ١٩١٣ تصوير Georges Parca



مقهى قاهرى ١٨٩٦ تصوير R. Achton



القاهرة.. مدينة لا تشيخ

ليلى حافظ

ظلت القاهرة منذ نشأتها تعتبر كما وصفها ابن خلدون عندما وصل إليها فى عام ١٣٨٣: «عاصمة العالم، حديقة الكون، مكان التقاء الدول، ذات مكانة عالية فى الإسلام»

بالمقارنة بكل ما يحيط بها تعتبر القاهرة «مدينة حديثة»، شابة لا يتجاوز عمرها ١٠٣٢ عاما. عاشت تاريخا طويلا أثار دائما اهتمام العالم بما يزخر به من أحداث وتحولات، «كشف قدرتها على مقاومة الضغوط الهائلة التى تفرضها عليها البيئة التى تحيط بها». هكذا وصفها جان لوكلان السكرتير الدائم لأكاديمية النقش وفن الخط الفرنسية فى تقديمه لكتاب: «القاهرة: الفن والحضارات العظيمة» الذى صدر مؤخرا فى فرنسا، حول «القاهرة» العاصمة المصرية التى «عرفت دائما كيف تتأقلم مع أكبر مشاكلها وهى التلوث البيئى والتزايد المفرط فى سكانها». ويقول جان لوكلان: «إن الإعجاب الحقيقى الذى تثيره العاصمة المصرية يعود أساسا إلى أن مدينة الألف مئذنة تكشف بكل وضوح عن الانتصار المستمر للعمل الشاق والعبقرية الإنسانية».

ظلت القاهرة منذ نشأتها تعتبر كما وصفها ابن خلدون عندما وصل إليها فى عام ١٣٨٣: «عاصمة العالم، حديقة الكون، مكان التقاء الدول، ذات مكانة عالية فى الإسلام». ومع توالى الحقب والحكام عليها حتى قبل أن تكتسب اسم «القاهرة» نسبة إلى النجم «القاهر»، ورغم تباين مكانتها السياسية من حقبة إلى أخرى، ومن فترة حكم إلى أخرى، إلا أنها ظلت هى العاصمة الثقافية والفنية والدينية للعالم العربى، وظلت تحمل بين جنباتها كل العوامل التى تجعل منها مدينة لا تشيخ.

التداخل الزمنى والدينى:

من بين أهم العوامل التى جعلت من «القاهرة» ومن قبلها منف وبابليون وكل العواصم الأخرى التى بنيت فى نفس المكان، مدينة لا تشيخ هو هذا التداخل الهائل بين القديم والحديث، وهذا الامتزاج العجيب بين الأديان المختلفة والتى أعطت القاهرة القدرة على التعايش وعلى الاستمرار.

فيسرد كتاب «القاهرة: الفن والحضارات العظيمة» تاريخ المدينة وتطورها العمرانى والمعمارى والفنى الذى تميزت به عن سائر المدن بأنه لم ينمُ فى خط مستقيم بل تطور واتسع بشكل متقطع، متردد أحيانًا، ومتنافس أحيانا أخرى. بل وفى أحيان كثيرة فى تداخل وامتزاج مدهش بين القديم والحديث. فتمتد هيليوبوليس الجديدة التى أسسها البارون البلجيكى عام ١٩٠١ مع هيليوبوليس القديمة التى عرفت باسم «أون»، والتى يتوقع عالم الآثار جان بيير كورتيجانى أن تكون قد بنيت على مساحة شاسعة من الأرض. فقد قام العلماء القادمون مع حملة نابليون فى بداية القرن التاسع عشر بتحديد ارتفاع أسوار هيليوبوليس إلى أكثر من ١٢ مترا طولا. بينما تشهد آثارها على مجدها، خاصة كل تلك المسلات التى انتزعت منها لتشيد فى الإسكندرية أو فى روما أو فى العديد من العواصم الغربية الأخرى.

ومن ناحية أخرى تشهد مدينة منف، العاصمة الثانية لمصر فى العصر الفرعونى على آثار هائلة مثل المقابر التى عرفت باسم «مدينة الموتى»، وتمثال رمسيس الثانى الضخم كما يشهد عليها تمثال لأبى الهول نحت من المرمر الأبيض فى الجزء الأول من الأسرة الثامنة عشرة. فليس عجيبا إذن أن يقول عنها أحد علماء التاريخ العرب فى عام ١٢٠٠ أن آثارها «تحوى الكثير من العجائب التى تحتار فيها العقول، ولا يستطيع حتى أكثر الرجال بلاغة أن يصفها».

امتد العمران والمعمار من منف التى كانت تقع بين البدرشين وميت رهينة جنوبى القاهرة الحالية، إلى قلب المدينة الحالية، مصر القديمة، والتى شهدت فى عهد رمسيس الثانى نشأة بابليون التى استمرت إلى العهد الرومانى ثم شهدت ظهور الكنائس المسيحية والآثار القبطية الغنية. كما شهدت بناء المعابد اليهودية وأشهرها معبد «بن عزرا». ووسط تلك المشاهد القبطية واليهودية فتح عمرو بن العاص مصر لتمتزج العاصمة العربية والإسلامية مع القاهرة القبطية، فيقول كورتيجانى إن الفتح العربى جاء ليستقر فى منطقة بالقرب من تلك المدينة القديمة، لذا أصبحت هذه المدينة هى حلقة الوصل التى ربطت بين عصرين عظيمين فى تاريخ مصر.

وتقول سيلفى دونوا فى الفصل الذى يحمل عنوان «القرون العربية الأولى» أنه حتى وإن تعرضت بعض الكنائس إلى التلف أو التدمير، بعد الفتح الإسلامى والعربى لمصر، إلا أن المسيحيين بصفة عامة كان بإمكانهم ممارسة شعائرهم الدينية بكل حرية، وفى الفترة ما بين عامى ٧٩٩ و٨١٩ تم ترميم كل الكنائس فى القاهرة.



الامتزاج الأجنبى والمصرى:

منذ الفتح العربى لمصر، وتشييد الفسطاط التى بناها عمرو بن العاص، كعاصمة عربية لمصر، شهدت المنطقة توالى العصور المختلفة العربية ثم الأجنبية، فانتقلت من حكم الفاطميين ثم الأيوبيين وبعدهم المماليك ثم جاء العثمانيون إلى أن انطلقت القاهرة إلى العصر الحديث فى القرنين التاسع عشر والعشرين الذى أطلق عليه «عصر التحول». ولقد عكست العصور المختلفة على القاهرة تأثيرها السياسى على أسلوب الحياة الثقافية والفنية والمعمارية، كما طبعت القاهرة عليها مذاقًا مصريًا خاصًا ترك بصمته على فنونها وثقافاتها.

فكان أول ما تأثر بهذا الامتزاج بين الأسلوب العربى والأجنبى مع المذاق المصرى، هو فن العمارة والمعمار. فتقول سيلفيا دونوا إن المنازل الخاصة فى مصر قبل الفتح الإسلامى كانت ترتفع عدة طبقات. وعندما جاء العرب تبنوا نفس الأسلوب، ويقال إن عمرو بن العاص بعث إلى الخليفة عمر ابن الخطاب يسأله إن كان من الممكن أن ترتفع مبانى المسلمين عدة طبقات، فأجابه بالإيجاب بشرط ألا يستطيع من يسكن الطبقات الأعلى أن يسترق النظر إلى جاره الذى يسكن الطبقات الأسفل. وبعد ذلك انتقل حكم الدولة إلى العباسيين الذين بنوا أحياء لكل فرقة من فرق الجيش، ثم جاءت الدولة الطولونية لتبنى «القطائع» نسبة إلى التخطيط المتقطع للأحياء، حيث تعيش كل طبقة اجتماعية معا فى حى واحد، وطبع الطولونيون بصمتهم على القاهرة فبنوا مسجد ابن طولون أروع المساجد الإسلامية ومستشفى وشيدوا «مقياس النيل» جنوبى جزيرة الروضة.

وفى القرن العاشر ميلاديًا ازدهر الفاطميون فى المغرب، ثم انطلقوا إلى حكم مصر حيث نقلوا معهم أسلوبًا معينًا من الحياة، فانتقل معهم كل التوهج والمجد والبذخ الذى عرفوا به.

يقول جان كلود جارسان إن الفاطميين جاءوا إلى مصر بفكرة معينة عن شكل عاصمتهم، ووضعوا أسس تلك العاصمة كأمراء وليسوا كائمة. لذلك أصبحت القصور، وليس المساجد، هى الأقطاب الأساسية التى بنيت عليها «القاهرة» الفاطمية. وتتويجا لتلك الفكرة، عاشت مصر قرونا من التوهج والمجد فى العصر الفاطمى.

فعندما حددوا شكل العاصمة الجديدة «القاهرة» حسب طقوسهم الفلكية، وقرروا المساحة التى ستقام عليها، بنى جوهر الصقلى قصرين ومسجدا، واكتسبت القصور الفاطمية وهجا وبذخا يليق بسكانها الأمراء. وبالنسبة للحاشية والجنود والطبقات الاجتماعية المختلفة أسس جوهر الصقلى ما عرف باسم «الحارة». فتكونت «حارة الأمراء» حيث كان يعيش النبلاء و«حارة قائد القوات» التى سكنت فيها حاشية الصقلى، ثم تكونت حارات مختلفة لكل فئة عرقية فعرفت «حارة الأتراك» و«حارة الأكراد» و«حارة الروم» ثم حارات أخرى للقبائل المختلفة مثل «حارة قتامة» و«حارة زويل» والأخيرة أعطت اسمها لأحد أبواب القاهرة الجنوبية.



مشروع الفاطميين كان دينيا:

تصف سيلفى دونوا انه برغم كل شىء يبقى تحت انظارنا البنايات الكبيرة التى تضم السور وبواباته الضخمة، والمساجد، خاصة بل أولاً، مسجد

Le Caire
القاهرة
Andre Raymond, Ghislaine Alleaume, Jean- Pierre Corteggiani, Sylvie Denoix, Jeqn- Claude Garcin, Mercedes Volait
Citadelles & Mazenod, 2000, 492PP



الأزهر. فرغم حياة البذخ والرفاهية التى كان يعيشها الأمراء فى ذلك العصر، إلا أن مشروع الفاطميين كان أولاً مشروعًا دينيًا. فدأبوا طوال فترة حكمهم على دراسة الحكمة فى نصوص الفكر الشيعى، واستمروا فى نشر دعوتهم فى مصر وفى بلدان الشرق الأخرى، فكان منهم من شيد العديد من أماكن العبادة، ووضع أسس العمارة الجنائزية.

كان أهم ما شيده الفاطميون فى مصر من مساجد، مسجد الأزهر الشريف نسبة إلى فاطمة الزهراء. ولقد بدأ العمل فيه مع مجيء جوهر الصقلى إلى مصر عام ٩٦٩، وانتهى العمل فيه فى عام ٩٧٢م مع مجيء أول الخلفاء الفاطميين المعز لدين الله. وفى عام ٩٨٢ أصبح المسجد مكان علم أيضًا يضم ٣٥ معلمًا، ثم ضم إليه فندق ليؤوى المعلمين والتلاميذ. واستمر الأزهر يقوم بدوره الدينى والتعليمى، ليصبح منارة للعلوم الإسلامية حيث تعلم معظم علماء الإسلام من المغرب وحتى أندونيسيا.

استمر بناء المساجد فى تلك الفترة، التى شهدت مسجد الحكيم الذى توسع على مدى السنوات، ليصبح مسجدا ضخما، ثم بنى مسجد «الأقمر» عام ١١٢٥ والذى كان أول مبنى تفتح بوابته على مستوى الشارع.



الصفة العسكرية للقاهرة:

فى هذه الفترة تغيرت جنسية حكام مصر، ومعهم تغير مفهوم الحكم وبالتالى تغير أيضا الطابع المعمارى والفنى الذى ساد. ويقص جان كلود جارسان كيف أنه يمكن أن نطلق على تلك الفترة التى استمرت مائتى عام «عصر الوسط» لمدينة القاهرة، وهى تلك الفترة التى تلت «العصر الكلاسيكى» حيث كان يحكم البلاد الإسلامية خليفة من بغداد أو قرطبة أو القاهرة. ولكن فى العصر الوسط لم يعد يحكم مصر، عرب، بل أجناس مختلفة اتخذوا لأنفسهم منصب «السلطان» وحرصوا على خدمة الإسلام من أجل أن يعطوا أنفسهم شرعية، فكان أن مارسوا المذهب السنى الذى كان يمارس فى أغلب الدول الإسلامية الأخرى مما أضاف إلى الطابع العمرانى والمعمارى المصرى فى القاهرة صفة جديدة تتشابه مع كل المدن السنية الأخرى.

بالإضافة إلى الطابع السنى الدينى، كانت من أهم الصفات التى لازمت الحكام الجدد للقاهرة الصفة العسكرية. فلقد حكم مصر فى تلك الفترة عسكريون مدربون تدريبًا عاليًا، يستخدمون الجياد. فكان لابد لهم من مساحة جغرافية لكى يتدربوا فيها ويتطوروا، كما كان لابد لهم من قلاع يحتمون فيها فى حالة وجود خطر يهددهم (الحملات الصليبية والهجمات المغولية). لذا انعكست تلك الصفات على «المجتمع المدنى» الذى كانوا يحكمونه، وتأثر بها التطور العمرانى الذى صاحب تلك الفترة والذى استمر ولم يمح تمامًا مع الانتقال إلى العصور التالية كما حدث مع الطابع العربى السابق.

كان أهم هؤلاء الحكام الجدد للقاهرة صلاح الدين الأيوبى، الحاكم الوحيد لمصر عام ١١٧٤، الذى جاء من أصول كردية عسكرية. والملك الظاهر القائد بيبرس (١٢٦٠) الذى تحول إلى أسطورة حقيقية.

كانت أهم مشاهد الحكم العسكرى الجديد بناء القلعة على هضبة المقطم والتى انتهى العمل فيها عام ١٢٠٨، ومنذ ذلك التاريخ انتقل مركز الحكم إلى القلعة. لم تكن القلعة هى المشهد الوحيد للحكام الجدد، ولكن انتقل طابعهم ليشمل كل الامتداد العمرانى للبلاد. وأكبر أمثلة له مقبرة الإمام الشافعى، التى تمثل المعمار الدينى السنى والذى اختلف كلية عن الطابع الشيعى الذى ساد فى عصر الفاطميين. كما انتشر فى العصر الجديد أيضًا بناء «المدرسة» والتى اعتبرت مركزا لدراسة القانون والمذاهب السنية الإسلامية الأربعة المالكى والشافعى والحنفى والحنبلى، لتعليم الصفوة من أبناء البلاد. فشهد العصر الأيوبى بناء ٢٥ مدرسة أغلبها فى الفسطاط، وهو ما بدا منطقيًا حيث كان يهيمن جامع عمرو بن العاص على مركز النشاط القانونى.

وهكذا عرفت القاهرة فى تلك الفترة العمارة القاهرية واكتسبت طابعًا خاصًا بها.

ثم ابتداء من عام ١٢٥٠ انتهى حكم الأسر الكبيرة الكردية وتولى المماليك، العبيد الذين تحرروا والتحموا مع السلطة السياسية والعسكرية، حكم مصر مما عكس القوة الإقليمية التى كانوا يتمتعون بها فور انتهاء فترة الحملات الصليبية. وكانت فترة حكم الملك الناصر (توفى عام ١٣٤٠) هى التى وصلت فيها تلك القوة إلى الذروة. ففى تلك الفترة توسعت المدينة إلى الشمال، وإلى الغرب وإلى الجنوب. وكان للشارع الرئيسى فى المدينة، المعروف باسم القصبة، دور مهم فى ازدهار «خان القوافل» الذى كان يستقبل التجار والمسافرين، وتركز فيه نشاط تجارى كبير ومكثف مع أوروبا والشرق.



انحسار سياسى وتألق فنى:

ليس صحيحا أن القاهرة شهدت انهيارا بطيئا منذ أن وقعت تحت الحكم العثمانى فى عام ١٥١٧، والذى استمر ثلاثة قرون. الصحيح أنها شهدت تراجعا فى أهميتها السياسية، فقد تحولت إلى عاصمة إقليمية مع انتقال المركز السياسى والثقافى إلى أسطنبول. كما أنها أصبحت تحصل على مخصصات مالية أقل والتى كان يذهب معظمها إلى التطور الثقافى فى البلاد. وأخيرًا كان حكامها فى ذلك الوقت لا يتعدون مستوى الباشا يتلقون تعليماتهم من الباب العالى، يتحدثون التركية ويهتمون بالثقافة التركية ويبقون فى القاهرة بصفة مؤقتة.

ورغم كل ذلك، ظلت القاهرة، عاصمة مصر، تعتبر أكبر دولة فى العالم العربى مع كثافة سكانية بلغت فى هذا الوقت أربعة ملايين نسمة، وظلت العاصمة الثقافية والفكرية والدينية بلا منازع. وذلك إلى حد كبير بسبب قوافل الحجاج التى كانت تقف فى القاهرة فى طريقها إلى مكة، والدور الرائد الذى لعبه الأزهر كجامع وجامعة. وفى نفس الوقت لم يكن للحكام العثمانيين الذين حكموا مصر أى رغبة فى التأثير على ثقافتها أو فرض لغتهم التركية، بل بالعكس فقد كانوا يحترمون كثيرا اللغة العربية، لغة القرآن. وفى عام ١٧٤٨ جاء أحمد باشا إلى القاهرة فقال معبرًا عن إعجابه بها: «القاهرة تعتبر عندنا منبع العلوم والمعرفة».

أيضًا فى هذا العصر كانت القاهرة تقع وسط المساحة الشاسعة التى كانت تحتلها الامبراطورية العثمانية، فاعتبرت مركزًا تجاريًا أساسيًا للتجارة القادمة من الشرق. وهكذا استمرت القاهرة فى التطور والاتساع، والنمو. وذكرت موسوعة «فى وصف مصر» أن فى عام ١٧٩٨ كانت القاهرة تضم ٢٥٠ ألف نسمة، على مساحة ٦٦٠ هكتارًا: لتظل واحدة من أكبر المدن فى حوض البحر المتوسط.

مثل كل العصور التى سبقت الحكم العثمانى، انعكس هذا العصر فى الفنون المعمارية. ورغم أن العمارة العثمانية لم تركز على الاتساع الذى ميز العمارة المملوكية، إلا أنه يمكن القول أنها اقترضت من المملوكية تقاليدها بالإضافة إلى تأثير الفنون المتوسطية. ويقول أندريه ريمون فى سرده لتلك الفترة التى استمرت من عام ١٥١٧ إلى ١٧٩٨، أى نحو ثلاثة قرون، أنه فى ذلك الوقت تشكلت الصورة العمرانية التى تستخدم اليوم كمرجع للتراث المعمارى الذى تهدده الحداثة التى زحفت على القاهرة فيما بعد.

ففى هذا العصر انتشر بناء المساجد التى كانت تقوم بدور تعليمى كبير، مثل مسجد الحسين، كما شهدت القاهرة بناء المدارس «الكتاتيب»، وعرفت «المجالس» التى كان يشارك فيها العلماء والمثقفون. وفى القرن السادس عشر عرفت القاهرة «القهوة»، هذا المكان الجديد الذى انتشر على مستوى الطبقات المتوسطة والشعبية والذى كان من شأنه إحداث تغييرات جذرية فى العلاقات والعادات الاجتماعية. فمع ظهورها عرف القاهريون الأماكن العامة للقاء وتناول الطعام. ومع الوقت تحولت تلك الأماكن إلى مراكز لانتشار الثقافة والنصوص الأدبية مثل ألف ليلة وليلة وتبادل الأفكار والآراء، وأيضا للسمر والاستماع إلى الموسيقى والرواة. ومن هنا أيضًا بدأت نواة المسرح مع مسرح خيال المآتا (الأراجوز). لذا مع القهوة بدأت منذ القرن السادس عشر تتشكل الثقافة الشعبية لدى المواطنين القاهريين.



تمثال نهضة مصر للمثال مختار



محلات عمر أفندى ش عبدالعزيز ١٩٠٨ تصوير Raon Brandon

محلات تيرنج ـ العتبة الخضراء ١٩١٣ تصوير Oscar Horowitz

الحـداثـة فى القـاهرة التـقليـدية:

شهدت القاهرة فى القرنين التاسع عشر والعشرين انتقالاً إلى «الحداثة» فى خطوات تدريجية، وإن كانت شهدت بعض التراجع فى عصر محمد على بسبب جهوده وطموحاته التى كانت تتطلع إلى إدخال مصر إلى عالم حوض البحر الأبيض المتوسط، لذا انتقل الثقل الأساسى السياسى والاجتماعى والثقافى إلى الإسكندرية. ولذا تأخر «تحديث» القاهرة إلى أن بدأ حكم الخديوى إسماعيل، الذى نقل المدرسة الباريسية فى العمارة والتى أسسها أوسمان، الذى بنى الأحياء الجديدة لتوائم باريس فى نظامها الخاص بشبكة الطرقات والعمارة.

فى القرنين التاسع عشر والعشرين، تسرد كل من جيسلان آلوم ومرسيدس فوليه تطور القاهرة السياسى والاجتماعى والثقافى، وأيضًا تطورها العمرانى والمعمارى الذى ساد المدينة منذ عام ١٨٩٠ والذى ترجم عن طريق تطوير العديد من اللغات المعمارية المتنوعة، والتى يشهد عليها حى مصر الجديدة (هيليوبوليس)، وإن لم يكن المثل الوحيد. فقد كانت هناك نبرة تدعو إلى العودة إلى العمارة العربية مع التحديث، فشهدت القاهرة تشييد مبان حكومية على هذا الطراز الجديد مثل محطة مصر للسكة الحديد، ومتحف الفن الإسلامى (١٨٩٨ ـ ١٩٠٣). ثم انتقل الطراز الجديد إلى المساكن الخاصة، فلم تعد هيليوبوليس الحى الوحيد الذى يمثله بل انتقل إلى حى شبرا والحلمية الجديدة أو العباسية كما أطلق عليها. كما انتقل إلى حى المنيل حيث تم بناء قصر المنيل بمبادرة من الأمير محمد على. فإن كان التطور العمرانى يمثل الاستمرارية، فإن التطور الثقافى ظل يؤكد الريادة التى كانت للقاهرة كعاصمة عربية ثقافية.

استمرت عملية التحديث أيضا بل وتأكدت مع الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢. فى تلك الفترة أسرعت الخطوات فى التحديث وزاد عدد سكان العاصمة إلى مليون نسمة فى عام ١٩٣٠ وبنفس الإيقاع السريع فى زيادة السكان، كان التوسع فى بناء الجسور وشبكة المواصلات والخدمات، لكى يتحقق لها التوازن بين عدد السكان والبنية الأساسية العمرانية للمدينة.

ولكن مع عام ١٩٤٠، شهدت القاهرة تزايدًا مفرطًا فى عدد سكانها، لم يعد من الممكن أن يلاحقها تطور ونمو عمرانى على نفس الإيقاع. هذا التطور المذهل جعل القاهرة تمتد وتتسع نحو الصحراء، حيث شيدت المدن الجديدة. ومع هذا النمو الجديد، شهدت المدن عمارة جديدة وديكورًا عمرانيًا جديدًا يمزج العودة إلى الجذور مع التأثير الغربى الأكيد. أما الريادة التى طالما تمتعت بها القاهرة فى الناحية الثقافية والأدبية والفنية والسينما والتليفزيون، فقد عادت إلى جذورها العربية.

البصمة الناصرية والقاهرة الحديثة:

لقد عادت القاهرة لتكون «معملا» للأفكار والأبحاث، ولتؤكد نفسها كعاصمة عربية متوسطية وأفريقية، ولاتزال تجمع جهودها لكى تنطلق مرة أخرى لتغزو آفاقًا أرحب وأكبر. فعرفت القاهرة فى الخمسينيات ومع ثورة يولية انتقالاً أكيدًا نحو الحداثة فكان شق كورنيش النيل من القناطر إلى حلوان، وبناء أربعة كبارى مهمة على النهر، منها كوبرى الجامعة الذى بُنى عام ١٩٥٨ وفى عام ١٩٥٤ بدأ بناء حى جديد على هضبة المقطم. وتطوير منطقة وسط البلد فشق ميدان التحرير الذى كان فى السابق ثكنات الجنود البريطانيين، وبنى مبنى جامعة الدول العربية ومبنى المجمع الذى نسب خطأ إلى العصر الناصرى وقيل إنه نموذج للعمارة الستالينية القوية، ولكن فى حقيقة الأمر المجمع هو أحد آخر مبانى الملكية إذ بدأ بناؤه فى عام ١٩٥٠ وانتهى العمل فيه فى عام ١٩٥٢.



استمرت القاهرة فى التوسع والتطور فغزت الصحراء وبنيت هناك العديد من المدن الجديدة. وتقول مرسيدس فوليه إن عصر الرئيس حسنى مبارك يظل هو عصر ترميم البنية التحتية للقاهرة الكبرى. فشهدت السنوات الأخيرة تطور الطرق والمواصلات والاتصالات، فامتدت شبكة مترو الأنفاق، وشبكات الكبارى التى وإن لم تكن فى نظر فوليه تتمتع بفن كبير إلا أنها ذات فائدة جمة فى المساعدة على تحقيق سيولة فى المواصلات.

يقول لوكلان: إن القاهرة التى ورثت ماضيًا مهيبًا، فى حالة تجدد دائم، ورغم أنها عاصمة كبرى تلتهم كل طاقة البشر، وتعانى من تلوث مناخى سريع ومن محاولة لتحييدها من خلال امتداد عمرانى بلا حدود، إلا أنها تشهد منذ سنوات قليلة تنمية اقتصادية تثير الدهشة، مما يسمح لها بالاستمرار فى توسعها اليومى لتتجاوز حتى الطريق الدائرى الذى شُيِّد ليطوقها بطوق ضخم يصل من أسفل هضبة الأهرامات فى الجيزة حتى مطار القاهرة فى هيليوبوليس، مرورًا بشوارع المرج وحتى جنوب القاهرة القديمة. والمدن الجديدة التى تمتد فى الصحراء والتى ظلت إلى وقت قريب مناطق يصعب الوصول إليها، فتحولت اليوم لما يشبه الطوق الذى يحيط بالآثار العظيمة كالأهرامات التى تقبع من بعيد. فى الوقت نفسه تقف كل من الأهرامات وأبى الهول وسقارة ومنف القديمة على بعد كيلومترات قليلة من مصانع حلوان، من ناحية، ومن ناحية أخرى أمام المحور الكبير التى يربط القاهرة بالطريق الصحراوى.

وتقول مرسيدس فوليه إنه مما لا شك فيه أنه مع منع هدم المنازل والفيلات القديمة، تشهد العاصمة ذات الألف عام اليوم نوعا من التحالف بين القديم والحديث، كما وجدت فكرة معينة لربط التاريخ مع الفن المعمارى الحالى. فهل القاهرة، أم الدنيا، ستنجح فى أن تعيد تجديد وجهها؟

يقول أندريه ريمون: القاهرة مدينة لا تشيخ. وإن كانت قد شهدت العصور المختلفة تمر عليها فيما يقرب من ٢٧ قرنًا، إلا أنها تظل «المدينة الشابة» التى تحمل كل المقومات التى تدفعها لأن تتطور دوما وتمتد ليكون لها مستقبل باهر كما كان لها تاريخ عظيم. ■



إبراهيــــم العجـــلونى

عبدالرحمن بدوى .. المعلم

الثالث.. مقال فى الإنصاف!

كان يمكن لهذا المقال أن يصدر فى صيغة أولية، بُعيد صدور كتاب الدكتور مراد وهبة: «مُلّاك الحقيقة المطلقة» قبل ثلاث سنوات على وجه التقريب، حيث كان قد اتسع مجال النظر فى مسافة الخُلف بين ما ذهب إليه صاحبه من رفع راية النضال ضد الروح الدوجماطيقية، وبين ما انتهى إليه من أحكام اعتنافية فى حق كُلٍّ من «العقاد» و«بدوى»، ومن تقديمهما على نحو يخالف حقيقتهما.

لقد بدا أستاذنا الفاضل كما لو أنه لم يصبِّر نفسه، لسبب أو لآخر، مع إنتاج هذين العَلَمين، الغزير كمًّا الفائق نوعًا، فآثر أن يُطلق جملة من الاتهامات، ينهى بها بطريقة احتفالية، حديثه المقتضب عنهما، وكفى الله المؤمنين القتال.

وعلى ما استجد من أسباب الحديث عن الفيلسوف المصرى: الباحث المعلم والمؤرخ المترجم عبدالرحمن بدوى، خاصة بعد انتقاله إلى رحمة الله فى الخامس والعشرين من يوليو ٢٠٠٢، فإن ما نراه ذا صلة وثيقة بمرادنا أن نتوقف مَليًّا أمام رؤية الدكتور مراد وهبة لعبدالرحمن بدوى، كما اشتمل عليها باب «شخصيات فلسفية» من الكتاب الذى ذكرت آنفًا، وأن نتدبر فيه مسألتين مهمتين، إحداهما تتعلق بما نعتقده صورة كاريكاتيرية للفيلسوف الراحل، وثانيتهما تتعلق بمحاولة إثبات الأستاذية (أقصد أستاذية المؤلف) عليه.

يستهل الدكتور مراد وهبة رؤيته بقوله: «فى عام ١٩٤٥ كنت طالبًا فى قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن - وكان عبدالرحمن بدوى يحاضرنا فى الفلسفة المسيحية والمنطق. وفى ٣٠ أبريل ١٩٤٥ انتحر هتلر. وفى اليوم التالى دلف عبدالرحمن بدوى إلى مكان المحاضرة، فلمحنا ربطة عنق سوداء (كذا) وعندما سألناه عن السبب قال: لأنى حزين على وفاة هتلر».

وعلى الرغم مما كتبه الدكتور مراد وهبة، بعد هذا الاستهلال، عن سيرة بدوى الحزبية، وعما يراه من ضرورة أن تبحث الدول المنكوبة عن زعماء كهتلر، وأن يُقبل المصريون على مصر الفتاة التى لن يكون خلاص مصر من محنتها، وبلوغها مجدها إلا على يديها»، ثم على الرغم من استشهاده، ذى الطابع السيكولوجى الذى يوحى بالتفهم، بقول بدوى إنه «ليس من شك فى أن هذا الوطن - أى مصر - فى أشد الحاجة إلى الثورة الروحية على ما أَلِفَ من قيم كى يضع مكانها نظرة أخرى»، ومن إشارته إلى أن كتبه التى توالت تحت عنوان «خلاصة الفكر الأوروبى» إنما جاءت فى سياق سعيه فى «انتشال أبناء هذا الجيل من ظلمة الهوّة إلى نور الفكر الحر، فيفكرون فيما فكر فيه العقل الأوروبى، ويتأملون فى المشاكل التى أثارها، والحلول التى قدم، بشرط ألا يتوهموا أن ثمة حلولاً جاهزة ليس عليهم إلا أن يقلدوها ويحتذوها». أقول: على الرغم من ذلك كله: فقد استقر الكاريكاتير / المفارقة فى الأذهان، وصار لزامًا النظر - موضوعيًا - فى أصل إعجاب بدوى بهتلر، وفى الدواعى التى دعته إلى اعتباره أنموذجًا للزعامة الوطنية التى تعوز الشعوب المستعمَرة أو المنكوبة.

لقد كان هتلر - الذى كان العقاد وهو خصم بدوى اللدود قد وضعه فى الميزان، وجعله مثالاً لالتواء الطبيعة الإنسانية - هو العدو الأكبر للدول الاستعمارية التى مزقت العالم العربى شر مُمزَّق، ورزحت على صدر مصر، وحالت دون نهوضها الذاتى (انظر: رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا لمحمود محمد شاكر). فهو، لذلك، عدو أعدائها التاريخيين، وعدو مستعمريها وناهبى ثرواتها ومصادرى نهضتها.

ثم إنه كان مثالاً للزعيم الوطنى الذى نجح فى تقدم بلاده تقدمًا معجبًا، وفى دفعها إلى أن تكون قوة عظمى فى سنوات معدودات.

ثم إن ألمانيا لم تكن صاحبة ماضٍ استعمارى نستذكره ونحن نكظم الغيظ، ولم تعكر جيوشها صفو حواضرنا العربية الإسلامية، كما كان حال الفرنسيين والطليان والبريطانيين، ولم تفزع آمنًا فيها، أو تقتل عالمًا أو رجل فقه. بل إنها تدرب فيلقًا عربيًا يشرف عليه مفتى فلسطين الذى كان يأمل أن يحرِّر بلاده من مغتصبيها.

فهل نملك، فى ضوء هذه المعطيات كلها أن نَغُضَّ طرفًا عن الدوافع النفسية التى تحمل عبدالرحمن بدوى (وهو المتحرِّق شوقًا إلى دفع الاستعمار عن بلاده، وإلى أن يراها قوية معافاة ذات شوكة، ناهيك به دارسًا متميزًا للأدب الألمانى والفلسفة الألمانية) على أن يحزن على سقوط الأنموذج الهتلرى، أو أن يعلن حزنه صريحًا دون تكتم ولا مواربة؟



إنّ النظرة المنصفة لا تُسقط هذه الحقائق من اعتبارها، ولا تحاكم بدوى وهى تغمض أو تغض طرفًا عن الشروط الموضوعية التى اتخذ فيها موقفه الواضح من هتلر. بل إن هذه الحقائق والشروط لترجح بكفة بدوى رجحانًا، لا مرية فيه، حين نقارنه - مثلاً - بالفيلسوف الألمانى «هيجل» الذى كان معجبًا أيما إعجاب بنابليون بونابرت الذى غزا بلاده وأذلها، والذى اقتحم جنوده منزل الفيلسوف المثالى واضطروه إلى أن يرجوهم أن يعاملوا «العالم الألمانى البسيط» معاملة طيبة (انظر: حياة هيجل لبدوى، ص٦٠).

لقد بلغ من انبهار هيجل بقاهر موطنه أن كتب إلى أحد أصدقائه يقول: «لقد رأيت الإمبراطور - روح العالم هذه - يخرج من المدينة للاستكشاف. وإنه لإحساس رائع حقًا أن يرى المرء هذا الشخص المركَّز هنا فى نقطة وهو جالس على فرس، يمتد على العالم ويسيطر عليه».

إننا هنا أمام فارق كبير لابد أن تراه الأعين المبصرة. وإن لبدوى لَدرجة على هيجل فى كل مقياس، وهو، لا ريب، أشرف دواعى ومنطلقات من صاحبه الألمانى، الذى لم ير من يمثل روح العالم والروح المطلق - وهى مقولة مركزية فى فلسفته - غير ذلك المغامر العسكرى الذى نعلم من علمه، ومن جرائمه فى شرقنا العربى، خاصة فى مصر وفلسطين، ما يضعه فى رأس قائمة مجرمى الحروب.



لقد كانت إرادة التفوق هذه هى التجلى الأعظم لإرادة الحياة عند بدوى. وهى المسئولة عن رغبته العميقة فى أن يتناءى عن غمار المجموعات والحشود، وأن ينتحى جانبًا

وإذ نتجاوز المسألة الأولى فى رؤية د. مراد وهبة لعبدالرحمن بدوى، أو الصورة الكاريكاتيرية التى تظلمه وتتنكب حقيقته، إلى ما يحاول من تقويم مصطلح «الآنية» الذى يأتى عند بدوى مقابلاً للفظ Dasein الألمانى، فإننا نجد الدكتور مراد وهبة يقترح ما يسميه «تعريب اللفظ الألمانى بدلاً من ترجمته» والتعريب عنده هو أن نستعمل اللفظ الألمانى كما هو فنقول «دازين». ثم نراه يذهب فى تفسير هذا الدازين مذهب من يدور فى محيط المعنى الذى كان بدوى نفسه قد بيَّنه له، لا يعدوه قيد أنملة، مؤكدًا تلمذته - ربما بقصدية تحسب له - لبدوى، ومعولاً عليه حتى فى اعتراضه على مصطلحه.

لقد فرَّق بدوى «بين نوعين من الوجود: النوع الأول هو ما يمكن أن نسميه باسم «الآنية» ترجمة للكلمة الألمانية Dasein وهى كلمة من العسير أن نجد لها مقابلاً دقيقًا فى أية لغة أخرى من اللغات المعروفة لدينا. ومعناها وجود الأشياء حاضرة بالفعل. والنوع الثانى هو ما يمكن تسميته باسم «الوجود الماهوى» Existenz، لأنه يقصد به «ماهية الوجود» (الموسوعة ٣٠٤)، ثم بيَّن أن «النوع الأول من الوجود هو الوجود الواقعى، والثانى هو الوجود الإمكانى أو الماهوى، والصلة بين الوجودين على أنحاء ثلاثة: فمن حيث إن الآنية تشير مقدمًا إلى إمكانيات لم تتحقق بعد تسمى الصلة «إضمارًا وتصميمًا»، ومن حيث إن الوجود الماهوىّ انتقل إلى حالة تحقق فصار الآنية - وإن كان جزء ضئيل من الإمكانيات هو فقط الذى تحقق - تسمى الصلة حينئذ «واقعية»، ومن حيث إن الآنية هى وجود بين أشياء أو وجود فى العالم تسمى الصلة سقوطًا. وهذه هى الخصائص الرئيسية للآنية». (الموسوعة ٣٠٤)



وعلى افتراض أن ثمة مشكلة فى ترجمة المصطلح - فإن باستطاعتنا حلها - فى ضوء الشرح السابق الذى قدمه بدوى نفسه - باعتبار الـ(Dasein) «حضورًا»، متضمنًا إضمارًا للممكنات وتصميمًا على إثبات الذات، وخاضعًا لشروط أو صلات فعلية واقعية، ومنخرطًا فى «زمنية» أو «عالمية» (نسبة إلى العالم). أما الموجود الماهوى Existenz فهو التحقق الأمثل لهذا الحضور، أو هو اكتماله.

وإذا بدا هذا الذى نخوض فيه هنا إيغالاً فى الفلسفة الخالصة فهو ذو دلالة على أستاذية بدوى المبكرة، وعلى صعوبة أن يؤتى من هذا الجانب من تكوينه: على حين يمكن لمن يريد - وهم كُثُرٌ ولهم أسبابهم - أن يجد سبيلاً إلى الجانب الحزبى المتلئ حماسة منه، أو إلى ما يكون من غضبه أو أساه لما حل به من ظلم، أو إلى ما يكون من أثر غربة (اختيارية قسرية فى آن)، اجتالته عن وطنه الحبيب مصر وطوّحت به فى أقطار الأرض تطويحًا.

هذه كلها جوانب من شخصية بدوى، أو تجليّات لها يمكن أن يتناولها الدارسون، وأن يخوضوا فى شأنها على أى نحو يشاءون. ولكن إتيانها على معنى العدل والإنصاف لن يكون إلا إذا أمسكنا بمفاتيح فهم هذه الشخصية، أو كنا ظاهرين على المكونات الرئيسية لها. ولعلّ هذا أن يُفضى بنا إلى الملمح الأول فى الكينونة البدوية، أو إلى الملمح الأكثر بروزًا فيها: وهو «إرادة التفوق» الغالبة على أفعالها من لدن حصل بدوى على المرتبة الأولى فى خريجى الابتدائية عام ١٩٢٩م، مرورًا بسنواته الجامعية الأربع التى كان «الأول فيها على جميع طلاب الآداب فى جميع الأقسام»، ثم بحصوله على الليسانس «الممتازة» من قسم الفلسفة عام ١٩٣٨م، وتتلمذ على «أساتذة ممتازين» مثل الكسندر كواريه، وأندريه لالاند، والشيخ مصطفى عبدالرازق (الذى كان مثالاً للإنسان الكامل)، ثم بوضعه رسالتين «متميزتين» أولاهما حول «مشكلة الموت فى الفلسفة الوجودية» (١٩٤١)، وثانيتهما (التى يرى أنها أشبه بثورة كوبرنيكية فى الفلسفة) حول «الزمان الوجودى» (١٩٤٤). ثم بما كان بعد من انتدابه أستاذًا زائرًا فى معهد الدراسات الإسلامية فى كلية الآداب (السوربون) بجامعة باريس (١٩٦٧) ومن طبعه محاضراته فى هذا المعهد ضمن مجموعة «دراسات فى العصور الوسطى» التى يشرف عليها «اتيين جلسون» الذى هو «أعظم باحث معاصر فى تاريخ الفلسفة فى العصر الوسيط» (الموسوعة ٢٩٦)، ثم أخيرًا - وبعد عمر حافل بالتأليف والترجمة والتصنيف، وبعد أكثر من مائة

١- ملاك الحقيقة المطلقة
القاهرة. دار قباء
٢- موسوعة الفلسفة
عبدالرحمن بدوى
عمّان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٦، ١٢٥٦صفحة.



عبدالرحمن بدوى

وخمسة وعشرين كتابًا ـ موسوعته الفلسفية التى أصدرتها المؤسسة العربية للدراسات والنشر فى بيروت، ثم سيرة حياته، التى أصدرتها المؤسسة نفسها، وأثارت جدلاً متطاولاً فى الصحافة العربية.

لقد كانت إرادة التفوق هذه هى التجلى الأعظم لإرادة الحياة عند بدوى. وهى المسئولة عن رغبته العميقة فى أن يتناءى عن غمار المجموعات والحشود، وأن ينتحى جانبًا ـ وقد استيقن تميزه ـ فيعكف على ابتناء عمارته الفلسفية كثيرة الأروقة والشرفات. وليس غريبًا فى ضوء إملاءات إرادة التفوق هذه أن ينتدب بدوى نفسه، ولما يزل فى الرابعة والعشرين، إلى إقامة مذهب فلسفى عام، ولا أن يرى نفسه، بعد، فى منزلة من يملك تقييم ميشيل فوكو فى «الكلمات والأشياء»، وأن يراه «مضطرب التأليف، ضعيف المادة، واهى الاحتجاج» غير مستحقٍ للشهرة التى واتته. ولا أن ينتقد «كلود ليفى شتراوس» ويضع شهرته فى سياقها من سيطرة اليهود على وسائل الإعلام الفرنسية، ولا أن يرى فى سارتر «مجرد أديب، وباحث نفسانى، ظاهراتى المنهج».

إن هذا كله من ثمار إرادة التفوق عند بدوى، وثمار موسوعيته التى تذهل متابعيه، وهو برهان قدرته على تقييم المشهد الفلسفى الأوروبى، وعلى قراءته كما يقرأ المرء كفه، ويرى إلى خطوطها ومنعرجاتها.

ولقد كان من شأن بدوى ـ وأحسب أن ذلك من حقه أيضًا ـ أن يتباهى بما أوتيه من معرفة إحدى عشرة لغة. فإذا كان كل لسان بإنسان كما تقول الحكمة العربية: فإن لنا أن نتصور أى غنى معرفى كان يعضد إرادة التفوق عنده، ثم أن نتصور كبرياءه العلمى الذى كان يدفعه إلى السخرية بالأحكام الجماهيرية فى حق الزعامات السياسية، أو بأحكام المثقفين فى حق بعض الأعلام الذين لا يرجحون فى موازينه.

لقد وقف بدوى على قمة هرمه المعرفى فرأى الناس من هنالك صغارًا، على حين كان حريًا به أن يسامتهم، أو أن يواجههم كفاحًا، حتى يرى حقائقهم على نحو مقارب، فلا يظلم منهم أحدًا، أو يظلم نفسه بأن يشتط فى التقييم فيبخسهم أشياءهم ويكون ذلك سببًا لأن يَيْبَس الثرى بينه وبينهم.

أما الملمح الثانى فى شخصية عبدالرحمن بدوى، فهو ـ قطعًا ودون تردد ـ وطنيته المصرية التى لا يتنازع فيها منصفان، وليس دخوله حزب مصر الفتاة (١٩٣٨ ـ ١٩٤٠) أو كونه عضوًا فى اللجنة العليا للحزب الوطنى الجديد (١٩٤٤ ـ ١٩٥٢)، أو اختياره عضوًا (ولاشك أن لجمال عبدالناصر الذى كان قرأ كتاب نيتشه لبدوى وأُعجب به دورًا فى هذا الاختيار) فى لجنة الدستور التى كُلفت بوضع دستور جديد لمصر، أو غضبه لما كان يراه من «أن القائمين على الثورة لم يأخذوا به، لما فيه من تقرير وضمانات للحرية والحكم الديمقراطى السليم».. ليس ذلك كله إلا أدلة متظاهرة، يستدل بها المنصفون على هذه الوطنية المصرية التى أعتقد أن تصدير كتاب «نيتشه» (١٩٣٩) كان هو بيانها الأول الذى جاء فيه أنه «ما من شك فى أن هذا الوطن فى أشد الحاجة إلى الثورة الروحية على ما أَلِفَ من قيم، وما اصطلح عليه حتى الآن من أوضاع: فى أشد الحاجة إلى أن يطرح هذه النظرة القديمة فى الوجود وفى الحياة، كى يضع مكانها نظرة أخرى، كلها خصب، وكلها قوة، وكلها حياة، وفيها تعبير واضح عن كل ما يخالج ضميره من مطامح نحو السمو ونحو العلاء، وشعور حى نابض بالنزوع إلى تطور روحى هائل، تصاعد فيه قواه، مندفعة متوترة، حادة متوثبة، خالقة تبدع فى كل طور من أطوار هذا التصاعد صورًا للوجود خصبة سامية وقيمًا للحياة جليلة عالية: فى الإيمان بها إيمان بإمكان خلق جيل من أبنائه عظيم. وفى تحقيقها تحقيق لنوع من الحضارة زاهر ممتاز».

إننا هنا أمام روح وطنية تتوثب، وأمام صوفية فى التعبير تكاد تخرج وما كان يجيش به فؤاد الزعيم الوطنى المصرى الأشهر «مصطفى كامل» من مشكاة واحدة. وما أحسب أن جنوح بدوى إلى الهجرة، وإلى التطواف فى أرض الله الواسعة، وهو على هذه الدرجة من حب بلاده، إلا ترجمة لقول أبى العلاء المعرى:

إذا اشتاقت الخيلُ المناهل أعرَضت
عن الماء فاشتاقت إليها المناهلُ

فلقد أراد بدوى المناهل على حَدِّه، وعند شَرطه، فلما لم يوافقه ذلك على نحو ما يريد: قام فى نفسه معنى بيت آخر لأبى العلاء، يعكس مدى ضيقه ومبلغ غضبه، هو قوله:

إذا هبّت النكباءُ بينى وبينكم
فأهونُ شىء ما تقولُ العواذلُ

وقد قال «العواذل» قولاً كثيرًا، خاصة فى إثر صدور كتاب بدوى «سيرة حياتى» الذى تبدت ذاتيته (المُعرِضَةُ عن المناهل) ، خلاله، حادة، متوترة، لا يعجبها العجب، لا فى سياسة، ولا فلسفة، ولا أدب.

ذانك ملمحان فى شخصية بدوى: إرادة التفوق لديه، ووطنيته المصرية. أما ثالث ملامحها فهو قوة انتمائه الحضارى، وما كان يملؤه من اعتزاز بالتراث العربى الإسلامى. ولقد أشار الأستاذ أحمد عباس صالح فى مقالة له فى صحيفة «الأهالى» المصرية (٣١ يوليو ٢٠٠٢م) إلى «أن أغلب جيل عبدالرحمن بدوى كانوا يعتقدون باقتراب بزوغ نجم الشرق العربى مرة أخرى».

وقد يجوز لنا، عند هذه النقطة من السياق، أن نقول إن نيتشه إذا كان استثار الصوفية الوطنية عند بدوى، فإن شبنجلر صاحب «تدهور الحضارة الغربية» قد عزز لديه إيمانه بانبعاث أمته مرة أخرى. ولعل ما كان من حديث شبنجلر عن المُطلق العربى فى كتابه هذا، وما يُنذر به من انهيار قيم الغرب وأنظمته أن يكون وراء ما استكن فى نفس بدوى وجيله من إمكان قيام الحضارة العربية الإسلامية من مرقدها، وأن يكون لها حضورها المشهود الذى يوائم جمالها وجلالها.

وإنه ليستوقفنا هنا ما يقوله الأستاذ أحمد عباس صالح، فى مقالته التى أشرنا إليها. من أن «بدوى لم يكن مترجم شبنجلر الوحيد، إذ سبقه إلى ذلك مبعوث مصرى آخر، للدراسة فى ألمانيا فيما بين الحربين اسمه «على حسن الهاكع» حرص على أن يذكر فى مقدمته للترجمة أنه شاهد شبنجلر نفسه فى المقهى الذى كان يرتاده، وأنه التفت إليه ذات مرة وقال له: «أنتم يا أبناء الشرق ستُنشئون الحضارة الجديدة».

وإذ تُذكرنا هذه الواقعة بكتاب المفكر والسياسى الألمانى مراد هوفمان: «الإسلام كبديل»، فإنهما (الواقعة والكتاب) يذكراننا بمواقف النخب الألمانية، منذ القرن السابع عشر، من الإسلام وتاريخه، ويقومان شاهدين على مقدار ما تمتّعت به من النزاهة والموضوعية، اللذين غيبهما الاستشراق الاستعمارى طويلاً.

على أن جِماع شخصية بدوى، وما تلتقى عنده هذه الملامح جميعًا، هو مثاليته، وصدقه مع نفسه ومع الآخرين، وصراحته المطلقة، وقوله الحق الذى يراه: حتى ولو اضطره إلى أن يبلو المُرَّ من ثمره، أو اضطره إلى عَنَت أليم.

لم يكن بدوى متملقًا للطغاة، كما لم يكن متملقًا للجماهير. وليس أبعد فى الظلم والإجحاف من نسبة مثل هذه الشخصية ـ فى استواء تكوينها وصلابة روحها ـ إلى شىء من فهاهة المتملقين، كأن يفسر بعضهم كونه كان مستشارًا ثقافيًا ومديرًا لبعثة تعليمية فى برن عاصمة سويسرا (١٩٥٦) بأنه كان «رجل النظام»، أو كأن يفسر بعضهم موقفه فى مؤتمر المستشرقين (١٩٥٩)، حين فَنَّدَ أقاويل مستعرب سوفيتى اتخذ من حديث الردّة عند مسيلمة الكذاب ذريعة لمهاجمة الرسول، بأنه إنما كان يأتمر باليسار واليساريين، إلى غير ذلك من خُزعبلات.

إن من شأن النظرة السياسية الضيقة أن تهتضم، فى التقييم، مفكرًا كبيرًا مثل عبدالرحمن بدوى، وأن تحول دون أن يكون مبسوط الأثر فى الأجيال.

وإن من شأن الأيديولوجيا أن تضرب صَفحًا عن تاريخ من عظيم المنجزات، سعيًا وراء مقتضى الكراهية والجحود، بعكس ما تبتعثنا إليه الآية الكريمة: «ولا يجرمنّكم شَنَآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى».

ولعل من تمام العدل والموضوعية أن نعترف، وقد اخترم الموت فيلسوفنا الكبير، أننا نفقد برحيله «المعلم الثالث» فى تاريخ الفلسفة، وأننا لن ننتظر، بعد اليوم، كتابًا آخر جديدًا له، كما كان ينتظر ذلك، معنا، أعمدة المستشرقين أمثال «كورباتى» و«بيلا» و«أرنالديز» الذين كان يسرّهم أن يذكروه فى محاضراتهم باسم «البروفيسور بدوى» وكانوا يحسبون له ألف حساب، فيما يُبدِئون ويُعيدون من أنظار فى تراث الإسلام العظيم.

لقد أسلمت روح بدوى القلقة نفسها إلى بارئها، وهى مطمئنة إلى أن آخر ما أنجزته هو دفاعها عن القرآن ودفاعها عن الرسول، وإنّ فى ذلك لعبرة لأولى الألباب وتذكرة للمبصرين. ■

لقد كان من شأن بدوى.
وأحسب أن ذلك من حقه أيضا.
أن يتباهى بما أوتيه من معرفة
إحدى عشرة لغة. فإذا كان كل لسان بإنسان
كما تقول الحكمة العربية؛
فإن لنا أن نتصور أى غنى معرفى
كان يعضد إرادة التفوق عنده

"آلموت"

قلعة الحشاشين

التاريخ والخيال في فخ الأسطورة

ناصر كامل

يستخدم بارتول معرفته بالتاريخ الديني والسياسي الإسلامي ويوظفها فنيا مستخدما وقائع وأحداثا تاريخية يمزجها بخيال الروائي وذهن المحلل النفسي وتساؤلات الفيلسوف، معتمدا على آليات تفسير وإعادة بناء ذلك التاريخ روائيا وفق مفاهيم حديثة

قليلة هي الأعمال الأدبية التي تلقى استقبالاً فاترًا وتعيش مهملة، حتى تأتي أحداث معاصرة واهتمامات ملحة لترفعها من سراديب النسيان لواجهات الصحف والمكتبات وتضعها وسط دوائر الضوء والاهتمام من غير أن يكون لقيمتها الفنية فقط الدور الحاسم في غيابها الطويل أو ظهورها المفاجئ.

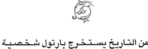
رواية «آلموت» التي كتبها الكاتب والروائي السلوفيني فلاديمير بارتول عام ١٩٣٨ واحدة من تلك الأعمال الأدبية. فلقد بعثتها دار فيبوس الفرنسية للنشر بعد ستين عاما على نشرها الأول. ومنحها الترحيب اللافت الذي أظهرته الصفحة الأدبية لجريدة الليموند للترجمة الفرنسية حياة جديدة. أما الترجمة العربية ٢٠٠١ فجاءت بمثابة عودة للرواية من رحلة اغتراب طويلة إلى الديار والأهل، فهي رواية تاريخية تتناول جوانب من التاريخ السياسي والدين الإسلامي في إيران في نهاية القرن الحادي عشر، وتدور أحداثها في قلعة آلموت (*) Alamot التي تحيطها هالة من الحكايات والأساطير حيث يختلط التاريخ بالخيال.

والشخصية الرئيسية في الرواية هي «الحسن الصباح» أحد أبرز الشخصيات غموضا و«أسطورية» في التاريخ الإسلامي في تلك الفترة. وهو مؤسس وقائد تلك الطائفة التي أطلق عليها بعض الكتاب والمؤرخين لقب «الحشاشين» اعتمادًا على أن أتباعها كانوا يتعاطون الحشيش بانتظام كوسيلة للسيطرة على انفعالاتهم الجسدية والنفسية كما أطلق عليهم البعض لقب «الفدائيين» لأن جهازهم العسكري كان يعتمد على مجموعات من الشباب المستعدين للتضحية بالنفس في سبيل عقيدتهم، وابتدعوا أساليب فريدة في العنف والاغتيال لمواجهة خصومهم السياسيين والعقائديين.



الاهتمام الغربي المفاجئ بالرواية في السنوات الأخيرة يمكن النظر إليه من زاوية الاهتمام المتزايد بدراسة جوانب من التاريخ الإسلامي والعربي بعد الظهور الصادم لجماعات العنف السياسي المنتسب للإسلام وتصاعد المواجهة العنيفة بينها وبين بعض الأنظمة والمجتمعات العربية والإسلامية. ووصول أصداء هذه المواجهة إلى دول الغرب. ولاشك أن أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وتداعياتها الدراماتيكية ستكسب الرواية أبعادا جديدة بالرغم من هذا التحذير الذي يقدمه الناشر العربي للقراء: «يخطئ من يبحث في هذا العمل عن حقيقة»، ويخطئ من يقرأه كبحث أو كدراسة تاريخية أو عقائدية. فهذا العمل هو أولا «رواية» أي أنه يحكي، كأي رواية أخرى، قصة شخصيات وأمكنة وأزمان من حبر وورق تنحصر حقيقتها ضمن إطار النص المكتوب. وهو ثانيا «رواية تاريخية» أي أن الروائي يتكئ على التاريخ لصناعة الحكاية. وهذا لا يعني مطلقا أنه يعيد سرد التاريخ كواقع وإنما ينشئ واقعا سرديا جديدا هو الرواية التي تقرأ. ولكن من الأفضل أن تذهب «آلموت» بعيدا عن تحذيرات ناشرها إلى تلك المناطق الوعرة حيث تتقاطع دروب التاريخ بكل وقائعه وخرافاته وتأثيراته في الحاضر والمستقبل، ودروب الخيال وجموحه، ودروب الحاضر وأسئلته. هناك ستكون الرواية جديرة بحق بقراءات وتحليلات تبقيها طازجة وفاعلة بعيدا عن أسباب حياتها «الغربية». وهناك ستظهر العوالم المتداخلة التي ترسمها الرواية كأجزاء من عمل أدبي خاص يمزج التاريخ الواقعي والفلسفة والدين والسياسة بالخيال الأدبي الخصب.

معرفة الكاتب السلوفيني فلاديمير بارتول (١٩٠٣-١٩٦٧) بتاريخ تلك الفترة التي تدور فيها أحداث الرواية مدهشة. وهو يستخدم معارفه الفلسفية وولعه بأساليب واتجاهات مدارس علم النفس التي كانت في أوج أحلامها المبالغ فيها في الثلاثينيات، حيث أعطت للأدباء والفنانين انطباعا بقدرتها على تفسير مختلف الظواهر الإنسانية انطلاقا من نظرة محددة لدوافع ورغبات الإنسان وتحديدا تلك العلاقة المبهمة بين العقل والعاطفة والجسد.



من التاريخ يستخرج بارتول شخصية «الحسن الصباح» أحد أبرز الشخصيات في تاريخ الدعوة الإسماعيلية وإحدى الفرق الإسلامية الكبرى التي تفرعت عن الشيعة في منتصف القرن الثاني الهجري وانتسبت إلى إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق ودعت إلى إمامته. وتميزت دعوتهم بدرجة عالية جدا من السرية التامة في التحرك والتركيز على نشاطات الدعاة في عملية التغيير والصراع الفكري والسياسي، وتربية الكوادر التي تتحمل مسئولية التصدي للسلطة ومقاومتها وتنفيذ أوامر الإمام. كان الحسن الصباح أحد دعاة الإسماعيلية في إيران ولكنه اضطر للفرار إلى مصر لينضم للدولة الفاطمية ويخدمها. وجاء بروزه وصعوده في سلم الدعوة الإسماعيلية عندما بدأ الخليفة الفاطمي المستنصر بالله قبل وفاته «سنة ٤٨٧ هجرية» بأخذ البيعة لابنه الأكبر نزار، غير أن الوزير بدر الجمالي أخذ يماطل حتى توفي الخليفة قبل أن تتم البيعة لنزار. وبادر إلى تولية أحمد الابن الأصغر للخليفة والملقب بالمستعلي بالله. مما أدى لصراع عنيف بين الفرقتين النزارية التي تسمى الآن الآغاخانية، والمستعلية التي تعرف اليوم باسم البهرة. وكان الحسن الصباح من أبرز المؤيدين لنزار، بل كان راعيه الأول. ونجح الجمالي في تثبيت أحمد، ولجأ نزار إلى الإسكندرية حيث بايعه أهلها ولكن الجمالي طارده وقتله. وهو ما دفع الصباح للفرار إلى إيران والاستيلاء بالحيلة على قلعة «آلموت» ليصبح الرجل الأول والموجه الفعلي للدعوة النزارية والعقل المدبر لجميع الحوادث في تاريخ النزارية الذين تميزت دعوتهم باتخاذ القلاع الحصينة للاستتار وتربية العناصر وتدريبها تدريبا عقائديا وعسكريا خاصا. ولقد لعبت بعض هذه القلاع دورًا مهمًا في التاريخ الإسلامي. فقلعة «آلموت» التي تقع في قمة جبال دماوند (٥٦٠٠ متر) شمال شرقي إيران جنوب بحر قزوين الذي كان العرب يسمونه بحر الخزر، ظلت منيعة في مواجهة الغزو المغولي بقيادة تيمورلنك فترة طويلة قبل أن تسقط بأيديهم سنة ١٢٢٠، ويدمروها ويحرقوا المكتبات التي كانت تحتوي على أهم المخطوطات التي تشرح أصول الدعوة الإسماعيلية النزارية، والمؤلفات التي وضعها الحسن الصباح وكانت المرجع الرئيسي للدعوة. كما واجهت قلعتهم «السلمية» قرب حماة في سوريا الحملة الصليبية الأولى والتي تعرف بالحملة الشعبية والتي كان يقودها بطرس الناسك سنة ١٠٩٥ في تلك القلاع كون الصباح وأتباعه تنظيما فدائيا يعتمد على الولاء المطلق والإعداد الصارم والدقة في التنفيذ، ويتميز أتباعه بشجاعة نادرة واستعداد تام للتضحية بالنفس في سبيل الدعوة.

يعرف بارتول هذا التاريخ جيدًا، كما يعرف جيدا تاريخ الصراع السياسي في الإسلام. خاصة الأحزاب السياسية المناهضة للدولة، بدءا من الخوارج أول حزب سياسي منظم في تاريخ الصراع السياسي الدموي الذي نشب مع استعار النزاع بين الإمام علي ومعاوية. والذين شبههم الشيخ أبو زهرة باليعقوبيين في الثورة الفرنسية حيث سيطرت على خطابهم ألفاظ كالحرية والإخاء والمساواة. واستولوا على عقول الناس بكلام مشحون بعبارات الإيمان والعدالة والحاكمية لله والبراءة من الظلم والظالمين. ومرورا بالقرامطة وزهدهم المثالي والروح الإيمانية العالية التي ميزتهم، وعنفهم وصلابتهم التي تتجاوز حدود

آلموت «رواية»
فلاديمير بارتول
ترجمة: هالة صلاح الدين لولو
بيروت - ٢٠٠١
«صدرت للمرة الأولى عام ١٩٣٨»

(*) آلموت «alamot» لفظة فارسية أطلقت على القلعة التي عاش فيها حسن الصباح زعيم الحشاشين وأتباعه وتقع شمال شرق إيران جنوب بحر قزوين.

طاقة البشر. وصولا لمختلف الفرق الشيعية التى كان صراعها مع دولة بنى أمية والدولة العباسية محنة متصلة شاقة إلى أقصى حدود المشقة. كل هذه الحركات السياسية العقائدية تلخص دعواها فى عنوان كبير «كل ما كنا فيه باطل، والدين ما نحن فيه الآن» وكانت تتملكهم فى أوقات الظهور والقوة تلك الحالة التى تملكت الخوارج فى تحرقهم إلى الحرب تحرق الظمآن إلى الماء،فإذا مناديهم يصيح فيهم: هل من رائح إلى الجنة. فيتصايحون جميعًا: الرواح إلى الجنة.

يستخدم بارتول معرفته بالتاريخ الدينى والسياسى الإسلامى ويوظفها فنيا مستخدما وقائع وأحداثًا تاريخية يمزجها بخيال الروائى وذهن المحلل النفسى وتساؤلات الفيلسوف،معتمدا على آليات تفسير وإعادة بناء ذلك التاريخ روائيا وفق مفاهيم حديثة. فهو يستخدم مفهوم «النداء الداخلى»الذى استخدمه ماكس فيبر ليفسر الكيفية التى سيطر بها الحسن الصباح على أتباعه ووجههم لتنفيذ مخططاته وأهدافه.فالنداء الداخلى يستحوذ على الفرد حيث يصبح توجهه لتحقيق مهام وأهداف معينة عنصرا مكونا ليس فقط لمهنته الخاصة بل لذاته نفسها ولخلق شخصيته. النداء الداخلى ضبط للنفس متمثلا فى السيطرة على الدوافع الطبيعية وفى الارتباط بحوافز معينة والعمل على تحقيقها. وهو ما يستلزم وجود علاقة داخلية دائمة مع قيم ومعان «عليا» ونهائية للحياة تتشكل فى أهداف تتجاوز الذات.

اللقطة الأولى لعالم «آلموت» تدخلنا مباشرة إلى عالم سرى واستثنائى، كل شىء فيه مفارق للحياة الواقعية :قسمان منفصلان لا يعرف أحدهما بوجود الآخر. الأول حدائق سحرية تقيم فيها عذارى يتدربن على فنون الرقص والغناء وطقوس الجنس وأسراره، كما يتعلمن قواعد الشعر وأصول العقيدة الإسماعيلية.وهو ما أربك الفتاة المراهقة «حليمة» الوافدة الجديدة على القلعة التى «حارت فى فهم صداقة تربط فهدا بغزالة فى هذه الدنيا، فى حين أن الله، كما يقول النبى، قد خص أهل الجنة بتلك المعجزة» وعندما تزداد عليها الحيرة تسأل مدربتها وراعيتها «مريم»: كيف يحق لسيدنا أن يبيح الخمر،فى حين أن النبى محمد قد حرمها ؟ وتجيبها:له الحق فى ذلك، لقد قلت لك إنه العظيم الذى يلى الله. إنه نبى جديد.ثم تحسم «مريم»أسئلة الفتاة المندهشة من سيل الغرائب «عموما فإننا نعيش هنا جميعا، بشرا وحيوانات، فى وفاق فى هذه الجنائن :فنحن وقد عزلنا عن بقية العالم،سعداء فى العيش معا،هذا كل ما فى الأمر».على الجانب الآخر من عش النسر «الترجمة الحرفية للكلمة الفارسية آلموت» شباب متطوع لخدمة العقيدة الإسماعيلية يتدربون على فنون الحرب وفق أساليب غاية فى الانضباط والشدة، مع الالتزام بطاعة عمياء وتعاليم صارمة بإلغاء العقل والعاطفة ورغبات الجسد. المتطوع الجديد «عونى»حفيد أحد كبار الدعاة يتلقى من زملائه النصائح الأولى: « أنصحك ألا تطرح أسئلة كثيرة.. سيدنا هو قائدنا الوحيد وليس علينا طاعة أحد غيره. .ما يطلبه سيدنا بشكل أساسى هو الطاعة والاندفاع المقدس.لا تحسب أبدا أن الطاعة أمر سهل. فى البداية ستظهر لديك روح التمرد،فالجسد يرفض الانصياع لأوامر الإرادة، وعقلك سيهمس لك بألف اعتراض على الإيعازات التى تصدر إليك. لتعلم أن هذه المقاومة برمتها ما هى إلا حيلة حاكتها الشياطين لتحيدك عن جادة الصواب. اقهر دون رحمة كل عصيان فى داخلك وستصبح سيفا بيد سيدنا». ويتلقى من الداعية «عبد المالك»درسه الحاسم «إن أهواء الجسد الوضيعة تشل إرادتنا كما تشل غايتنا الرفيعة. وقهر تلك الأهواء، وتحرير الروح من رقبتها هو هدف تدريباتنا»،ويتعلم «عونى» الدرس سريعا ويقرر أن يقهر ضعفه ليخدم قضية سامية.



ابتداء من اليوم، عليك ألا تفكر فى العودة إلى البيت، فأنت وقد قطعت آخر حبالك مع العالم الخارجى لتتجه أفكارك من الآن فصاعدا نحو قضية«آلموت» وحدها.. أقنع نفسه بيسر حينئذ أن العالم من حوله هو تماما كما يصوره الدعاة له.لكن وفى المساء وما أن يستلقى للنوم.. حتى يعى جيدا أنه يعيش عالمًا غريبًا تكتنفه الأسرار وكان القلق يعتصره حينئذ.

لا أحد فى «آلموت» يعرف الغاية من هذه الجنان،الصبايا، الفدائيين، من وجود القلعة نفسها إلا الحسن الصباح الذى أعلن لأتباعه: «إن قوة كل مؤسسة ترتكز أساسا على عمى أتباعها.. كلما كان مستوى وعى جماعة ما منخفضًا، كلما كان الحماس الذى يحركهم أشد وأعنف» ويظل الصباح محتجبا عن أتباعه الذين يحكى لهم الدعاة تاريخه فى الدعوة ومكانته العظيمة «حتى أخذت صورة الزّعيم العظيم ترتسم تدريجيا أمام المريدين، الذين لم تعد تساورهم إلا رغبة واحدة:أن تتسنى لهم يوما رؤيته بأم أعينهم، وأن يتميزوا أمامه بعمل باهر أو تضحية عظيمة. فاستحقاق تقديره يعود فى نظرهم إلى السمو فوق واقع البشر»، الأحداث فى القلعة تسير وفق خطة دقيقة تحيطها هالة من السرية المطلقة والغموض المقلق، تبدو خيالية ومستحيلة لكنها تمضى بإيقاع متسارع. وضع الصباح تنظيما تراتبيا هرميا محكما يقف على قمته، ممسكا بكل الخيوط، متحكما فى كل الذين تحيط بهم أسوار القلعة «كل إسماعيلى يعرف موقعه، وكل يعرف بالضبط على من سيلقى أوامره ومن تتوجب عليه طاعته».المدربون والمعلمون والدعاة يجهزون الشباب نفسيا وجسديا وعقائديا. يقولون لهم أن العقيدة تتضمن أسرارًا سيكشف عنها تدريجيا. وأنهم الفرقة المختارة:

«أنتم الذين ستكرسون فدائيين، أنتم الفرقة المختارة التى تحمل هدفا ساميا هو التضحية والشهادة فى سبيل القضية المقدسة. لذا عليكم أن تكونوا مختلفين عن سائر الناس. ولهذا سن سيدنا لأجلكم هذا التحريم: لا ينبغى أن تتزوجوا ولا أن تمارسوا أى شكل من الفجور.. كل الذين سيثابرون على القيام بما أمروا به، ستكون الخيرات الخالدة من نصيبهم.. أنهار صافية كالبلّور، وسترتاحون فى مقصورات من زجاج، مستلقين على أرائك. أما الحور العين فسيقدمن لكم الطعام والخمر الصافى وهن رهن إشارتكم».

وحين يحكى الصباح بعض تفاصيل حياته لعدد قليل من الدعاة تظهر صورة الفيلسوف الحالم الذى شعر بصدمة عنيفة فى بداية انضمامه وهو شاب للدعوة الإسماعيلية السرية. فلقد رأى أتباعها وهم يتصرفون فى الخفاء تصرف السفسطائيين والملحدين والزنادقة. وتعاظمت صدمته عندما أخبره الداعية السراج: «إن العقيدة ناقصة بالضرورة، وأن ليس بوسع أحد معرفة الحقيقة. وبالتالى فنحن لا نؤمن بشىء ولا نستطيع أن نفعل شيئًا»، لكن ظمأه للمعرفة وطموحه للوصول إلى الحقيقة لم يهدأ فاندفع فى بحث دائب ودرس جوانب المعرفة والعلوم كافة: الرياضيات، الفلك، الفلسفة، الكيمياء، علم الطبيعة، التاريخ الطبيعى... وكان لعلاقة الصداقة التى تكونت بينه وبين زميليه الشاعر عمر الخيام والوزير نظام الملك دور هام فى تأجج رغباته العارمة للبحث عن إجابات عن أسئلته المستحيلة، وأساليب لتحقيق أهدافه فى الدعوة. فلقد صارح زميليه بحقيقة إيمانه بالدعوة الإسماعيلية السرية، ونذروا أن يكرسوا حياتهم للقضية والدعوة، وتعاهدوا أثناء دراستهم فى نيسابور بأن يساعد من يصل منهم لمكانة فى الدولة زميليه إلا أن الوزير خان العهد بعدما شعر بالغيرة من المكانة المتزايدة التى بدأ الصباح يحققها فى بلاط السلطان السلجوقى ملكشاه، فدس له من أفسد عمله وجعله أضحوكة، مما جعله يفر إلى مصر لينضم لبلاط الخليفة الفاطمى، عاقدا العزم على الانتقام من صديقه الوزير الذى أصبح عدوه الأول.

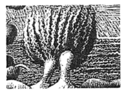
أما الخيام فقد اكتفى بدراسة الفلك وكتابة شعر بعضه متشائم متشكك فى الدين وحقيقة الوجود الإنسانى، وبعضه فاحش يعلى من قيمة اللذة والاستمتاع بمباهج الحياة والانصراف التام عن أمور العقيدة والسياسة. لكنه حافظ على صداقته بالصباح، مخلصا النصح له. فحين يخبره الصباح أنه مصمم على المضى فى طريق الدعوة معلنًا: «إن واجبى فى هذا العالم أن أشرع فى نشر بذور الحقيقة، وفتح أعين الناس، وتحرير البشرية من أوهامها وإنقاذها من المحتالين الذين رموا بها فى الظلمات. كانت الحركة الإسماعيلية بالنسبة لى راية الكفاح ضد الكذب والضلال، أحسست أنى الذى أحمل المشعل الذى يضئ للإنسانية تخبطها الأعمى». هنا يصارحه الخيام: «إن لم تملك المفتاح الذى يفتح لهم جنة وجودهم فالأفضل التخلى عن أية فكرة فى أن تصبح نبيهم. ما من امرئ اليوم يسعى مسرورا إلى الموت على أمل وعد بدخول الجنة لاحقا».

وكان كلام صديقه عمر الخيام حاسما فى اهتدائه لطريق جديد وتصورات مغايرة عبر عنها بكلمات واضحة وحاسمة: «إن الوصول إلى معرفة كلية قطعية أمر مستحيل، فحواسنا كاذبة. لكن الناس يتهمون من يقول ذلك بالهرطقة. ومن يريد أن يكون نبيا لحشود الناس عليه أن يتصرف نحوها تصرف الأبوين نحو أطفالهما. عليه أن يقدم لها الأساطير والترهات». وبدأ فى رسم خطته، وصياغة أسطورته الخاصة والسعى لتحويلها لحقيقة، وخلق جنة فى «آلموت»: عذارى يتدربن على أن يكن حور عين حتى أصبح من الصعب عليهن تصديق أنهن فتيات عاديات. وشباب يتشوقون للموت تشوقًا لا يهابون معه شيئا. وقام الدعاة، الذين انتقاهم جيدا وجمعهم فى القلعة وأعدهم لتنفيذ حلمه، بإقناع الفدائيين أن سيدهم «الصباح» يمتلك مفاتيح الجنة وبإمكانه أن يدخل إليها من يشاء. وزيارة واحدة للجنان التى أعدت جيدا فى الخفاء، والسيطرة النفسية الشديدة التى خضع لها الفدائيون عندما رأوا «سيدهم» بالإضافة للتأثير السحرى لتذوقهم ولأول مرة للحشيش الذى لم يكن معروفا لهم والذى نقلهم فى لحظات إلى «الجنة». كل هذا جعل الشبان الثلاثة الذين خضعوا للتجربة الأولى لمشروع الصباح الأسطورى، يؤمنون أنهم زاروا الفردوس فعلا. فقد شاهد الشبان جنانًا أعد فيها كل شىء ليحاكى صور الجنة التى تدربت مخيلتهم على تصورها، وما لقنهم الدعاة من أوصاف للجنة: كل أشكال الترف والجمال الفنى المفارق للواقع الذى يعيشون فيه، والفواكه التى لا يعرفونها، والخمر التى كانت محرمة عليهم. وعذارى تقيات يعرفن أصول العقيدة، وفنون الأدب والشعر وأسرار الهوى والجنس. وتمت الخطة بنجاح ولم يساور أيا من الشباب الثلاثة أدنى شك فى أن «سيدهم» أرسلهم فعلا إلى الجنة. وكما أكد الصباح للدعاة الذين أطلعهم على خطته «فالإنسان معيار كل الأشياء. فما يدركه موجود وما لا يدركه لا وجود له».. أولئك الثلاثة الذين هم فى الأسفل سيعرفون الجنة ويمتعون أرواحهم وأجسادهم وحواسهم بها. وبالتالى فالجنة بالنسبة لهم موجودة.



رجع الفدائيون الثلاثة: عونى ويوسف وسليمان من زيارة الجنة وهم متشوقون للعودة إليها، جاهزون لتنفيذ أوامر قائدهم حتى ينالوا رضاءه ويعودوا للجنة مرة أخرى. أرسل الصباح أشجعهم وأذكاهم وأكثرهم إيمانا بالعقيدة، وأكثرهم تمتعا فى «الفردوس» فى مهمة لاغتيال صديقه السابق وعدوه الأول الوزير نظام الملك. ويبقى الشابان الآخران لمهمة قادمة متأكدا من أنهما فى شوق عارم لتنفيذها واثقا من أنهما وكلما طالت مدة انتظارهما كلما زاد شوقهما. وينجح عونى فى طعن الوزير نظام الملك بخنجر مسموم وهو غير مبال بما سيناله من عذاب. فقد تناول قطعة الحشيش التى أعطاها له الصباح، فأصبح غائبا نفسيا وجسديا يتمنى فقط أن يقتله حرس الوزير بسرعة لكى يذهب إلى الجنة التى رأى نعيمها من قبل. لكن الوزير يدرك وهو يحتضر أن وراء هذا القاتل المتهور سرًا كبيرًا فيمنع الحرس من الفتك به ويستجوبه بنفسه. وتصعقه الإجابات خاصة عندما يخبره عونى أنه زار الجنة وأن «سيده» الصباح وعده بالعودة إليها إن هو قتل عدوه الوزير: «نحن فدائيون، وهذا يعنى أننا نضحى بأنفسنا لكننا نتمتع بميزة خاصة بنا وهى رؤية الثواب الذى ينتظرنا. إن الموت لا يخيفنا». عندها لم يبذل الوزير الذى يلفظ أنفاسه الأخيرة جهدا كبيرا فى إقناع قاتله بزيف الوهم وكذب الخرافة التى أجاد الصباح إقناع أتباعه بها. وأطلق الوزير سراح قاتله الذى يغادر المعسكر وهو مقتنع أن الصباح خدعه. عازما على قتله فى الوقت الذى يعرف فيه الصباح بمقتل عدوه فيتصور أن عونى قد قتل ويزف لأتباعه فى القلعة خبر نجاح الخطوة الأولى فى خطته بمقتل الوزير، واستشهاد عونى ودخوله الجنة. وعندما يظهر «الشهيد» على أسوار القلعة يرتبك الجميع وأولهم الصباح الذى يدرك سريعا نوايا العائد فيسارع إلى استقباله متخذا كل الحذر. وبعدما تهدأ ثائرة عونى، ويتمكن الحراس من تجريده من الخنجر الذى كان ينوى قتل الصباح به، تبدأ لحظة المكاشفة بين عونى الذى يرمى «سيده» بالكذب وبين الصباح الذى يكشف للفتى المخدوع أسرار الدعوة كما عرفها، ساردا له رحلته الطويلة فى البحث دون جدوى عن الحقيقة ويصارحه بحقيقة «الجنة المصطنعة» «إن جنة كل إنسان ليست إلا سراب رغبة خاصة.. الخير يتساوى مع الشر.. ليست الأشياء بحد ذاتها هى التى تجعلنا سعداء أو تعساء. إنما الفكرة التى نكونها عنها، وضروب اليقين الزائفة التى نعتقد بها». ويعلن له أنه باكتشافه لحقيقة «الفردوس الزائف» أصبح جاهزا للبحث عن يقينه الخاص وحقيقته المطلقة، جاهزا للسير فى طريق وعر وشاق ملىء بالأسئلة المحيرة. ويقتنع عونى بكلام الصباح ويغادر القلعة ليبدأ رحلته الخاصة وهو متحرر من الأوهام بحثا عن «الحقيقة».

أثار اغتيال الوزير غضب السلطان السلجوقى ملكشاه وتأكد أن قلعة «آلموت» وسيدها أصبحا خطرا لا يجب التأخر فى مواجهته بحسم، فأرسل حملة عسكرية للقضاء على مصدر الخطر. وكان الصباح ينتظر ذلك وهو مستعد بسلاحه السرى. فبمجرد أن رأى رسل السلطان الذين جاءوا يطلبون منه التسليم حتى أمر الفدائيين اللذين كانا قد زارا «الجنة» أن يرمى أحدهما نفسه من أسوار القلعة الشاهقة، وأن يقتل الآخر نفسه بخنجره. وأسرع الفدائيان بتنفيذ أوامر سيدهما وهما متلهفان للعودة إلى «الجنة». وكانت الصدمة هائلة فالعيون شاهدت ما يجزم بأن الشابين اللذين وهبا نفسيهما للموت على مرأى من الناس كانا قد زارا الجنة.. وهكذا أصبحت أسطورة «آلموت» حقيقة وواقعًا يؤمن به أتباع الصباح وأعداؤه. ثم جاء اغتيال السلطان ملكشاه على يد أحد فدائيى الصباح إعلانا بوصول الحلم لذروته الكبرى. ويعلن الصباح استقلاله التام حتى عن الخليفة الفاطمى وتأسيس الدولة الإسماعيلية فى «آلموت»، ثم يترك لكبار الدعاة أمر إدارة شئون الدعوة، معتزلا فى غرفته فقد تحقق له ما حلم به. «لقد أنشأنا ودربنا مؤمنين لم تعرف لهم نظيرًا أية قوة أخرى. حماسهم أسطورى. وعزمهم لا يتخطاه أحد. وإخلاصهم لا يضاهى. إن قوة مؤسستنا لا تكمن فى عدد أتباعها وإنما فى نوعيتهم». أما القرار الأخير الذى يصدق عليه الصباح قبل اعتزاله فكان حكم الإعدام على ابنه الوحيد الذى قتل فى نوبة غضب واحدًا من كبار الدعاة، وحين يرجوه بعض الدعاة أن يخفف الحكم بحق ابنه يقول لهم حكمته الأخيرة: «إن البناء الذى



حين يحكى الصباح بعض تفاصيل حياته لعدد قليل من الدعاة تظهر صورة الفيلسوف الحالم الذى شعر بصدمة عنيفة فى بداية انضمامه وهو شاب للدعوة الإسماعيلية السرية. وتعاظمت صدمته عندما أخبره الداعية السراج «إن العقيدة ناقصة بالضرورة، وأن ليس بوسع أحد معرفة الحقيقة»

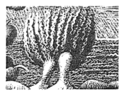
يرتفع لابد أن يكتمل. وإن أقام قلبك عراقيل في وجهه، فلتخرسه لأن كل ما هو عظيم ينبغي أن يتجاوز نطاق البشر».

إن هناك بضع روايات أخرى عن «آلموت» منها رواية أمين معلوف «سمرقند» وهي صادرة بالفرنسية في نهاية ثمانينيات القرن العشرين. وتدور أحداثها في رحاب هذا الصراع بين الثلاثي: «عمر الخيام الذي رصد العالم.ونظام الملك الذي حكمه، وحسن الصباح الذي أرهبه». هذا الثلاثي (العالم الفيلسوف - الثائر المسلح - الحاكم الإداري) هو الذي يوجه مسار الأحداث التاريخية الكبرى بانتصاراتها وانكساراتها وإليهم تنتسب،أما الذين يعانون في كل الأحوال فمجهولون لا يظهرون إلا في الأعمال الأدبية التي تعيد رسم المشهد بعد أن تنقضي الوقائع وتهدأ الأحداث. ورغم أن معلوف يختلف عن بارتول في ارتكازه على الدقة التاريخية فيكتب: «ويقال أنهم طلبوا العلم معا في نيسابور. وهذا ما لا يمكن أن يكون صحيحًا. فنظام الملك أكبر من «عمر» ثلاثين عاما، و«حسن» درس في الري وربما طلب بعض العلم في مسقط رأسه «قم» .لكن الحقيقة «الفنية» التي صاغها بارتول أقوى وأجمل روائيا من «دقة» معلوف. فعندما يكون الصراع بين أقران من جيل واحد بينهم عوامل التنافس و«الغيرة» الإنسانية، يكون التوتر والحافز الدرامي الفني أقوى. ولا ننسى أن بارتول كتب روايته قبل معلوف بنصف قرن على الأقل مما يجعله سباقا في إعادة اكتشاف ذلك العالم وانعكاساته على الواقع، أو قل في إمداداته في الواقع. معلوف يبدو مهموما بالواقع الإيراني الحديث بعد اشتعال الثورة الإيرانية في نهاية السبعينيات وتداعياتها الإقليمية والدولية».

المزج بين التاريخ والخيال في الرواية كان ناجحًا وخاصة أن تاريخ «آلموت» والحسن الصباح والدعوة الإسماعيلية كان دائما غامضا،وصار من الصعب على الباحث والمؤرخ معرفة حقيقة مذهبهم ونشاطاتهم ودولهم عبر التاريخ. ومن قبل قال طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى: «والواقع أن الخصومة بين الشيعة وأهل الجماعة قد اتخذت ألوانا من الجدل والإذاعة ونشر الدعوة بعد أن استقام الأمر لبني العباس، كثر فيها المكر والكيد والاختراع. بحيث يجب على المؤرخ أن يحتاط أشد الاحتياط حين يصور هذه الفتن في عهدها الأول». لكننا يجب أن لا نهرب من مقاربة التاريخ في موضوع كهذا لأن تأثيره يمتد إلى الحاضر،فالحركات السياسية الإسلامية المعاصرة التي تعتمد العنف في دعواها تستلهم من تاريخ الحركات السياسية الإسلامية المعارضة على مختلف توجهاتها بعض آليات العمل الدعوي وأساليب «الجهاد».كما أن بعض كتاب الغرب يتهمون التاريخ الإسلامي والمسلمين بأنهم مجبولون على العنف والاغتيال والاستشهاد «الانتحار» متناسين أن مختلف المجتمعات الإنسانية مرت بمثل هذه المحن والحركات السياسية «الدموية»العنيفة ويكفي مثالا ذكر اليابانيين في الحرب العالمية الثانية. بل إن حالات الانتحار تعبيرا عن الاعتراض على أمر ما شيء مألوف حتى الآن في اليابان. فدائيو «آلموت» إذا تعبير عن لحظة فريدة في التاريخ الإسلامي. لحظة تتجدد طاقتها «الملهمة» لكل من يبحث عن رصيد خيالي لمواجهة واقع معاد يتجبر على «المؤمنين المستضعفين» الذين تحول إمكانياتهم المتواضعة دون الانتصار في تلك المواجهة غير المتكافئة. فلا يجدون إلا ذلك الخيال الجامح والمبادرات الفردية المفعمة بإيمان استثنائي واستعداد للتضحية لا حدود له والأهم ذلك الرصيد «الروحي» للفئات الصغيرة التي حققت نجاحات مذهلة على إمبراطوريات كبرى. أما الحركات السياسية الإسلامية المعاصرة فلا تعدو أن تكون استجابة لاحتقان وصراع اجتماعي وسياسي لا يجد المتورطون فيه «الدولة والمعارضة» وسائل حله سلميا فيلجأون للعنف ولترسانات من الدعاوى والأسانيد الدينية.

كان هدف الحسن الصباح السياسي كما يبرزه بارتول في الرواية أن «يخلص عرش إيران المجيد من الطغاة الغرباء الأتراك السلاجقة». وما الدعوة الدينية إلا وسيلة فاعلة لذلك. مما يعيدنا مرة أخرى لطه حسين «فلم تكن الفتنة الكبرى إلا صراعا بين الطبيعة الإسلامية العربية، وطبائع الأمم المغلوبة التي ظهر عليها المسلمون». مقاومة السلاجقة، هؤلاء الأتراك الذين سيطروا على آسيا الغربية بين الهند والبحر المتوسط مدة طويلة وفرضوا سيطرتهم حتى على عاصمة الخلافة العباسية، كانت هي الدافع الخفي «السياسي» للدعوة الدينية التي قادها الصباح وأنشأ من أجلها تنظيمه السري المسلح. ونلاحظ أن آليات الخداع والسيطرة على الأتباع وخلق الأوهام والأساطير ليست حكرا على الحركات الدينية العقائدية الإسلامية أو غيرها. فهي أساليب مرتبطة بكل الأفكار «الكلية» والحركات السياسية الشمولية التي غالبا ما تعتمد في نجاحها على إثارة مخيلة أتباعها بأحلام كبيرة وخداعهم وإيهامهم بأهميتها وبمقدرتها على تحقيق تلك «الأوهام» السامية.هؤلاء الأتباع هم أول من يدفع ثمن تلك الأحلام «الجنونية» بعضهم يذهب للموت فرحين متأكدين من دخولهم «الجنة»، وأكثرهم يكتشفون زيف الأوهام لكن متأخرًا.

بارتول المطلع جيدا على الديانات والفلسفات الفارسية قبل الإسلام، وعلى المذاهب الفلسفية اليونانية.والأصول الفلسفية للمذاهب الشيعية المختلفة. يستقي منها جميعا مقولات وتصورات محددة يمزجها بمخاوف وأسئلة الواقع الأوروبي في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين بحيث تبدو الأجواء الفكرية في «آلموت» خلفية بالغة القوة والدلالة للواقع الذي كان يعانيه. الديانتان الفارسيتان المانوية والزرادشتية حاضرتان بقوة في الرواية. فهناك وحدة تجمع بين طرفي الصراع الأزلي المحتدم، الشر والخير، بحيث لا يمكن تصور وجود أحدهما بمعزل عن الآخر. نجد ذلك في كلمات الحسن الصباح وفي بحثه المجنون عن الحقيقة واختراعه لأسطورة الجنة وحلمه المستحيل :«أحلم بإمبراطورية يحكم كل إقليم فيها وكل مدينة رجل عادل يخاف الله ويهتم بشكاوى أضعف الرعية. أحلم بدولة يشرب فيها الذئب والحمل معا بكل دعة ماء الساقية عينها».كما نجده داخل هذه الجنة في تلك العلاقة الفريدة التي تجمع الفهد «أهريمان»،وهو اسم ورمز التلوث والدنس



القرار الأخير الذي يصدق عليه الصباح قبل اعتزاله كان حكم الإعدام على ابنه الوحيد الذي قتل في نوبة غضب واحداً من كبار الدعاة، وحين يرجوه بعض الدعاة أن يخفف الحكم بحق ابنه يقول لهم حكمته الأخيرة «إن البناء الذي يرتفع لابد أن يكتمل. وإن أقام قلبك عراقيل في وجهه، فلتخرسه لأن كل ما هو عظيم ينبغي أن يتجاوز نطاق البشر»

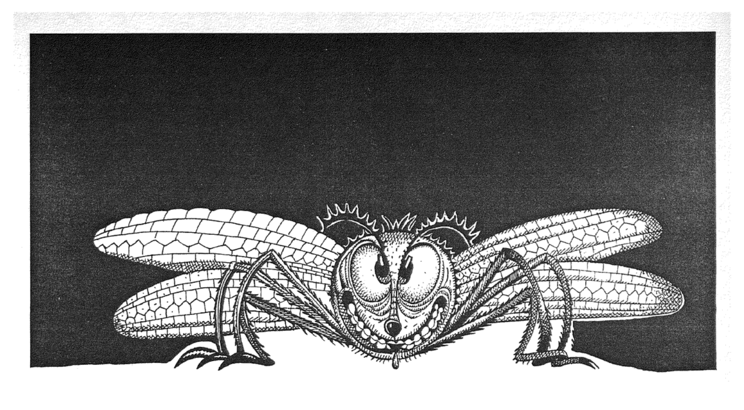


والشر والظلام في «الافستا» كتاب زرادشت «المقدس»، مع الغزالة وهي التعبير عن «أهورامزدا» رمز الحق والحياة الطاهرة النقية. هذه الوحدة بين النقيضين هي إحدى أفكار الصباح الرئيسية فمادام المبدآن، الشر والخير موجودين بالقوة وبالفعل في الطبيعة وفي الحياة فيمكن للإنسان أن يصنع ما يشاء فهو بمفرده صانع القيم وحاكمها.والفلسفات اليونانية، خاصة الفلاسفة الطبيعيين ما قبل سقراط (امبيدوكيل، هيراقليطس، ديموقريطس) حاضرة في آراء وكلمات الحسن الصباح وأتباعه من الدعاة. أما الأصول الفلسفية للمذاهب الشيعية وجوهرها القائم على ضرورة وجود الإمام أو نائبه وطاعة التابعين له انتظارا للإمام الغائب«المحجوب».فهي الطاقة «الروحية» الكبرى التي تساعد الصباح في تحريك الأحداث والشخصيات.الصباح يقدم نفسه لأتباعه باعتباره «الرائد» الذي يمهد الأرض لتكون على أهبة الاستعداد لاستقبال إمام الزمان الذي سيملأ الأرض عدلا ويجزي المؤمنين الصادقين.



ويبدو بارتول متأثرا في صياغته لشخصية الصباح بالأجزاء الأربعة التي كتبها نيتشه في «هكذا تحدث زرادشت» (١٨٨٣ - ١٨٨٥) فهو يفهم أن نيتشه يأخذ شخص زرادشت كتورية، أو كقلب للمعنى ،كمجاز مرسل. والمقصود تصوير الإنسان الأسمى «السوبرمان» وصياغة فلسفة لإرادة القوة، إرادة الاقتدار،والرغبة في السيطرة على المصير البشري والتحكم في مساره، وصنع إنسان حر بالوسائل الأشد عنفا،الأكثر إكراها. ألا نجد صدى هذه الكلمات التي يقولها نيتشه على لسان زرادشت في كلمات الحسن الصباح : «ألا تعرف إلى من يحتاج العالم، إلى الإنسان الذي يأمر بأشياء عظيمة. . آه يا زرادشت، قدم نفسك كظل من يجب أن يأتي، عندئذ سوف تأمر، وتتقدم كسيد».

مع كل هذا لم يكن بارتول مستشرقا بهرته هذه الأجواء الغريبة فأراد كتابة رواية من روايات الفنتازيا والخيال ليقدم للقارئ الغربي هذا العالم الغرائبي، لكنه مهموم بمقاربة الواقع الغربي في منتصف ثلاثينيات القرن العشرين عندما تصاعدت في الأجواء الأوروبية هذه الدعوات الطوباوية لإقامة الجنة على الأرض، وكثرت التوجهات السياسية الشمولية بمختلف تعبيراتها من شيوعية واشتراكية وفاشية. وما «آلموت» إلا فضاء مثالي لتصوراته وأفكاره عن المدى الذي يمكن أن تذهب إليه المحاولات الخيالية لهندسة الوجود الإنساني والتحكم القسري في مصائر البشر والمجتمعات بالاستناد إلى العنف والقوة وزرع الخوف في الأتباع قبل الأعداء. صحيح أن «آلموت»حققت نجاحا باهرا وظلت صامدة وقوية لعدة عقود لكنها استحالت إلى أسطورة وأمثولة، وتعلم الإسماعيليون كيف يتحولون من أشد الفرق تمسكا بمعتقدهم وعنفا في الدفاع عن مذهبهم ووجودهم إلى طائفة يضرب بها المثل في التسامح والرقة. بالضبط كما استحالت التجارب الطوباوية الغربية التي كان يخشاها بارتول إلى ذكرى وعبرة. ■



الأمريكيون خططوا لاستخدامه

ريتشارد هورتون

لم يكن لأى مرض آخر - أو بالأحرى أية قوة أخرى من القوى الطبيعية - دور أكبر من دور الحمى الصفراء فى تشكيل تطور الحياة الأمريكية. وربما رؤى بعد قرن أو نحو ذلك أن لمرض نقص المناعة (الإيدز) أثرًا مساويًا. إلا أن الحمى الصفراء هى التى وضعت القواعد الحديثة للارتباط - العاطفى والسياسى والعلمى والطبى - فى المواجهات بين المرض والبشرية. وبما أن أسباب المرض قد قضى عليها وبات الناس فى مأمن من المرض، فإن التهديد الذى كانت تمثله الحمى الصفراء للمجتمع قد جرى تناسيه إلى حد كبير بشكل يبعث على السعادة. والانتصار الواضح على البعوضة التى انتشرت انتشاراً مؤقتاً، جزء من التاريخ الإنسانى شديد الثراء للعالم الجديد. وذلك هو كبت الذاكرة وتشويش الحاضر.

ولذلك يضطر القارئ المدقق إلى الاعتماد على المصادر الأولية كى يكتشف ذلك الإحساس المرعب الذى أحدثته الحمى الصفراء فى أمريكا القرن التاسع عشر ذات النمط الحضرى الأول. ومن أمثلة ذلك اليزابيث درينكر، وهى من سكان فيلادلفيا وتنتمى لطائفة الأصحاب Quakers ومن مواليد ١٧٣٤. وظلت اليزابيث تسجل مذكراتها حتى قبل وفاتها فى الرابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٨٠٤ بستة أيام. ويمثل تاريخها للحياة المحلية استبصاراً رهيباً فى دراما الحمى الصفراء فى أهم مدن أمريكا فى ذلك الوقت.

وقد أصابت الحمى الصفراء فيلادلفيا لأول مرة سنة ١٦٩٩. وفى سبتمبر ١٧٦٢ أشارت درينكر إلى عودتها بقولها: «وقت يخيم عليه المرض فى فيلادلفيا. الكثير من الأشخاص قضى عليهم شيء أشبه بالحمى الصفراء». وخلال الأوبئة المتكررة فى تسعينيات القرن الثامن عشر، أطلقت على جزء من مذكراتها اسم «كتاب الفناء». وفى سنة ١٧٩٣، على سبيل المثال، وصفت «عدداً غير عادى من الجنازات»، وهروب العائلات بينما «تجتاح الحمى المدينة»، ويُحرق القار فى الشوارع لدرء المرض. وفى تلك المرة التى تفشى فيها المرض، مات خمسة آلاف شخص كانوا يمثلون ١٠ بالمائة من سكان فيلادلفيا. وتروى درينكر قصصاً عن المأساة المحزنة:

... روى ج هيسر قصة محزنة عن روبرت روس بروكر الذى مات ليلة الحمى الصفراء، ولم يكن معه من أحد سوى زوجته التى كانت تعانى من آلام الوضع بينما هو يحتضر، حيث فتحت الزوجة النافذة ونادت على من يساعدها، ولكن أحداً لم يجب نداءها، وفى الصباح دخل شخص البيت كى يرى ما آل إليه حالهما، فوجد الرجل وزوجته قد ماتا، بينما كان الطفل الذى ولد حديثاً حياً....

وقد فاق عدد الموتى كل التوقعات. وفى سبتمبر ١٧٩٣، قالت درينكر:

... يقال أن كثيرين يدفنون بعد حلول الليل وينقلون بالعربات إلى مقابرهم....كما سمعنا اليوم أن الموتى يوضعون فى توابيتهم بالحالة التى ماتوا عليها دون تغيير ملابسهم أو تجميلهم، ويدفنون بعد ساعة أو ساعتين من مرضهم.... وكانت التوابيت مجهزة بالأكوام.

لقد محيت آثار هذه الأوبئة من الجزء الخارجى العام للمدينة. وعندما كنت هناك منذ فترة قريبة كان التذكار الوحيد المرئى - الذى بيّنه لى رجل مسن جالس تحت جرس الذكرى المئوية الثانية - عبارة عن منخفض على شكل حدوة الحصان فى الأرض المجاورة لكاربنترز هول. كان مجروراً قديماً. وكان ذلك من أجل وباء زعم جون آدامز - أثناء المطالبة العامة الشرسة لجورج واشنطن بإعلان الحرب دعماً للثورة الفرنسية - أن «لا شيء سوى الحمى الصفراء... كان يمكن أن ينقذ الولايات المتحدة من ثورة شاملة للحكومة».

[١]

يسبب الحمى الصفراء فيروس تنقله إلى الكائنات البشرية بعوضة رقيقة المنظر، وإن لم تتضح العلاقة بين البعوض والحمى حتى سنة ١٩٠٠. وعندما تدخل البعوضة الحاملة للحمى الصفراء إحدى المستوطنات البشرية، فغالباً ما يتفشى المرض بسرعة - وبصورة مميتة. وقد قتل وباء انتشر فى أثيوبيا فيما بين ١٩٦٠ و١٩٦٢ حوالى ٣٠ ألف شخص. والمرض فى حد ذاته على قدر كبير من الفظاعة. وهو يبدأ بداية مفاجئة بالحمى والصداع وألم فى العضلات. وتكون الضحية فى حالة شديدة من الإعياء مع وجود نزف ونوبات عنيفة من القيء. وخلال بضعة أيام يقل معدل النبض، ويهبط ضغط الدم، ويصاب المريض بالفشل الكلوى. كما ينز الدم من سطح كل نسيج. وعندما تكون الإصابة حادة، يموت نصف المصابين بالمرض.

وأوضحت مارجريت همفريز مؤرخة العلوم المحترمة كيف أن المجازر البشرية التى أحدثتها الحمى الصفراء تكاد تكون هى وحدها التى عجلت بإنشاء المؤسسات الصحية العامة المهمة فى الولايات المتحدة ومنها هيئة الصحة العامة الأمريكية، التى تقول همفريز إنها أنشئت فى المقام الأول استجابة لآثار الحمى الصفراء على التجارة الأمريكية. فكل وباء فى القرن التاسع عشر - وكانت نيو أورليانز تتحمل عبء المرض - «كان يوقف القطارات ويغلق الموانئ، ويحول دون وصول القطن إلى المحالج، ويشل حركة السلع الأساسية من نقاط التوزيع فى المدن إلى الريف». وأنشئت المجالس الصحية لمواجهة خطر الحمى الصفراء. وبذلك كانت للحمى الصفراء أهميتها فى انتشار المشاركة الفيدرالية فى الصحة العامة فى أواخر القرن التاسع عشر، وهو ما يعود غالباً إلى كونها مشكلة قومية فى المقام الأول، بعكس أى مرض آخر كان يصيب البلاد بصورة ثابتة.

وفى تحليلها القوى الذى يتسم بالأصالة، حاولت اليزابيث همفريز وضع معايير كلية لابد من انطباقها على أى خطر صحى جديد كى يحظى باهتمام سياسى جاد. وتظل نتائجها صالحة فى وقتنا هذا. فهى تقول إنه لابد من اتفاق العلماء على النظرية المحيطة بالمرض؛ ولا بد من توافر إجراءات التدخل المحتملة؛ ولابد أن يكون لهذه الإجراءات أقل قدر ممكن من التأثير على حقوق المواطنين؛ ولا بد أن يكون هناك عدد كبير من السكان معرض للإصابة بالمرض؛ ولا بد أن يكون الجمهور متفهماً للإجراءات التى اتخذت ومتقبلاً لها. ونشأت حركة صحة عامة استجابة للحمى الصفراء. وفى النهاية أجاز القانون الفيدرالى فى سنة ١٩٠٢ هيئة الصحة العامة ومستشفيات البحرية - وكانت مستشفيات البحرية مسئولة

ضد السوفييت... البعوض

عن صحة البحارة. وقد قضى على المرض فى أمريكا الشمالية بحلول عام ١٩٠٥.



وكانت الحمى الصفراء كذلك وراء مناقشة عامة غير عادية بشأن ابستمولوجيا المرض. وكان لهذا الأمر أهميته بسبب الرأى الطبى السائد الذى يقول إن وباء الحمى الصفراء فى سنة ١٧٩٣ كان مستورداً من جزر الهند الغربية. ولو صح ذلك، لأصبحت إجراءات الحجر الصحى الموسعة فى الموانئ والمدن الكبرى الوسيلة الوحيدة لأية حماية فى المستقبل. ومثل هذه التدخلات كانت ستلحق ضرراً بالغاً بالشبكة التجارية الممتدة مع هشاشتها. ولم يكن بالإمكان ترك النزاع للتأملات العقيمة فى صالونات الطب الأكاديمى. وبدلاً من ذلك قام نواه وبستر، المحامى والصحفى وواضع القواميس وأول مؤرخ للأمراض الوبائية، بإخراج المناقشة من أيدى الأطباء وجعلها قضية عامة. وقد جمَّع معلومات من الجمعيات الطبية والفلسفية ليضع نظرية جديدة تشرح الحمى الصفراء باعتبارها تعتمد اعتماداً «تاماً على تكوين الجو الذى نعيش فيه»، وقد تعتمد فى الغالب على «الأحماض السامة التى تخرج من كل أنواع القاذورات فى الطقس الحار».

وبما أن وبستر كان رجلاً علمانياً ذا مهارات غير عادية فى المرافعة، فقد تحدى أطباء عصره - وخاصة الدكتور ويليام كارى من فيلادلفيا، وهو رجل وصفه الدكتور بنجامين راش بأنه «حجة مدينتنا فى موضوع الحمى الصفراء». وضمَّن وبستر أفكاره المضادة فى خمس وعشرين رسالة نشرها فى New York Commercial Advertiser سنة ١٧٩٧. وهى من أقدم وأهم نماذج صحافة التحقيقات التى تثير النقاش حول موضوع له أهميته الكبيرة المدنية والصحية العامة.

ويتعلق فرع غريب لهذا التاريخ بالحماس الأمريكى للحمى الصفراء باعتبارها سلاحاً بيولوجيا. ففى الوثائق الحكومية المحظورة فى الوقت الراهن، يمكن أن نلمح برنامج الحرب البيولوجية الأمريكية فيما بين ١٩٤٥ و١٩٦٠. فقد كانت الحمى الصفراء إلى جانب البعوضة الحضرية الحاملة للمرض أملاً عسكرياً كبيراً. وبدأ العمل فى استراتيجيات البعوض الهجومية سنة ١٩٥٣ فى كامب ديتريك. وكانت مزايا هجوم البعوض جلية - فالفيروس يحقن فى الجسم البشرى مباشرة؛ ومادامت البعوضة حية، فإن المنطقة التى تطلق فيها تكون خطرة؛ وليس هناك علاج معروف للحمى الصفراء؛ ويمكن إصابة سكان اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية إصابة كبيرة؛ وسيكون من الصعب تنظيم برنامج التطعيم بالسرعة الواجبة. وفى سنة ١٩٥٦ بدأت التجارب الميدانية باستخدام بعوض غير مصاب فى جورجيا وفلوريدا. فقد كانت تلك الحشرات حاملات جيدة: ذلك أن البعوض ينتشر فوق عدة أميال مربعة. وكان بإمكان فورت ديتريك إنتاج ما يصل إلى نصف مليون بعوضة كل شهر.

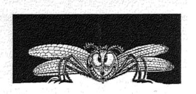
واستكمل الدكتور ليويس جبهارت العالم بجامعة يوتاه جزءاً من هذا العمل. فقد حدد جبهارت مع زملائه من أماكن أخرى شروط الهجوم الناجح للحمى الصفراء الحضرية. ودرس فريقه مزايا وعيوب أنواع عديدة من البعوض، وتعقيدات الظروف المناخية الأوراسية (وخاصة حول موسكو وستالينجراد وفلاديفوستوك)، والقدرات الدفاعية لهذه المناطق، كما قيَّموا خطط هجوم البعوض. وأعقب تحليلاتهم مشروع «الكرَّاز» Bellwether والعمليتان «الطنين الكبير» Big Buzz و«السيف السحرى» .Magic Sword وكان المشروع الأول الذى نُفِّذ فى عامى ١٩٥٩ و١٩٦٠ يركز على دراسة احتمال لسع إناث البعوض الجائعة على مسافات مختلفة، وسرعات متفاوتة للريح، ودرجات حرارة متباينة، ونسب رطوبة مختلفة، إلى جانب التجارب فى العديد من المواقع الحضرية المشابهة. أما المشروع الثانى فقد بدأ فى تقدير جدوى الإنتاج الضخم للبعوض واستخدامه. وانتقل السيف الذهبى بالكرَّاز خطوة للأمام بتحديد تفاصيل درجات الهجوم الدقيقة بكل ألف بعوضة تطلق. وفى النهاية أوقف الرئيس نيكسون الأبحاث الأمريكية التى تجرى على الحرب البيولوجية الهجومية سنة ١٩٦٩.

وفى كتاب Mosquito يلخص أندرو سبيلمان، الباحث البارز بجامعة هارفارد فى الأمراض التى ينقلها البعوض وأستاذ الصحة العامة بالمناطق الحارة، تاريخ اكتشاف الحمى الصفراء والتفاعل المعقد للتنافس العلمى الكوبى الأمريكى الذى ربط العدوى ببعوضة .Aedes وبعد عشرين سنة من الأبحاث والنقاش فيما بين العلماء فى هافانا وواشنطن، كان على والتر ريد أن يعلن فى سنة ١٩٠٠ أن مصدر الحمى الصفراء الحقيقى هو التحول. (عُزل الفيروس فى نهاية الأمر سنة ١٩٢٧). ويشير سبيلمان بأسى إلى أنه بعد قرن من ذلك فإنه «بعد أن يصاب شخص بالمرض فإن ما يمكن أن يفعله الأطباء فى وقتنا هذا قليل». وكما أثبت الوباء الإثيوبى، فقد كان هناك تناقص فى الاهتمام بالحمى الصفراء خلال القرن العشرين. وفى سنة ١٩٨٣ فقط جمعت منظمة الصحة العالمية خبراء الحمى الصفراء فى العاصمة السنغالية دكار للتوصل إلى اتفاق بشأن كيفية التعامل مع هذا الخطر الكونى الناشئ.

ومنذ عام ١٩٨٣ والحمى الصفراء تتجاهل جهود هؤلاء العلماء. فالفيروس مستوطن فى تسع من دول أمريكا الجنوبية، بما فى ذلك جزء كبير من البرازيل وفنزويلا وكولومبيا وبيرو وبوليفيا. ولا يزال الخطر قائماً. فأوبئة الحمى الصفراء تتفشى بصورة أكبر وأعداد البعوض فى ازدياد. وقد تفشت الحمى الصفراء فى كينيا لأول مرة سنة ١٩٩٢. وأسوأ تفش للمرض خلال العشرين سنة الماضية بالبرازيل كان سنة ١٩٩٣. وظهرت الحمى الصفراء من جديد فى السنغال سنة ١٩٩٥. وأول مثال للحمى الصفراء الحضرية فى الأمريكتين على مدى نصف قرن وصف سنة ١٩٩٩. ومرة أخرى جمعت منظمة الصحة العالمية خبراءها سنة ١٩٩٨ لبحث أسباب ظهور المرض من جديد.

وتنقسم الأسباب إلى شقين. الشق الأول هو أن العلاقة بين المستوطنات البشرية والغابات التى تخرج منها الحمى الصفراء تتغير تغيراً سريعاً. ففى وادى كيريو، حيث بدأ الوباء الكينى، شُق طريق مؤخراً بين الأشجار. وقد زادت فرص نقل البعوض إلى خارج الوادى، أو مجىء البشر إلى المنطقة المعرضة للخطر، زيادة كبيرة. ومع زيادة معدلات المواليد فى كثير من هذه المناطق، أزيلت الغابات لإقامة مساكن للبشر، وهو ما أوجد نقاط اتصال جديدة بين البشر المعرضين للإصابة والبعوض الحامل للمرض.

الشق الثانى هو أنه رغم وجود طُعْم فعال ضد الحمى الصفراء، فإن تغطية السكان المعرضين للخطر ليس كبيراً. ولتحقيق وقاية ناجحة من المرض،



لا بد أن تتعدى معدلات التطعيم نسبة الـ ٨٠٪. ويعود تفشي المرض في البرازيل والسنغال بصورة كبيرة إلى عدم كفاية التطعيم. وهناك كذلك جزء عملي من الصعوبة. فطعم الحمى الصفراء يحتوى على فيروس حي جرى إضعافه، مما يجعل فترة صلاحيته قصيرة. وهو سرعان ما يفسد حين نقله من التبريد السليم. ولكن هناك إلى جانب ذلك قضية الإرادة السياسية. فغالباً ما يكون تخطيط حملات التطعيم سيئاً، وعادة ما لا يشكل جزءاً من الاستراتيجية الإقليمية أو القومية الثابتة ضد الحمى الصفراء. وقد يكون الدافع وراء نشر طُعْم الحمى الصفراء محل تساؤل أكثر، في ظل التقارير الأخيرة التي تتحدث عن ردود الأفعال العكسية الخطيرة (والنادرة) المرتبطة بالطُعْم الوحيد المتوفر حالياً. فقد أخفقت الحكومات الأفريقية والأمريكية الجنوبية في تقدير الآثار المدمرة لهذا المرض على نمو بلادها الاقتصادى والاجتماعي. وفي الوقت ذاته، وفي سنة ٢٠٠١، لا زالت منظمة الصحة العالمية تبلغ عن تفش جديد للمرض في غينيا والبرازيل وساحل العاج. ويظل على أماكن أخرى أن تعي دروس الحمى الصفراء في جنوب الولايات المتحدة.

[٢]

ابحث في بيتك عن جثث البعوض العادى Culex pipiens وانظر إليها تحت المجهر أو عدسة مكبرة قوية. والصورة التي ستراها هي صورة ذات جمال مخيف. فالرأس كُرِّية سوداء مدمجة تخرج منها شعيرات سميكة طويلة، وقرنا استشعار متشعبان، وفكان أشبه بكلابتين. وتربط الرقبة - التي كالعصا - الرأس بالجذع المحدب الذى ثبتت فيه الأجنحة بقوة. وهذه الأجنحة مرقشة عليها بقع صبغية، فتبدو في شفافية الزجاج المعشق أحادى اللون. والسيقان الست طويلة وتغطيها شعيرات وهي مفصلية. أما ظهر البعوضة فمقوس كأنه في حالة استعداد للقفز؛ والواقع أن الجسم بكامله مُشكَّل لغرض الهجوم.

ويبدى سبيلمان إعجابه الواضح بالبعوضة، بغض النظر عما يتحمله البشر. فقد فتنته قوتها: «فليس هناك حيوان على وجه الأرض مس حياة مثل هذا العدد الكبير من البشر». وهو يعتبر موقفنا من البعوضة أمراً لا يقل عن كونه «علاقة» ما. فالواقع أنه «قد يكون من الصعب أن نحب البعوضة، ولكن من يعرفها حق المعرفة يُكِنُّ لها تقديراً عميقاً». وتعبر الصفات التي ينَعت بها سبيلمان البعوضة عن ذلك بقوة؛ فهي متعددة الأشكال، وزاهية الألوان، وجميلة، ورائعة، وتتمتع بالصحة والقوة، وماهرة، ومثابرة، ورشيقة، وساحرة، ومحيرة. وفي النهاية يلقى بالحذر البيولوجي في الهواء؛ فهذه الحشرة «تفكر بجلدها». وليس سبيلمان ساذجاً في إعجابه هذا. فهو يعترف على الفور بأن البعوضة «تخدم نفسها» بوحشية. إنها تعيش لتأكل وتتكاثر. ولا شيء غير ذلك.

والبعوضة تدريب ارتقائي في الهندسة البيولوجية الدقيقة. ولابد لبعوضة Culex pipiens أن ترفرف بأجنحتها حوالى خمسمائة مرة في الثانية الواحدة كي تطير بسرعة متواضعة مقدارها ثلاثة أميال في الساعة. ومع ذلك فإن حياتها شديدة الارتباط بالغرائز. فذكر بعوض نيوزيلندا يظل يحوم حول البعوض البالغ الذى في طور العذراء، انتظاراً لخروج العذراوات التي ينقض عليها وفي ذهنه الحشرى أمر واحد - وهو ما يصل سبيلمان إلى أنه «الاغتصاب في المقام الأول». وفي بعض الأحيان يكون ذكر بعوضة Culex شديد الارتباط بأنثاه حتى أن انسحابه لا يتحقق إلا بانتزاع العضو الذكرى نزعاً. ويسخر سبيلمان من الخرافات الشائعة. فبينما قد تحب أنثى البعوض التغذى على الدم البشرى، فإن مصدر الغذاء الأكثر احتمالاً هو رحيق نباتي سكرى. فالدم ضرورى فقط للمساعدة على دفع إنتاج البيض. (الخرافة الوحيدة الحقيقية هي أن الإناث وحدها التي تلسع).

ويمكن أن نضيف إلى هذه المعلومات أن هناك ما يزيد كثيراً على الألفى نوع من البعوض (يعيش ثلاثة وسبعون منها في فلوريدا)؛ ويمكن لبعوض البرك المالحة الهجرة لمسافة تبلغ المائة ميل؛ ويمكن للبعوضة أن تشم العائل على مسافة ثلاثين ميلاً؛ وهناك لعبة أطفال تسمى Know Mosquitos.

ولكن فكرة كتاب سبيلمان الأساسية تتعدى بكثير التاريخ الطبيعى لحياة البعوض وغرامياته. فهو يروى قصة الطريقة التي حاولت بها الكائنات البشرية السيطرة على الأمراض التي يسببها البعوض والقضاء عليها، وكيف فشلت هذه الحملات في أغلب الأحيان. وهو لا تسعده هزيمة البشر. بل إنه يرغب في لفت الانتباه إلى القدرة غير العادية على التكيف التي تتمتع بها هذه الحشرات. فهي تعيش في حالة من الحرب الشاملة مع الميكروبات المفترسة والديدان والنمل والخنافس واليعسوب (صقر البعوض) والخفافيش والسحالى. إلا أن البشر أصبحوا عدوها الرئيسى. وما نفعله عادة يعطى حياة جديدة للبعوض وما يصاحبه من أمراض.

وأفضل أمثلة سبيلمان هو Aedes albopictus، وهي بعوضة النمر الآسيوية التي تنقل حمى الدنج وغيرها من أنواع التهابات المخ. وقد اكتشفت بعوضة النمر الآسيوى في الولايات المتحدة سنة ١٩٨٣ ومن الأرجح أنها انتقلت إلى موطنها الجديد - ممفيس بولاية تينيسى - من الخارج. وبحلول عام ١٩٨٥ كانت بعوضة Aedes albopictus قد استقرت في تكساس. وكان مصدر هذا النوع غير العادى من البعوض ملايين الإطارات التي تستوردها الولايات المتحدة من آسيا. وخلق خلل في التوازن البيولوجي الظروف لبعوضة جديدة كي تأتى لنا بأمراض جديدة. ويقول سبيلمان إن البعوضة لها «قدرة كبيرة على التكيف والتخصص»، وإننا معشر البشر القوة الرئيسية التي تقف وراء هذا التكيف الخطر في بعض الأحيان. ولا تزال تُكتشف أنواع جديدة من البعوض في الولايات المتحدة كل بضع سنوات.

وفيروس غرب النيل مثال جيد لكيفية عدم وجود مصدر لعدوى جديدة يحملها البعوض - أو هكذا يبدو - كي تهدد سكاناً حضريين لم يكن ذلك الأمر في حسبانهم. وقفز الفيروس إلى اهتمام أبناء نيويورك في أغسطس من عام ١٩٩٩. وبحلول سبتمبر كانت هناك اثنتان وستون حالة إصابة وسبع وفيات. وما يميز المرض هو التهاب في المخ أو التهاب سحائى، أو الاثنان معاً. وكان المسنون على وجه الخصوص معرضين للإصابة. وتركزت العدوى في شمالي كوينز وساوث برونكس، وإن أصاب الذعر المدينة كلها. ووعد العمدة رودولف جوليانى بـ «القضاء المبرم على البعوض». وأخذ موظفو الصحة العامة آلاف العينات وعزلوا أربعة وعشرين نوعاً من البعوض. إلا أن سبيلمان يعتقد أنه كان أحرى بالعلماء أن يؤدوا عملهم بصورة أفضل؛ إذ «كان عليهم أن يخضعوا العينات التي أرسلت لمزيد من الفحص الدقيق». والواقع أن هؤلاء الخبراء كانوا يظنون أنهم يتعاملون مع فيروس مختلف تماماً. وهو ما لم يكونوا محقين فيه.

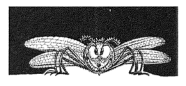
والطيور هي العائل الرئيسى لفيروس غربى النيل. ويصاب البشر مصادفة بالمرض عندما تتدفق العدوى من مجتمعات الطيور شديدة الإصابة. وفي حديقة حيوان برونكس - على سبيل المثال - أصاب المرض أحد طيور الفلامنجو الشيلى، وصقراً أصلع، كما أصاب المرض مجموعة متنوعة من غراب البحر والنورس ومالك الحزين والبط البرى. وكانت الرسالة الموجهة للجمهور عند انتشار المرض سنة ١٩٩٩ هي تحاشي اللسع. وبينما أسرع أبناء هوليوود بإنزال أكمامهم المشمرة وتغطية كواحلهم، كان رد فعل المدينة تجاه ذلك هو بدء رش مبيدات الحشرات على الأرض وفي الهواء، للحد من كثافة أعداد البعوض البالغ. وتقبل كل من الجمهور والساسة على السواء ذلك الخيار الكيميائى بطيب خاطر. وكانت المعايير التي ذكرها همفريز لتوجيه رد مقبول لهجمات البعوض المفاجئة تحظى جميعها بالرضا. ومع نهاية العام أظهر مسح لسكان كوينز أن واحداً من بين كل خمسة ثبت تعرضهم لفيروس غربى النيل أصابتهم حمى غير عادية في الشهور السابقة، وهي نسبة مرتفعة جداً. وكما يشير تقرير صدر مؤخراً، فإن هذه المرة التي تفشى فيها فيروس غربى النيل هي الأولى التي تكتشف في نصف الكرة الغربى. وكان المرض قد اكتشف أصلاً في منطقة غرب النيل في أوغندا سنة ١٩٣٧. وأشار التحليل الجينى لسلالة نيويورك إلى أنه قد يكون مصدرها الشرق الأوسط، إذ ربما جاءت عن طريق طائر مهاجر أو مستورد.

كل وباء في القرن التاسع عشر.
«كان يوقف القطارات ويغلق الموانئ،
ويحول دون وصول القطن إلى المحالج، ويشل
حركة السلع الأساسية من نقاط
التوزيع في المدن إلى الريف»

وبحلول عام ٢٠٠٠، كانت إدارة الصحة بنيويورك مستعدة لعودة الفيروس - وقد عاد بالفعل. ولكن في هذه المرة أصيب واحد وعشرون فقط من أبناء نيويورك بالمرض، وإن مات اثنان. وقد انتقلت بؤرة الوباء إلى جزيرة ستين، وامتد انتشار المرض إلى نيو جيرزى (ست حالات) وكونيتيكت (حالة واحدة). وربما يعكس صغر عدد الإصابات الجهود الناجحة للقضاء على البعوض. وقد بدأ الجدول الزمنى لرش المبيدات مبكراً لتقليل عدد البعوض البالغ. ولتخفيف حدة قلق الجماهير بشأن الجو المليء بالمبيدات الحشرية السامة، كانت تذاع تحذيرات مبكرة من الرش عبر شبكات الإذاعة المحلية. وبغض النظر عن سبب ضعف تفشي المرض - الذى ربما كان تغيراً طبيعياً في معدلات العدوى - فإن أحداً لا يسعه المجازفة. فقد خصصت ولاية نيويورك ٢٠ مليون دولار لأبحاث فيروس غرب النيل وبرامج القضاء عليه، وأضافت مراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها ٤ ملايين دولار أخرى إلى هذا المبلغ. كما شكلت مجموعة بحث جديدة بالقرب من ألبانى.

وبما أن الطيور هي العائل الطبيعى لفيروس غرب النيل، فإن نفوق طائر يعد نذير شؤم - فهو مؤشر على أن الفيروس قد ينتشر من جديد. فعندما يعثر على أحد الطيور وتثبت التحاليل أنه مصاب بفيروس غرب النيل، فإن المنطقة المحيطة بالموقع الذى عثر عليه فيه تصبح مركزاً لاستراتيجيات القضاء على البعوض المكثفة. وفي سنة ٢٠٠٠ اكتشفت طيور نافقة في أواخر شهر يونيو، وتلا ذلك اكتشاف بعوض حامل للفيروس في شهر يوليو.

وفي ٨ مارس من العام الماضى، استمعت إلى محاضرة ألقاها روجر ناسى عالم



البعـــــــــوض

الحشرات بمراكز مكافحة الأمراض والوقاية منها. وكان يتحدث في المؤتمر السنوى الذى تعقده الجمعية الأمريكية للقضاء على البعوض بواشنطن. وأمام تعجب الحاضرين الشديد وغضبهم الواضح، أعلن عن العثور على أول غرابين نافقين ثبتت إصابتهما بفيروس غرب النيل قبل أيام في نيو جيرزى - أحدهما في مقاطعة بيرجن في ٣٠ أبريل، والآخر في مقاطعة ميدلسيكس في ٢ مايو. وبذلك كان موسم فيروس غرب النيل قد بدأ مبكراً عن موعده. ومنذ ذلك الوقت، أبلغ عن غراب نافق في مقاطعة ويستشستر بولاية نيويورك. وتتوقع بنسلفانيا تفشى فيروس غرب النيل عبر حدود ولايتها كذلك، وهى تنفق ١١ مليون دولار على خطط الكشف عن فيروس غرب النيل والقضاء عليه. وتتضمن صحف الساحل الشرقى مقالات حول كيفية التصدى للفيروس. ولا يعرف أحد حتى الآن ما سيكون عليه حال تفشى المرض هذا العام. ولكن ينبغى اعتبار أن فيروس غرب النيل موجود داخل كل شخص على الساحل الشرقى يصاب بحمى صيفية لا يمكن تفسيرها، وخاصة إذا كان يصاحبها صداع.

[٣]

هل حان الوقت لأن نضع إكليل النصر على رأس البعوض؟ ربما لم يحن الوقت بعد، ولكن مستقبل البشر أبعد ما يمكن عن كونه مشجعاً. ولنأخذ الملاريا على سبيل المثال. فقد ألقى رونالد روس باللوم في نقل الملاريا على بعوضة Anopheles سنة ١٨٩٧، وحصل على جائزة نوبل سنة ١٩٠٢ على ما بذله من جهد. وبحلول ثلاثينيات القرن العشرين كان خبراء الملاريا البارزون يركزون على البعوضة باعتبارها هدفاً لمكافحة المرض. وحسبما يقوله سبيلمان، فإنهم «باتوا يرون البعوضة على أنها عدو رهيب ولكن تسهل مقاومته وينبغى إخضاعه لحرب شاملة».

إلا أن سياسات الصحة العامة التى لا تبدى أى قدر من التسامح مع البعوض - حيث كانت الأداة الرئيسية هى مبيد الـ «دى دى تى» الحشرى - منيت بالفشل. وتعلم سبيلمان من تجربة العمل مع هيئة وادى تينيسى في الخمسينيات أن «التطور الاقتصادى، وخاصة التحسينات في المجتمعات الريفية، كانت أهم شىء بالنسبة لدائرة الثروة والصحية الإيجابية». وكانت البعوضة هدفاً في منتهى البساطة:

الواقع أن البعوضة حشرة وخطر يقتضيان من الناس تجهيز دفاع دائم ومتقدم، بل واستراتيجى. ويجب أن تقاس الرغبة في سحق العدو بالمعرفة التى يمكنها - في حالة سلاح مثل الدى دى تى - أن تمضى إلى ما هو أكثر من ذلك بكثير.

وقد شهدت تسعينيات القرن العشرين عودة التفاؤل إلى برامج مكافحة الملاريا. ففى مواجهة معدل وفيات سنوى بلغ مليون شخص، إلى جانب ثلاثمائة مليون حالة إصابة حادة جديدة في كل عام، بدأت مديرة عام منظمة الصحة العالمية جرو هارلم برونتلاند «حملة دحر الملاريا» سنة ١٩٩٨ ونجد أن هدفها أكثر تواضعاً من الهدف الأسبق الذى يبتغى القضاء عليها قضاء مبرماً - فهى تهدف إلى تقليل عبء الملاريا إلى النصف بحلول عام ٢٠١٠ وسيكون ذلك أمراً في غاية الصعوبة. فتسعون بالمائة من الوفيات تقع في أفريقيا، ولذلك يعد التزام الدول الأفريقية شرطًا أساسيًا من شروط النجاح. وقد وقعت أربع وأربعون حكومة أفريقية على إعلان أبوجا لسنة ٢٠٠٠ وهو يدعو إلى بذل جهود جديدة لتعزيز الأنظمة الصحية، وبالتالى مساعدة مبادرات مكافحة الملاريا، مثل العلاج بالعقاقير، وتوفير الشبكات (الناموسيات) المشبعة بمبيدات الحشرات، وغيرها من الإجراءات الوقائية.

وقد جُعل يوم ٢٥ أبريل ٢٠٠١ «اليوم الأفريقى للملاريا» لتجديد وعود العام السابق. والدلائل مشجعة بالنسبة لهذا الجهد الكونى المتجدد. ولكن الغرور أقرب مما نتصور. وحذر سبيلمان منذ حوالى عشر سنوات من أن «الحلول الكونية» التى تتسم بالعظمة «غالباً ما تكون هى الأكثر خطورة».

هناك متغير يخرج حتى عن سيطرة منظمة الصحة العالمية - وهو التغير المناخى. ورغم عدم ثبات الرئيس بوش بشأن هذا الموضوع، فإن أنهار الجليد تتقلص، كما تذوب الأجزاء التى تحت الأرض التى ظلت على تجمدها منذ عهود سحيقة في منطقة القطب الشمالى، في الوقت الذى تخف فيه طبقة الثلج في القارة القطبية الجنوبية، ويميل سطح الأرض إلى الدفء، وترتفع درجة حرارة المحيطات. ومن الواضح أن المناخ يؤثر على الملاريا، إلى جانب العديد من الأمراض الأخرى التى ينقلها البعوض. فدرجات الحرارة المرتفعة تدعم دورة حياة الملاريا. كما أن كمية الأمطار وكثافتها وتوقيتها يؤثر على أماكن التوالد. وتشكل الرطوبة سلوك البعوض. كما أن الريح القوية تمنع البعوض من اللسع. وليس مستغرباً أن يتوقع بعض العلماء تفاقم خطر الأمراض «التى ينقلها ناقل» كالملاريا مع تسارع ارتفاع درجة حرارة الأرض. ولكن هل ترتكز هذه المزاعم على شىء؟

يصف عالم الحشرات الأمريكى المحترم بول راينر التنبؤات التى من هذا القبيل بأن «ليس لها ما يبررها». وقد انتهت مراجعة على المستوى الفيدرالى للتغير المناخى والصحة إلى أن «مستويات الشك تحول دون أى بيان حاسم بشأن اتجاه التغير المحتمل حدوثه في المستقبل... ويتمتع معظم سكان الولايات المتحدة بحماية من النتائج الصحية العكسية المرتبطة بالطقس». إلا أن عالمى الحيوان ديفيد روجرز وسارة راندولف يريان، من خلال دراسة أجرياها مؤخراً عن كيفية تأثر الملاريا بارتفاع درجة حرارة الأرض، أن هناك تغيراً، وإن كان صغيراً، في التوزيع المحتمل للملاريا. وربما تكون الملاريا بحلول عام ٢٠٥٠ قد انتشرت شمالاً إلى جنوبى الولايات المتحدة، وجنوباً إلى البرازيل، وغرباً إلى الصين، التى تعبرها إلى وسط آسيا. وربما شجع انتقال الملاريا كذلك تذبذب النينو الجنوبى، وهو تغير موسمى في درجة حرارة المحيط الهادئ يحدث كل عامين إلى سبعة أعوام. وقد أصدرت الحكومة البريطانية تحذيراً هذا العام من أن الملاريا قد تعود إلى الأراضى الإنجليزية بحلول عام ٢٠٢٠. ومن المتوقع كذلك تعرض حمى الدنج - وهى من بين الأمراض التى ينقلها البعوض - حياة ٤,١ مليار شخص للخطر بحلول عام ٢٠٥٥. في حين يبلغ عدد المعرضين للإصابة بالمرض في الوقت الراهن ٥,١ مليار شخص.

ما هى إذن الإجراءات الجديدة التى قد تتخذ لمنع تعدى البعوض على صحة البشر؟ لا شك في أن هناك الكثير من التأكيد على الجينوم. ففى مارس ٢٠٠١ اجتمعت مجموعة علماء من أنحاء العالم في باريس للاتفاق على مبادئ تتابع جينوم بعوضة Anopheles gambiae، وهو أهم ناقل للملاريا في جنوب الصحراء الكبرى بأفريقيا. وهناك أمل في أن يوفر تتابع الحمض النووى لهذه البعوضة - الذى يبلغ طوله طول كروموسوم بشرى كبير تقريباً - إمكانيات جديدة لتحييد طفيل الملاريا المقاوم بشدة للعقاقير والمبيدات الحشرية. ومن المتوقع أن تصدر مسودة للجينوم في نهاية العام الحالى. كما يجرى التخطيط لإجراء مشروع بحثى مشابه من أجل جينوم بعوضة Aedes aegypti.

منذ عام ١٩٨٣ والحمى الصفراء تتجاهل جهود هؤلاء العلماء. فالفيروس مستوطن في تسع من دول أمريكا الجنوبية، بما في ذلك جزء كبير من البرازيل وفنزويلا وكولومبيا وبيرو وبوليفيا. ولا يزال الخطر قائماً. فأوبئة الحمى الصفراء تتفشى بصورة أكبر وأعداد البعوض في ازدياد

وسبيلمان ليس مبهوراً بصورة خاصة بهذه المبادرات. فهو كعالم حشرات، له خبرته الطويلة وتعلم مهنته في البرك الملحية وعلى الجزر الغريبة وليس في المعامل، يقول:

لمدة عشرين سنة تقريباً، كان لمن وضعوا أجندة التمويل العلمى وجهة نظر متفائلة بشأن العقبات الضخمة التى تقف في وجه المقاربة الجينية للبعوض الحامل للمرض. فقد شعروا أن قوة العلم الحديث لا حد لها. إلا أن ممارسة البيولوجيا الجزيئية مثيرة إلى حد كبير، وتنطوى على تجارب عبقرية تعتمد على التكنولوجيا، حتى لتكاد تبدو في بعض الأحيان ضرباً من السحر. إلا أن العمل المعملى يميل إلى تبسيط الأمور.

وبذلك فإنه في الوقت الذى يؤيد فيه سبيلمان البرامج الواقعية مثل «ادحروا الملاريا»، فإنه يرغب في التخطيط لـ «علاج دائم» فيما بعد ٢٠١٠. وسوف تكمن الحلول في القضاء على الفقر وتشجيع التطور الذكى - في مجالات التعليم والرعاية الصحية الأولية والإسكان والطرق. وفى النهاية نصل إلى «العلاقة» التى تربطنا بالبعوض. ومفتاح هذه العلاقة «هو ضرورة معرفتها معرفة جيدة». والبحث له أهميته، إلا أنه لا بد أن يستهدف «إحداث تغيرات أساسية في العلاقة بين البشر والبعوض». وجاء على لسان سبيلمان في بحث كتبه سنة ١٩٩٤: «ينبغى على الجهود التى تستهدف القضاء على العدوى التى يحملها ناقل للمرض أو احتواءها أن تختار اتجاهات البحث على أساس صلاحيتها للصحة لا على أساس الفرصة التكنولوجية». وهو يقول في كتابه الجديد إن الإجراءات البسيطة تحقق نتائج طيبة، مثل التعرف بسرعة على أى تفش جديد للعدوى التى ينقلها البعوض وتشخيصها. ولا بد أن تشكل الأساس بالنسبة لأية استراتيجية صحة عامة ناجحة.

وربما اتفق رونالد روس مع ما يقوله سبيلمان. فمنذ مائة سنة كتب روس:

بطبيعة الحال هناك رغبة شديدة لعمل أكثر ما يمكن من الأبحاث النظرية عن نظرية البعوض، ولكن يجب ألا ننسى أنه بينما نضع في اعتبارنا التفاصيل الأكاديمية تضيع دائماً حياة كثيرين لها قيمتها، وأن بحوزتنا ما يكفى من الحقائق لوضع أساس للإجراء العملى....والواجب...وهو واجب حكومات المناطق الموبوءة بالملاريا.

ومع إعلان الأمم المتحدة الأخير الخاص بتخصيص ما بين ٧ إلى ١٠ مليارات دولار أمريكى من ميزانية الصحة الكونية لمكافحة مرض نقص المناعة - الإيدز وغيره من الأمراض التى تنتقل بالعدوى، ومنها الملاريا، فإن هذا الدرس يعد تذكرة جاءت في وقتها بالتحدى العاجل الذى ينتظرنا. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة: أحمد محمود

لا إمـــــارة لأحـــــد.. شـــعـــار

■■ هناك تسميات تطلق على جماعات معينة فتلتصق بها وتصبح علما عليها دون أن تكون هي الاسم الذي اختارته أو ارتضته لنفسها. وقد يعجبها الاسم أحيانا!

أكثر هذه الأسماء وأشهرها في صحافتنا الأسماء التي تطلق على فرق لاعبي الكرة: الدراويش، والشواكيش، والشياطين الحمر! وهناك أسماء أقل شهرة مثل نواب القروض، ومحاكمة الشواذ، وعبدة الشيطان! ولا أعتقد أن أحدا من المتهمين في تلك القضايا يقبل أن يصف نفسه بأنه «شاذ» أو أنه «يعبد الشيطان»!

من نوع هذه التسميات التسمية التي تطلق على حزب سياسي أو مجموعة تشتغل بالنشاط العام. فهل يمكن أن يقبل أحد أن يوصف بأن مذهبه هو الفوضى وأنه من أنصار «الفوضوية»؟ وجهت لنفسي هذا السؤال وأنا أقرأ مقالا في مجلة اليسار الجديد بعنوان The new anarchists أي إذا أخذنا بالترجمات الرائجة فهي تعني «الفوضويون الجدد». ولكني سألت نفسي: لعل في الأمر خطأ في الترجمة ؟ رجعت إلى القواميس، إلى النفيس،

إن عبارة «حركة مناهضة العولمة» هي من صياغة الميديا الأمريكية ولم يرتح لها الناشطون في هذا المجال في أي وقت. وإذا كانت هذه الحركة مناهضة لأي شيء، فهي تناهض الدعوة الإصلاحية الجديدة التي يمكن وصفها بأنها دعوة لمبادئ السوق. أو بالأصح استالينية السوق. التي ترى أنه ليس هناك غير اتجاه واحد للتطور التاريخي للبشر

أســـعـــد حـــلـــيـــم

الإصلاحات التي تأتي من أعلى لا قيمة لها ولا غرض منها سوى التمكين لسيطرة الفئة الحاكمة التي بيدها مقاليد الدولة، في حين يرى كارل ماركس أن تكون الدولة - التي دار في إطارها الصراع بينهما - منظمة جهادية صلبة تخضع لسيطرة وتوجيه مركزيين وتقود الصراع على الصعيد العالمي، ويرى أن فكرة التلقائية في العمل والمجتمعات المحلية الصغيرة فكرة خيالية لا مكان لها في العالم الحديث بأوضاعه الراهنة، وبخاصة أن الاتجاه العام للتاريخ يؤدي إلى زيادة المركزية، حيث إن تقدم أساليب الإنتاج يعمل على زيادة تجمع الناس في المراكز الصناعية الكبرى وتشابك العلاقات الاجتماعية بصورة تجعل المجتمع القائم على الكميونات الحرة والتي لا تخضع لأي توجيه مركزي حلما أقرب إلى الأوهام منه إلى الواقع في المراحل الأولى للتحول الاشتراكي على الأقل. (راجع مجلة الكاتب، عدد أكتوبر ١٩٦٥).

ولكن من أين جاءت التسمية؟ وهل هو مجرد تعبير اختاره المترجمون؟ يرد على ذلك «قاموس السياسة» الصادر في مجموعة

والمختار، وغيرهما فوجدت الترجمة المقتضبة «الفوضوية» ولكن في «المورد» وجدت تفسيرا أوفى وهو: «نظرية سياسية تقول بأن جميع أشكال السلطة الحكومية غير مرغوب فيها ولا ضرورة لها البتة، وتنادي بإقامة مجتمع مرتكز على التعاون الطوعي بين الأفراد والجماعات». وانتقلت منه إلى «موسوعة علم الإنسان» (د. محمد الجوهري) «تتسم الفوضوية كفلسفة سياسية برفضها للدولة التي تعتبرها شرا في جوهرها. ويرى الجناح اليميني من الفوضويين أن يحل المشروع الحر محل الدولة ليؤدي وظائفها في إطار الملكية الخاصة والحرية الفردية. أما الجناح اليساري فيحبذ الكيانات الجماعية بديلا عن الدولة». ثم انتقلت إلى «معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية» (د. أحمد زكي بدوي) فكان الشرح أكثر تفصيلاً وهو «مذهب ينادي بإلغاء الرقابة السياسية داخل المجتمع مقررا أن الدولة أكبر أعداء الفرد، وأن في إلغائها قضاء على الآفات والشرور، ويرى أن العلم والعقل هما المعول عليهما في إرشاد الناس. ويرى بعض الفوضويين أن الانتقال إلى المجتمع الفوضوي يجب أن يتم بطريقة تدريجية وسلمية، في حين أن بعضا آخر منهم يرى أن الانتقال إلى هذا المجتمع يجب أن يتم طفرة واحدة عن طريق الثورة. والثورات الطلابية التي انفجرت في أواخر الستينات كانت أحدث تعبير عن الفوضوية التي انتشرت في مختلف العواصم الأوروبية معبرة عن اليسار الذي يستنكر في كفاحه البرجوازية المضمحلة كما يستنكر أيضًا الماركسية المتجمدة مطالبا بتصفية الدولة وتنظيماتها. والفوضوية قد تكون فردية فلا يكون من شأنها الإخلال بنظام الملكية الخاصة، على حين أن الفوضوية الشيوعية تستبدل بالملكية الخاصة نظاما لملكية الجماعة دون تدخل من الدولة السياسية».

ويقول الباحث السياسي عبد الكريم أحمد «إن تعبير الفوضوية من أكثر التعبيرات المذهبية التي أسيء فهمها وأسيء استخدامها، بحيث إننا قل أن نجد حتى بين المتصلين بهذه الموضوعات من يعطينا صورة واضحة عنه، ولعل السبب الأول في ذلك راجع إلى أن الفوضوية ليست في الواقع مذهبا محدد المعالم مثل الماركسية، بل هي مجموعة من الاتجاهات أساسها مبدأ الحرية باعتباره الهدف الإنساني الأسمى».

وهي ليست مبدأ حديثا بأي حال، فقد عرضه في عهد الإغريق زينو، منشئ المدرسة الرواقية، معارضا به شيوعية أفلاطون والتي تحتل فيها الدولة المركز الرئيسي. كما تناولها بعد ذلك عدد من المفكرين الأوروبيين في فترات متقطعة. أما في العصر الحديث فلعل برودون كان أول من استعمل اللفظ بمعناه المتطور، وحاول أن يجعل من الفوضوية حركة جماهيرية واعية.

ثم جاء ميشيل باكونين، وهو نبيل روسي الأصل، فاعتنق الفوضوية وأخذت على يديه صورتها الجماعية التي تقوم على إلغاء الملكية الخاصة وتحولت إلى مذهب شامل يقوم على ثلاثة أسس:

* إلغاء السيطرة المركزية من أي نوع من الأنظمة التي تقوم على هذه السيطرة مثل الدولة والملكية الخاصة والكنيسة.

* التعاون التلقائي الحر بين الناس كأساس للنشاط الاجتماعي.

* تنظيم المجتمعات البشرية الصغيرة على أساس فيدرالي.

وقد هاجم باكونين بقسوة شرور الملكية الخاصة ومساوئ المنافسة بين الناس، واعتبر الدولة الأداة الكبرى لتضليل الشعوب، خلقها فريق من الناس للسيطرة بواسطتها على الآخرين.

وكان هجوم باكونين على الدولة والسلطة المركزية في جميع صورها هو نقطة الخلاف الرئيسية بينه وبين كارل ماركس، وإذا كان باكونين يرى أن الدولة ليست ضرورية في أي مرحلة من مراحل التكوين الاجتماعي، فهي نظام يقوم على الإكراه في حين أن الإنسان بطبيعته اجتماعي ولا داعي لأنظمة ترغمه على التعاون مع غيره من الناس، فهم لو تركوا أحرارا سيتعاونون من تلقاء أنفسهم على ما فيه خيرهم فرادى ومجتمعين بدون تنظيم يُفرض عليهم من أعلى، بل إن جميع

بنجوين باللغة الإنجليزية، يقول إن العبارة مأخوذة من كلمة يونانية هي anarchia بمعنى «لا سلطان لأحد» أو بالتعبيرات الرائجة اليوم «لا إمارة لأحد!». ويضيف قاموس بنجوين حقيقة لم أكن أعرفها وهي أن ليو تولستوي، الأديب الروسي الكبير كان من أتباع الفرع المتدين لهذا المذهب وأنه قال إن وجود الدولة لا يتفق مع المسيحية، وأن الحب هو الذي يجب أن يسود، وأن على الناس أن يرفضوا أداء الخدمة العسكرية، أو أن يدفعوا الضرائب. ويمضي القاموس فيقول إن مبادئ تولستوي في عدم العنف وعدم التعاون هي التي أخذ بها في الهند المهاتما غاندي. وأنه قد عقدت مؤتمرات دولية لهذا المذهب في ١٨٧٧ وفي ١٩٠٧ ولكنه لم ينجح في أي وقت في إنشاء هيئة مستقرة.



وبمناسبة غاندي، فإن الاتجاهات الحديثة لمبدأ «لا إمارة لأحد» تنادي بالعصيان المدني وعدم العنف، ولكنها لا تأخذ بالسياسة الغاندية، باعتبار أنها نابعة من ظروف الهند الخاصة وليس من الضروري أن تتبع في الدول الأخرى. ومن المعروف أن الغاندية كانت محل انتقاد حتى في داخل الهند نفسها، وعلى الأخص من جانب الأديب الكبير رابندرانات طاغور الذي رأى في شعار العودة إلى المغزل القديم، لصنع النسيج والملابس من أجل التحرر من إنتاج مصانع الغرب الحديثة، عودة إلى أسلوب عتيق في الإنتاج لا ضرورة له بدلا من التقدم إلى الأمام، كما رأى هؤلاء المنتقدون في تمسك غاندي بتربية عنزة والاعتماد على لبنها كغذاء فكرة لا تنشأ إلا في مجتمع زراعي وفي ظروف خاصة ويصعب تنفيذها في المدن. غير أن الموجة الجديدة تعترف بأن أصولها ليست غربية وأنها تستمد كثيرا من منابعها مما يسمى الآن «دول الجنوب».

سعى الناشطون لاسترعاء الانتباه إلى أن الرؤية النيوليبرالية للعولمة تكاد تنحصر في حركة رؤوس الأموال والسلع، وتعمل في الواقع على زيادة الحواجز في سبيل تدفق الأفراد والمعلومات والأفكار. وقد ازداد عدد حراس الحدود الأمريكيين إلى ثلاثة أمثالهم منذ توقيع اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية



عن المقال المنشور في مجلة «نيوليفت ريفيو» لدافيد جريبر بعنوان:
A Movement of Movements:
The New Anarchists

كان السؤال المهم بعد ذلك: هل وجدت جماعة تدعو إلى هذا المذهب فى مصر؟ فى حدود علمي، لم توجد جماعات كهذه. وربما كانت التسمية فى ذاتها عنصرا منفرا. ولعل أقرب تنظيم اتجه نحوها، جماعة أنشأها الصديق والزميل الصحفى الراحل فتحى الرملي (والد المؤلف المسرحي لينين الرملى). وكان ذلك فى أوائل الأربعينيات، وجعل اسمها «نحن أنفسنا». بمعنى أننا لا نتجه إلى الحكومة مطالبين بهذا الإصلاح أو ذاك، وباتخاذ هذه الخطوة أو تلك بل أن تقتصر دعوتنا على ما نستطيع أن نعمله بأيدينا، بأنفسنا. فمثلا، فى مجال الرعاية الصحية لن تستطيع المجموعة طبعا أن تنشئ مستشفى خاصا بها، ولكنها تستطيع أن تنشئ فى المستشفى القائم مجموعة (تضم تخصصات مختلفة تعمل على ضمان أن تكون الخدمة سليمة، وأن تكون النظافة سائدة، وألا يفقد الفقراء والمستضعفون حقوقهم. وفى مجال التعليم، لن تنشئ الجمعية مدارس خاصة بها، ولكنها تنشئ مجموعة تكشف إهمال المدرسين أو قسوة النظار أو إساءة استخدام السلطة. تكشف وتفضح وتقاوم. ولكن بنفسها وليس بالرجوع إلى وزارة التربية والتعليم أو مجلس الشعب!.

وعلى ضوء هذا الفهم يصبح للمقالة المنشورة فى «اليسار الجديد» والتى نحن بصددها الآن بعض المعنى.

يقول كاتبها دافيد جريبر: يصعب أن نتصور أنه كان ثمة فى وقت من الأوقات مثل الفجوة القائمة الآن بين المفكرين والناشطين، بين من يقدمون النظريات عن الثورة ومن يمارسونها. ويبدو أن الكتاب الذين قضوا سنوات طويلة ينشرون مقالات تبدو كأنها إعلان مبادئ لحركات اجتماعية لا وجود لها فى الواقع يبدو أنهم يشعرون باحتقار شديد لتلك التحركات التى بدأت تظهر فى كل مكان. وهو موقف مؤسف بوجه خاص تجاه حركة مناهضة العولمة، وهى الحركة التى تمكنت خلال سنتين اثنتين من إحداث تغيير تام فى القدرات التاريخية للملايين من الناس فى كل أنحاء العالم. وقد يكون موقف المثقفين هذا راجعا إلى مجرد الجهل. أو تنشأ من الاعتماد على ما يمكن استخلاصه من مصادر معادية عداء صريحا مثل النيويورك تايمز. بل إن معظم ما ينشر فى المنافذ التقدمية يبدو بعيدا عن جوهر الموضوع - أو أنه على الأقل لا ينصب على ما يعتقد المشاركون فى الحركة أنه جدير حقا بالاهتمام.

وإنى بوصفى باحثا انثروبولوجيا ومشاركا بصورة إيجابية - ولاسيما فى الجانب العملى للحركة - لعلى أستطيع توضيح بعض النقاط التى يساء فهمها. ولكن هذا التوضيح قد لا يلقى ترحيبا من بعض الدوائر وأعتقد أن التردد فى قبول هذه الأفكار يرجع إلى أن بعض من كانوا يعتقدون أنهم من دعاة التغيير الجذرى لا يزيدون فى الواقع عن أن يكونوا دعاة للإصلاح. ينصب اهتمامهم على توسيع الحريات الفردية وتحقيق العدالة الاجتماعية، ولكن بوسائل لا تمثل تحديًا حقيقيًا للمؤسسات السائدة مثل رأس المال أو الدولة. بل إن كثيرين ممن يرغبون فى حدوث تغيير جذرى قد لا يرتاحون لقبول حقيقة أن معظم الطاقة الإبداعية من أجل التغيير السياسى الجذرى يأتى الآن من جانب حركة «لا إمارة لأحد» - وتلك حقيقة كانت تنكر فى الماضى - وأن أخذ هذه الحركة مأخذ الجد سوف يعنى بالضرورى احترامها والانضمام إليها.

وإنى أكتب بوصفى من دعاة «لا إمارة لأحد». ولكنى أعتقد أن إحصاء عدد المنتمين إلى الحركة والذين يطلقون هذا الوصف على أنفسهم صادقين، أمر قليل الأهمية. ففكرة «العمل المباشر» نفسها. ورفض السياسات التى تدعو الحكومات إلى تغيير مسلكها. وتؤيد التدخل المادى لمناهضة سلطة الدولة بطريقة تطرح بذاتها بديلا - كل ذلك ينبع مباشرة من التراث التحررى. و «لا إمارة لأحد» هى قلب الحركة، هى روحها. وهى مصدرها الجديد والذى يبعث الأمل فيها. ولذا سأحاول فى الفقرات التالية أن أوضح ما يبدو لى أنه الأخطاء الثلاثة الرئيسية فى فهم الحركة وهى: ما يقال عن مناهضتنا لشيء يسمى «العولمة». وما يقال من أننا نمارس العنف. وما يقال من أننا نفتقر إلى أيديولوجية متماسكة. وبعد ذلك سأبين كيف يستطيع المفكرون من دعاة التغيير أن يعيدوا تشكيل ممارساتهم النظرية على ضوء هذا كله.

الفوضيين الجُدد!

هل نؤيد حركة العولمة؟

إن عبارة «حركة مناهضة العولمة» هى من صياغة الميديا الأمريكية ولم يرتح لها الناشطون فى هذا المجال فى أى وقت. وإذا كانت هذه الحركة مناهضة لأى شيء، فهى تناهض الدعوة الإصلاحية الجديدة التى يمكن وصفها بأنها دعوة لمبادئ السوق - أو بالأصح استالينية السوق - التى ترى أنه ليس هناك غير اتجاه واحد للتطور التاريخى للبشر. وهذه الصورة تحملها نخبة من رجال الاقتصاد وخدم الشركات، الذين يطالبون أن تسلم لهم كل السلطة التى كانت ترجع فى وقت من الأوقات إلى مؤسسات لديها قدر من الخضوع للمساءلة الديمقراطية، أما من الآن فصاعدا فإنها ستمارس سلطتها من خلال تنظيمات غير منتخبة مثل صندوق النقد الدولى ومنظمة التجارة العالمية ومنطقة التجارة الحرة فى أمريكا الشمالية. وفى الأرجنتين أو استونيا أو تايوان يمكن للبعض أن يقولوا مباشرة «نحن حركة تناهض الدعوات الإصلاحية الجديدة» ولكن فى الولايات المتحدة تثير اللغة دائما مشكلات. فالميديا التجارية هنا ربما تكون أكثر أشكال الميديا جمودا وتعصبا فوق هذا الكوكب. ولذا فإن بعض الألفاظ لا يمكن أن تستخدم. ولا تثار القضايا المتعلقة بها إلا بعبارات غامضة مثل «التجارة الحرة» أو «السوق الحرة». ويواجه الناشطون الأمريكيون وضعا محيرا: فإذا رأى أحدهم استخدام عبارة «الفوضوية» سرعان ما تنطلق أصوات التحذير والإنذار. وبذلت محاولات كثيرة للعثور على تعبيرات بديلة، فيقال إننا «حركة للعدالة العالمية» حركة أو ضد عولمة رأس المال. ولكن ليس بينها تعبير مناسب ولذا أصبح من المألوف فى الاجتماعات أن نسمع المتكلمين يستخدمون «حركة العولمة» و«حركة مناهضة العولمة» كما لو كانا مترادفين.



ومع ذلك فإن تعبير «حركة العولمة» صالح للاستعمال فى هذا المجال. فإذا اعتبرنا أن العولمة تعنى إلغاء الحدود والانتقال الحر للأشخاص والممتلكات والأفكار، يكون من الواضح أن هذه الحركة



ليست فقط من نتاج العولمة بل إن معظم الجماعات المشاركة فيها - وأكثرها تطرفا على الأخص - تؤيد بقوة العولمة عموما بأكثر مما يؤيدها صندوق النقد الدولي أو منظمة التجارة العالمية. وقد كانت الشبكة العالمية المسماة «العمل الشعبي العالمي» مثلا هي التي أصدرت أول النداءات لتنظيم أيام للعمل على نطاق العالم، وكان من بينها الدعوة الأصلية للاحتجاج على اجتماعات منظمة التجارة العالمية في سياتل في ١٩٩٩. وهناك حركة مماثلة نشأت من «اللقاء الدولي من أجل الإنسانية» الذي عقد في أوحال الغابات في الموسم المطير في شياباس في أغسطس ١٩٩٦ والذي دعي إليه - كما يقول الجاويش ماركوس - «كل الساخطين في أنحاء العالم». وقد جاء أناس من أكثر من ٥٠ بلدا يتدفقون على قرية رياليداد التي يسيطر عليها أنصار زاباتا وأرسيت فيها الرؤية المتعلقة بشبكة عالمية للمقاومة في الإعلان الثاني لرياليداد: «إننا نعلن أننا سننشئ شبكة جماعية لكفاحنا ومقاومتنا، شبكة دولية للكفاح ضد الليبرالية الجديدة، شبكة دولية للمقاومة من أجل الإنسانية».

وقد وقعت حادثة تحتل مركزا رئيسيا في تجدد حركة «لا إمارة لأحد» في السنوات الأخيرة تسمى حادثة «شياباس». فأين موقع شياباس هذه على الخريطة؟ إنها ولاية في جنوب المكسيك، وهي أفقر الولايات، ونسبة كبيرة من سكانها هم من أبناء الأمريكيين الأصليين (الذين يسمونهم في الشمال الهنود الحمر) ويبلغ تعداد سكانها ثلاثة ملايين حوالي نصفهم من فئة المايا. وفي المجموع يوجد من سكان المكسيك البالغ عددهم ٩٢ مليونا ما يقرب من ١٠,٦ مليون من الأهالي الأصليين.

و«شياباس» منطقة زراعية. وفي سنة ١٩٩٥ قدر أن ٩٥ في المائة من سكانها يعيشون على أقل من الحد الأدنى للدخل اللازم للبقاء على قيد الحياة (وكان محددا في ذلك الوقت بمبلغ ١٥٠ دولارا في الشهر) ويقال في تفسير سوء أحوالها أن شياباس لبعدها عن العاصمة مكسيكو سيتي كانت الولاية التي طبق فيها الإصلاح الزراعي أضعف تطبيق. وعندما انتهى الإصلاح في سنة ١٩٩٢ كان نصف الأراضي في شياباس لا يزال في يد كبار الملاك.

وفي ظل هذا الواقع ظهر على المسرح «جيش زاباتيستا» للتحرر الوطني، GZLN بقيادة الجاويش ماركوس في الأول من يناير ١٩٩٤ وقد تم اختيار هذا اليوم لأهميته الرمزية لأنه كان بداية دخول اتفاقية منظمة التجارة الحرة بين المكسيك والولايات المتحدة وكندا اتفاقية (NAFTA) وقام الساخطون التابعون لهذا الجيش بالسيطرة على سبع بلديات في منطقة شياباس، ومن بينها مدينة سان كريستوبال دى لاس كازاس، مطالبين بـ «الحرية والديمقراطية والعدالة لكل المكسيكيين». وبعد أسبوعين من القتال بين هذا الجيش والجيش الوطني الذي قتل منه وفقا للتقديرات ١٥٩ من العسكريين، بينما تقدر جماعات حقوق الإنسان عدد القتلى بما يتجاوز ٤٠٠، ثم إعلان وقف إطلاق النار. وفي ٢١ فبراير ١٩٩٤ بدأت المفاوضات بين الجيش الشعبي والحكومة الفيدرالية للمرة الأولى، وتوسط بينهما قس سان كريتوبال. وفي ١٦ فبراير ١٩٩٦ تم توقيع ما سمي اتفاقات سان أندرس بشأن حقوق الأهالي الأصليين، ولكن السلطات الرسمية لم تلبث أن نقضت الاتفاق على أساس أنه يتعارض مع السياسة الوطنية. وترتبت على نقض الاتفاق خسائر فادحة، كان منها قتل ٤٥ من مؤيدي الجيش الشعبي في قرية أكتيال في يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧.



وفي مارس ١٩٩٩ اشترك ٢,٥ مليون مكسيكي في مشاورة نظمها الجيش الشعبي بشأن النص في الدستور على حماية السكان الأصليين. ولا يهدف الجيش الشعبي إلى الاستيلاء على السلطة وإنما تتركز استراتيجيته على الحصول على التأييد من المجتمع المدني المحلي والدولي من أجل نشر الديمقراطية في المجتمع المكسيكي.

وعلى امتداد أربع سنوات باتت النساء من السكان الأصليين اللاتي شردتهن «حرب منخفضة الكثافة» هن المهندسات اللاتي قمن بإحداث تغيير جوهري آخر. فبعد مذبحة النساء والأطفال في أكتيال في ٢٢ ديسمبر ١٩٩٧ قررت النساء النهوض لمقاومة وجود الجيش الحكومي. ونظرا لأنهن قد اضطررن بالفعل إلى هجر مساكنهن، عقدن العزم على عدم الدخول في اشتباكات عنيفة مرة أخرى. وقمن بدفع الجنود بأيديهن العارية إلى خارج حدود القرية. وبهذه الطريقة تمكنت النساء من التغلب على الجنود المحترفين. وقد اعتمدت قوتهن المعنوية في يناير ١٩٩٨ على ضعفهن البدني، وعلى ضآلة عددهن، ولكن أيضا على مناهضتهن للحرب. فهن «من الشعب الفقير الذي يرفض أن يتلقى المساعدة من البلد الذي سمح بحدوث مذبحة أكتيال». واكتسبت حركتهن الشهرة لأنهن مثلن تحركا وطنيا بدون أبطال وطنيين. وبتلك الأيدي العارية التي دفعت جنود الجيش إلى الوراء تحقق حلمهن في الحرية (راجع رسالة اليونسكو ٢٠٠٠).

في سنة ١٩٩٦ نظم المؤيدون الأوروبيون لقاء ثانيًا في أسبانيا، تقدمت فيه فكرة إنشاء الشبكة خطوة أخرى، وتم تنظيم اللقاء في اجتماع عقد في جنيف في فبراير ١٩٩٨ ومنذ البداية شمل إلى جانب أنصار «لا إمارة لأحد» والنقابيين المطالبين بالتغيير في أسبانيا وبريطانيا، ورابطة المزارعين الاشتراكيين الغانديين في الهند، وجمعيات من الصيادين في إندونيسيا وسرى لانكا، واتحاد المعلمين في الأرجنتين، وجماعات للسكان الأصليين مثل فئات الماوري من نيوزيلندا والكونا من اكوادور، و«حركة العمال المعدمين البرازيليين»، وشبكة تضم المجتمعات المحلية التي شكلها العبيد الهاربون في أمريكا الجنوبية والوسطى، والكثير غيرها. ولمدة طويلة لم تكن أمريكا الشمالية ممثلة إلا باتحاد عمال البريد المدنيين والذي كان يقوم بدور مركز الاتصال الرئيسي للحركة إلى أن حلت محله شبكة الإنترنت ومجموعة من أنصار «لا إمارة لأحد» تتخذ قاعدتها في مونتريال وتدعى (CLAC).

وإذا كانت أصول الحركة دولية، فكذلك جاءت مطالبها. فبرنامج حركة Wa Basta! (كفى) في إيطاليا دعت إلى توفير «دخل أساسي» مضمون عالميا، وجنسية عالمية، وضمان حرية الانتقال للأشخاص عبر الحدود، وحرية الحصول على أشكال التكنولوجيا الجديدة - وهذا يعني في التطبيق العملي فرض قيود جديدة على حقوق براءات الاختراع (وهي في ذاتها شكل خبيث من أشكال الحمائية). وقد نظمت شبكة اللاحدود - وشعارها «ليس هناك مساند يعتبر غير شرعي» - معسكرات استمرت أسبوعا من أجل المقاومة على الحدود البولندية الألمانية والأوكرانية، وفي صقلية، وفي منطقة كاريسا في أسبانيا. وقد ارتدى الناشطون ملابس حرس الحدود، وأنشأوا جسورا من الزوارق عبر نهر الأودر يقطعون الطريق على مطار فرانكفورت بواسطة أوركسترا كلاسيكية كاملة للاحتجاج على طرد المهاجرين (وقد مات بعض المطرودين مختنقين على طائرات لوفتهانزا و ك. ل. م.) والمقرر في صيف هذا العام أن يقام معسكر في ستراسبورج، مقر نظام شنجن للمعلومات، وهي قاعدة بيانات للبحث والسيطرة تتبعها عشرات آلاف الوحدات الطرفية عبر أوروبا، وتهدف إلى تتبع تحركات المهاجرين والناشطين وغيرهم.

وبصورة مطردة سعى الناشطون لاسترعاء الانتباه إلى أن الرؤية النيوليبرالية للعولمة تكاد تنحصر في حركة رؤوس الأموال والسلع، وتعمل في الواقع على زيادة الحواجز في سبيل تدفق الأفراد والمعلومات والأفكار - وقد ازداد عدد حراس الحدود الأمريكيين إلى ثلاثة أمثالهم منذ توقيع اتفاقية التجارة الحرة في أمريكا الشمالية. وذلك إذا تحققت حرية انتقال الأفراد فإن المشروع النيوليبرالي بأسره سوف ينهار. وهذا أمر ينبغي أن يؤخذ في الحسبان عندما يتحدث الناس عن تضاؤل نطاق السيادة في العالم المعاصر: فقد كان الإنجاز الرئيسي للدولة الأمة في القرن الماضي هو إنشاء منظومة كاملة من الحدود التي يقف عليها حراس أشداء عبر مناطق العالم، وهذا النظام الدولي للسيطرة والتحكم هو بالذات ما نقاومه باسم العولمة الحقيقية.



وقد لعبت هذه الارتباطات - والاتصالات الأوسع بين السياسات النيوليبرالية وآليات الإكراه الحكومي (الشرطة والسجون والعسكريون) دورا يزداد بروزا في دراساتنا، لأننا نحن أنفسنا واجهنا مستويات متصاعدة من القمع الحكومي. وقد أصبحت الحدود مسألة جوهرية في أوروبا أثناء عقد اجتماعات صندوق النقد الدولي، ففي براغ، وبعد ذلك عند انعقاد اجتماعات الاتحاد الأوروبي في نيس. وعند اجتماع منطقة التجارة الحرة في مدينة كيبك في الصيف الماضي تحولت الخطوط غير المرئية التي كانت تعامل في الماضي كما لو كانت غير موجودة بين عشية وضحاها إلى تحصينات ضد تحرك من قد يصبحون مواطنين عالميين يطالبون بالحق في تقديم التماسات لحكامهم. و ذلك «الجدار» الممتد ثلاثة كيلومترات والذي أنشئ في قلب مدينة كيبك لحماية رؤساء الدول الذين يقيمون الولائم وراءه وحمايتهم من الاتصال بالرعاع، أصبح هو الرمز الصادق لما تعنيه النيوليبرالية حقا بالنسبة للبشر.

غير أن هناك اختلافا كبيرا بين هذه الحركة وبين «الدوليات» السابقة. فتلك انتهى بها الأمر عادة إلى تصدير نماذج التنظيم الغربية إلى بقية العالم. أما في هذه «الدولية» فإذا كان هناك تدفق فإنه يتم في الاتجاه المعاكس. إذ إن الكثير من تقنيات الحركة، إن لم يكن كلها، بما في ذلك العصيان المدني بغير العنف ذاته قد ظهر في البداية في «الجنوب» العالمي. وقد يتبين في المدى الطويل أن هذا هو أهم شيء بالنسبة لحركتنا.

مليونيرات ومهرجون

في الميديا التجارية تستخدم كلمة «العنف» مرارا وتكرارا، كلما حدث تحرك كبير: «احتجاجات عنيفة»، «صدامات عنيفة»، «الشرطة تداهم مقر المحتجين الذين يستخدمون العنف» بل و «أعمال الشغب العنيفة» (هل هناك نوع آخر منها؟). والمعتاد أن تستخدم هذه التعبيرات عندما يكون الوصف الواضح البسيط لما حدث (أشخاص يلقون بقنابل تحمل دهانات ملونة، أو تحطيم فاترينات خالية ليست وراءها بضائع، أو إمساك الأيدي لإغلاق الشوارع، (بينما يقوم رجال الشرطة بضرب المحتجين بالهراوات)

ما يزعج السلطات على اختلافها، أيا كانت، ليس هو «العنف» الذي تمارسه الحركة المناهضة للعولمة بل افتقارها إليه، فالحكومات ببساطة لا تعرف كيف تتعامل مع حركة تعلن أنها ثورية لكنها ترفض الوقوع في الأنماط المعتادة للمقاومة المسلحة



مما يعطى الانطباع بأن الطرف الوحيد الذى يمارس العنف حقا هو الشرطة. وقد تكون الميديا الأمريكية هى أكثر من يلجأ إلى هذا الأسلوب ـ وذلك بالرغم من أنه بعد مرور سنتين من الجهاد بأسلوب العمل المباشر المتزايد كان من المتعذر تقديم مثال واحد لشخص أصابه الناشط الأمريكى بأذى بدنى. ولعلى أقول إن ما يزعج السلطات على اختلافها، أيا كانت، ليس هو «العنف» الذى تمارسه الحركة المناهضة للعولمة بل افتقارها إليه، فالحكومات ببساطة لا تعرف كيف تتعامل مع حركة تعلن أنها ثورية لكنها ترفض الوقوع فى الأنماط المعتادة للمقاومة المسلحة.

إن الجهد المبذول لتدمير النموذج القائم يراعى عادة ما يحيط به من مخاطر. وبينما كان يبدو فى وقت من الأوقات أن البديل الوحيد للمسيرات التى تحمل اللافتات هو إما العصيان المدنى الغاندى البعيد عن العنف أو العصيان الصريح. ولكن جماعات مثل «شبكة العمل المباشر» أو «منظفو الشوارع» أو «الكتلة السوداء» أو «توتى بيانكى» (ذوو الملابس البيضاء) قد سعوا جميعا ـ كل منهم بطريقته ـ إلى اكتشاف طريق جديد تماما بين بين. وهذه المجموعات تحاول أن تبتدع ما يسميه كثيرون «رؤى جديدة» للعصيان المدنى، تجمع بين عناصر من مسرح الشوارع، والمهرجانات، وما يمكن أن يسمى الحرب بلا عنف ـ بلا عنف بالمعنى الذى أخذت به مثلا حركة «الكتلة السوداء» من حيث إنها ترفض إحداث أى إيذاء بدنى مباشر لأى إنسان. وجماعة «ياباستا!» مثلا مشهورة بالأوفرولات البيضاء التى يلبسها أعضاؤها رجالا ونساء من مواد مختلفة تتراوح بين سترات من الإسفنج أو من إطارات السيارات الداخلية أو معدات السباحة أو الخوذات المضادة للمواد الكيماوية. وبينما يشق هذا الجيش الهزلى طريقه فى وسط استحكامات الشرطة يقوم كل أفراده بحماية بعضهم بعضا ومنع إيذائهم أو القبض عليهم، ويبدو أن هذه الأردية الغريبة تحول الكائنات البشرية إلى شخصيات كرتونية ـ مهوشة الصورة، وغير معتادة، وبعيدة عن العقل، ولكن من الصعب القضاء عليها. ويزيد الموقف تأثيرا عندما تقوم هذه الشخصيات بملابسها الغريبة بمهاجمة الشرطة بالبالونات الملونة أومسدسات الماء أو كما فعلت كتلة فلاى براغ وغيرها عندما ترتدى ملابس الجنيات ويداعبونهم بالمنشات المصنوعة من الريش.




وفى اجتماعات الأحزاب الأمريكية كان أصحاب الملايين المؤيدين لبوش (أو جور) والمرتدين أفخر البذلات والكرافتات والنساء المرتديات الفساتين يحاولون أن يدسوا فى جيوب رجال الشرطة رزما من النقود، ويقدمون لهم الشكر على تخويف المعارضين. ولم يصب أحد ممن قاموا بهذه التمثيلية بأبسط إصابة ـ ربما لأن رجال الشركة تلقوا علاجا يقضى بعدم إيذاء شخص يرتدى ملابس فاخرة. أما «كتلة المهرجين لرافضى السلطة الثوريين» الذين يركبون دراجات عالية ويرتدون باروكات شعر متعددة الألوان وقلنسوات تصدر عنها أصوات، فقد أربكوا الشرطة بأن كان كل منهم يهاجم الآخر (أو يهاجم المليونيرات). وكانت هتافاتهم: «الديمقراطية؟ ها ها ها!». أو «جماعات البيتزا المتحدة لا يمكن أن تهزم» أو «هاى هو، هاى هو ـ ها ها، هى هى!» أو هتافات مثل «استدعوا التعزيزات! استدعوا التعزيزات» أو الهتاف المحبب للجميع «اهتفوا بثلاث كلمات! اهتفوا بثلاث كلمات!».

وفى مدينة كيبك تم صنع مقلاع ضخم على غرار مقاليع القرون الوسطى، وكان يقذف بكرات لينة فى اتجاه المجتمعين لمناقشة قضايا منطقة التجارة الحرة. وقد تمت دراسة تقنيات الحروب العتيقة واستخلصت منها الأشكال التى لا تتسم بالعنف ولكنها أدوات مناسبة للمواجهة: استخدمت قاذفات الأحجار والنبال (الأولى من جزر البرنس ادوارد والثانية من مونتريال)، ومازال البحث مستمرا فى سواتر الحماية على الطراز الرومانى. وأصبح وضع الحواجز فى الشوارع فنا قائما بذاته: فإذا أنت صنعت شبكة هائلة من مزق النسيج عند تقاطع طريقين يصبح العبور منها متعذرا، ويسقط فيها راكبو الموتوسيكلات من الشرطة كما يتساقط الذباب. وتستطيع «عروسة الحرية» وقد فردت ذراعيها على آخرهما أن تسد طريقا سريعا يحتوى على أربع حارات، بينما تستطيع رقصات الثعبان أن تشكل عائقا متحركا. وقد قام الساخطون فى لندن فى عيد أول مايو الماضى بأعمال شبيهة بما يتم فى لعبة المونيبولى ـ وبنوا خنادق فى شارع ميسير. ونصبوا «أوكازيون القرن» فى شارع أوكسفورد، وقاموا بـ«تنسيق الحدائق الإجبارى» والذى لم يمكن إيقافه إلا بالتدخل الشديد من جانب الشرطة، كما حالت دونه الأمطار الغزيرة. ولكن حتى أشد المتحمسين ـ مثل المخربين الزائفين من «جبهة تحرير الأرض» ـ يحرصون على تجنب القيام بعمل يمكن أن يضر بالكائنات البشرية (أو حتى الحيوانات). وهذا التنويع فى الأشكال هو الذى يرهق قوات الأمن والنظام ويجعلها متشوقة لإعادة الأمور إلى طريقها المعتاد (العنف البسيط): حتى تصل، كما حدث فى جنوه، إلى حد تشجيع البلطجية الفاشيين على إحداث الشغب كمبرر لاستخدام القوة المفرطة مع كل الأطراف الأخرى.

ويمكن أن نتتبع نشاة هذه الأشكال إلى ما كانت تفعله جماعات «اللهيب» أو «هنود المتروبوليتان» فى الستينيات، أو معارك مغتصبى الأراضى فى ألمانيا أو إيطاليا فى السبعينيات والثمانينيات، أو حتى مقاومة الفلاحين لتوسيع مطار طوكيو. ولكن يبدو لى هنا أيضا أن البدايات الحاسمة كانت لدى جماعات «الزاباتستا» وغيرها من الحركات فى «الجنوب» العالمى. لأن «جيش الزاباتستا للتحرر الوطنى» يمثل محاولة من جانب الأهالى الذين حرموا دائما من حقهم فى المقاومة المدنية البعيدة عن العنف، وخاصة لكشف خداع الليبرالية الجديدة وتظاهرها بنشر الديمقراطية وإعطاء السلطة لـ«المجتمع المدنى». إنه ـ كما يقول قادة الحركة ـ جيش يتوق لئلا يغدو جيشا بعد الآن (فقد أصبح من الأسرار المكشوفة أن هذه الجماعات لم تكن تحمل بنادق خلال السنوات الخمس الأخيرة على الأقل). وقد فسر ماركوس تحولهم عن أساليب حرب العصابات المعتادة بقوله:

«لقد كنا نتصور أن الأهالى إما أنهم لن يلتفتوا إلينا أو أنهم سينضمون إلى جانبنا ليقاتلوا. ولكن الأهالى لم يفعلوا هذا ولا ذاك. فقد تبين أن كل هؤلاء الناس، الذين يعدون بالآلاف، ومئات الآلاف، وربما بالملايين، لا يريدون أن يهبوا إلى جانبنا ولكنهم... لا يريدون أن نتعرض للقضاء علينا. إنهم يريدون لنا أن نتحاور. وأدى ذلك إلى تغيير خطتنا بالكامل، وأفضى إلى تحديد معالم الزاباتزمو والنيوزابتزمو».

وكان جيش الزاباتستا ينظم «عمليات غزو» للقواعد العسكرية المكسيكية يجتاح فيها المئات من الساخطين، بدون سلاح، مرددين الصيحات ومحاولين إشعار الجنود المقيمين بالخزى والعار. وبالمثل، فإن التحركات الجماعية من جانب «حركة العمال المعدمين» تكتسب تأييدا أدبيا هائلا فى البرازيل بإعادة احتلال الأراضى غير المستغلة بدون استخدام أى قدر من العنف. ومن الواضح فى كلتا الحالتين أنه لو أن نفس الأشخاص حاولوا أن يفعلوا نفس الشىء قبل ٢٠ عاما، لأطلق عليهم الرصاص ببساطة.

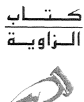
الفوضوية والسلام

أيا كانت البدايات التى تختارها للحركة فإن هذه الأساليب الجديدة تتفق تماما مع الأفكار العامة للقائمين بها، فهى لا تهدف إلى الاستيلاء على سلطة الدولة وإنما تهدف إلى فضح آليات الحكم وتعرية شرعيتها وتفكيك بنيتها واكتساب مساحات تتسع باستمرار من الاستقلال عنها. ولكن الأمر الجوهرى هو أن هذا كله لا يمكن أن يتحقق إلا فى ظل جو عام من السلام. بل ويبدو لى أن هذه هى الأغراض النهائية للنضال فى اللحظة الراهنة: وهى الأهداف التى ربما تحدد الاتجاه العام للقرن الحادى والعشرين. وينبغى أن نتذكر أنه فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، عندما كانت الأحزاب الماركسية تتحول بسرعة إلى أحزاب إصلاحية للاشتراكية الديمقراطية، كانت دعوة «لا إمارة لأحد» هى مركز اليسار الثورى. ولم يتغير الوضع حقا إلا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى وقيام الثورة الروسية. ويقال لنا عادة، إن نجاح البلاشفة هو الذى أدى إلى انهيار حركة «لا إمارة لأحد» ـ باستثناء المثال الرائع فى أسبانيا ـ ودفع بالشيوعية إلى المقدمة. ولكن يبدو لى أن المرء يمكن أن ينظر إلى الآن بطريقة أخرى. فى أواخر القرن التاسع عشر كان معظم الناس يعتقدون بصدق أن الحرب بين الدول الصناعية باتت أمرا غير متوقع. فالمغامرات الاستعمارية كانت مستمرة، ولكن نشوب حرب بين فرنسا وإنجلترا، على التراب الفرنسى أو البريطانى كان يبدو أمرا غير معقول كما هو اليوم. وبحلول عام ١٩٠٠ كان حتى استخدام جوازات السفر يعتبر إجراء همجيا فات أوانه. وعلى النقيض من ذلك كان «القرن العشرون القصير» أشد القرون عنفا فى التاريخ البشرى، حيث انشغل كله تقريبا إما بخوض الحرب أو بالإعداد لها. ولم يكن من المستغرب أن تبدو دعوة «لا إمارة لأحد» دعوة غير واقعية مادام المقياس الأخير للكفاءة السياسية هو القدرة على الاحتفاظ بآلات هائلة للقتل باستخدام الأدوات الميكانيكية. وذلك أمر لا تستطيع دعوة «لا إمارة لأحد»، بحكم تعريفها، أن تتفوق فيه. كما أنه ليس من المستغرب أن الأحزاب الماركسية ـ التى كانت على كفاءة مفرطة فى هذا المجال بدت أحزابا عملية وواقعية للغاية بالمقارنة بها. وعندما انتهت لحظة «الحرب الباردة» وعادت الحرب بين الدول الصناعية تبدو مرة أخرى أمرا مستبعدا، عادت دعوة «لا إمارة لأحد» إلى الظهور واحتلال نفس الموقع الذى كانت تحتله فى أواخر القرن التاسع عشر، باعتبارها حركة دولية فى قلب اليسار الثورى.

فإذا كان ذلك صحيحا، تغدو الأهداف النهائية للتعبئة الحالية لـ«معاداة الإرهاب» أكثر وضوحا. ففى الأمد القصير تبدو الأمور داعية للفزع الشديد. فالحكومات التى كانت تبذل قصارى جهدها بحثا عن وسيلة تقنع بها الجمهور بأننا إرهابيون حتى قبل ١١ سبتمبر تشعر الآن بأنها حصلت على «كارت بلانش». ولاشك فى أن أناسا طيبين كثيرين يوشكون أن يتعرضوا لعمليات قمع رهيبة. ولكن فى المدى الطويل تعتبر العودة إلى مستويات العنف الذى شهده القرن العشرون أمرا مستحيلا. ومن الواضح أن هجمات ١١ سبتمبر كانت ضربة حظ (فقد كانت أول

هــذه المجموعات تحاول أن تبتــدع ما يســميه كثيــرون «رؤى جــديدة» للعصيــان المدنى، تجمع بين عناصــر من مســرح الشــوارع، والمهـرجـانات، ومــا يمكن أن يســمى الحــرب بلا عنف. بلا عنف بالمعنى الذى أخـذت به مثلا حركة «الكتلة السوداء» من حيث إنها ترفض إحداث أى إيذاء بدنى مباشر لأى إنسان



كتـــاب الـزاويــة

حضارة العرب فى إسبانية

كانت إسبانية النصرانية ذات رخاء قليل وثقافة لا تلائم غير الأجلاف فى زمن ملوك القوط، ولم يكد العرب يتمون فتح إسبانية حتى بدأوا يقومون برسالة الحضارة فيها، فاستطاعوا فى أقل من قرن أن يُحيوا ميت الأرضين ويعمروا خرب المدن ويقيموا أفخم المبانى ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالأمم الأخرى، ثم شرعوا يتفرغون لدراسة العلوم والآداب ويترجمون كتب اليونان واللاتين وينشئون الجامعات التى ظلت وحدها ملجأ للثقافة فى أوروبا زمنًا طويلاً.

وأخذت حضارة العرب تنهض منذ ارتقاء عبدالرحمن إلى العرش على الخصوص، أى منذ انفصال إسبانية عن المشرق بإعلان خلافة قرطبة فى سنة ٧٥٦م، فغدت قرطبة، بالحقيقة، أرقى مدن العالم القديم مدة ثلاثة قرون.

ولم يكد عبدالرحمن يقبض على زمام الحكم فى إسبانية حتى أخذ يسعى فى حمل العرب على عد إسبانية وطنًا حقيقيًا لهم، فأنشأ جامع قرطبة الشهير الذى هو من عجائب الدنيا لتحويل أنظار العرب عن مكة، وصار يُنفق دخل بيت المال فى إصلاح البلاد وعمرانها بدلاً من إنفاقه فى الغزوات البعيدة، ثم سار خلفاؤه على سُنته فى ذلك.

وامتازت حضارة العرب فى إسبانية فى ذلك الدور بميل العرب الشديد إلى الفنون والآداب والعلوم على الخصوص، وأنشأ العرب فى كل ناحية مدارس ومكتبات ومختبرات، وترجموا كتب اليونان، ودرسوا العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والكيماوية والطبية بنجاح.




خطة إرهابية طموحة فى التاريخ يكتب لها النجاح). وانتشار الأسلحة النووية يضمن أن مناطق تزداد اتساعا من الكرة الأرضية ستصبح لكل الأغراض العملية خارج نطاق الحروب التقليدية. وإذا كانت الحرب هى عماد الدولة، فإن احتمالات التنظيم على قاعدة «لا إمارة لأحد» سوف تتحسن.

ممارســــــــــة الديمـقـراطيـة المباشـرة

من الانتقادات التى توجهها الصحف التقدمية دائما لحركة العولمة أنها، رغم بريقها التكتيكى، تفتقر إلى فكرة محورية أو أيديولوجية متماسكة (ويبدو أن هذا هو المكافئ اليسارى للميديا التجارية أننا مجموعة من الصبيان المفتونين الذين يرددون مجموعة من المطالب غير المترابطة مثل حرية الانتقال، وإلغاء الديون، وحماية الغابات). وهناك اتجاه آخر للهجوم، على أساس أن الحركة مصابة بمعارضة أساسية لكل شكل من أشكال التكوين والتنظيم. ومن المحزن أنه بعد مرور سنتين على أحداث سياتل ينبغى لى أن أقول ما سأقوله الآن: إن هذه الحركة، ولاسيما فى أمريكا الشمالية، إنما تهدف إلى إعادة اكتشاف الديمقراطية. وهى لا تعارض التنظيم. وإنما تسعى لإيجاد أشكال جديدة منه. وهى لا تفتقر إلى أيديولوجية. فهذه الأشكال الجديدة من التنظيم هى أيديولوجيتها. إنها تسعى إلى خلق وتثبيت شبكات أفقية بدلا من الهياكل التى تعتمد على السلطة من أعلى إلى أدنى مثل الدول أو الأحزاب أو الشركات. نسعى لإيجاد شبكات تعتمد على مبادئ اللامركزية، والديمقراطية القائمة على توافق الآراء. وهى ستطمح فى نهاية الأمر إلى أكثر من ذلك بكثير، لأنها تسعى إلى إعادة تشكيل الحياة اليومية بكاملها. ولكنها بخلاف أشكال كثيرة أخرى من دعوات التغيير عمدت إلى تنظيم صفوفها فى المجال السياسى - أساسا لأنه مجال تجاهلته تقريبا القوى الأخرى (التى وجهت مدفعيتها الثقيلة بكاملها إلى الاقتصاد).

وخلال العقد الماضى، بذل الناشطون فى أمريكا الشمالية جهودا إبداعية هائلة من أجل إعادة تشكيل العمليات الداخلية للمجموعات ذاتها، وإيجاد نماذج قابلة للحياة لما يمكن أن تكون عليه الديمقراطية المباشرة الناجحة. وقد استفدنا فى هذا السبيل، كما ذكرت من قبل، بنماذج من خارج التراث الغربى، وهى نماذج تعتمد فى كل الحالات تقريبا على عملية لتوافق الآراء وليست تصويتا بالأغلبية. وكانت النتيجة العثور على هيكل غنى ومتصاعد من الأدوات التنظيمية - مجالس الحوار، والتقارب، وأدوات التيسير، والخروج معا، ومراقبة الأحداث، وما إلى ذلك - فكلها ترمى إلى خلق أشكال من العمليات الديمقراطية التى تسمح للمبادرات بأن تصعد من أدنى فتحقق القدر الأقصى من التضامن الفعال، بدون إخماد الأصوات المعارضة، أو خلق مواقع قيادية، أو إلزام أى شخص بعمل أى شىء لم يقبل أن يعمله بحرية.



والفكرة الأساسية فى عملية توافق الآراء أنه بدلا من التصويت فإنك تحاول أن تصل إلى اقتراحات يقبلها الجميع - أو على الأقل ليست موضع معارضة شديدة من أحد: فأنت تبدأ أولا بشرح الاقتراح، ثم تسأل عما إذا كانت هناك مخاوف أو مشاغل وتحاول أن تعالجها. والمعتاد عند هذه النقطة أن يقدم أعضاء المجموعة اقتراحات بـ«تعديلات ودية» ويضيفون إلى الاقتراح الأصلى، أو يقومون بتعديله، لضمان معالجة الشواغل. ثم فى النهاية، عندما تطلب توافق الآراء، تسأل عما إذا كان أحد يرغب فى «منع» الاقتراح أو أن «يقف جانبا». ويكون الوقوف جانبا بأن يقول «إنى لن أكون مستعدا للمشاركة فى هذا العمل، ولكنى لا أمنع أحدا من القيام به». أما المنع فيكون بأن يقول «أعتقد أن هذا يتعارض مع المبادئ الأساسية أو الأغراض الأساسية للانضمام إلى الجماعة». ويكون ذلك بمثابة فيتو: ويستطيع أى شخص واحد أن يوقف الاقتراح تماما بالاعتراض عليه - وإن كانت هناك وسائل للتأكد مما إذا كان الاعتراض يستند إلى المبادئ حقًا.

وهناك أشكال مختلفة من المجموعات. فمجالس المتكلمين Spokescouncils مثلا هى اجتماعات كبيرة تنسق بين «جماعات التقارب» الأصغر حجما. وهى تعقد عادة قبل وأثناء الأعمال المباشرة الكبيرة مثل سياتل أو كيبك. وتقوم كل جماعة تقارب (التى تضم ما بين ٤ و ٢٠ عضوًا) باختيار «متحدث» له القدرة على الكلام نيابة عنها فى المجموعة الأوسع. وليس لغير المتحدثين أن يشاركوا فى العملية الفعلية للسعى إلى توافق الآراء فى المجلس، ولكن قبل اتخاذ القرارات الكبرى فإنهم يرجعون إلى مجموعات التقارب مرة أخرى،



ليـس بيننـا من يعـرف إلى أى مـدى ستأخذنا هـذه المبـادئ، ولا كيف سـيبدو المجتمــع المركب المعتمـد عليهـا. وتتلخـص هـذه المبـادئ فى مناهضـة التسـلط





فتصل كل مجموعة إلى توافق فى الآراء بشأن الموقف الذى تريد المتكلم باسمها أن يتخذه. وعمليات التجزئة break - outs من ناحية أخرى تجرى عندما ينقسم اجتماع كبير مؤقتًا إلى مجموعات صغيرة ينصب اهتمامها على اتخاذ القرارات أو تقديم اقتراحات، ويمكن عندئذ أن تطرح للموافقة عليها أمام المجموعة بكاملها عند اجتماعها. وتستخدم أدوات التيسير facil-itation tools لتسوية المشكلات أو لدفع الأمور عندما يبدو أنها تتعثر. وعند ذلك يمكنك أن تدعو لعقد جلسة لتقديم الأفكار brain-storming والتى لا يسمح للأفراد فيها إلا بتقديم أفكار ولكن دون انتقاد الأفراد الآخرين، أو يجرون اقتراعا غير ملزم حيث يرفع الأشخاص أيديهم لمجرد معرفة الاتجاهات بشأن أحد الاقتراحات وليس بغرض اتخاذ قرار. أما ما يسمى «حوض السمك» fishbowl فيستخدم عند وجود خلاف عميق فى الرأى عند ذلك تقوم المجموعة باختيار اثنين يمثلان كل جانب - أحدهما رجل والآخر امرأة - وتطلب منهم أن يجلسوا فى الوسط، والجميع يحيطون بهم ساكتين، ويرون ما إذا كان الأربعة يستطيعون الوصول إلى رأى موحَّد أو حل وسط، وعند ذلك يستطيعون تقديمه كاقتراح للمجموعة بكاملها.

إرهاصات سياسية

وهذا عمل مازال جاريا، وخلق ثقافة الديمقراطية بين الناس ذوى الخبرة المحدودة فى هذه الأمور يكون بالضرورة مؤلما وشاقا، وحافلا بكل أنواع العثرات والبدايات الخاطئة. ولكن - كما يمكن أن يشهد أى ضابط شرطة واجهنا فى الشوارع - فإن الديمقراطية المباشرة من هذا النوع يمكن أن تحقق نتائج مدهشة. ويصعب أن تجد شخصا شارك فى عمل كهذا مشاركة كاملة ولم يطرأ تحول عميق على إمكانياته البشرية نتيجة لذلك. فإن النطق بعبارة « إقامة عالم مختلف أمر ممكن» شىء يختلف تماما عن ممارسة التغيير، ولو بصورة مؤقتة. ولعل أفضل طريقة للتفكير فى هذه التنظيمات - «شبكة العمل المباشر» مثلا - هى النظر إليها على أنها النقيض المقابل للجماعات الماركسية الحلقية، أو حتى الجماعات الفوضوية الحلقية. وبينما ينصب اهتمام «حزب» المركزية الديمقراطية على الوصول إلى تحليل نظرى كامل وسليم، ويطلب الاتفاق الأيديولوجى، ويميل إلى فرض رؤية مستقبل تتساوى فيه الحظوظ مع استخدام أشكال تسلطية للتنظيم فى الحاضر، تعلن منظماتنا صراحة أنها تبغى التنوع. ويتركز الحوار دائما على مسالك محددة للعمل: فمن المفروغ منه أنه ليس هناك من سيغير اقتناع الآخرين بالكامل. ويكون الشعار هو «إذا كنت مستعدا لأن تتصرف على أنك من أنصار (لا إمارة لأحد) الآن، فإن رؤيتك فى المدى الطويل هى أمر يخصك وحدك». وما يبدو منطقيا هو: ليس بيننا من يعرف إلى أى مدى ستأخذنا هذه المبادئ، ولا كيف سيبدو المجتمع المركب المعتمد عليها. وتتلخص أيديولوجيتها فى مبادئ مناهضة التسلط، وهى التى تعزز أعمالهم.



وفى النهاية أود أن أطرح بعض الأسئلة التى تثيرها شبكات العمل المباشر، وتأثيراتها الأوسع على الممارسة السياسية. فمثلا: لماذا، حتى عندما لا يكون هناك مؤيدون آخرون للسياسة الثورية فى مجتمع رأسمالى، تكون المجموعة الوحيدة التى يرجح أن تتعاطف مع مشروعها تتألف من الفنانين والموسيقيين والكتاب وغيرهم من المشاركين فى شكل ما من أشكال الإنتاج البعيد عن الاغتراب؟ لابد أن هناك ارتباطا بين تجربة تخيل الأشياء أولا ثم تحويلها إلى واقع، فرديا أو جماعيا، وبين القدرة على رؤية بدائل اجتماعية - ولاسيما إمكانية أن يكون المجتمع نفسه قائما على أشكال من الإبداع أقل اغترابا؟ بل وقد يرى المرء أن التحالفات الثورية تميل دائما للاعتماد على نوع من التحالف بين أقل فئات المجتمع اغترابا وأكثرها تعرضا للقمع. ومن ثم يمكن للمرء أن يقول إن الثورات الفعلية كانت تحدث عندما تتلاقى هاتان الفئتان بأوسع معانى التلاقى.

ومن شأن هذا أن يفسر لماذا كان دائما الفلاحون وأصحاب الحرف هم الذين يطيحون فعليا بالأنظمة الرأسمالية وليست تلك الفئات التى خضعت لأجيال من العمل الأجير. كما أن ذلك يفسر الأهمية الاستثنائية لنضال الشعوب الأصلية ضمن الحركة الجديدة: فهؤلاء الناس هم الأقل اغترابا وهم فى نفس الوقت أشد الفئات تعرضا للاضطهاد فوق سطح الأرض. والآن، وقد جعلت تكنولوجيا الاتصال فى الوسع إدماجهم فى مخالفات ثورية على الصعيد العالمى، وكذلك فى حركات المقاومة والتمرد المحلية، فقد أصبح من المحتم أن يلعبوا دورًا ملهمًا للآخرين. ■

التحالفات الثورية تميل للاعتماد على نوع من التحالف بين أقل فئات المجتمع اغترابا وأكثرها تعرضا للقمع. ومن ثم يمكن القول إن الثورات تحدث عندما تتلاقى هاتان الفئتان





تأثير الدين فى المسلمين

القرآن دستور مكتوب، ويوجد فرق بين التعاليم المكتوبة والعمل بها فى الغالب، وإذا ما أراد الإنسان أن يعلم أهمية هذه التعاليم وَجَب عليه أن يدرس درجة تأثيرها فى الحياة، وحدود هذا التأثير هو الذى تُهِمُّ معرفته إذن، وهذا لا نستطيعه إلا بالدخول فيما لم نأته حتى الآن من التفصيل.

تأثير دين محمد فى النفوس أعظم من تأثير أى دين آخر، ولاتزال العروق المختلفة التى اتخذت القرآن مرشدًا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنًا، أجَل، قد تجد بين المسلمين عددًا قليلاً من الزنادقة والأخلياء، ولكن لن ترى من يجرؤ منهم على انتهاك حُرمة الإسلام فى عدم الامتثال لتعاليمه الأساسية كالصلاة فى المساجد وصوم رمضان الذى يراعى جميع المسلمين أحكامه بدقة مع ما فى هذه الأحكام من صرامة لا تجد مثلها فى صوم الأربعين الذى يقوم به بعض النصارى، كما شاهدت ذلك فى جميع الأقطار الإسلامية التى زُرتها فى آسيا وأفريقية، ومن ذلك أن أتيح لى أن أركب سفينة نيلية كان فيها أفراد عصابة عربية مُقَرَّنين فى الأصفاد ومتهمين بأنواع الجرائم، فقضيت العجب حين رأيتهم، وهم الذين خرقوا حُرمة جميع القوانين الاجتماعية مستخفين بأقسى العقوبات، لم يجرءُوا على انتهاك تعاليم النبى، حين شاهدتهم يرفعون تلك الأصفاد عنهم وقت الصلاة ليسجدوا لله القهار ويعبدوه.

وعلى من يرغب فى فهم حقيقة أمم الشرق، التى لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلاً، أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها، وللدين ذى التأثير الضئيل فينا نفوذ عظيم فيهم.



المتمـــــردون البـــــدائيــــون..

نظرة جديدة إلى ظاهرة بن لادن!

مـــاجـــدة بركـــة

[١]

■■ حرص إيريك هوبسبوم «Eric Hobsbawm»، المؤرخ البريطانى الكبير، على التفرقة فى كل كتاباته بين «الثوار Revolutionaries» من ناحية، وبين «المتمردين Rebels» من ناحية أخرى. وفى كتابه المهم «المتمردون البدائيون «Primitive Rebels» الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٥، وصدرت منه عدة طبعات حديثة، يلقى «هوبسبوم» الضوء على جانب مهم من تاريخ طويل لعمليات التمرد الاجتماعى والسياسى عبر التاريخ، قام بها من أسماهم المتمردون البدائيون».

وفى هذا الصدد، يركز «هوبسبوم» على تلك «الحركات التمردية» التى اشتد ساعدها فى البلدان الأوروبية، منذ نهاية القرن الثامن عشر، وامتدت خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، تلك الحركات التى تمت معالجتها فى الكتابات التاريخية التقليدية على أنها مجرد «هوامش Footnotes» لحركة التاريخ الرئيسية. ويرى «هوبسبوم» أن هذا نهج خاطئ ومتسرع، إذ أننا مطالبون بالدراسة المتعمقة لفهم طبيعة تلك الحركات التمردية، وأفقها السياسى والاجتماعى، وكذا إطارها التاريخى. ويرى «هوبسبوم» أنه قد آن الأوان لفهم طبيعة تلك الحركات الاحتجاجية، التى تعد «خارجة على القانون»، على تنوع أشكالها وأساليبها البدائية فى التمرد، وذلك لدلالتها التاريخية من ناحية وآفاقها المسدودة التى تحكم نهاياتها من ناحية أخرى.



ويفرِّق «هوبسبوم» بين نوعين من حركات التمرد التى تستخدم «العنف المسلح»، وهما نوعان على طرفى نقيض: الأول مجرد «عصابات مسلحة» تحاول أن تأخذ بالثأر من الأغنياء ورموز السلطة المحليين، فى محاولة لرد الظلم والانتقام من ممارستهم القهرية، وغالبًا ما تكون فى حالات فردية ولأسباب خاصة. والثانى حركات ذات أفق اجتماعى أكثر تطورًا، وليست مجرد أعمال ثارية ضد أفراد معينين، ويعتبر ممثلها النموذج «روبن هود»، الذى كان يعبر فى الأساس عن حركة تمرد الفلاحين فى مواجهة ظلم «السادة الإقطاعيين»، والمرابين، وغيرهم من مراكز النفوذ والسلطة الاقتصادية والاجتماعية وقمعهم لجموع الفلاحين والعاملين لديهم وتحت سلطتهم. وكما فعل «روبن هود»، وغيره من قادة «حركات التمرد» البدائية، فإنهم يعتصمون بالجبال والغابات، لكى يكونوا بعيدين عن أعين الدولة وأجهزتها البوليسية وأدواتها القمعية. وفى أحوال كثيرة، يمكن اعتبار «تنظيمات المافيا» تعبيرًا مهمًا عن تلك الحركات ذات الطابع التمردى والاحتجاجى، ولكن بشكل أكثر تنظيمًا وشبكات أكثر تعقيدًا، على صعيد عالمى، وليس محليًا فقط.

وفى بعض المواقع من الكتاب، يرى «هوبسبوم» أن العناصر التى تشكل «حركات التمرد» تنتمى إلى ما يسميه عالم «ما قبل السياسة» بمعناها الحديث والنظامى، وهو عالم تسود فيه «لغة الانتقام والثأر» الجماعية من الأغنياء والمتسلطين والمتجبرين، دون أن تكون هناك رؤية واضحة للبناء أو لإقامة نظام بديل. وفى أحوال كثيرة، تكون الدعوة السائدة فى خطاب «حركات التمرد البدائية» هى الحنين إلى «العالم القديم» حيث كان هناك مزيد من العدل والإنصاف.

ومن ناحية أخرى، فإن تلك الحركات عادة ما تتمتع بتأييد وتعاطف شعبيين من العناصر المسحوقة والمقهورة والساخطة على جميع أشكال الاستغلال الاقتصادى، والقهر الاجتماعى والمعنوى.

وهنا يرى «هوبسبوم» أنه يجب التفرقة بين «الظلم الاجتماعى والاقتصادى»، من ناحية، وبين «القهر السياسى والثقافى والمعنوى» من ناحية أخرى، وفى ضوء تلك التفرقة، نجد أن تلك الحركات الاحتجاجية لا تتمتع بدعم وتأييد العناصر الخاضعة للاستغلال والظلم الاجتماعى والاقتصادى فحسب، بل غالبًا ما تجد تأييدًا ودعمًا من الأوساط التقليدية (الريفية والتجارية) التى تحاول مقاومة «الغزو الخارجى» لأنماط حياتها ولنظام قيمها التقليدى. ولهذا نجد لديها فى كثير من الأحيان تعبيرات وصياغات «ذات طابع دينى» تختلط دومًا بالخطاب التحريضى الذى تتبناه تلك الحركات ومن يناصرها.

وفى ظل كل هذه الاعتبارات، نجد أن قادة تلك الحركات «الخارجين عن القانون» - فى أعين الدولة والسلطة - هم أبطال شعبيون (وأحيانًا أسطوريون) فى أعين عامة الفقراء والمظلومين. ويبرز هنا مرة أخرى «روبن هود» كحالة نموذج.

[٢]

وعلى المستوى التحليلى والتاريخى، يرى «هوبسبوم» أن تلك الحركات البدائية هى فى حالة تفاعل مستمر للوصول إلى درجة أعلى من النضج. إذ إن تلك الحركات البدائية للاحتجاج والتمرد أمامها طريقان: إما التحلل والهزيمة والاندحار، وبالتالى انفراط عقدها، أو تحولها التدريجى إلى حركة ثورية ذات أساليب تنظيمية أكثر رقيًا، ولها أفق سياسى واستراتيجى أكثر تقدمًا وفاعلية. وبالرغم من إمكانية تجاوز الأساليب البدائية فى المقاومة والتمرد، تظل تلك الحركات تتذبذب بين المواقف الإصلاحية التى تدعو للإصلاح والتغيير الجزئى، وبين المواقف الثورية والأكثر راديكالية التى تسعى لتغيير وزعزعة مجمل النظام السياسى والاجتماعى المحيط بها، وبإيجاز، فهناك من تلك الحركات ما يتضح ويتطور لكى يصبح حركة تمرد ثورية، ذات أفق اجتماعى وسياسى متطور (مثل حركة «إميليانو زاباتا» فى المكسيك) وهناك من يقضى نحبه فى الجبال والغابات والمرتفعات.

ويلاحظ «هوبسبوم» أن الجماعات والحركات «الفوضوية» الحديثة تحتفى بنشاط وتاريخ «حركات التمرد البدائية»، لأنها حركات يجمعها مع تراث «حركات الفوضويين» قاسم مشترك، من حيث السعى لتحطيم أركان النظام القائم ومقومات السلطة، دون امتلاك برنامج بديل للبناء والتغيير.

ويرسم «هوبسبوم» فى كتابه صورة حية لبعض قادة حركات التمرد البدائية، مستندًا إلى المادة التاريخية المتاحة منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن العشرين، لاسيما فى الجنوب الإيطالى. ويشير إلى الحماية الشعبية التى كان يتمتع بها هؤلاء القادة مما يجعل السلطات الرسمية عاجزة عن القبض عليهم أو تصفيتهم. وبالإضافة إلى ذلك، كان الجمهور المحيط بتلك الحركات يضفى أوصافًا وقدرات خارقة على بعض قادتها. إذ كان يسود الاعتقاد فى صفوف أنصار هؤلاء القادة Angiollillo (١٧٦٠ - ١٧٨٤) أنه يمتلك «خاتمًا سحريًا» يساعد على صد طلقات الرصاص الموجهة إليه، وإبعادها عن جسده! كما سادت أساطير أخرى مماثلة بخصوص شخصيات قيادية بارزة فى تاريخ العصابات المتمردة فى الريف والجبال أصبحت تاريخيًا جزءًا من الفولكلور الشعبى الذى تغنى به بسطاء الناس.

ولعل أبرز الأمثلة المحلية فى هذا المجال أسطورة «أدهم الشرقاوى» فى الريف المصرى. إذ فى الوقت الذى كانت السلطات الرسمية تعتبره مع أنصاره بمثابة «مجرمين» و«رجال خارجين عن القانون»، كان هؤلاء فى أعين الجماهير المحلية «أبطالا شعبيين» تنسج حولهم الأساطير والأهازيج الشعبية.

ويشير «هوبسبوم» إلى أن تاريخ أى قائد لعصابة متمردة أو حركة من حركات «التمرد البدائية» عادة ما يبدأ بحادثة مهمة تدفعه إلى التمرد و«الخروج على القانون»: مثل اضطهاد وقع عليه من رجال الشرطة أو أحد رجال السلطة، أو صدر حكم قاسٍ وظالم بحقه. إذ إن الشعور القوى بالظلم (وعدم العدالة) يدفع مثل هذا الشخص للتمرد والخروج على القانون، وتحدى أجهزة السلطة، واللجوء للعنف. وتشير المادة التاريخية، التى جمعها «هوبسبوم»، إلى أن معظم هؤلاء الرجال «المتمردين» يبدأون نشاطهم فى سن مبكرة، أقل من ٢٥ سنة.



[٣]

يضيف «هوبسبوم» أن قدرة تلك الجماعات على الاستمرار والبقاء تتوقف بشكل أساسى على استغلال الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تسمح بالحماية الشعبية لهم، ومدى التأييد والدعم المادى والأدبى الخفى والضمنى الذى قد يحصلون عليه من أطراف متصارعة فى إطار السلطة القائمة، أو من جانب أطراف دولية لها مصالح فى زعزعة الاستقرار وإضعاف السلطة فى أماكن تلك الاضطرابات. وفى هذا الصدد يضرب «هوبسبوم» المثل بدعم «البوربون» و«البريطانيين» للعصابات المحلية فى الجنوب الإيطالى، فى بدايات القرن الثامن عشر.

وفى أحوال كثيرة، يقوم بعض الأثرياء والوجهاء فى تلك النواحى بدفع إتاوات مالية أو عينية لقادة تلك العصابات والمجموعات المسلحة التى عادة ما تلجأ للعنف وتقوم بأعمال سلب ونهب منظمة، وذلك لإتقاء شرهم. إذ إن أنصار تلك العصابات المتمردة، يعتمدون على قدرة هذا الزعيم على تعبئة وتوفير الموارد المالية اللازمة للاستمرار فى حياتهم فى المناطق الريفية والجبلية المنعزلة البعيدة عن أية حياة اقتصادية نظامية.

لماذا نجحت حركة «فيت كونج»
(جبهة التحرير الوطنية)
فى جنوب فيتنام فى الانتصار الحاسم
فى مواجهة الآلة العسكرية الأمريكية العاتية، التى استخدمت
كل ما لديها من أسلحة فتاكة من قنابل وطائرات
وآليات على الأرض، فى مقابل فشل حركات أخرى
قامت بتحدى الجبروت الأمريكى؟!





ومما يساعد على التمتع بالحماية والدعم الشعبيين لفترات محدودة، هو ما تقوم به تلك الجماعات من سرقة ونهب أموال «الأغنياء» وتوزيع جانب من تلك الغنائم على الفقراء، وفقًا للنهج النموذج الذى سار عليه «روبن هود». ومن ناحية أخرى، فإن عناصر تلك العصابات والجماعات لا تقوم عادة بعمليات القتل لمجرد الرغبة فى القتل، بل يكون لجوؤهم لعمليات القتل «دفاعًا عن النفس»، أو «الثأر والانتقام». ونحن نجد نماذج واضحة لتلك الممارسات فى صعيد مصر. لأن «قواعد اللعبة» تقتضى عدم المساس برزق وممتلكات «الفقراء» و«المسحوقين»، وتمنع تحول «المتمرد البدائى» إلى مجرد «قاتل أو مجرم محترف». إذ إن الإخلال بتلك القواعد ينجم عنه تقويض كل مقومات «المكانة» التى يتمتع بها قادة تلك الحركات، الأمر الذى يؤدى إلى فقدان تعاطف وتأييد الأوساط الشعبية التى تدعمه وتحميه وتخفيه عن أعين السلطات التى تطارده.

وفى ضوء الدراسة التى قام بها الأستاذ «هوبسبوم»، فإن المدى الزمنى لنشاط وازدهار تلك المجموعات المتمردة هو مدى قصير فى ميزان التاريخ، عادة ما يمتد من عامين إلى خمسة أعوام.

وفى أحوال كثيرة، يكون قادة تلك الحركات ضحايا الخيانة والوشاية، حيث يتم تصفيتهم وقتلهم. وقد قدم الكُتاب المهتمون بسيرة أحد قادة العصابات «التشيك» (Nikola Shuhaj) الذى كان يقوم بعمليات سلب ونهب واسعة فى نهاية القرن الثامن عشر، المانفستو الذى كان يمثل لسان حال هذا الزعيم «الخارج عن القانون»، على النحو التالى:

«نحن ننشط للثأر من عدم العدالة والظلم، ولنؤذى السادة الإقطاعيين، ولنأخذ منهم الثروات التى سرقوها من عامة الناس. وسوف نحطم بالنار والسيف كل ما لا يعود على الناس بالخير. وعمليات الانتقام هذه يجب أن تؤخذ على أنها تحذير مستقبلى للعصور القادمة».

وتعتبر تلك الصياغة من أفضل ما كتب للتعبير عن «لسان حال» قادة العصابات وحركات التمرد البدائية عبر التاريخ.



[٤]

وفى تقديرى، أن «أسامة بن لادن» وأنصاره من تنظيم القاعدة، هم نوع من هؤلاء «المتمردين البدائيين»، الذين عرفناهم عبر التاريخ، ولكن فى ثياب حديثة ومعاصرة؛ إذ تعكس أساليب وممارسات «بن لادن»، وعناصر تنظيم القاعدة، كل سمات «حركات التمرد البدائية»، على النحو الذى شخصه وأفاض فى شرحه «إيريك هوبسبوم»، رغم اختلاف الاستراتيجية والتكتيك، واستغلال الأساليب والتقنيات الحديثة فى الحركة والعمل.

ولقد بدأ «أسامة بن لادن» نشاطه التمردى عام ١٩٨٢ وهو فى الخامسة والعشرين من عمره، عندما قرر اجتياز الحدود والدخول إلى أفغانستان والمشاركة فى الجهاد ضد السوفييت. وتمتع «بن لادن» وصحبه آنذاك بدعم الحكومة السعودية والولايات المتحدة الأمريكية، وغيرهما لما كان لهم من مصلحة واضحة فى دعم النشاط الجهادى فى أفغانستان لدحر السوفييت، ومحاربة الشيوعية، فى إطار «الحرب الباردة» المستعرة آنذاك. تمامًا مثلما تمتعت بعض حركات التمرد فى الجنوب الإيطالى فى نهاية القرن الثامن عشر بدعم «البوربون» والبريطانيين لخدمة مصالحهم الخاصة.

ومنذ منتصف التسعينيات، تزعم «بن لادن» الدعوة لمعارضة الوجود الأمريكى فى الخليج، وتحدث فى بيان أصدره فى نوفمبر ١٩٩٦ عن «تدنيس الأمريكان الكفار لأرض البعثة النبوية المشرفة وللجزيرة العربية بقواتهم العسكرية». ويعتبر هذا البيان نقطة تحول فى علاقته مع «حلفاء الأمس»: الحكومة السعودية والولايات المتحدة الأمريكية (راجع: أيمن الصياد، «بن لادن: الحقيقة والأسطورة»، مجلة وجهات نظر، أكتوبر ٢٠٠١، ص١٥).

وتدريجيًا، تحول «أسامة بن لادن» إلى نوع من «الأسطورة» لدى أنصاره ومريديه: «رجل لا يقهر» عند البعض، و«مُخلِّص المظلومين» لدى البعض الآخر. وساهمت الآلة الإعلامية الأمريكية بدورها فى جعل «أسامة بن لادن»: ذلك الرجل المعتصم بكهوف وجبال أفغانستان البعيدة بأفكاره البسيطة رمزًا للجهاد والتحدى للطغيان والجبروت الأمريكى (أيمن الصياد، ص١٨).

ومن ناحية أخرى، ساهم الثراء الواسع «لبن لادن» فى تمويل نشاط أنصاره وأتباعه، من حيث الإعاشة والإمداد بالسلاح وتأمين الدعم اللوجستى اللازم لنشاط تنظيم القاعدة عبر بقاع العالم المختلفة، مما أغناهم عن أعمال السلب والنهب لتمويل نشاطهم.

ويحلو للبعض من آن لآخر، عقد مقارنة بين «بن لادن»، من ناحية، و«شى جيفارا» القائد الشهير «لحرب العصابات» فى أمريكا اللاتينية، من ناحية أخرى. باعتبار أن كليهما «ثائر» على طريقته، ورمز للمقاومة ضد الأمريكان. فكلاهما يؤمن بالعنف المسلح كطريقة لتحقيق النصر، ويتبنى أسلوب «حرب العصابات» فى الجبال والغابات، حيث يسهل الكر والفر ومراوغة العدو.



ولكن بمزيد من التأمل والتحليل، نلاحظ أن هناك فروقًا جوهرية بين النموذجين، من حيث مفردات «الخطاب التحريضى»، وطبيعة «الأيديولوجية الحاكمة»، ناهيك عن الأساليب التنظيمية والكفاحية والأفق السياسى العام.

نعم قد يجمع بين الرجلين نوع من «الفروسية» و«المثالية المفرطة»، والاستخفاف بقوة الخصم وإمكانياته القمعية، ولكن «المشروع المستقبلى» لدى كل منهم مختلف تمامًا. فمشروع «شى جيفارا»، كان له مضمون سياسى اقتصادى اجتماعى، يسعى لإقامة الدولة الاشتراكية وإحلال «العدل الاجتماعى» محل الظلم والقهر الاقتصادى، ولا يقف عند «عتبة التحرر» من قهر وجبروت الأجنبى والاستلاب الثقافى للمجتمع، دون التعرض للأوضاع الاقتصادية والنضال من أجل إقامة نظام جديد، كما هو الحال عند «بن لادن».

ولذا فإن «شى جيفارا»، الذى كان يحمل خبرة «الثورة الكوبية» لم يكن «متمردًا بدائيًا»، على النحو السابق شرحه، وإنما كان «ثائرًا» لم يحسن تقدير قوة الخصم، وخسر المعركة نتيجة سوء التقدير وعدم حسن التدبير فى ساحة قتال فى «بوليفيا» التى كان لا يعرفها جيدًا، ولكن رغم كل هذه الفروق الجوهرية، يشترك الرجلان فى كونهما رمز التحدى والمقاومة، كما تجمع بينهما النهاية المأساوية، بدءًا من المطاردة المحمومة وانتهاء بهزيمة «المشروع الخاص» بكل منهما.



يقودنا هذا إلى سؤال مهم آخر هو: لماذا نجحت حركة «فيت كونج» (جبهة التحرير الوطنية) فى جنوب فيتنام فى الانتصار الحاسم فى مواجهة الآلة العسكرية الأمريكية العاتية، التى استخدمت كل ما لديها من أسلحة فتاكة من قنابل وطائرات وآليات على الأرض، فى مقابل فشل حركات أخرى قامت بتحدى الجبروت الأمريكى؟!

ومفتاح الإجابة على هذا السؤال، ودون الدخول فى تفاصيل وتعقيدات كثيرة حول هذا الموضوع، وبغض النظر عن الظروف والتوازنات الدولية المواتية آنذاك، هو أن تلك الحركات مثل «حركة التحرير الوطنى» فى فيتنام وغيرها من حركات التحرير المشابهة قادها ثوار حقيقيون: يجيدون الحساب السياسى، وأساليب التعبئة الشعبية الواسعة، بالإضافة إلى براعة الاستراتيجية والتكتيك والتوقيت المناسب فى استخدام أساليب العنف المسلح. هذا بالإضافة إلى طول النفس المطلوب لتحقيق النصر المؤزر.

وليس هناك من شك فى أن رجالا وقادة مثل «هوشى منه» الذى قاد كفاح الشعب الفيتنامى والجنرال «فان دنْج» (Van Tien Dung)، الذى قاد النصر النهائى فى معركة تحرير وتوحيد جنوب فيتنام، ونجحت قواته فى دخول مدينة «سايجون» فى ٣ أبريل ١٩٧٥، بعد خسائر قدرها ٥٨ ألف جندى وضابط، تكبدتها القوات الأمريكية خلال تلك الحرب الطويلة، هم جزء من حركة ثورية عميقة الجذور فى صفوف الشعب ذات مضمون سياسى اقتصادى اجتماعى، ومسلحة بالعلم والإيمان بقضيتهم العادلة والاستعداد للنضال المستمر حتى تتحقق أمانيهم.

والطريف فى الأمر أن الجنرال «دنْج» بدأ حياته فلاحًا بسيطًا، وانضم إلى صفوف الثوار قبل أن يكمل تعليمه. وقد كتب مؤرخ أمريكى بارز هو (Eugene Grayson) فى مقال مهم نشر حديثًا يصف «الجنرال دنْج» على أنه واحد من كبار العسكريين فى العالم فى مجال «حرب المناورات»، وأن «عبقريته العسكرية» تضاهى «روميل» و«ويلنجتون». ولعل الكثيرين حول العالم لم يسمعوا كثيرًا عن الجنرال الفيتنامى «دنْج»، لأن القيادة الجماعية للثورة التحريرية الفيتنامية كانت أقوى من قصص البطولات الفردية، والعبقريات العسكرية الفذة.

هؤلاء كانوا ثوارًا بالمعنى العلمى للكلمة. وذاك هو الفارق بين «الثوار الحقيقيين» و«المتمردين البدائيين» فى العصر الحديث، على النحو الذى كان يقصده المؤرخ الكبير «إريك هوبسبوم». ■

«نحن ننشط للثأر من عدم العدالة والظلم، ولنؤذى السادة الإقطاعيين، ولنأخذ منهم الثروات التى سرقوها من عامة الناس. وسوف نحطم بالنار والسيف كل ما لا يعود على الناس بالخير

[مانفيستو أشهر العصابات التشيكية فى القرن ١٨]

بحثا عن الحلم المفقود

بيتـــــر بــــــروك يعتــــــزل

أحمــــــــد عثمـــــــان

بيتر بروك ظاهرة فنية فريدة، كانت لديه الجراة أن يغير - ليس فقط طبيعة العرض الدرامى - بل شكل المسرح الحديث كذلك، عن طريق إلغاء الحاجز الوهمى الذى يفصل بين الممثلين والجمهور. وعندما وصل إلى قمة النجاح وصارت الجماهير تنتظر أى جديد يقدمه، فاجأ بروك العالم باعتزاله الإخراج الدرامى فى المسارح العامة، وبدأ مشروعا طويل الأمد من البحث عن أصول المسرح وطبيعة العلاقة بين الممثل والجمهور. كالراهب الذى يبتغى الوصول إلى قاع الحس الإنسانى وإدراك غير المحسوس، وكالعالم الذى لا يمل من إجراء التجارب لتحقيق سحر جديد.

عندما وصلت إلى لندن سنة ١٩٦٥ كانت بريطانيا تشهد فترة من الإبداع الفنى فى مجالات الموسيقى والمسرح، لم تشهدها منذ وليام شكسبير والعصر الإليزابيثى. فعندما وصل حزب العمال إلى الحكم فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، أنشأ نظاما عاما للتعليم سمح لأبناء الطبقات العاملة - للمرة الأولى - بتلقى التعليم مجانا حتى فى الجامعة. وأدى تعليم أبناء الفقراء، إلى ظهور طبقة جديدة من المثقفين والفنانين الشعبيين، أثرت الحياة الثقافية عن طريق تقديم نماذج فنية جديدة والتعبير عن رؤية حضارية مختلفة عما كان سائدا فى عصر الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس. فى هذه الفترة بعد ثورة البيتلز (الخنافس)، ظهر العديد من الفرق الغنائية الشعبية كما ظهر عدد كبير من كتاب المسرح الذين خرجوا من الطبقة العاملة فى أعقاب جون أوسبورن، ومسرحيته الشهيرة «انظر إلى الوراء فى غضب» «Look Back in Anger».



حرصت على مشاهدة الأعمال التى أخرجها بيتر بروك منذ وصولى إلى لندن، وحتى مغادرته هو لها بعد ذلك بأربعة أعوام، وهو يعيش حاليًا فى باريس، كنت ألقاه بعد العرض أناقشه فى محتواه. وكان البحث عن الدراما المصرية القديمة من أهم الأسباب التى جعلتنى أغادر القاهرة إلى لندن منذ ٣٨ عاما مضت، فقد بدأت حياتى الأدبية فى الستينيات بالكتابة للمسرح وكتبت خمس مسرحيات، وإن لم يعرض منها سوى واحدة هى «بيت الفنانين»، التى قدمها المسرح الحديث عام ١٩٦٤. وعندما وصلت إلى العاصمة البريطانية تمكنت عن طريق المجلس البريطانى من الانضمام إلى تدريب للممثلين والكتاب المسرحيين، كان يتم فى استديو مسرح الرويال كورت الذى قدم غالبية الكتاب الجدد. وخلال عملى فى الاستديو كتبت مسرحية من فصل واحد باسم «ثقب فى السماء» Hollow in the Sky، قدمها اثنان من زملائى الممثلين لمدة أسبوعين فى المسرح الصغير The Little Theatre Club، مما أتاح لى فرصة لقاء عدد كبير من كتاب المسرح البريطانيين وبعض المخرجين، من بينهم بيتر بروك.

ولد بيتر بروك فى لندن منذ ٧٧ عاما (سنة ١٩٢٥) من أبوين روسيين هاجرا إلى فرنسا أولا، ثم استقر بهما المقام فى العاصمة البريطانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. ورغم أنه يهودى الأبوين، فقد تبع النظام التعليمى العام حيث كانت المسيحية هى الديانة الوحيدة التى تدرس فى تلك الفترة. لم يكن بيتر فى صباه مهتما بالقضايا الدينية أو العنصرية، إلا أنه كان مشغولا بالتساؤلات ذات الطبيعة الروحية وبمحاولة الوصول إلى إجابات على القضايا الفلسفية الجوهرية. وبينما كان أبوه عالما فيزيائيا تمكن من اختراع نظام خاص للتليفون، يمكن الجنود من الاتصال فى جبهة القتال أثناء الحرب العالمية الأولى، نالت أمه درجة الدكتوراه فى العلوم الكيميائية، وتوصلت إلى تركيب مضاد لمفعول الغازات السامة.

ظهور المخرج المسرحى

لم تظهر وظيفة المخرج المسرحى إلا فى العصر الحديث منذ القرن التاسع عشر، وهى تشبه إلى حد كبير، الدور الذى يلعبه قائد الأوركسترا الموسيقية فى الأعمال السيمفونية، فى متابعة العرض الدرامى والتوفيق بين الممثلين فى أدائهم. وفى القديم كان واحد من الممثلين القدامى، يقوم بتوجيه زملائه فى العمل المسرحى بينما يشترك هو معهم فى الأداء. إلا أن تطور التكنولوجيا خاصة بعد ظهور الإضاءة الكهربائية فى المسرح، إلى جانب استخدام المناظر التى يمكن التحكم فيها ميكانيكيا والخدع المسرحية، صار الأمر يتطلب وجود شخص متفرغ لأعمال الإخراج المسرحى. ولم يظهر المخرج كقوة مسيطرة على العمل الدرامى، إلا فى آخر القرن التاسع عشر بعد حوالى مائتى عام من عصر شكسبير. وكان الألمان هم أول من عينوا مخرجا متفرغا للإشراف على عمل الفرقة المسرحية، ثم تبعهم الإنجليز. وفى القرن العشرين صارت مهمة المخرج متعددة الجوانب، فإلى جانب مسئوليته عن أسلوب التمثيل - وليس أداء الممثلين أنفسهم - فهو الذى يتولى تفسير النص المسرحى، ويشرح للممثلين طبيعة دور كل منهم، وهو الذى يختار شكل الديكور والأزياء ونوع الإضاءة، إلى جانب الموسيقى والتأثيرات الصوتية فى بعض الأعمال.



كانت هواية بيتر بروك منذ صباه تتعلق بالسينما، وأراد دراسة التصوير الفوتوغرافى حتى يتمكن من العمل كمخرج سينمائى، لكن أباه أرسله إلى أكسفورد حيث درس اللغات الفرنسية والروسية والألمانية. وفى الجامعة كان اهتمام بيتر بجمعية الفيلم التى أنشأها، يستأثر بكل وقته مما جعله فى خلاف مستمر مع أساتذته، وقد نفذ بعض الأعمال السينمائية فى هذه المرحلة. وعندما بدأ إخراج الأعمال المسرحية، لم يكن بروك يعرف شيئا عن فن التمثيل أو الكتابة المسرحية، كما لم تكن لديه رؤية ذهنية لهدف يريد تحقيقه على خشبة المسرح. كل ما شغل باله فى تلك الفترة هو استخدام حركة الممثلين داخل إطار محدد من الديكور والإضاءة، وحسب إيقاع موسيقى يختاره هو، لتقديم تناسق فنى أكثر

الأعمال الكاملة لبيتر بروك: دار الهلال
ترجمة: فاروق عبد القادر

أدرك بروك ضرورة كسر الحاجز الوهمى القائم بين جمهور المتفرجين وجماعة الممثلين، عن طريق إقامة العرض المسرحى فى نفس المكان الذى يجلس فيه المشاهدون، وليس فى مكان منفصل

إثارة من أحداث الحياة اليومية للمتفرجين. لم يكن يهمه النص الأدبى كما لم يحاول تعليم الممثلين طريقة أداء أدوارهم، واكتفى بيتر بروك فى أعماله الأولى باستخدام الأشكال والحركة والانفعال، لرسم صور متحركة داخل إطار خشبة المسرح، تماما كما لو كان يقدم عملا مصورا على شاشة السينما. ولما كانت بداية بروك فى الإخراج المسرحى فى أوبرا كوفنت جارن - مع الراقصين والمغنين والموسيقيين - ظل الدافع وراء اختيارات بروك فى المسرح الدرامى بعد ذلك، جماليا تلقائيا ينبع من شعور داخلى، يعتمد على اللاوعى ولا يتم عن طريق التصميم والتحديد الإرادى. وبعكس أسلوب المخرج الألمانى الشهير برتولد بريخت الذى يحدد كل حركة أو إيماءة يقوم بها الممثل، اعتمد بروك على تلقائية الممثلين فى التعبير عن الشخصيات الدرامية، واكتفى هو بتنظيم الإطار العام للحركة فوق خشبة المسرح.

الدراما فى مصر القديمة

توطدت علاقتى ببروك عندما قدم مسرحية أوديب اليونانية، مستخدما الطقوس الدرامية القديمة التى أخذها اليونان عن المصريين. ولما كان يحاول تخطى مظاهر المسرح الإليزابيثى والرجوع إلى الجذور الأولى للدراما، حاولت إقناعه بدراسة المسرح المصرى القديم وإعادة تقديم دراما أوزوريس. والمشكلة أن مؤرخى المسرح، يستبعدون الدراما المصرية باعتبارها تمثل طقوسا لعبادة الآلهة، وليس عرضا لشخصيات إنسانية. الاعتقاد الشائع يقول بأن المسرح الدرامى من نتاج الثقافة الغربية منذ مولده، ظهر للمرة الأولى فى احتفالات ديونيسوس إله الخمر والخصوبة فى بلاد اليونان، ومنها انتشر إلى باقى أرجاء العالم. وبالرغم من أن كتاب اليونان الكلاسيكيين الذين زاروا مصر فى العصور القديمة، أوردوا فى كتاباتهم تفاصيل ما شاهدوه بأنفسهم من العروض المسرحية فيها - مثل الرحالة هيرودوت - فإن أساتذة الدراسات الكلاسيكية يصرون على أن هذه العروض لم تكن تمثل مسرحا دراميا، وإنما طقوسا للعبادة الدينية.

ولو نظرنا فى غالبية المراجع الخاصة بتاريخ المسرح العالمى أو فى أى موسوعة أكاديمية، لا نجد أى ذكر عن المسرح المصرى القديم، و إن كنا نجد دراسات وافية عن بعض المسارح الشرقية الأخرى، مثل المسرح اليابانى والمسرح الهندى. والسبب فى هذا يرجع إلى أنه - بينما احتفظ اليابانيون والهنود بتقاليدهم الدرامية القديمة حية فى عروضهم المسرحية حتى عصرنا الحاضر - فإن الدراما المصرية اختفت تماما عن الوجود، ولم يعد أحد حتى يذكر عنها شيئا. ولهذا فعندما بدأ المسرح المصرى المعاصر منذ حوالى ١٥٠ عاما، حاول المخرجون والكتاب محاكاة المسرح الأوروبى الحديث فى إنتاجهم، وخاصة المسرح الفرنسى والمسرح الإنجليزى.

الدراما والعبادة

كانت الدراما المسرحية التى ظهرت فى بلاد اليونان، من أهم المظاهر الحضارية التى عرفتها البشرية والتى تعيش بيننا حتى الآن. فقد أصبح المسرح اليونانى هو النموذج الأساسى الذى تطورت عنه الدراما عند الرومان أولا، ومنها انتقلت إلى الحضارات الغربية بشكل عام. وصلت الدراما الأثينية إلى قمتها خلال القرن الخامس ق.م. وأول ما ظهر المسرح بشكل متكامل فى أثينا كان خلال المسابقات الدرامية فى القرن الخامس ق.م. وبالرغم مما أظهرته معاول الأثريين - سواء فى بلدان المنطقة العربية أو فى بلاد اليونان - من بقايا أثرية، تؤكد وجود عروض مسرحية فى مصر القديمة سابقة بمئات السنين على ظهور الدراما الأثينية، إلا أن رجال الآداب الكلاسيكية لا يزالون يرفضون الاعتراف بوجود مسرح مصرى قديم. فهم يقولون بأن هذه العروض المسرحية التى كانت تقدم فى إدفو - بين أسوان والأقصر فى الصعيد - أو فى أبيدوس التى تقع على بعد ٥٠ كيلومترا جنوب سوهاج، أو فى بوزيريس بوسط الدلتا، كانت كلها تمثل طقوسا للعبادة، وليس أعمالا درامية. ورفض الباحثون الغربيون اعتبار المسرح الدرامى تطورا طبيعيا عن الطقوس التى أخذها اليونان عن حضارة الشرقيين. وكانت حجتهم الأساسية فى ذلك أن ما ظهر من عروض فى بلاد الشرق - قبل اليونان - كانت له طبيعة دينية، ولهذا فهم لا يعتبرونه من بين الفنون، فالفن عندهم يجب أن يكون دنيويا لا علاقة له بالدين.

يقول شيلدون شينى فى كتابه عن «المسرح: ثلاثة آلاف عام»، الصادر فى لندن ونيويورك عام ١٩٥٣:

«كان أوزوريس - المعبود المصرى الرئيسى، الملك الأسطورى المقدس - هو الشخصية الرئيسية لمسرحية دينية بها عناصر تشبه بوضوح تلك (المسرحيات الدينية) التى لا تزال تعرض فى القرن العشرين. وفى وثيقة يقدر أنها ترجع إلى ٢٠٠٠ ق.م. لدينا ملخص وصفى للاحتفال والدراما كما كانت تنفذ فى ذلك الوقت. وكان الهدف (من تقديم تلك الدراما) هو بالضبط نفس الهدف (من تقديم) المسرحيات الدينية الشهيرة عن أوبر - أميرجو وتيرولين (وهى مسرحيات دينية لازالت تقدم فى أوروبا حتى اليوم)... فى أنها جميعها خدمت أو تخدم فى إبقاء (قصة) معاناة وانتصار معبود (معين) حية بجلاء فى ذاكرة المؤمنين». (ص ٢٤)

أى أن المتفرجين والممثلين جميعا لم يكونوا يشاركون فى العرض المسرحى بسبب ترفيهى أو تثقيفى أو احتفالى، وإنما كانت أدوارهم جزءًا من طقوس العبادة، يؤدونها كنوع من أنواع الحج أو الصلاة. ويضرب شيلدون مثلا بالطقوس التى تتم سنويا فى مدينة النجف بالعراق، عندما يأتى إليها الآلاف من الحجاج الشيعيين للاشتراك فى طقوس تمثل مقتل الإمام الحسين، كمظهر من مظاهر العبادة وليس لسبب درامى. أما الخلفية التاريخية لظهور المسرحية المصرية فهى تشير إلى أن مولدها كان فى معبد أوزوريس، وأن أحداثها كانت تقوم حول مقتله وعودته إلى الحياة. والذى لا شك فيه أن عبادة أوزوريس كانت أهم العبادات التى عرفها المصريون القدماء، إذ أنها تتعلق بفكرة وجود عنصر روحى غير مرئى، إلى جانب العنصر الجسدى فى طبيعة الوجود الإنسانى. وهذه الفكرة كانت خاصة من خواص الاعتقادات المصرية القديمة، لم يعرفها أى من الشعوب قبلهم. ومن خلال قصة أوزوريس ظهر التعبير الدينى واللاهوتى لاعتقاد المصريين فى وجود عالم روحى أبدى، كما كانت هذه القصة كذلك هى الجوهر الرئيسى لتعبيراتهم الفنية والأدبية.

وينهى شيلدون تقريره الصغير عن المسرح المصرى القديم بقوله:

«ليست المسرحيات الواقعية التى قام الكهنة بتمثيلها والتى عرضت فى مهرجانات التتويج بمسرحيات درامية حقيقية، رغم أن الكتابة الهيروغليفية التى (توجد) على حوائط المعبد توحى (بوجود) بعض الحوار والتمثيل. وقد ذكر هيرودوت فى ٤٤٩ ق.م. مسرحيتين دينيتين (كانتا) موجودتين (فى عصره)، ولاحظ تأثيرهما على العبادات اليونانية (ذات الطبيعة) السرية»، مثل عبادة أورفيوس. وعلى هذا فبالرغم من العثور على نصوص مسرحية مصرية قديمة، وبالرغم من اعتراف الباحثين الآن بوجود عروض مسرحية فى مصر سابقة على ظهور الدراما اليونانية، إلا أنهم فى غالبيتهم يصممون على أن هذه الدراما كانت تمثل مسرحية دينية وليست مثل دراما اليونان. أى أنها كانت تقدم بقصد العبادة، وليس كشكل من أشكال النشاط الفنى والاجتماعى لمصر الفرعونية.

الحاجز الوهمى

تغير الوضع عندما أدرك بروك ضرورة كسر الحاجز الوهمى القائم بين جمهور المتفرجين وجماعة الممثلين، عن طريق إقامة العرض المسرحى فى نفس المكان الذى يجلس فيه المشاهدون، وليس فى مكان منفصل. اعتقد بروك أن على المسرح أن يحرر نفسه من القناعات الطبيعية أو الكلاسيكية، حيث يرى المسرح بمثابة خيال قادر على تقديم الحلم واللاوعى. يتكون بناء المسرح فى العصر الحديث من جزءين مختلفين، الخشبة والكواليس حيث يقوم الممثلون بأداء أدوارهم وقاعة المشاهدين فى الصالة والأدوار العليا. وبينما يقدم الممثلون عرضهم، يتلقى الجمهور ما يشاهده ويسمعه دون لقاء أو مشاركة بين الجانبين. أراد بروك كسر هذا الحاجز الوهمى، بأن يجمع كلا من الممثلين والجمهور فى مكان واحد، بل ويشجع مشاركة المشاهدين فى أداء العمل الدرامى. منذ أن أدرك بيتر بروك أن تركيبة المبنى الذى يقدم فيه الأعمال الدرامية، تقف عقبة فى سبيل التفاعل الذى يريد الوصول إليه بين الممثل والمشاهد، قرر المخرج - بعد وصوله إلى قمة النجاح عالميا - العودة إلى المعمل وإجراء التجارب، للتعرف على ما يمكن عمله لكسر الحاجز الوهمى بين الطرفين.

الاعتداء الثلاثى

دعانى بيتر بروك سنة ١٩٦٩ إلى الاشتراك بصفة متفرج فى آخر عمل قدمه بالمسرح المستدير The Round House، واقترح تقديم مسرحية سياسية عن الاعتداء الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦ بحيث يشترك ثلاثة كتاب للدراما فى العمل، بريطانى وإسرائيلى ومصرى. وكانت الفكرة أن يقوم كل كاتب باختيار الشخصيات والمواقف التى تعبر عن وجهة نظره، فيقدم بحيث يصبح الصراع بين شخصيات الدراما صراعا بين الكتاب كذلك. وطلب منى بروك أن أشترك أنا بصفتى ممثلا للرأى المصرى فى الصراع. بالطبع كانت هذه فرصة العمر بالنسبة لشاب مصرى فى بداية الثلاثينيات، أن يشترك فى عمل درامى مع عملاق المسرح فى العالم كله. وكانت هذه فرصة لتقديم وجهة نظر مصرية - فى مواجهة وجهتى النظر البريطانية والإسرائيلية - بخصوص الاعتداء الثلاثى على مصر. كانت أول تجربة قام بها بروك لتقديم مسرح سياسى، هى US التى لها دلالتان: «الولايات المتحدة» و«نحن». تناقش المسرحية التى اشترك فى كتابة نصها عدة كتاب دراميين، قضية الحرب التى كانت دائرة فى فيتنام والمجازر البشرية التى تجرى يوميا على أرضها. وبعكس الكاتب والمخرج الألمانى الشهير برتولد بريخت، لم يحاول بروك تقديم رؤية سياسية محددة فى مسرحيته، واكتفى بتقديم عناصر الصراع المختلفة تاركا للجمهور الوصول إلى النتائج التى يراها. ■

عــــروض موجـــزة

كتب عربية

تاريخ الرسم الصحفى فى مصر
ناصر عراق
القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٢، ٢٤٨ صفحة



جاء نابليون إلى مصر فى ١٧٩٨ بجيش كبير قوامه ٣٦ ألف جندى وأيضًا بمطبعة و١٧٠ من العلماء فى مختلف التخصصات.

كان هدفه، أن يطبع منشورات تحمل أوامره إلى جنوده فى جميع أنحاء مصر فى اللحظة ذاتها، بالإضافة إلى طباعة بعض الكتب التى ألَّفها علماء الحملة، بينها كتاب لمدير المطبعة الذى عيَّنه نابليون «جان جوزيف مارسيل» عنوانه «وصايا لقمان الحكيم» فى ١٢٠ صفحة.

هذا الكتاب يتابع تاريخ الرسم الصحفى منذ هذه اللحظة، أى منذ عرفت مصر المطبعة.

ويلاحظ المؤلف أن منشورات الحملة لم تتضمن أية رسوم باستثناء الشعار الذى وضع فى رأس صفحة المنشور والذى يرمز إلى الثورة الفرنسية، وفى عهد مينو ـ ثالث قواد الحملة ـ الذى أعلن إسلامه وسمَّى نفسه عبدالله، وضع على رأس المنشور لوحة كتب عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» يحيط بها الهرم الأكبر ونخلة وبعض ما يرمز إلى الآثار المصرية القديمة، وكان هذا هو أول رسم يحمل خصوصية مصرية.

رحلت الحملة، وأخذ الغزاة معهم المطبعة، وبقيت مصر بلا مطبعة عشرين عامًا تقريبًا، حين أوفد محمد على «نيقولا مسابكى البيروتى» إلى إيطاليا فى العام ١٨١٥ مع ثلاثة من الصبية لتعلم فن سبك الحروف، وهو التقليد الذى حرص عليه «الباشا الكبير» فى كل بعثة علمية أرسلها.

بعد ٤ سنوات عاد «مسابكى» أفندى من بعثته وشرع فى تأسيس أول مطبعة فى مصر وهى مطبعة بولاق أو مطبعة صاحب السعادة التى افتتحت فى عام ١٨٢٠. وصدرت عنها كتب لتعليم فنون القتال، كما صدرت عنها فى عام ١٨٢٨ جريدة «الوقائع المصرية». وقد احتوت صفحتها الأولى رسمًا «لأصيص ورد» يرجح المؤلف أن يكون مبدعه فرنسيا.

بعد ذلك تطور شعار الوقائع دون عناية حقيقية بالرسوم، ومع التغيرات التى شهدتها مصر فى عهد الخديوى إسماعيل انتعشت الصحف الأهلية، وظهرت «نزهة الأفكار» فى عام ١٨٦٩ لصاحبها إبراهيم المويلحى وعثمان جلال، لكن الخديوى سرعان ما أغلقها لجرأتها، لكن سيل الصحف لم يتوقف فظهرت: الوطن، مصر، التجارة، الأخبار، الكوكب الشرقى والأهرام.. لكنها جميعًا لم تولِ اهتمامًا كبيرًا للرسوم، وكانت الإعلانات هى صاحبة الفضل فى شيوع الرسوم فى الصحافة المصرية.

وكان إنشاء مدرسة الفنون فى عام ١٩٠٨ بداية حقيقية لتخريج دفعات من الفنانين الدارسين الذين استوعبت طاقاتهم المتفجرة صحف تلك الفترة، وحيث أصدر سليمان فوزى «الكشكول» زيَّنها بإبداعات أربعة من الرواد هم محمود مختار ومحمد حسن وراغب عياد وأحمد صبرى.

أما اللطائف المصورة عام ١٩١٥ لصاحبها إسكندر مكاريوس، فكانت تنشر رسومًا تحاكى الواقع وأخرى كاريكاتورية، لكنها اعتمدت على رسوم تظهر فى الصحف الأوروبية، يتم تحويل كلماتها الأفرنجية إلى شروح بالعربية.

ويشير المؤلف إلى اكتشاف مهم هو الفنان الموهوب إيهاب خلوصى الذى رسم فى عدد كبير من صحف ومجلات تلك الفترة، وكانت رسومه فى اللطائف المصورة معبرة عن قضايا سياسية واجتماعية بخطوط واثقة وتعبيرات جادة.

ويُعد عام ١٩٢٥ فارقًا فى تاريخ الصحافة المصرية عمومًا، وفى الرسم الصحفى على وجه الخصوص، ففى هذا العام صدر العدد الأول من «روزاليوسف»، وكان غلافها الأول صورة لفتاة جميلة، ووعدت المجلة قراءها بأنها ستوالى نشر روائع فن التصوير فى مختلف العصور.

ومع روزاليوسف لمعت أسماء «صاروخان» الذى كان يرسم صورة الغلاف الكاريكاتيرية منذ ٣ مارس سنة ١٩٢٨، وكان هذا الفنان الأرمنى هو أول فنان يبتكر شخصية نمطية كاريكاتيرية تعبِّر عن المزاج العام للشعب المصرى وهى شخصية «المصرى افندى»، وقد ظهرت على غلاف روزاليوسف فى مارس سنة ١٩٣٢.

ودفع نجاح الصحافة الفكاهية خصوصًا «اللطائف المصورة» و«روزاليوسف» و«دار الهلال» إلى أن تصدر مجلة فكاهية هى مجلة «الفكاهة» سنة ١٩٢٦ وبرزت فيها أسماء لفنانين اختفوا من الساحة الصحافية بعد ذلك من أمثال فتحى وغزالة ورمزى.

وكانت البعكوكة هى أوسع المجلات الفكاهية انتشارًا، واعتمدت كثيرًا على الرسوم التعبيرية والكاريكاتيرية، وبعد الحرب العالمية الثانية ظهر العدد الأول من مجلة «السندباد» وكان رسامها الأول الفنان حسين بيكار الذى استفادت من موهبته مجلة «آخر ساعة» وبعدها جريدة «الأخبار»، إذ كانت رسومه مصاحبة للقصائد والتحقيقات.

وجاءت صباح الخير (١٢ يناير سنة ١٩٥٦) قنبلة فى هذا المجال، فكانت هى المجلة الوحيدة التى منحت الرسوم التوضيحية والكاريكاتير أكبر نصيب ممكن فى تاريخ الصحافة المصرية، وعلى صفحاتها طالع القراء رسوم زهدى وصلاح جاهين وبهجت عثمان وصلاح الليثى وحجازى ورءوف وجمال كامل وهبة عنايت وعبدالعال وجمعة وكوكبة رائعة من فنانى الكاريكاتير الموهوبين.

ويخصص المؤلف فصلاً (سريعًا) لكاريكاتير صحافة المعارضة، وتحت عنوان أعلام خالدة يكتب عن بعض ممن «يحب» من فنانى الكاريكاتير والرسَّامين المصريين.

□ □ □

ذاكرة للشعر
جابر عصفور
القاهرة: مكتبة الأسرة، ٢٠٠٢، ٤٩٠ صفحة



تتأرجح الذاكرة النقدية بين نقيضين: الذاتية الخالصة التى تستجيب للانفعالات الشخصية العاطفية وتحيل العمل النقدى إلى انطباعات مطلقة، والموضوعية الآلية التى تقترن بنزعة تجريبية بحتة، تزعم حيادًا مطلقًا وتجردًا خالصًا، ما يجعلها تبدو وكأنها تعمل وفق قوانين منطقية صارمة.

والمؤلف يرى أن هذين النقيضين انقضى عهدهما، وأصبح المسيطر على التيارات النقدية فى صيغتها المعاصرة هو نزعة الموضوعية النسبية، تلك التى لا تتجاهل العوامل الذاتية ولا تنفيها، وتضع فى الوقت نفسه «المقاربات الموضوعية موضع المساءلة بما يحررها من أسر القيود الأيديولوجية التى لا تكف عن تزييف الوعى فى كل ما يراه حقائق أو ظواهر موضوعية».

هذه واحدة من المقدمات النقدية المهمة التى يقدمها لنا المؤلف. المقدمة الثانية تتعلق بما بات يُعرف فى النقد المعاصر بظاهرة «التناص»، والتى تم تعريفها بشكل مبسط بأنها اقتباس من نص ما أو نسج على نوله، لكن المؤلف يعرفه لنا بوصفه «فسيفساء من الاقتباسات والإيماءات والشفرات والإشارات التى تضعه فى موضعه الذى يحدد هويته الخلافية حتى فى أحوال متشابهة مع غيره. وداخل الشبكة الهائلة التى لا حدود لها من النصوص الإبداعية وغير الإبداعية».

هكذا يمكن فهم النصوص التى تحاكى أخرى من الجنس الأدبى ذاته أو من غيره، وبعضها «يتناص» مع إبداعات فى لغات أخرى، وبعضها «يتناص» مع نصوص مقدسة سماوية وغير سماوية.

وقد تعرض المؤلف للتناص فى مناسبة دراسته عن شعر الإحياء، إذ يشير إلى مسافة كبيرة بين التناص والإحياء، إذ يعتمد الأول على التذكر ويبدأ من الذاكرة لكنه يتجاوزها، أما الإحياء فهو ذاكرة استرجاعية تعلق اللاحق على السابق وتحتذيه بهدف إصلاحه وتنقيحه والإضافة إليه بما هو من جنسه.

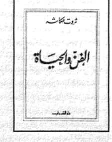
ومن الإحياء إلى «تجليات الوجدان» فى المدرسة الرومانسية العربية التى ولدت مع «أبولو» والتى وجدت تعبيراتها فى أشعار إبراهيم ناجى ومحمود حسن إسماعيل وأبوالقاسم الشابى ويوسف بشير التيجانى، والتى مهدت لظهورها مدرسة الديوان برموزها: العقاد والمازنى وشكرى.. والتى هزت ثوابت الإحياء.

ويقدم المؤلف بعد ذلك دراسات أكثر عمقًا لبعض رموز الرومانسية مثل محمود حسن اسماعيل وأبوالقاسم الشابى، وفى كليهما ـ خصوصًا الشابى ـ يتجلى ما عرَّفه بـ«الموضوعية النسبية»، إذ لا تغيب عن قراءته للشابى متابعته لحياته والأطوار التى عبرها ومعاناته مع المرض والحب وكثير مما لا نعرفه.

ثم يواصل المؤلف قراءاته المتعمقة لرموز هذا التيار الشعرى المهم ومنهم أحمد عبدالمعطى حجازى وعبدالوهاب البياتى وصلاح عبدالصبور، وأخيرًا حبة العنقود الفتية الساحرة الشاعر أمل دنقل الذى يخصص له المؤلف ما يقرب من ثلث الكتاب، فضلاً عن أن الكتاب كله مُهدى إليه فى ذكراه التاسعة عشرة، وفى دراسته المتعمقة عن أمل دنقل يحضر الذاتى والموضوعى وتطل الذكريات ويتشابك السياسى بالشعرى بالإنسانى فى تضافر حميم هو ثمرة للعلاقة التى جمعت بين الصديقين سنوات طوالا.

□ □ □

الفن والحياة
ثروت عكاشة
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٦٦ صفحة



نذر المؤلف ـ وهو صاحب أهم الإنجازات فى تاريخ الثقافة المصرية منذ

عروض موجزة

شغل منصب وزير الثقافة فى حكومة الثورة ـ حياته للفن والثقافة. ومطالعة مؤلفاته وترجماته ودراساته تكشف عن هذا الميل، فهو يرى الفن «ضرورة من ضرورات الحياة. شأنه شأن الخبز سواء بسواء، بل قد يكون أوجب للحياة من الخبز نفسه».

هذا الكتاب على صغر حجمه، يلخص رؤية صاحبه فى علاقة الفن بالحياة، فالحضارة فيما يرى، ليست فيما انتهت إليه من وسائل تكنولوجية والكترونية، فهذه الوسائل هدفها أن تتيح للإنسان أن يُبدع فى يسر، وتلمس الحضارة لا يجده الإنسان إلا فيما خلف من الآثار الفنية.

ويرى المؤلف الرباط وثيقًا بين الفن والأخلاق، وكلاهما نشأ من الإحساس بالإجادة، «فلا جمال إلا عن إجادة ولا إجادة إلا وغايتها إلى جمال».

ويشير إلى ما تنبهت إليه الكنيسة قديمًا من أثر الفن فى النفوس، فأمسكت بزمامه فى يدها، وفرضت على الفنانين رقابة صارمة مخافة أن يصدر عنهم ما يشكك الناس فى العقيدة أو ينحرف بهم عن طريق الدين القويم، خصوصًا بعدما تعرضت له الكنيسة الكاثوليكية من تداعٍ إثر دعوات الإصلاح الدينى التى تزعمها مارتن لوثر كنج.

وانعكس ذلك على النتاج الفنى فى عصر «الباروك» الذى هجر ما شدَّد عليه أسلوب عصر النهضة الذى نادى بتحكيم العقل فى تحديد أثر العمل الفنى، والجنوح أكثر إلى الإبهار بهدف تضليل العقل وإغراقه فى بحار الوهم والغيبيات.

وما خشيته الكنيسة من انطلاق الفن بلا ضابط، هو ما خشيه نفر من المسلمين فحالوا دون انطلاق الفن انطلاقته الحرة، ما جعل الفن الإسلامى قرونًا عدة مقصورًا على الزخرفة، وهو ما أنتج أروع ما يؤثر من فن الأرابيسك الذى غدا فنًا إسلاميًا أصيلاً.

الفنون كما رآها أرسطو بحق بقيت وسيلة للتطهر، والفنان سواء كان معبرًا عن روح الجماعة أو عن ذاته وآلامه وأحلامه، هو ابن زمنه وتقلباته التى تظهر فى إبداعه، وبهذا المعنى فإن فن عصر من العصور هو تعبير عن المظاهر الاجتماعية والاقتصادية التى سادت ذلك العصر، وكثيرًا ما تتلاقى الفنون ليكمل أحدهما الآخر، وربما تكون السينما فى صورتها المثلى هى التعبير الأمثل عن وحدة الفنون.

أما دراسة العمل الفنى كما يراه المؤلف فينبغى أن تنبنى على نظرتين: نظرة إلى العمل الفنى نفسه على أساس أنه وحدة قائمة بذاتها، ونظرة أخرى إليه باعتباره جزءًا من التاريخ العام. وهو ما يجعل الفنان أو المثقف رائدًا من رواد التغيير فى مجتمعه، بما يربطه بالسياسة شاء أم أبى، والفنان كما يراه المؤلف فيلسوف سياسى، وهو ما ينتبه إليه من يطالع لوحة «الجرنيكا» لبيكاسو، أو من يستمع إلى نشيد «الله أكبر» لمحمود الشريف. وهما مثالان دالآن تمامًا يوردهما المؤلف.

أما الالتزام فى الفن، فلا يعنى التقيد داخل حدود بعينها، إنما يعنى الإيمان بعقيدة متحررة تنطلق بصاحبها نحو آفاق فسيحة، والغاية فى نهاية الأمر ليس توفير مستوى رفيع من المتع الفنية تتمتع بها طبقة بعينها، وإنما «تحقيق أكبر قدر من التكافؤ العقلانى والوجدانى بين جميع طبقات الأمة (...) ولن يتحقق هذا التكافؤ إلا بإشاعة قسط متقارب من المعارف وإشاعة قدر مشترك من تذوق الفنون بين فئات المجتمع.

ويتعرض المؤلف فى الختام للعلاقة بين الفنون والتراث من ناحية، وبينها وبين التطورات المعاصرة من ناحية ثانية، وينتهى إلى الصيغة التوفيقية التى لا تنفى التراث لمصلحة الحضارة المعاصرة أو العكس، مرددًا قول أنتيجونا أميرة طيبة فى مأساة أوديب ملكًا لـ«سوفوكليس»: «لم أخرج إلى هذا الوجود لأشاركه حقدًا وضغينة بل لأشاركه ودًا ومحبة».

□ □ □

الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان

عبدالوهاب المسيرى

دمشق: بيروت، دار الفكر ٢٠٠٢، ٢٤٠ صفحة



تشكل الفلسفة المادية البنية التحتية لعديد من الفلسفات الحديثة، من بينها: الماركسية والبرجماتية والداروينية، والمؤلف يبدأ دراساته بدراسة تمهيدية عن طبيعة الفلسفة المادية التى يرى أنها تتسم ببعض الصفات، منها الإيمان بوحدة الطبيعة، والإيمان بقوانين العلة والمعلول، وبأن هذه الطبيعة تتحرك بشكل تلقائى وأن لا غاية من هذا العالم المادى، ولا وجود لغيبيات تتجاوز النظام الطبيعى.

وفى الفلسفة المادية، فإن المادة تسبق العقل والأخلاق معًا، فوجود العقل ليس ضروريًا لاستمرار حركة المادة فى العالم، كما أن منطق الحاجة الطبيعية هو الذى يتحكم فى الأخلاق، وعبر عديد من الاستشهادات يؤكد المؤلف أن النموذج المادى فشل تمامًا فى تفسير ظاهرة الإنسان. ويميز بين العقل المادى والعقل النقدى والعقل الأداتى، ويوجه انتقادات عدة لكل منهم، فالعقل المادى عاجز عن التعامل مع الواقع بالتجاوز المطلوب وصولاً إلى الكليات، وهو غير قادر على إصدار الأحكام والتمييز بين ما هو أخلاقى وغير أخلاقى، بين الجميل والقبيح، وهو عقل معاد للتاريخ لأنه يدور فى إطار الطبيعة / المادة، وهى بنية إنسانية تجاوزها التاريخ، وهو يجرد الإنسان من خصوصيته وفرادته ولا يراه سوى كم محض ويختزله فى صيغ كمية رياضية بسيطة، وهو لا يدرك القداسة ولا يعرف الحرمات والمحرمات، وهو عنصرى يسقط مفهوم الإنسانية المشتركة، هو عقل تفكيكى عدمى عاجز عن إنتاج النظريات الشاملة والتوصل للحقيقة الكلية، وهو فى الإجمال عقل إمبريالى لا يلتزم بأية مقاييس أخلاقية وينكر الإنسانية تمامًا، أما العقل الأداتى (الإجرائى) فينظر إلى الواقع من منظور التماثل ولا يهتم بالخصوصية، وهو يفتت الواقع إلى أجزاء غير مترابطة دون أن تكون لديه القدرة على إعادة تركيبه، وهو ينظر إلى الإنسان باعتباره جزءًا يشبه الأجزاء الطبيعية الأخرى، وهو ينظر إلى الطبيعة والإنسان معًا بوصفهما مادة استعمالية يمكن توظيفهما لخدمة أى هدف، وهو عقل ذاتى يرى الهدف النهائى من الوجود هو الحفاظ على بقاء الذات وهيمنتها وتفوقها.

وبهذه السمات يسقط العقل الأداتى تمامًا فى اللازمنية واللاتاريخية، لعجزه عن إدراك العمليات الإجتماعية والسياسية والتاريخية فى سياقها الشامل، وبسبب تلك السمات فإن العقل الأداتى قادر على شىء واحد فقط هو قبول الأمر الواقع والتكيف معه، بما يعنى كبح أية نزعات إبداعية تتجاوز المألوف، أى أنه عقل ينفى الحرية تمامًا.

وفى مقابل العقل الأداتى هناك العقل النقدى، وهو ما لا يقنع بإدراك الجزئيات المباشرة، بل يدرك الحقائق الكلية والغاية من الوجود الإنسانى ويتعرف على إمكانات الإنسان ودوافعه، وهو بهذا المعنى عقل متجاوز لا يذعن لما هو قائم ويتقبله على علأته وإنما يمكنه القيام بجهد نقدى تجاه الأفكار والممارسات والعلاقات السائدة، أى إحداث توازن بين الذات والموضوع، وبهذا المعنى فإن العقل النقدى يحقق حرية الإنسان ويكتشف قدراته، ويمكِّنه من تجاوز ما هو قائم.

ويرى المؤلف أن الترجمة الواضحة فى التاريخ للمادية تجسدها تمامًا الداروينية الاجتماعية والعلمانية الإمبريالية الشاملة، ويفرد لهما فصلين يلخص فيهما الأطروحات الأساسية لكل منهما وتأثيراتهما على عصرنا الحديث، ويميز فى العلمانية الإمبريالية بين ثلاث لحظات يراها أقل عمومية وأصدق تعبيرًا عن العلمانية الشاملة، وهى اللحظة التايلاندية التى يظهر فيها الإنسان الجسمانى (البغاء وتجارة الجسد)، واللحظة السنغافورية التى يظهر فيها الإنسان الاقتصادى، واللحظة النازية والصهيونية التى يظهر فيها الإنسان الطبيعى المادى، أى الإنسان كمادة محضة.

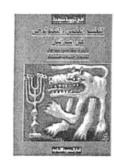
ويحلل المؤلف فى الفصلين الأخيرين مظاهر عديدة للعنصرية الغربية فى عصر ما بعد الحداثة، وللعلاقة بين المادة والإبادة بهدف تفكيك الإنسان، وتحول هذه الإمكانية الإبادية إلى حقيقة تاريخية.

□ □ □

التعليم العلمى والتكنولوجى فى إسرائيل

صفا محمود عبدالعال

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢، ٤٦٠ صفحة



يحدد الكتاب المخاطر والتحديات الإسرائيلية، وعبر ستة فصول تقدم المؤلفة التركيب البنيوى للعلم والتكنولوجيا فى إسرائيل قبل وبعد قيام الدولة. والقدرات المؤسسية لبرامج البحث والتطوير الإسرائيلية الحكومية وغير الحكومية، ومجالات البحوث الاستراتيجية العلمية والتكنولوجية. وفلسفة ومسارات التعليم التكنولوجى وتنوعها، وجامعات التعليم العلمى البحثى، وجامعات التعليم التكنولوجى والنووى.

ويطرح الكتاب العديد من الأسئلة، إضافة إلى أنه يصدم القارئ العربى بكم غير عادى من الحقائق عن واقع الدولة العبرية.. ماذا فعل العلماء الذين تدفقوا مهاجرين إلى إسرائيل من دول الشمال شرقًا وغربًا وبخاصة العلماء الذين حملوا إليها خبرات المجتمعات التى أتوا منها، كيف تم تطوير علوم الفضاء والهندسة الوراثية والمعلومات والاتصال داخل إسرائيل، كيف دعمت إسرائيل علاقاتها مع دول العالم المتقدم مما أدى إلى تسريع وتقدم بنيتها العلمية والتكنولوجية، كيف أتيح لإسرائيل ما لم يتح لأية دولة أخرى فى عالمنا المعاصر من التسريب والسطو والتجسس العلمى والتكنولوجى، بماذا يفيد العلماء اليهود المنتشرون فى العالم الكيان الصهيونى، هل يعرف العرب السياسات والملامح والتفاصيل عن المنظومة المؤسسية لقاعدة العلم والتكنولوجيا فى إسرائيل.

لماذا أصبحت إسرائيل قوة إنتاج علمى ودولة مصدرة للإنجازات العلمية التقنية. فإسرائيل زادت صادراتها من المنتجات الإلكترونية من حوالى مليار دولار عام ١٩٨٦ إلى حوالى ٦ مليارات دولار عام ١٩٩٩.

عروض موجزة

هل يعرف العرب أن نصيب الفرد العربى فى سن التعليم من الناتج القومى الإجمالى حوالى (٣٤٠) دولارًا ويصل فى الدول الخليجية (١٣٠٠) دولار مقابل حوالى (٢٥٠٠) دولار فى إسرائيل(!) وأن نسبة العلماء والتقنيين فى إسرائيل بلغت (٧٦) لكل عشرة آلاف شخص عام ٢٠٠٠ (!) وأن حجم الإنفاق العسكرى الإسرائيلى عام ١٩٩٧ يبلغ حوالى ١٠٪ من إجمالى ناتجها القومى الذى يبلغ فى العام نفسه (٨٧,٦) مليار دولار، وبلغ نصيب الفرد من هذا الناتج القومى الإجمالى (١٥٨١٠) دولارات، وأن صناعة الماس فى إسرائيل تجاوزت (٤) مليارات دولار سنة ١٩٩٥ حيث أنتجت ٨٠٪ من الإنتاج العالمى من الحجر المصقول.

الكتاب يؤكد أن إسرائيل تسعى نحو إعداد برمجيات تعليمية وتسويقها فى المنطقة العربية، بهدف تذويب العالم العربى وتفكيكه بحيث لا تقوم للقومية العربية قائمة. وتتساءل المؤلفة فى الختام: هل نترك لإسرائيل احتكار العلم والتكنولوجيا الذى يمكن اعتباره من إنجازات حرب الكواكب، بما يترتب على هذا الاحتكار من سيطرة اقتصادية وعسكرية إلى الأبد.

□ □ □

أساتذتى لنجيب محفوظ

إعداد وتقديم: إبراهيم عبدالعزيز

القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠٢، ٢٤٨ صفحة



كانت كلمات نجيب محفوظ الأولى عقب فوزه بجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٨٨ اعترافًا بفضل سابقيه ومعاصريه عليه، وبتواضعه الجم أهدى الجائزة إلى طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وسلامة موسى وحسين فوزى، وحين سُئل عمن يرشحه للفوز بهذه الجائزة اختار يحيى حقى.

المؤلف يطوف بنا عبر حوارات متصلة مع نجيب محفوظ على أساتذته الذين أسهموا فى تكوينه الأدبى والعقلى ويبدأ بصاحب القنديل فيقول عنه: «إن يحيى حقى يمثل كتابًا خاصًا للسلوكيات الحافلة، بل القيم والمعانى الإنسانية النبيلة، فضلاً عن أنه كان معلمًا لكل المبدعين وأبًا لكل الأدباء.

وقد اقترب محفوظ من حقى كثيرًا حين عمل مديرًا لمكتبه ٤ سنوات (من ١٩٥٥-١٩٥٩) حين كان يحيى حقى مديرًا لمصلحة الفنون، وتواصلت بينهما حوارات فكرية وأدبية كان لها أكبر الأثر فى تعميق نزعة الالتزام وعشق الأسلوب لدى نجيب محفوظ، أما توفيق الحكيم، فبنزعته الفنية ورهافته التى سعت إلى الاستفادة من كل التيارات والمذاهب الفنية الغربية، كان معلمًا ورائدًا - وصديقًا حميمًا فيما بعد - لنجيب محفوظ، وحين سُئل محفوظ بعد وفاة الحكيم عما تبقى منه أجاب: السؤال على هذا النحو ليس صحيحًا، السؤال هو: ماذا لم يتبق من أدب توفيق الحكيم، لأن مؤلفاته كلها مرشحة للبقاء، والفراغ الذى تركه.

وبرغم الإعجاب الشديد الذى يبديه نجيب محفوظ بالعقاد - حتى إنه يقول العقاد هو الحرية - فإن علاقتهما ظلت على الورق لا أكثر، فلم يسع محفوظ أبدًا إلى لقائه ولا العقاد فعل، لكن نجيب محفوظ يقول عنه: لقد أحببت فى العقاد فكره وموقفه وموسوعيته وكبرياءه، وكرهت فيه استسلامه للغضب.

وبحسب تعبير نجيب محفوظ، فقد رفع طه حسين روحه المعنوية حين كتب نقدًا عن رواية «زقاق المدق» ثم «بين القصرين» بعد ذلك بسنوات من الاهتمام النقدى الذى أبداه أنور المعداوى وسيد قطب بروايات نجيب محفوظ، واستمرت العلاقات بينهما كأحسن ما يكون، يقول عنه محفوظ: لقد كان رجلاً عظيمًا مضيئًا فى شخصيته وفى إبداعاته ككاتب متعدد المواهب، وقال طه حسين عن نجيب محفوظ فى واحدة من مقالاته النقدية: «لست أعرف أصدق منه تصويرًا لحياة الشعب المصرى (...) يكتب بلغة فصيحة ترتقى بقصصه إلى منازل الشعر الرفيع، دون أن يشق على قارئ أو سامع فى شىء مما يكتب أو يقول».

وإلى جانب المناصب التى تولاها الشيخ مصطفى عبدالرازق شيخًا للأزهر ووزيرًا للأوقاف وأستاذًا للفلسفة، كان مصطفى عبدالرازق أديبًا ومتذوقًا للفن والطرب، وقد قرّب ذلك كثيرًا بينه وبين نجيب محفوظ.

أما السندباد «حسين فوزى» فقد قارب بينه وبين نجيب محفوظ عشق الأخير للموسيقى الكلاسيكية العالمية والموسيقى الشرقية، وكان برنامج حسين فوزى الذى استمر يقدمه لسنوات فى إذاعة البرنامج الثقافى أحد البرامج التى يحرص عليها محفوظ فى الإذاعة المصرية، فضلاً عن اهتمامات السندباد الأدبية الرفيعة، ويسمى نجيب محفوظ أستاذه سلامة موسى «رائد الفكر الاجتماعى» ويقول عنه: استحق سلامة موسى بأفكاره التى سبقت عصره أن يضع لحياته عنوانًا هو «رجل المستقبل».

هؤلاء «بعض» أساتذة نجيب محفوظ الذين يضمهم الكتاب بين دفتيه، وإن كان محفوظ يؤكد دومًا أنه مدين للشعب المصرى بكل طبقاته وفئاته، الذين من بينهم نبعت أفكار رواياته وتجسدت شخوصها.

□ □ □

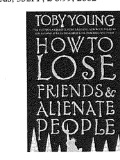
كتب أجنبية

How to Lose Friends and Alienate People

(كيف تخسر الأصدقاء وتنفّر الناس منك)

Toby Young

Abacus, 352PP, £ 6.99, 2002



فى عام ١٩٩٥ اختار الصحفى البريطانى توبى يونج مؤلف هذا الكتاب أن يترك وظيفته المهمة فى بريطانيا وهى رئاسة تحرير مجلة «مودرن ريفيو» من أجل العمل فى مجلة «فانتى فير» الأمريكية البراقة التى تهتم بالموضة والمشاهير ونجوم المجتمع. وتوقع يونج أن يخوض فى عالم جديد يحقق فيه ذاته. وكان يطمح فى أن يترك بصمته فى هذا العالم البراق والجذاب. إلا أن هذا الكتاب يصور الإحباطات وسلسلة الفشل التى عاناها وذلك فى إطار لم يخل من السخرية اللاذعة من نفسه وممن حوله.

لقد فوجئ المؤلف أن زملاءه الصحفيين فى مجلة «فانتى فير» يفتقدون لمحة السخرية ويأخذون عملهم بشكل جاد للغاية. ويتساءل: ألا يدرك هؤلاء الصحفيون أنهم يعملون فى مجال يمكن وصفه بأنه شبكة من النميمة. إن المؤلف يحكى كيف لم يستطع التأقلم مع هذا الجو الجديد وزادت الأمور سوءًا عندما بدأ مستقبله نفسه فى المجلة يتعرض للخطر، فبعد أن كان يحصل على مرتب سنوى عالٍ قدره ٨٠ ألف دولار، انخفض هذا المرتب بشكل حاد ثم تحول المؤلف إلى العمل كصحفى بالقطعة.

إن الخلاصة التى يخرج بها قارئ الكتاب هى أن الإنجاز الذى حققه المؤلف فى عمله الجديد هو الفشل، لكنه يواجه ذلك بهدوء بل بسخرية.. مشيرًا إلى أن بعضًا من أسباب هذا الفشل يكمن فى شخصيته هو. وعلى سبيل المثال فإنه كان حادًا بل ربما عدوانيًا مع محاوريه وهو يقول أنه نجح فى إهانة محاوريه بعد دقيقة واحدة من بدء الحوارات، كما أنه لم يأخذ أبدًا مجلة «فانتى فير» مأخذ الجد. وبالطبع لا يخلو الكتاب من الحديث عن عالم نيويورك الصحفى والنجاحات والإخفاقات التى حققها صحفيون بريطانيون قدموا إلى العالم الجديد للعمل هناك.

□ □ □

Blue Remembered Years..
A Political Memoir

(مذكرات سياسية)

Ian Lang

Politico's, 328PP, £ 20.00, 2002



خلال السنوات الخمس الماضية أصدر معظم أعضاء الحكومة البريطانية المحافظة السابقة مذكراتهم.

فبعد هزيمة حزب المحافظين التاريخية فى أول مايو عام ١٩٩٧، خرج للعلن، من خلال تلك المذكرات كل ما كانت الصحف ووسائل الإعلام البريطانية تحاول أن تكشف عنه من خلافات وانقسامات بين كبار زعماء الحزب فى سنواته الأخيرة فى الحكم. ولأن المذكرات السياسية، علاوة على أنها مربحة ماليًا، تعد شهادة هذا السياسى أو ذاك للتاريخ فإن الكل تقريبًا يحرص على أن يقدمها للقارئ وللباحث وللتاريخ. وفى المجتمعات الديمقراطية المفتوحة يشعر السياسى بأنه من الواجب عليه أن يقول كلمته.

وأحدث المذكرات التى صدرت على الساحة البريطانية هى للسياسى البريطانى المحافظ إيان لانج وزير شئون اسكتلندا ووزير الصناعة والتجارة الأسبق فى عهد حكومة جون ميمور.

وكان يتمتع بثقة ميجور، ولذلك فلا عجب أن ميجور كتب مقدمة للكتاب يقول فيها: فى زمن أقل ابتذالاً كان إيان لانج سيصبح رئيسًا للوزراء.

وأهم ما فى الكتاب حديث المؤلف عن السنوات الأخيرة فى حكم المحافظين وتحديدًا منذ الإطاحة بمارجريت تاتشر رئيسة الوزراء السابقة على أيدى بقية زعماء الحزب وتحالف لانج مع ميجور ثم ارتقاء لانج فى المناصب.. لكن من الأمور التى ستبقى فى تاريخ لانج والتى يعتبرها بعض السياسيين خاصة من اليساريين سبة فى جبينه هى دفاعه المستميت عن أخطاء حكومته فى مسألة بيعها أسلحة للعراق رغم أن الأمم المتحدة فرضت حظرًا على ذلك.

يومها قرر تقرير سكوت الذى ناقش القضية أن هناك انتهاكًا حدث لكن لانج رد بأن الحكومة المحافظة لم تفعل شيئًا خطأ وأنه لاداعى لاستقالة أحد.

وقد كان ذلك من بين أسباب الإطاحة بالحكومة فى الانتخابات بعد أقل من عامين.

□ □ □

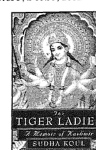
عــــــروض مـــــوجــــزة

The Tiger Ladies
AMemoir of Kashmir

(السيدات النمرات: مذكرات كشمير)

Sudha Koul

Review,218PP, £ 10.99, 2002



يعرف العالم عن كشمير أمرين: الأول أنها كانت جنة الله على الأرض، فقد منحها الله طبيعة شديدة الروعة والجمال تغنَّى بها الشعراء والرحالة الأجانب والإنسان العادى، والأمر الثانى أنها ومنذ سنوات طويلة مسرح لصراع عنيف ومسلح بين الجماعات التى تطالب بالانفصال والانضمام إلى باكستان وبين القوات المسلحة الهندية وسقط نتيجة لهذا الصراع آلاف الأشخاص ولا يبدو فى الأفق أن هذا الصراع بسبيله إلى الحل.

ومؤلفة هذا الكتاب من الهندوس الذين يشكلون الغالبية فى الهند ككل لكنهم أقلية فى كشمير ذات الأغلبية المسلمة، ولذلك فإن الآراء الواردة فى الكتاب لابد أن تكون بشكل أو بآخر منحازة لوجهة النظر الهندية خاصة أن الحديث يدور عن فترة الصراع.

ولدت المؤلفة عام ١٩٤٧ أى فى السنة التى حصلت فيها الهند وباكستان على استقلالهما وكانت تنتمى لأسرة من الطبقة العليا الهندوسية، وتلقت تعليمها الأولى على أيدى راهبات أيرلنديات وعاشت شبابها بشكل مختلف عن شباب العالم، فبينما كان الشباب فى باريس يتظاهرون ويناهضون نظام الحكم فى أواخر الستينيات كانت المؤلفة تقوم بثورة صغيرة ألا وهى رفض الزوج الذى اختارته لها أسرتها. وبدلاً من الزواج اختارت أن تتوجه إلى دلهى لإكمال دراستها وتزوجت من كشميرى تبعته بعد ذلك إلى أمريكا ليكوِّنا هناك أسرة صغيرة بعيدًا عن صراع كشمير، وتصر المؤلفة على أن الهندوس والمسلمين كانوا يعيشون فى وئام خلال طفولتها وكانت الخلافات الدينية مسألة ثانوية. ثم تتساءل: لماذا حدث ما حدث؟ ولا يخالج المؤلفة شك فى أن كشمير تحولت إلى كابوس لأن مسلمين من خارجها أرادوا تسميم عقول المسلمين داخلها سواء كان هؤلاء من أفغانستان أو باكستان.

ولا تحاول المؤلفة أن تتوسع قليلاً فى تلك القضية فكل هدفها كما تقول هو الإمساك باللحظة التى كانت فيها كشمير تعيش فى وئام بين مسلميها وهندوسها.

إن الكتاب أشبه ما يكون بنداء لعودة كشمير الجميلة، ولأن المؤلفة تنتهج أسلوبًا أدبيًا فإنها لا يهمها كيف يتم ذلك.. هل بتقرير مصير الإقليم أم ماذا؟ المهم أن تعود كشمير جميلة كما كانت.

□ □ □

SLANDER
Liberal lies About the American Right

تشويه

(أكاذيب ليبرالية حول اليمين الأمريكى)

Ann Coulter

Cromn Publishers, 256PP, $ 25.95, 2002



مؤلفة هذا الكتاب وتدعى آن كولتر محامية وقد اتبعت طريق المحاماة فى كتابها فحشدت مئات الوثائق والبيانات دفاعًا عن اليمين الأمريكى وهجومًا على اليساريين الذين يسمون ليبراليين فى الولايات المتحدة.

وتقول أنه بينما كان من المفروض إجراء مناقشة واقعية للأفكار والقضايا التى يطرحها اليمين، فإن الأمر تحول إلى حملة تشويه وقذف فى حقه من جانب الليبراليين، وكما لو كانت تكرر مقولة لماذا يكرهوننا؟ تشن المؤلفة هجمات شديدة على اليسار الأمريكى الذى لا هم له سوى انتقاد وتشويه آراء اليمين وتضليل الأمريكيين بل إنها تقول إن «الإرهابيين» الإسلاميين لا يكرهون أمريكا كما يكرهها الليبراليون «إن هؤلاء الإرهابيين ليست لديهم الطاقة التى لدى الليبراليين فى الهجوم على كل ما هو أمريكى».

ولا تنسى المؤلفة أن تخلع القفاز وتشن هجومًا على الأصوات الليبرالية وتعتبر صحيفة «نيويورك تايمز» هدفها المفضل وتنتقد ما تعتبره دعايات سخيفة من جانب الليبراليين مثل ريجان كان وحشيًا وأن كوبا لديها نظام صحى ممتاز وأن آل جور فاز فى الانتخابات الرئاسية الماضية رغم أن جورج بوش الابن أصبح رئيسًا، وأيضاً إن بيل كلينتون هو ألفيس بريسلى الزمن الحالى.

إن هذا الكتاب يأتى فى وقت يسيطر فيه اليمين على الإدارة الأمريكية، فالصقور فى تلك الإدارة سواء نائب الرئيس ديك تشينى أو وزير الدفاع دونالد رامسفيلد أو نائبه وولفوتيز لا يخفون أنهم من اليمين. والعالم كله يشهد حاليًا تنفيذ سياسات هذا اليمين الأمريكى الذى يتصرف كما لو كانت أمريكا تعيش وحدها فى العالم. وتبدو المؤلفة كما لو كانت قد تولت المعركة داخلياً فقد شنت هجومًا كاسحًا على الليبراليين الأمريكيين واتهمتهم بكل الخطايا.

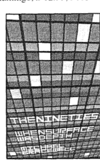
□ □ □

The Nineties: When Surface was Depth

(التسعينيات: عندما كان السطح هو العمق)

Michal Bracemell

London Flamingo, £ 12.99, 2002



ماذا سيتذكر العالم عن عقد التسعينيات من القرن العشرين، خاصة ظواهره الفنية والاجتماعية والقيمية، لقد احتل عقد الستينيات مكانة خاصة فى النصف الثانى من القرن العشرين بحيث أصبح أيقونة العقود الأخرى، فقد كان عقد الانطلاق والأحلام الكبرى والرومانسية والتمرد والبيتلز وغيرها من الظواهر بعكس عقد السبعينيات الذى لم يحتل مكانة ذات قيمة فى تاريخ القرن الماضى.

ويقول مؤلف الكتاب إن التسعينيات تبدو له كعقد لا يرغب فى الكتابة عنه، فهو عقد ظهرت فيه فرق موسيقية وفنية وصيحات اجتماعية كثيرة، لكن معظم الحركات والشخصيات التى كان لها تأثير فى ذلك العقد تكونت وخلقت عالمها فى العقود السابقة.

ويتساءل المؤلف وهو بريطانى يتحدث فى غالبية الكتاب عن بلاده، هل يمكن لإنسان مثقف أن يقول أن عقدى هو التسعينيات، أى هل هناك ما يمكن أن نتذكره بعاطفة حميمة، وباستثناء مصرع الأميرة ديانا فى حادث مأساوى مع دودى الفايد وحالة الحزن التى اجتاحت العالم على الأميرة، كانت التسعينيات قرن حروب ونزاعات ومشاكل لا حصر لها. لكنها أيضًا شهدت تغييرات اجتماعية خطيرة فى الغرب وفى بريطانيا تحديدًا، فقد زاد أفراد الأسرة ذات العائل الواحد، غالبًا الأم، بشكل كبير. وأصبحت العلاقة خارج مؤسسة الأسرة معترفًا بها. واعترف عديدون بينهم وزراء فى دول مثل بريطانيا بأنهم شاذون، وجرت معاملتهم على أنهم أقلية كالأقليات الأخرى، أيضًا تقدمت التكنولوجيا بشكل هائل ودخل الإنترنت معظم البيوت خاصة العالم المتقدم وأصبحت صناعة التكنولوجيا أهم الصناعات. باختصار كانت التسعينيات عقد التغييرات الكبرى اجتماعيًا وتكنولوجيًا، لكن على مستوى الثقافة والفن لم يكن هناك الكثير ليبقى.

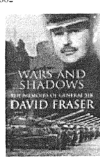
□ □ □

War and Shadows

(حرب وظلال)

General Sir David Fraser

London: Allen Lane, 3368PP, £ 18.99, 2002



مؤلف هذا الكتاب جنرال بريطانى وصل إلى منصب نائب رئيس الأركان فى القوات البريطانية فى بداية السبعينيات، وبعد تقاعده أصبح مؤرخًا عسكريًا وكاتبًا للسير الخاصة بالقادة العسكريين. ورغم أنه لم يكن قائدًا عسكريًا شهيرًا إلا أنه كان معروفًا بانضباطه وتميزه. وقد خدم فى مواقع عديدة منها قبرص وأندونيسيا، وكان قد شارك فى الحرب العالمية الثانية تحت قيادة المارشال مونتجمرى القائد البريطانى الأشهر فى القرن العشرين.

وفى هذا الكتاب يستعيد ديفيد فريزر ذكرياته عن حياته. فقد ولد لأسرة غنية وتعلم فى ايتون وصحب والده الذى كان ملحقًا عسكريًا فى أماكن عديدة فى أوروبا قبل الحرب العالمية الثانية.

ويتحدث المؤلف كثيرًا عن الفترة التى تحالفت فيها بريطانيا وأمريكا مع الاتحاد السوفيتى عام ١٩٤٢ للوقوف فى وجه النازى، ويشير إلى أنه كان يعتقد أن هذا التحالف ستكون له نتائج كارثية نظرًا لشخصية ستالين التى لم تتمتع باحترام من جانبه.

ويركز الكتاب بشكل أساسى على الحرب العالمية الثانية وخبرات المؤلف فيها والإحباط الذى تعرض له البريطانيون من جراء الضربات الألمانية الموجعة ثم النصر الكبير فى نورماندى، ويتحدث عن زملائه فى تلك الحرب وسلوك القادة.

وعندما يحاول أن يستخلص الدرس مما حدث فى تلك الحرب يقول: «لم نكن أفضل الناس حينئذ لكننا حاولنا أن نقف ونواجه الخطر وقد كان لنا النصر فى النهاية».

□ □ □

اجتمـــاع

المجتمع المدنى وسياسات الأفكار فى العالم العربى
تحرير: يسرى مصطفى
القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢
يتسم الموقف الثقافى العربى بكثير من عدم اليقين حيال قضيتى الديمقراطية والتنمية الشاملة، وهما القضيتان الرئيسيتان اللتان تركز عليهما المؤسسات الأهلية فى مجال المجتمع المدنى.

■■■

سوسيولوجيا القبيلة فى المغرب العربى
محمد نجيب أبو طالب
بيروت: مركز دراسات الوحدة الوطنية، ١٨٦ صفحة، ٢٠٠٢
يسعى هذا الكتاب لتتبع مفهوم القبيلة واستعمالاته، ولرصد أهم الآليات التى تحكمت على مدى التاريخ الحديث والمعاصر فى البناء الاجتماعى القبلى فى المغرب العربى، وللكشف عن أهم التمفصلات التى حكمت علاقة الدولة بالمجتمع فى خضم التحولات الاجتماعية فى منطقة تميزت بعمق وثراء القراءة الخلدونية للتاريخ الاجتماعى.
يحتوى الكتاب على خمسة فصول: الفصل الأول: يعالج مسألة المنهج وعلاقته بالسوسيولوجيا والأيديولوجيا والإشكاليات النظرية والتطبيقية فى مقاربة موضوع القبيلة. الفصل الثانى: مخصص لنقد النظريات الكولونيالية، والانقسامية والماركسية. أما الفصل الثالث: فإنه يعالج موضوع القبيلة والقبلية بين الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع. ويركز الفصل الرابع: على خصائص القبيلة المغاربية بين الثابت والمتغير. الفصل الخامس: نموذج تطبيقى (الحالة التونسية)، يلى ذلك خاتمة البحث.

■■■

Young Woman of Color on Today's Femenism
(شابات ملونات يكتبن عن النسوية فى عالم اليوم)
Daisy Hernandez, Bushra Rehman (editors)
Daisy Femenist Pub, 2002, 320PP, $16.95
تعرضت الحركة النسوية التى قامت فى منتصف الثمانينيات لهجوم من جانب النساء الملونات باعتبارها حركة نخبوية، بيضاء، لاتبالى بهموم النساء فى الثقافات الأخرى حول العالم.
فى هذا الكتاب، مجموعة من كتابات الجيل الجديد من النسويات اللاتى ينتمين إلى ثقافات متنوعة، وهن يكتبن فى إطار النسوية الجديدة عن الهموم الجديدة للمرأة فى المجتمعات المختلفة، ويركزن على خبراتهن الشخصية.

■■■

Heat Wave: A Social Autopsy of Disaster in Chicago
(موجة حر: تشريح اجتماعى لكارثة فى شيكاغو)
Eric Klinenberg
University of Chicago Press, 2002, 365PP., $27.50
استيقظ سكان مدينة شيكاغو الأمريكية يوم ١٣ يوليو من عام ١٩٩٥ على نهار شديد القيظ وصلت فيه الحرارة إلى ٥٢ درجة مئوية. وعندما انكسرت الموجة بعد أسبوع، كان أكثر من سبعمائة شخص قد لقوا مصرعهم نتيجة للحر وانقطاع الكهرباء. وحتى الآن كان من الصعب إيجاد سبب لهذا القدر من الخسائر فى الأرواح الذى يفوق مثيله فى جميع الكوارث الطبيعية الأخرى التى ألمت بالولايات المتحدة.
فى هذا الكتاب يقوم المؤلف بعمل «تشريح اجتماعى» للكارثة، فاحصًا العوامل الاجتماعية والسياسية والمؤسسية التى جعلت هذه الكارثة أسوأ مما كان ينبغى، ومن خلال المقابلات الشخصية والبحث الميدانى والأرشيفى توصل كلينبرج إلى أن كثيرا من السكان ماتوا بمفردهم فى منازلهم، وبعض الأحياء كانت نسبة الوفيات بينها أعلى من غيرها. والسبب فى ذلك من وجهة نظره أن الكارثة كشفت عن التفسخ الاجتماعى والعزلة التى يعانيها المئات من الذين ماتوا من الحر دون أن يشعر بهم جار أو صديق أو قريب.

اقتصـــاد

الخدمات المصرفية
علاء الدين زعزى
دمشق: دار الكلم الطيب، ٢٠٠٢
عن أهمية المصارف فى الاقتصاد المحلى والخدمات التى تقدمها للمستثمرين ورجال الأعمال، ويقدم المؤلف رؤية لجيل جديد من المصارف هى المصارف الإسلامية وأهميتها فى الوقت الراهن ودورها المركزى فى الاقتصاد الإسلامى.

■■■

التكامل الصناعى السورى ـ اللبنانى الإمكانيات والفرص
نهاد خليل دمشقية
بيروت: مركز دراسات الوحدة الوطنية، ٤٤٨ صفحة، ٢٠٠٢
يركز الكتاب، على إمكانيات التكامل الصناعى بين سوريا ولبنان، من خلال تحليل واقع الأداء الاقتصادى، والنشاط الصناعى فى كل من سوريا ولبنان، وأبرز مؤشرات وأوجه التكامل والتنافر للنشاط الصناعى فى كل من البلدين.
ويتناول هذا الكتاب، مسألة وضع الاستثمارات فى المكان الأكثر جدوى، وعلى خلق نسيج داخل النشاط الصناعى للبلدين. ويبرز مزايا التكامل الاقتصادى فى علاقة البلدان العربية والعالم الخارجى بخاصة، كما أنه يؤكد أن التكامل الاقتصادى، يشكل القاعدة الصحيحة لعمليات التنمية فى البلدان العربية.

■■■

The Rise of the Creative Class: And How It's Transforming Work, Leisure, Community and Everyday Life
(صعود طبقة المبدعين: كيف تغير من العمل والجماعة والحياة اليومية)
Richard Florida
Basic Books, 2002, 416PP, $27.50
الكتاب يتناول «طبقة المبدعين» التى أصبحت تمثل أكثر من ٣٠٪ من قوة العمل فى الولايات المتحدة وتضم ٣٨ مليون عضو ما بين علماء ومهندسين ومعماريين ومعلمين وكتّاب وفنانين وإعلاميين. هؤلاء وظيفتهم الاقتصادية هى توليد الأفكار والتكنولوجيا والمضامين الجديدة.
ويرى المؤلف أن أفراد هذه الطبقة مسئولون عن التغيرات الاجتماعية والقيمية التى حدثت فى العقود الأخيرة.
من وجهة نظره أن هذه الطبقة التى تستمد قيمها من دورها مثلها مثل الطبقة الأرستقراطية التى استمدت قيمها من السيطرة على الأراضى الزراعية، وطبقة البرجوازية التى استمدت قيمها من دورها فى تجارة البضائع.
وفى النهاية يتمنى المؤلف ـ وهو أستاذ فى التنمية الاقتصادية ـ أن يأتى الوقت وينضج أفراد هذه الطبقة ليتحولوا من الفردية والتمركز حول الذات إلى المسئولية والتماسك الاجتماعى والاهتمام بالمصلحة العامة.

تاريـــخ

القدس (١٩٤٨)
تحرير: سليم وتمارى
بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية ودار بديل بالقدس، ٢٠٠٢
ما هو مصير الضواحى والقرى العربية المحيطة بمدينة القدس التى احتلتها إسرائيل فى سنة ١٩٤٨ مثل الطالبية والبقعة والقطمون وعين كارم ولفتا.
يتتبع المؤلف من الناحية العمرانية والتاريخية حالة هذه الضواحى ونمو مدينة القدس خارج أسوارها القديمة خصوصًا فى المرحلة العثمانية، كما تتبع الأملاك العربية فى القدس الغربية، والمشكلات التى تعترض توثيقها، ويتضمن الكتاب جداول وصورا وخرائط لمدينة القدس قبل الاحتلال.

■■■

خطيئة إسرائيل الأصلية
دومينيك فيدال
ترجمة: جبور الدويهى
بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٢
يرصد هذا الكتاب محصلة الأبحاث التى انكب عليها المؤرخون الجدد فى إسرائيل أمثال بينى موريس وآفى شلايم وإيلن بابى، ويدحض الروايات التى قام عليها تاريخ إسرائيل، ثم يعيد تركيب ما يرى أنه الرواية الحقيقية لنشوء هذه الدولة. وفى سياق هذا البحث ينكشف، بالتدريج، التضليل الذى تمكنت إسرائيل من تعميمه فى الكتابات التى تناولت المسألة الفلسطينية.
يظهر الكتاب الخلاف بين المؤرخين القدامى والمؤرخين الجدد ومدى التزوير فى الوقائع والأحداث الذى مارسه المؤرخون الإسرائيليون القدامى.

■■■

صفحات من المجد فى مآثر علماء نجد
الشيخ محمد بن سعود الحمد
الرياض: المركز العربى للأبحاث والدراسات، ٢٠٠٢
عن المسيرة العلمية والتاريخية لمنطقة نجد وأهميتها فى شبه الجزيرة العربية ودور علمائها فى الفكر العربى والإسلامى المعاصر. حيث يتناول المؤلف إنجازات وآثار عديد من شيوخ نجد منهم محمد بن عبدالوهاب وسعد بن حمد بن عتيق وغيرهما.

■■■

قصة تطور العقل البشرى
محمد عبدالحميد أبوزيد
القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٢
عن بواكير حضارة الإنسان وما تلاها من فرعونية وإغريقية وإسلامية وأخيرًا النهضة الأوروبية والثورة العلمية الكبرى فى حياتنا المعاصرة وآثارها على العقل البشرى.

■■■

Modern Mind: An Intellectual History of the 20th Century
(العقل الحديث: التاريخ الفكرى للقرن العشرين)
Peter Watson
Harper Perennial, 2002, 864PP., $19.95
كتاب موسوعى لصحفى بريطانى يسجل فيه التاريخ الفكرى للقرن العشرين، فيتناول معظم التيارات الفكرية وأشهر العلماء والفنانين والاقتصاديين والفلاسفة وعلماء الاجتماع الذين أثروا فيه.
ويتمثل استنتاجه النهائى فى أن القرن العشرين سادته ثلاث قوى فكرية أساسية هى: العلم، واقتصاديات السوق الحر، والإعلام الجماهيرى. كما يلاحظ المؤلف أنه منذ الستينيات لم يظهر جيل جديد للمثقف الشامل الذى يستطيع أن يؤثر فى المجال العام.

تــراث

إلياذة هوميروس
ترجمة: ممدوح عدوان
أبوظبى: المجمع الثقافى، ٢٠٠٢
حتى الآن مازالت الإلياذة مصدر إلهام وعملاً ملحميًا قابلاً للقراءة فى كل وقت، الشاعر السورى يقدم ترجمة للملحمة التى تضم عشرات النماذج البطولية والمواقف الدرامية.

■■■

رحلة الوزير فى افتكاك الأسير
محمد الغسانى الأندلسى
ترجمة: حاتم عبد الرحمن الطحاوى
أبوظبى: دار السويدى للنشر، ٢٠٠٢

دراسة تاريخية تحليلية قدم لها الشاعر السورى نورى الجراح عن الحياة فى بلاد الأندلس (أسبانيا) فى الفترة ما بين نهاية القرن السادس عشر والقرن السابع عشر، وأوجهها فى العلوم والفنون والسياسة وغيرها.

■■■

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء
تحقيق ودراسة/ عامر النجار
القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢

هذا كتاب من تراث الطب العربى يقدم فيه المؤلف تاريخ مهنة الطب والعلاج فى الحضارة الإسلامية، والتجارب التى أجراها البحّاثة العرب مستخدمين ما أتيح لهم من أدوات الطبيعة وما حققوه فيها من نتائج، فضلاً عن أهم الأطباء الإسلاميين الذين كان لهم فضل السبق فى اكتشاف الكثير من العقاقير وطرق العلاج.

"تعليم"

التعليم العلمى والتكنولوجى فى إسرائيل
صفا محمود عبدالعال
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

تفتح الدراسة واحدًا من المشاهد الغريبة من العدو الإسرائيلى، دراسة فى مؤسسات العلم والتكنولوجيا وحجم الإنفاق على البحوث والدراسات ومعاهد البحث العلمى والتطوير، وتكشف عن نتائج مذهلة مقارنة بحجم الإنفاق على الأبحاث العلمية فى الوطن العربى بما يعكس حجم التفاوت بين العرب وإسرائيل ويؤكد على واحد من الأبعاد الغائبة فى ميدان الصراع.

■■■

مستقبل الجامعة فى مصر
مصطفى عبدالغنى
القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٢

لعبت الجامعة دومًا دورًا مؤثرًا فى مسيرة النهضة، لكن دورها تراجع الآن مع زيادة أعداد المقبولين وتراجع مستويات الخريجين وضعف الموارد المخصصة للإنفاق على البحث العلمى فى إطار الجامعة، كيف يمكن انتشال الجامعة من هذه الحالة ووضعها على الطريق الصحيح؟

"دوريات"

الألسن للترجمة
عدد من الباحثين
القاهرة: كلية الألسن، ٢٠٠٢

ترجمة لعديد من الموضوعات والكتب الحديثة وأبواب ثابتة مثل المصطلح، كشاف المترجمين، قراءات، متابعات. ويحتفل العدد بالمترجم الراحل طه محمود طه الذى ترجم عوليس لجيمس جويسى فضلاً عن إبداعات كبيرة أخرى.

■■■

الدراسات الفلسطينية
رئيس التحرير: أحمد صالح الخالدى
بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٢

يتناول هذا العدد الوضع الراهن فى فلسطين المحتلة، ودور الانتفاضة فى دفع الصمود الشعبى لمواجهة مخططات الاحتلال، كما يتضمن العدد دراسات ومتابعات للانتهاكات الإسرائيلية لحقوق الإنسان وتدمير مؤسسات السلطة الفلسطينية.

■■■

الثقافة النفسية المتخصصة
مجموعة من الباحثين
بيروت: مركز الدراسات النفسية، ٢٠٠٢

خصصت المجلة ملفًا لموضوع الاضطرابات النفسية التى يعانيها الأطفال الفلسطينيون بسبب الاعتداءات الإسرائيلية المستمرة والحصار الذى تفرضه على الأراضى الفلسطينية، بين دراسات الملف: خصوصية صدمة الانتفاضة (محمد النابلسى)، سيكولوجية طفل الانتفاضة (فيصل الرزاز)، كما يتضمن الملف تقرير لجنة خبراء المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة حول الموضوع ذاته.

"رحلات"

بانوراما الحياة السياحية
ماكنتوش وتشارلز جيولدزوجى
ترجمة: عطية محمد شحاتة
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

عن تاريخ الرحلات السياحية وفلسفتها لدى كل شعب من شعوب العالم، والعوامل التى تساهم فى التنشيط السياحى وتأثير السياسة الدولية والاضطرابات الإقليمية على السياحة العالمية.

■■■

من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق.. جولات فى أمريكا وأوروبا والشرق الأقصى وأستراليا
عباس الطرابيلى
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

سياحة فى أدب الرحلات، وهو نوع أدبى كاد أن يندثر برغم انفتاح العالم وتحوله إلى قرية كونية كبيرة، والمؤلف يستعرض عبر رحلاته كنوز هذه البلدان السياحية والثقافية، لتضاف إلى ما قدم من قبل عبر كتابين فى أدب الرحلات، كان أحدهما عن الأطعمة وعادات الغذاء فى عديد من دول العالم.

■■■

The Art of Travel
(فن الارتحال)
Alain de Botton
Hamish Hamilton, 2002, 272PP., $14.99

تعد الرغبة فى التواجد بمكان آخر إحدى سمات الطبيعة البشرية الثابتة منذ الأزل، وفى هذا الكتاب يحاول الناقد والكاتب آلان دو بوتون تفسير هذه الظاهرة من خلال استعراض تجارب السفر فى حياة كبار الكتاب والفنانين من أمثال فان جوخ، ورسكين، وويليام ووردز ورث، وفلوبير. يقول دو بوتون أن رغبة الإنسان فى السفر تنبع من الرغبة فى التغيير، ومع هذا فإن هذه الرغبة غالبًا ما تخذل، ولا يتم إشباعها، وهو يضرب المثل بفلوبير الذى كان يعيش فى نورماندى ويحلم بالسفر إلى مصر، ولكنه ما أن وصل إلى الأهرامات حتى أصابه الحنين إلى طقس بلاده المطير.

■■■

Stranger on a Train
(غريب فى القطار)
Jenny Diski
Picador, 2002, 288PP., $24

جابت المؤلفة أنحاء الولايات المتحدة بالقطار، ودوّنت فى هذا الكتاب تفاصيل رحلتها، وبخاصة مختلف أنواع الشخصيات التى تعرفت عليها فى القطارات التى استقلتها من مدينة لأخرى.

"روايات وقصص"

أشياء غريبة تحدث
منى الشافعى
الكويت: دار قرطاس، ٢٠٠٢

مجموعة قصصية ترتكن على المثير والغرائبى، وتحتل فيها الأسطورة موقعًا فريدًا وترابط بينها فى تشابك وانسجام.

■■■

الدهشة
فيصل السعد
بيروت: عمان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

الشخصية الرئيسية فى الرواية طبيب غريب الأطوار، وهكذا يلتبس شخوصه مس من الغرابة والطرافة والتداخل بين الحقيقى والأسطورى فى تناغم مدهش.

■■■

الضغينة والهوى
فواز حداد
دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٢

رواية عن القادمين من الغرب: مبشرين ودبلوماسيين وعملاء مخابرات ومغامرين ومنقبين عن الآثار وجواسيس، ممثلى شركات نفط ومراسلين صحفيين، ما الدور الذى لعبه هؤلاء فى منطقتنا، وما الصورة التى عكسوها عنا؟

"سياسة"

الأقصى فى مواجهة أفيال أبرهة
حلمى محمد القاعود
القاهرة: مركز الإعلام العربى، ٢٠٠٢

متابعة للانتفاضة فى مسيرتها الظافرة بإذن الله، ومناقشة ما يجرى على الساحة الفلسطينية من خلال تحليل يعالج الوقائع ويرصد مجرياتها، ويطرح تصورًا إسلاميًا فى مواجهة وحشية الآلة العسكرية الإسرائيلية ويمجد الشهادة والاستشهاديين.

■■■

القضية ليست القضية
محمد الفطايرى
القاهرة: دار الطباعة الحديثة، ٢٠٠٢

دراسة فى جذور المشكلة الفلسطينية قبل التقسيم فى عام ١٩٤٧، وتحليل وثائقى لمرجعيات القضية بما يثبت الحق العربى وتفنيد لما تنطوى عليه اتفاقات ومعاهدات السلام الأخيرة.

■■■

المقامرة الكبرى
عبدالرحيم على
القاهرة: مركز المحروسة للنشر والمعلومات، ٢٠٠٢

منذ أعلنت الجماعة الإسلامية مبادرتها لوقف العنف قبل خمس سنوات، والمراقبون يحللون هذا الموقف ويتساءلون عن جدية المبادرة وإمكانية حدوث تغيير حقيقى فى موقف الجماعة، وما إذا كان هذا التحول يدخل فى باب القضية، أم أنه تحول فى الفكر وأسلوب العمل معًا، خصوصًا أن المبادرة لقيت دفعًا إعلاميًا رسميًا فى أعقاب أحداث سبتمبر، المؤلف يحلل مواقف الجماعة ويقدم رؤية «متشككة» فى جدوى مبادرتها السلمية.

■■■

إرهاق الوجود الإسرائيلى
حسين الشافعى
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

يقدم المؤلف الذى شغل منصب نائب رئيس الجمهورية فى مصر وكان أحد الضباط الأحرار فى يوليو ١٩٥٢، تخطيطًا استراتيجيًا لاستدراج الإسرائيليين إلى معركة ممتدة وشاملة: سياسية واقتصادية وثقافية وعلمية لا يستبعد منها أيضًا الخيار القتالى والعمليات الفدائية.

■■■

إشكالية الوحدة
عونى فرسخ
القاهرة: دار المستقبل العربى، ٢٠٠٢

يتعرض المؤلف بالتحليل والنقد لأول مشروع وحدوى عربى والذى جمع بين مصر وسوريا وفشل بعد ثلاث سنوات فقط (١٩٦١)، والأسباب التى أدت إلى انهيار هذه التجربة، وسبل تحقيق وحدة على أسس أكثر صلابة ومصداقية.

■■■

تركيا ميدان الصراع بين الشرق والغرب
محمد طه الجاسر
دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

لا يؤرخ الكتاب للدولة العثمانية أو التركية، وإنما يتناول بالبحث الصراعات التى جرت منذ منتصف الحكم العثمانى وحتى اليوم، والتى جرى بعضها بين الغرب والدولة العثمانية، وصورة هذا الصراع فى الوقت الحالى.

■■■

قراءات جديدة

حقوق الإنسان فى الفكر العربى
سلمى الجيوشى وآخرون
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٢

آراء لنحو ثمانية وثلاثين مفكرًا عربيًا حول حقوق الإنسان العربى فى الوقت الراهن، وهو البُعد الغائب فى الحياة العربية، فحقوق الإنسان العربى مهضومة ربما إلى حد التلاشى، وهو ما تجاهد منظمات شتى من أجله.

■■■

عبدالناصر والثورة الأفريقية
محمد فائق
القاهرة: دار المستقبل العربى، ٢٠٠٢

لم تكن ثورة يوليو ١٩٥٢ بعيدة عن حركات التحرر الأفريقية، بل إنها مدت لها يد العون وتفاعلت معها حتى تمكنت حركات التحرر من تحقيق أهدافها فى الحرية والاستقلال. المؤلف يركز على هذا الدور وطبيعة المساعدات التى قدمتها الثورة لحركات التحرر الأفريقية.

■■■

مصر والدائرة المتوسطية
سمعان بطرس فرج الله
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

تتعدد دوائر الانتماء التى تتحرك فيها مصر بين عربية وإسلامية وأفريقية، وقد برزت مؤخرًا الدائرة المتوسطية التى تجمع مصر بدول حوض البحر الأبيض المتوسط، وهذا الكتاب يدرس واقع مصر ومستقبلها فى إطار هذه الدائرة حتى عام ٢٠٢٠، وكيف يمكن الاستفادة من الشراكة مع أوروبا فى هذا الإطار.

■■■

The Israeli - Palestinian Conflict Crisis in the Middle East
(الصراع الفلسطينى الإسرائيلى: أزمة فى الشرق الأوسط)
Journalists of Reuters
Reuters Prentice Hall, 2002, 240PP., $ 29.00

كتب فريق من مراسلى وكالة رويترز للأنباء فى الشرق الأوسط تحليلاً للصراع العربى الإسرائيلى فى الخمسين عامًا الماضية، فى محاولة لتحرى الحياد والموضوعية والتوازن فى تقديم مراحل الصراع، مع التركيز على الانتفاضة الحالية. يعتمد الكتاب على تقارير مراسلى رويترز والصور الفوتوغرافية التى التقطها مصورو الوكالة من خلف خط النار.

■■■

Forbidden Truth: U.S.- Taliban Secret Oil Diplomacy and the Failed Hunt for Bin Laden
(الحقيقة الممنوعة: دبلوماسية البترول السرية بين الولايات المتحدة وطالبان وعملية الاصطياد الفاشلة لبن لادن)
Jean-Charles Brisard, Guillome Dasquie, Lucy Rounds (translator)
Avalon Pub. Group, 2002, 249PP., $ 12.95

تُرجمَ هذا الكتاب عن الفرنسية مؤخرًا بعد أن أصبح من أكثر الكتب مبيعًا فى أوروبا لما يتضمنه من أدلة عن المباحثات السرية بين إدارة بوش وطالبان من فبراير ٢٠٠١ وحتى أغسطس ٢٠٠١. هذه المباحثات التى تتبعها وجمعها أحد أكبر الصحفيين الفرنسيين المتخصصين فى شئون المخابرات، دارت حول جهود بوش فى تأمين خط أنابيب بترول يجرى من كازاخستان عبر أفغانستان إلى المحيط الهندى. يتضمن الكتاب تصريحًا مثيرًا لرئيس مكافحة الإرهاب السابق فى الـ«إف.بى.آى» جون أونيل والذى توفى فى ١١ سبتمبر فى انفجار مركز التجارة العالمى.

"سير ومذكرات"

Meybela: My Bengali Girlhood: A Memoir of Growing Up Female in a Muslim World
(طفولتى البنجالية: مذكرات عن نشأتى كأنثى فى عالم إسلامى)
Taslima Nasrin
Steerforth, 2002, 328PP., $ 26.00

تعيش الكاتبة البنجالية تسليمة نصرين فى المنفى منذ عام ١٩٩٤ عندما صدرت ضدها فتوى بسبب انتقاداتها الموجهة للإسلام. وبعد رواية «العار» التى اشتهرت بها فى الخارج، تقوم تسليمة فى هذه المذكرات برواية تفاصيل حياتها منذ أن تأسست دولة بنجلاديش فى حرب عام ١٩٧١ وهى مازالت طفلة. عاشت تسليمة فى الريف مع أسرتها حيث عانت من القيود التى منعتها حتى من الذهاب إلى المتجر لشراء الحلوى أو اللعب خارج المنزل، بينما عانت أمها من زوج يخونها على الملأ، فلجأت لأحد رجال الدين من محترفى الشعوذة. يتضح من مذكرات تسليمة أن السبب الأدق فى معاناتها ومعاناة النساء فى بنجلاديش هو الجهل وليس الإسلام.

■■■

Haruki Murakami and the Music of Worlds
(هاروكى موراكامى وموسيقى الكلمات)
Jay Rubin
Havill Pr., 2002, 285PP., $ 25.00

قام البروفيسور جاى روبن بدراسة كتابات الروائى اليابانى هاروكى موراكامى الحاصل على جائزة نوبل فى الآداب منذ عام ١٩٩٣، وقد عقد معه مقابلات شخصية عديدة خاصة أثناء إعداده لترجمات روايات موراكامى إلى اللغة الإنجليزية.

فى هذا الكتاب يكشف روبن عن الجوانب الشخصية فى حياة موراكامى والتى أحيانًا تظهر فى أجزاء من رواياته، كذلك يتناول نشأته فى اليابان والأعمال الغربية التى قام بها قبل أن يتجه إلى الأدب.

"شعر"

حالة حصار
محمود درويش
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٢

ديوان أخير للشاعر الفلسطينى الكبير، يجسد حالة الحصار التى يعانيها الفلسطينيون تحت ربقة احتلال غاشم وسط حالة من الضعف العربى المهين، فى الديوان رائحة النضال الفلسطينى وجسارة شعبها المناضل.

■■■

قصائدى فى رحاب القدس
فاروق جويدة
القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ٢٠٠٢

قصائد عن الحلم العربى والوحدة وإمكاناتها والآثار الكارثية للاحتلال الصهيونى لبيت المقدس. الشاعر أيضًا يمجّد الانتفاضة الفلسطينية والنضال الأسطورى للشعب تحت الاحتلال، من قصائده: رسالة إلى بوش من طفلة مسلمة، الخيول لا تعرف النباح، رسالة إلى شارون، وإن هان الوطن يهون العمر.

■■■

كأننى السراب
حكمت النواية
بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢

مجموعة جديدة من القصائد التى تعالج أغراضا متنوعة، يستفتحها الشاعر بقصيدة عن الانتفاضة يرثى فيها الواقع العربى المتخاذل، كما تغوص بعض القصائد فى ذاكرة الشاعر، فضلاً عن قصائد أخرى مهداة للفنان التشكيلى محمد العامرى.

"علوم"

Calculated Risks: How to Know when Number Decieve You?
(مخاطر محسوبة: كيف تعرف أن الأرقام تخدعك؟)
Gerd Gigerenzer
Simon & Schuster, 2002, 310PP., $ 25.00

يحذر مؤلف الكتاب العالم الألمانى جيجرنزر من مخاطر «الأمية الإحصائية» التى يعانى منها معظم الناس فى حياتهم اليومية، وهى المتمثلة فى عدم القدرة على فهم الاحتمالات ونسب المخاطرة.

فالتقدير السليم للاحتمالات ونسبة المخاطرة قد تتوقف عليه أشياء مثل تجنب حادث سيارة أو الموقف إزاء أحد الاختبارات الطبية، وهو ما يحتاج إلى فهم أساسيات الإحصاء. والمواطن يعيش فى خضم هائل من النسب المئوية والاحتمالات فى مختلف مناحى الحياة، أما الأمر الخطير فهو أن كثيرا من الأطباء والمحامين والمهنيين يصدرون قرارات خاطئة نتيجة للأمية الإحصائية، فعلى سبيل المثال يقول المؤلف إن أحد الأطباء أقنع تسعين سيدة غير مصابة بالسرطان باستئصال أثدائهن، حيث إن هناك درجة عالية من احتمال إصابتهن بسرطان الثدى. ولو كان هذا الطبيب يعرف معنى الاحتمالات لأدرك أن أربعا وثمانين سيدة من التسعين لسن معرضات للإصابة بسرطان الثدى على الإطلاق.

■■■

A Matter of Degrees: What Temperature Reveals About the Past and Future of our Species, Planet, and Universe
(مسألة درجات: ما تكشفه لنا درجات الحرارة عن ماضى ومستقبل الكائنات الحية والكواكب والكون)
Gino Segre
Viking Press, 2002, 320PP., $ 24.95

يعتبر أستاذ الفيزياء جينو سيجرى أن مقياس الحرارة هو أهم المقاييس الأساسية الثلاثة التى تشمل أيضًا الزمن والمسافة. ومن خلال التركيز على عنصر الحرارة، يقدم سيجرى فى هذا الكتاب مسحًا لتاريخ العلم والطبيعة والحياة على الأرض.

"فكر"

العرب من الحداثة إلى العولمة
صالح السنوسى
القاهرة: دار المستقبل العربى، ٢٠٠٢

مازالت الحداثة إشكالية تواجه المجتمعات العربية، والتى لم ترحب بها باعتبار أن كثيرًا من مظاهرها أتى من الغرب، والآن يقف العرب فى مواجهة العولمة بكل ما فيها، وكالعادة منقسمون بين مؤيد ومعارض.. فماذا بوسعهم أن يفعلوا حيالها؟

■■■

على ضفاف الثقافة
عمرو عبدالسميع
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢

رؤية للواقع المصرى والعربى سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا من خلال مجموعة من الحوارات المهمة أجراها المؤلف بين بريطانيا وأمريكا حيث عمل مراسلاً لجريدة الأهرام فى كل منهما، ومن الشخصيات التى حاورها: السيدة سوزان مبارك، د. أحمد زويل، د. جابر عصفور، د. رشدى سعيد، د. مصطفى الفقى والشاعر الراحل نزار قبانى.

■■■

كتابات فى العقل المصرى
طارق حجى
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢

يقدم المؤلف خلاصة تجاربه الفكرية وآرائه فى معوقات التنمية بوصفه خبيرًا اقتصاديًا وإداريًا، وينتهى إلى أن مشكلات التنمية الأساسية تكمن فى طريقة التفكير وغياب الفكر العلمى عن أسلوب حياتنا.

■■■

لماذا أخفقت النهضة العربية

محمد وقيدى - أحمد النيفر

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٢

يتجادل المؤلفان حول هذا العنوان الكبير الذى يأتى ضمن مشروع حوارات القرن الجديد، فهل كان إخفاق النهضة سببه فشل التطبيق أم عقم السياسات أم عدم القدرة على مواجهة إشكالات النهضة الحقيقية فى السياسة والاقتصاد وسبل الحياة.

■■■

مصر بين الأمل والألم

أحمد عزالعرب

القاهرة: مكتبة مدبولى الصغير، ٢٠٠٢

يحكى المؤلف عن معاناة جيل ناضل وكافح وقدم تجربته على طبق من فضة للأجيال التالية، ثم كفاح الأجيال التى تلته وصولاً إلى حالة السلبية واللاانتماء التى تعيشها قطاعات واسعة فى الجيل الحالى، وكيف يمكن لهذا الجيل أن يستفيد من تجارب الأجيال السابقة.

■■■

موسوعة أعلام الفكر العربى

عدد من الباحثين

القاهرة: مكتبة مصر، ٢٠٠٢

استمرارًا لسلسلة بدأتها الدار ذاتها عن الأعلام المعاصرين فى الفكر المصرى والعربى، وفى هذا الكتاب نطالع إنجازات وسيرة عدد من الشخصيات البارزة منها الشيخ محمد أبوزهرة والشاعر صالح جودت وآخرين.

"فكر دينى"

التحرير الإسلامى للمرأة

محمد عمارة

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢

حصدت المرأة حقوقًا فى الإسلام لم تنلها قبله، وحتى الديانات السابقة لم تكرّم المرأة كما كرّمها الإسلام، وهو ما يؤكد كذب ادعاءات المستشرقين، فما حصلت عليه المرأة فى ظل الإسلام حقق لها استقلالها الاقتصادى والمعنوى، وهكذا تحررت كما يقول المؤلف معددًا مظاهر هذا التحرير.

"فنون"

الحضارة الفنية التشكيلية فى مصر القديمة

محمد النبوى الشال

نهال الشال

القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٢

إطلالة من نوع خاص على الحضارة الفرعونية، يتناول فيها المؤلفان الأسر والملوك التى حكمت مصر وكيف تطور الفن التشكيلى فى عهدها، وكيف كانت حدود الارتباط بين الفنون التشكيلية وازدهار الدولة أو انحدارها، ويقدم المؤلف جوانب من فنون المصريين القدماء فى التصوير والنحت وغيرها.

■■■

الخدع والمؤثرات الخاصة فى الفيلم المصرى

سعيد الشيمى

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٢

المؤلف مصور سينمائى يدّرس التصوير بالمعهد العالى للسينما، وهو يعرض فى كتابه للدور الذى تلعبه المؤثرات المختلفة فى صناعة الفيلم، من مؤثرات صوتية وإضاءة واختيار أماكن التصوير والديكور والمكياج.. إلخ.. وتلاحمها مع السيناريو ورؤية المخرج.

■■■

تاريخ الرسم الصحفى فى مصر

ناصر عراق

القاهرة: دار ميريت، ٢٠٠٢

دراسة فى فن الكاريكاتير والرسم الصحفى فى مصر منذ بدايته، وأهم الموضوعات التى ناقشها ودوره فى الصراع السياسى والاجتماعى، وأبرز فنانى الكاريكاتير المصريين من أمثال رخا وعبدالسميع وزهدى وصاروخان وصلاح جاهين ومصطفى حسين وآخرين.

■■■

Art and Revolution in Latin America 1910 - 1990

(الفن والثورة فى أمريكا اللاتينية. ١٩١٠-١٩٩٠)

David Craven

Yale University Press, 2002, 240PP., $55.00

المؤلف يبحث الأثر الذى خلفته ثلاث ثورات فى أمريكا اللاتينية على الفنون المرئية والسياسات الثقافية. الثورات الثلاث هى تلك التى حدثت فى المكسيك (١٩١٠-١٩٤٠)، وفى كوبا (١٩٥٩-١٩٨٩)، وفى نيكاراجوا (١٩٧٩-١٩٩٠). يناقش المؤلف - وهو أستاذ تاريخ الفن بجامعة نيو مكسيكو - منطق المشروع الفنى لكل حركة من هذه الحركات، مبينًا كيف ترددت أصداء الثورة فى الفن والثقافة إلى ماوراء الحدود القومية.

■■■

Flash Frames: A New Pop Culture

(عروض فلاش: ثقافة شعبية جديدة)

Lauri Dolphin, Stuart Shapiro

Watson-Guplil, 2002, 128PP, £ 17.95

ولّدت ثورة الإنترنت شكلاً جديدًا من الفن الإلكترونى يعتمد على تقنية برامج «فلاش» فى عرض الرسوم والأشكال المتحركة وصناعة أفلام قصيرة. والآن أصبح مخرجو الأفلام السينمائية الحديثة يستعينون بفنانى «فلاش» لصنع بعض المشاهد السينمائية وكذلك الفيديو كليب الموسيقية كبديل عن الوسائل التقليدية الأكثر تكلفة وأقل سرعة.

يقدم هذا الكتاب إبداعات أكثر من أربعين فنانًا من رواد «فلاش» فى العالم.

"مسرح"

ليلة السهروردى الأخيرة

فريد أبوسعدة

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

مسرحية جديدة للشاعر المصرى يقول عنها أستاذ الفلسفة حسن حنفى فى تقديمه أنها تضع نفسها فى نوع أدبى جديد يجمع بين التصوف والفلسفة، بين الذوق والعقل، بين المشاهدة والنظر، تضم المسرحية التى تعرض لمأساة الفقيه المتصوف شهاب الدين أبوالفتوح السهروردى أربعة عشر مشهدًا.

"نقد"

الأدب الساخر

القاهرة: فرع ثقافة الجيزة، ٢٠٠٢

شهادات فى أبحاث مؤتمر الجيزة الأدبى الثانى، ويتضمن دراسات عن البُعد الاجتماعى فى كاريكاتير صلاح جاهين للفنان جمعة فرحات، والسخرية فى حديث عيسى بن هشام للدكتور سيد البحراوى والمسرح الساخر عند الفراعنة للفنان الناقد صبحى شفيق وغيرها من الموضوعات.

■■■

الصوت والصدى

حسين جمعة

عمان: دار الينابيع، ٢٠٠٢

دراسات نقدية وتحليلية لفن الرواية عمومًا ولفن الرواية الأردنية على وجه الخصوص فى أكثر من ٢٢ مقالاً نقديًا تؤرخ لتطور الرواية فى الأردن والمراحل التى عبرتها.

■■■

الغيم والمطر.. الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة

مصطفى عبدالغنى

القاهرة: دار الجهاد، ٢٠٠٢

دراسة تحليلية للرواية الفلسطينية منذ زمن النكبة، وانعكاسات الأحداث التى مرت بالقضية الفلسطينية على أعمال المبدعين حتى اليوم، وبين من يدرسهم المؤلف: جبرا إبراهيم جبرا وغسان كنفانى وسحر خليفة وهشام شرابى وآخرون.

■■■

المرأة واللغة.. الحقيقة والوهم

مصطفى عبدالواحد

القاهرة: دار إحياء الكتاب العربى، ٢٠٠٢

يفند المؤلف بعض الدعاوى التى تشير إلى أن الرجل حـرّم على المرأة أن تعبّر بلسان أنثوى فى الشعر والرواية وغيرها من دروب الإبداع، ويؤكد على أن إبداعات المرأة تنوعت وحققت تميزًا واضحًا فى السنوات الأخيرة، ويقدم شواهد على ذلك من إبداعات المرأة العربية المعاصرة.

■■■

النقد ومستقبل الثقافة العربية

فريال حسن خليفة

القاهرة: دار العالم الثالث، ٢٠٠٢

إطلالة على الإسهامات النقدية والفكرية لعديد من المصلحين ورواد الفكر العربى من أمثال رفاعة الطهطاوى وجمال الدين الأفغانى، والمشروعات النهضوية الثقافية للأجيال التالية من أمثال زكى نجيب محمود وطه حسين وإسماعيل أدهم وغيرهم. وتلقى المؤلفة أضواء على الثقافة المصرية المعاصرة وآفاقها المستقبلية.

■■■

تحولات الشعرية العربية

صلاح فضل

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٢

دراسة تتناول مسار الحركة الشعرية منذ الإحياء والبعث على يد أحمد شوقى والبارودى ثم شعراء المدرسة الكلاسيكية فالرومانسية والمهجر وشعراء الحداثة. يدرس المؤلف طبيعة هذه التحولات وأهم الرموز التى عبّرت عنها.

■■■

حداثة شكسبير

د. إسماعيل سراج الدين

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢

عن مسرحيتين من أهم مسرحيات شكسبير هما عطيل وتاجر البندقية، وخلالهما يطرح المؤلف مشروعًا نقديًا مميزًا ينير جوانب مظلمة فى أدب شكسبير ومسرحه.

■■■

دراسات شرقية

على أكبر ضيائى

إيران: أمين للنشر، ٢٠٠٢

إطلالة واسعة على الثقافة الإيرانية ونماذج من المخطوطات العربية والفارسية. وأشعار فى الفلسفة والتصوف لشعراء عرب وفرس، خصوصًا أن الثقافتين العربية والفارسية تجمعهما وشائج عميقة، كما أن كثيرًا من المبدعين الفرس أبدعوا بالعربية.

■■■

رياح الانشطار.. قضايا ومعارك أدبية ونقدية

صبرى قنديل

الإسكندرية: دار الوفاء، ٢٠٠٢

يرسم المؤلف بانوراما لمشروع ثقافى يلبى الاحتياجات الفكرية والإبداعية والاجتماعية كذلك ويساهم فى تقدمها، كما يحلل سلوك المثقفين المعاصرين وما يجب أن يكونوا عليه. فضلاً عن تحليل لأهم المعارك الثقافية التى شهدتها مصر فى السنوات الأخيرة.

■■■

Cervantes In Algiers: A Captives Tale

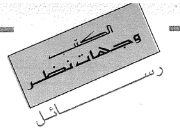
(سرفانتس فى الجزائر: رواية أسير)

Maria Antonia Garces

Vanderbilt UP. 2002, 312P.

فى طريقه إلى العودة لأسبانيا بعد مشاركته فى معركة ليبانتو ضد الأتراك، أسر الجندى ميجيل دى سرفانتس على يد مجموعة من قراصنة البربر واقتيد إلى الجزائر.

يتناول هذا الكتاب التأثير الذى خلفته خمس سنوات فى الأسر على أعمال سرفانتس اللاحقة. كما يتناول العلاقة بين الإسلام والمسيحية من خلال استعراض المحيط الاجتماعى والسياسى فى جزائر القرن السادس عشر.



❞ ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها.
مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء . مثلها مثل المقالات ذاتها . لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها ❝

التعليم والهرم الاجتماعى فى مصر

عدد يوليو ٢٠٠٢ من «الكتب وجهات نظر».. عقد ثمين به مقالات درر!!

فقد ضم مقالات تكشف عن جذور الأسباب التى حتمت قيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م. ومن الممكن (لضمها) فى خيط قوى دقيق يجمعها، ليكون واسطة العقد مقال الأستاذ ذوقان قرقوط «يوليو.. لماذا؟» وعلى جانبيه مقالا الأستاذ رضوان السيد عن «الطهطاوى» والأستاذ هيكل عن «الملك تحت الحصار».

لقدكان الهرم الاجتماعى فى مصر حتى نهاية القرن الثامن عشر يتكون من قاعدة عريضة يشكلها أبناء الشعب المصرى من الفلاحين فى الوجهين البحرى والقبلى، وكانت الكتاتيب هى الوسيلة الوحيدة لتعليم الشعب، وقد اقتصرت الدراسة فى بعض الكتاتيب التى يديرها الفقهاء العميان على تحفيظ القرآن فقط نظير أجر زهيد من نقود أو غلال. وفى الكتاتيب التى يديرها الفقهاء الآخرون كان دور الكُتّاب يتعدى تحفيظ القرآن إلى تعليم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب. وكانت بعض الأسر المقتدرة ـ وهم ندرة ـ تنذر أحد أبنائها للعمل فى الأزهر الشريف، ويكون له ـ تقديسًا لخدمة العلم ـ نفس الحصة من إيراد الزراعة تتساوى مع بقية إخوانه العاملين بخدمة الأرض.

وكانت تعلو قاعدة الفلاحين طبقة من تجار الحاصلات الزراعية ومن الموظفين لدى الحاكم من الصيارفة وجباة المكوس والضرائب، وكانوا خليطًا من المصريين والشوام والمغاربة والأجانب من غير العرب. وتعلو تلك الطبقة أخرى من الجند والعسكر من غير المصريين، وعلى القمة يجلس الحاكم ليمارس (تسليط) الجند على الجباة، فيتسلط الجباة على من تحتهم من التجار والفلاحين. لذلك كان الصبر أكثر الحكَم التى وردت دلالاتها فى الأمثلة الشَعبية المصرية، وكانت الاستكانة نوعًا من المقاومة بالمكر، يظهر به المرء غير ما يبطن حتى قيل عنه (مكر فلاحى). وفى أحيان نادرة حين تتهيأ القيادة والقدوة كانت تقوم هبّات شعبية ضد الظلم يقودها صعاليك من العربان أو شيوخ من الفلاحين الذين أقاموا دولاً مستقلة!! فى شرق أو غرب الدلتا وفى الصعيد.

ولعل أهم هذه الهبّات التى قادها السيد عمر مكرم فى أوائل القرن الثامن عشر ضد ظلم الحكام من المماليك، ورغم نجاحه إلا أنه زهد العمل فى السياسة (باعتبارها لعبة خداع قذرة) وجاء بمحمد على واليًا على مصر عام ١٨٠٥م، والذى نجح فى خداع عمر مكرم وغيره من الزعماء من أبناء الأسر والقبائل من الفلاحين والعربان بأنه إن أجلسوه على قمة الهرم سيحكمهم بالعدل!

ولكن ظهرت حقيقة نواياه فى حلمه بإنشاء امبراطورية خاصة به فى مصر مثلما كان يأمل نابليون بونابرت.. بعدما دبر مذبحة القلعة للمماليك المناوئين له ونفى الزعماء الوطنيين حتى ينفرد بالسلطة.

وهكذا أصبح الشعب المصرى كما كتب بصدق الأستاذ ذوقان قرقوط (يوليو لماذا؟.. و.ن./٧/٢٠٠٢): «لابد أن نتذكر.. كان (جنس الفلاح) هذا الذى تزدريه الست التركية، هو البلاد، عندما وفد إليها محمد على.. فانتزع منه أرضه.. وعبثت (بطولات) محمد على ومظاهر نهضته بعقولنا فحجبت عنا، كيف تحول أصحاب البلاد (الفلاحون المعدمون؟) إلى أن أصبحت نسبتهم فى أواخر أسرة محمد على أكثر من ٩٨ ٪ من عدد السكان».

وفى سبيل تحقيق محمد على لحلمه الشخصى.. لا أكثر!! أحدث أخطر وأهم تغير فى الهرم الاجتماعى المصرى عندما أرسل نخبة من أبناء الفلاحين المصريين فى بعثات إلى أوروبا للنهل من موارد العلم الحديث غير الدينى. وبعد عودتهم أصبحوا ـ بتعليمهم العصرى ـ بعيدين عن جذورهم الأولى فى قراهم، وسكنوا المدن فى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من المحافظات والمديريات التى أقام بها محمد على مصانعه ومشروعاته، وصاهر بعض منهم الحكام من الأتراك، وكونوا ـ دون قصد أو ترتيب ـ قاعدة لطبقة وسطى بين الطبقة الدنيا للفلاحين والطبقة العليا من الحكام. وكان من أوائل مؤسسيها رفاعة الطهطاوى وزملاؤه طلبة البعثة الأولى من المتخصصين فى الطب والصيدلة والهندسة والفلك والعلوم.

وكان مذهب الطهطاوى كما كتب الأستاذ رضوان السيد فى مقاله «الإصلاح والثورة» (و.ن./٧/٢٠٠٢) «لاشك أن الشيخ رفاعة كان يملك رؤية للتقدم الذى تقوده الدولة، لكن النجاح متوقف على وعى المواطنين بجدواه، وإسهامهم فيه. وقد كان نموذجه العالمى لهذا المشروع النظام الفرنسى، ونموذجه الإسلامى دولة محمد على بمصر. وبالوسع القول هنا دونما تجنٍ على الطهطاوى أو ابتسار أو إسقاط أنه كان يفرق بين التقدم والحداثة إذا صح التعبير».

حتى جاء محمد عبده بفكره المتفاعل مع أفكار الأفغانى وقدما نظرة دينية إصلاحية بأمل إعادة تحقيق الدولة الإسلامية الموحدة. ثم كانت فكرة الضابط الفلاح المصرى أحمد عرابى وزملائه من دعاة التغيير بالقوة العسكرية للمرة الأولى، والتى عبّر عنها من فوق صهوة جواده بصدق فى مواجهة الخديوى توفيق حفيد محمد على: لسنا عبيد إحساناتكم، لقد خلقنا الله أحرارًا، ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا.. والله الذى لا إله إلا هو.. لن نورث بعد اليوم!! ويبدو أن ذلك كان فوق طاقة قلوب المصريين المرتجفين الذين اعتادوا الاستكانة فأصبحت ثورة عرابى من أجل الفلاحين مجرد هوجة انطفأت باستدعاء حاكم مصر حفيد محمد على للقوات الإنجليزية لحمايته واحتلال البلاد! حتى يستمر فى حكم الفلاحين المتمردين!

ثم جاء مصطفى كامل وزملاؤه من أعضاء الحزب الوطنى دعاة الاستقلال وقال: «لو لم أكن مصريًا لوددت أن أكون مصريًا». ثم سعد زغلول وزملاؤه من أعضاء حزب الوفد الذين قادوا ثورة ١٩١٩م بشعار: «الاستقلال التام أو الموت الزؤام!» وبمقولة: «الحق فوق القوة، والقوة فوق الحكومة».

ومن بعده جاء مصطفى النحاس وانقسم الوفد حزب الأغلبية إلى أحزاب على أسس من التنافس السياسى الاحترافى من أجل الوصول إلى كراسى الحكم، ثم قيام أحزاب أخرى على أسس من المبادئ الدينية، أو الحرية الدستورية، أو الموالاة للحاكم، أو للمحتل، أو لمبادئ واردة من نظم خارجية تتراوح بين الفاشية والاشتراكية والشيوعية!! والمدهش أنهم رفعوا جميعًا علم الوطنية المصرية!؟ وينحنون جميعًا.. يقبلون يد الملك، ويركبون جنازير دبابات الإنجليز!!

ويلخص الأستاذ هيكل الحال فى «ملك تحت الحصار» (و.ن./٧/٢٠٠٢) فى البرقية الصادرة من اللورد كيلرن إلى الخارجية البريطانية: المصريون كالعادة يظنون أنهم شطار Smart يحلمون بأن يجعلوا من الطرفين (نحن والأمريكان) خيول سباق، وهو جنون مطبق، وخشيتى أن بعض الناس يشجعون هذه الأوهام».

فى عام ١٩٥٢ قامت للمرة الثانية من داخل الجيش حركة ضد الحاكم من أبناء تلك الطبقة التى وضع بذرتها الطهطاوى وزملاؤه فى طلب الإصلاح العصرى، ووضع نموذجها الأول أحمد عرابى وزملاؤه فى التغيير بتولى السلطة وإمساك لزمام الأمور كاملة.. وجاءت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بقيادة اللواء محمد نجيب وبتنظيم جمال عبدالناصر وزملائه من ضباط الجيش، وهم أبناء وحفدة أجيال متعاقبة، ومنهم من كان مدركًا لما يفعل ومنهم من كان مغامرًا أو مندفعًا لما يقرب من حافة الجنون، وأغلب الظن أن نفوسهم جميعًا كانت تتواتر بذلك الشوق الجميل للقيم النبيلة فى الاستقلال بمصر بعيدًا عن تسلط حاكم لاينتمى للشعب الذى يقدسه، وبعيدًا عن سلطة أجنبى يفرض الاستغلال على ثروات البلاد بقوة الاحتلال العسكرى.

وهكذا وصل المصريون بالتعليم ـ بعد الصبر والمكر ـ إلى قمة الهرم الاجتماعى واختلطت حتى اندمجت صفوف الطبقة الدنيا للمحكومين المقهورين مع ما فوقها من طبقات كانت تضم الكثير من غير المصريين الذين فضل غالبيتهم أن يتركوا البلاد بما خف حمله وغلا ثمنه، وقلوبهم مملوءة حسرة على ما ضاع.

وقد بدأ التعليم المنهجى الحديث فى مصر فى عهد محمد على حكوميًا بالكامل يوفر لمنسوبيه التعليم والملبس والمأكل، وكان على مستوى راق بما يوفره له حاكم الدولة من اعتمادات مالية وإمكانيات مادية لإنشاء المدارس وتجهيزها بما يخدم أغراضه منها فى تخريج الكوادر المؤهلة للعمل فى تشغيل المشروعات والمصانع والمنشآت والمرافق التى تحقق بناء جيش قوى قادر على تنفيذ أهداف أحلامه الامبراطورية.

ثم تحول التعليم فى ظل الاستعمار الإنجليزى وتحطيم الجيش المصرى إلى معامل لتصنيع موظفين وكتبة (روتينيين) يجيدون لغة المستعمر ويمكن من خلالهم إحكام سيطرته على البلاد واستغلال خيراتها، ونقلها إلى الخارج كمواد خام لتشغيل مصانعه فى بلاده (القطن)، أو بنزح عوائدها من (الذهب).

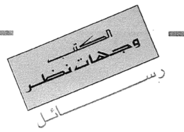
وتحت ضغط المشاعر الوطنية المتاججة فى نفوس المثقفين المصريين ـ من أبناء الفلاحين الذين قاموا بثورة ١٩١٩م ـ تم إصدار دستور ١٩٢٣ لمصر. وسيطرت النظرة الوطنية على فكر عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين وجعلته يخطط لمستقبل مصر كدولة مستقلة، وكتب «مستقبل الثقافة فى مصر» ليضع بذلك أول نظرة منهجية تحلل أوضاع مصر والمصريين وترسم صورة للمستقبل المنشود لهم جميعًا بين المنظومة المحلية والإقليمية والعالمية السائدة فى ذلك الوقت. ويلخص رؤيته بأسلوبه الرشيق عام ١٩٣٧م.. فى قوله:

«فإذا كنا نريد هذا الاستقلال العقلى والنفسى الذى لا يكون إلا بالاستقلال العلمى والأدبى والفنى فنحن نريد وسائله بالطبع، ووسائله أن نتعلم كما يتعلم الأوروبى، لنشعر كما يشعر الأوروبى، ولنحكم كما يحكم الأوروبى ثم لنعمل كما يعمل الأوروبى ونعرف الحياة كما يعرفها.

ونحن نريد آخر الأمر أن نكون أحرارًا فى بلادنا، أحرارًا بالقياس إلى الأجنبى بحيث لا يستطيع أن يظلمنا أو يبغى علينا، وأحرارًا بالقياس إلى أنفسنا بحيث لا يستطيع بعضنا أن يظلم البعض أو يبغى على البعض.

نريد الحرية الداخلية وقوامها النظام الديموقراطى، ونريد الحرية الخارجية وقوامها الاستقلال الصحيح والقوة التى تحوط هذا الاستقلال.. فإذا كنا نريد هذا صادقين فنحن نريد وسائله من غير شك.

(المرجع: المجموعة الكاملة لمؤلفات



الدكتور طه حسين - المجلد التاسع - علم التربية - مستقبل الثقافة. دار الكتاب اللبناني - بيروت).

ولقي حلم طه حسين الدعم والتوسع في التنفيذ من ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ومن ثم التوسع في قبول الشباب للالتحاق بالجامعات في شتى التخصصات. وتم تشغيل واستخدام الخريجين من الجامعات في القاهرة والإسكندرية، ثم في الجامعات الإقليمية نتيجة لزيادة الطلب على الأيدي العاملة، وساعد في ذلك مركزية السيطرة على المال والأعمال بعد قيام الثورة.

ولكن.. مع الزيادة الكبيرة جداً في أعداد سكان مصر ومحدودية الأعمال والوظائف حدث تضخم إداري سرطاني في شتى المواقع الإدارية والإنتاجية تزامن مع تعرض البلاد لاستنزاف مخطط لتحطيم نموذج الثورة المصرية في التنمية المستقلة! في إطار الاستراتيجية العالمية الجديدة التي سادت العالم في أعقاب الحرب العالمية الثانية، والحرب الباردة بين النموذج الرأسمالي في التنمية القائمة على الحرية الاقتصادية! والنموذج الاشتراكي أو الشيوعي في التنمية القائمة على التخطيط المركزي والأمل في تحقيق التقدم من خلال المثالية في التجرد من الذات والعمل من أجل المجموع! وكان النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي يدعم النظام الثوري المصري الذي جذب في يده إليه بعض الدول العربية والأفريقية والآسيوية المستقلة حديثًا عن السيطرة العسكرية الاستعمارية.

ولقد ساعد على تنفيذ مخطط هدم النموذج المصري بسهولة نسبية.. أسلوب إداري في غاية السوء ناتج عن عدم خبرة القائمين بالثورة، ومن تبعهم للأسف. كما استغل ذلك المخطط ردود أفعال القائمين على الشئون المصرية في توجيه معظم ثرواتها إلى صفقات تسليح لمواجهة التحدي الاستعماري الصهيوني الذي تم زرعه في فلسطين على حدودها الشرقية الشمالية طبقًا لمخطط بعيد المدى. واستفاد ذلك المخطط بالتوسع في مشروعات البنية الأساسية الزراعية والصناعية التي قامت بها الثورة على نواة من التأميمات لكي تستوعب طاقات الخريجين من الشباب الجدد للعمل والإنتاج بما يحقق حلم الاكتفاء الذاتي في حلم مدينة فاضلة كانت تحتاج إلى مؤمنين بها لكي تقوم، ولكنها وجدت غير متعففين يحرسون مخازن الخيرات فنهبوها.

وهنا ننظر فيما كتب الأستاذ جلال أمين في مقاله: «ماذا فعلت ثورة يوليو في الاقتصاد المصري» (و.ن. ٢٠٠٢/٧/٠) يقول: «أما عن نمو الدخل، فبقدر ما كانت النتيجة مبهرة في النصف الأول (٥٢ - ١٩٦٥) من تلك الفترة، كانت سيئة للغاية في النصف الثاني (٦٥ - ١٩٧٥)، فلنضرب الصفح عن الثلاث أو الأربع سنوات الأولى من عمر الثورة (٥٢ - ١٩٥٦) فقد كان تركيز الحكومة في تلك السنوات على أمور السياسة لا الاقتصاد، ومن ثم كانت تلك السنوات الثلاث أو الأربع امتدادًا لما كان يحدث في الاقتصاد في السنوات السابقة على الثورة. وإنما بدأ معدل النمو يرتفع بشدة ابتداء من منتصف الخمسينيات وظل مرتفعًا إلى نهاية الخطة الخمسية الأولى في منتصف الستينيات، فزاد متوسط الدخل (الحقيقي) في تلك السنوات العشر بمعدل ٣ - ٤٪ سنويًا في المتوسط، ومن ثم يمكن القول بأن متوسط الدخل الحقيقي زاد فيما بين ٥٥ و١٩٦٥ بنحو ٥٠٪ وهو معدل طيب جدًا بمعايير ذلك الوقت على الأقل. ولكن ابتداء من منتصف الستينيات دخل متوسط الدخل في مرحلة ركود، ولم يحقق ارتفاعًا يذكر حتى منتصف السبعينيات، ومن ثم يمكن القول بأنه خلال الفترة كلها التي تقرب من ربع القرن (٥٢ - ١٩٧٥) حقق متوسط الدخل الحقيقي زيادة متواضعة تتراوح ما بين ٥٠٪ و٦٠٪». ويتضح هنا أثر الضربة المحكمة لمصر عام ١٩٦٧ التي تضافرت فيها الأخطاء الشخصية للانفراد بالرأي والحكم مع جهود عربية مناوئة لنموذج تغيير نظام الحكم الوراثي؟ وإسرائيلية صهيونية وأمريكية إمبريالية، لكي يتم تفشيل ذلك النموذج الناجح للثورة المستقلة، وتفشيل ذلك النموذج للاقتصاد المستقل.

وبعد تغير توجه عجلة الحكم من الدوران في اتجاه اليسار إلى اليمين بتغير الزعيم وتوجهاته لأنظمة الحكم!!.. تم تفكيك نظام الدولة في الاقتصاد. أو كما يستكمل القول الأستاذ جلال أمين (و.ن. ٢٠٠٢/٧/٠): «ثم حدث الانقلاب الكبير في منتصف السبعينيات. لم يحدث كله في يوم وليلة، بل كنا نستيقظ كل يوم لنرى تراجعًا جديدًا عما فعلته الحكومة في الخمسينيات والستينيات. الإصلاح الزراعي لم يكتف بوقف تقدمه بل الغيت الحماية التي كانت تسبغها الحكومة على مستأجري الأرض إزاء مالكيها، والأسعار جرى تحريرها، واحدًا تلو الآخر، من تدخل الحكومة، وأنواع الدعم المختلفة لشتى السلع والخدمات جرى تخفيضها بشدة أو إلغاؤها، والمشروعات التي كان قد جرى تأميمها خضعت، الواحد منها تلو الآخر، للخصخصة، والاستيراد أطلقت حريته، وسعر الصرف أصبح يخضع أكثر من أي وقت مضى لقوى العرض والطلب، ومعدلات الضريبة على الدخل والثروة خفضت بشدة، كما صدر قانون بعد الآخر لإعطاء المزيد من المزايا للاستثمارات الأجنبية الخاصة». وأصبح شعار ذلك العصر «الانفتاح الاقتصادي» حيث كان يتم بيع وحدات الإنتاج الصناعي والزراعي وتوجيه العائد إلى أقساط لسداد الديون الناتجة عن استيراد مشكوك في جدواه.

وفي أعقاب ضربة عسكرية محكمة غير مسبوقة (١٩٧٣) قامت بها القوات المسلحة المصرية لقوات الاحتلال الإسرائيلي، وبعد معركة سياسية اقتصادية أكبر من المعركة العسكرية، حدثت زيادة كبيرة جدًا في العوائد النقدية للدول العربية الخليجية. ومن المدهش والمثير للعجب أنها تبدو كما لو كانت مخططة من قبل الحرب؟ فلقد كانت تلك الأنهار المتدفقة من الدولارات ناتجة عن زيادة تسعير البترول بالدولار الأمريكي الورقي حيث أصبح الدولار الأمريكي لا يقوم بالذهب منذ إلغاء قاعدة الذهب بقرار منفرد من الرئيس الأمريكي نيكسون في ١٥ أغسطس ١٩٧٠، وبذلك القرار أصبح الدولار الورقي غير قابل للتحويل إلى ما يعادله من ذهب، بل أصبح سلعة أمريكية!! ولا تتحدد قيمته مثلما تتحدد قيمة السلع بالعرض والطلب بل بالإرادة الأمريكية منفردة - في ظل هيمنة سياسية وعسكرية أمريكية على العالم العربي بالكامل!

وهنا نذكر قول الأستاذ الدكتور/ جمال حمدان.. في كتابه «استراتيجية الاستعمار والتحرير» ١٩٨٣م ص٣٣٧ عن نظرة بعض الدول إلى الولايات المتحدة: «توهمت فيها أملاً حقيقيًا للتحرير والتعمير، فإذا الحقيقة تتكشف عن قوة جديدة تأتي من وراء البحار لتصدر تجربتها الخاصة والأصيلة في الاستغلال بدل الاحتلال، والسيطرة والنفوذ بدل الامتلاك والوجود، أو بالتعبير الدقيق لتمارس الإمبريالية بدل الكولونيالية أي الاستعمار، وهذا هو الاستعمار الجديد في مقابل الاستعمار القديم».

ومن العوامل الإضافية في تحطيم النموذج المصري، أن تنفيذ الثورات التنموية في دول الخليج البترولية! الخاوية من القوى البشرية، قد اقتضى هجرة خيرة العاملين المهنيين من مصانع وهيئات وشركات مصر بما أدى إلى ضعفها وهزالها، وبالتالي لضخامة خسائرها، ومن ثم لإيجاد المبرر المشروع حسابيًا للتخلص منها بأبخس الأسعار. ثم زاد الهم المصري فقدان عشرات من مليارات الدولارات (الورقية) هي معظم مدخرات عائد عمل هؤلاء الأبناء الذين هاجروا مؤقتًا إلى الخليج، في شرك وهم شركات الاستثمار الإسلامي.

ومع ذلك الانهيار العظيم حدث انهيار موازٍ في منظومة القيم الأساسية، ولم يصبح الفلاحون هم القاعدة العريضة للهرم الاجتماعي المصري بل الفقراء.

وأصبح التعليم الذي كان ميسرًا لأبناء عامة الناس لخدمة أهداف الدولة عسيرًا. وذلك بسبب انهيار العملية التعليمية - بنفس الأسلوب الذي انهارت به العملية الإنتاجية في مصانع القطاع العام - لسفر صفوة الأساتذة للعمل في المدارس الجديدة التي تم إنشاؤها في دول الخليج في إعارات! أو عقود شخصية لتخريج أجيال جديدة من المتعلمين هناك. ثم قيام معظم هؤلاء الصفوة - بعد عودتهم نتيجة (خلجنة) الوظائف بأبناء البلاد - باستثمار مدخراتهم في أساليب الاستثمار التعليمي، سواء في الدروس الخصوصية أو شركات استثمارية تقدم الخدمات التعليمية وتقوم بافتتاح المدارس أو المعاهد الخاصة. وهكذا تحول حلم التعلم بين أبناء الطبقات الوسطى الفقيرة - وهي الطبقة التي كانت تقود البلاد وتقوم بدور أساسي في تحقيق نهضتها من خلال العمل الشريف - إلى كابوس ثقيل.

وقد دفع ذلك التغيير في النمط الاقتصادي وفي النمط القيمي.. معظم الآباء في تلك الطبقة - في تلك الفترة من منتصف السبعينيات - إلى البحث عن الوسائل المشروعة لزيادة دخولهم لمواجهة أعباء تعليم أبنائهم بما يضمن زيادة تحصيلهم لتحقيق أعلى مجموع ونسب مئوية لدخول الجامعة في بعض الكليات التي وصفت بأنها كليات القمة، وهي الكليات التي يضمن خريجوها الحصول على عمل عند التخرج! (ومنها الكليات العسكرية والشرطة).

ولكن مهما كانت فرص الأعمال الإضافية المشروعة فهي محدودة.. وانفتح الباب لأعمال إضافية طفيلية في شوارع المدن بين السيارات، أو لأعمال أخرى غير مشروعة نتيجة لتغلب أخلاقيات الفقر في مجتمعات الندرة التي ترفع شأن أساليب قطاع الطرق.

وهكذا تدرج الهرم الاجتماعي المصري بطبقات جديدة من الأثرياء وأنصاف الأثرياء وأرباع الأثرياء، ومن تابعيهم المتشبهين بهم الذين جمعوا ثرواتهم من أعمال خدمية لدى الغير. وكان من الطبيعي أن تضم هذه الطبقات الجديدة مستثمرين من المتعلمين الحاصلين على أرقى الدرجات العلمية المتخصصة، إلى جانب غير المتعلمين من المهنيين أو الوسطاء العاملين في تجارات تدر مالا وفيرا بغض النظر عن المشروعية. وأصبح كم المال هو المحدد للموقع بعدًا أو قربًا من قمم الأهرام وكان أبا الهول يراقب ولا يشارك.. رغم أنه الرابط الوحيد فيما بين أفرادها.

الأمل - بعد خمسين عامًا من التدريب المركز على التجارب القيادية - أظن هذا الشعب الذي انصهرت معادنه المختلفة في بوتقة المعاناة بنيران المعارك والهزائم والانتصارات وتبلورت منها درره في تجانس جميل بنسائم النصر والنجاحات - يستحق مواطنوه ذوو الوعي العميق، وفي عصر ثقافة العولمة التي تخطت كل حدود الرقابة بالأقمار الصناعية والتليفزيونات المفتوحة على العالم ترى وتتابع وتقارن، أن يمارس أسلوب الفعل من تحت، وذلك من خلال اختيار القيادات بعقود محددة المدة.. تحت رقابة المنافسة الشريفة التي تحكمها القيم والمبادئ الواردة في القانون والدستور.. بدلاً عن اللامبالاة.. وانتظار التغير بالصبر أحيانًا أو بالمكر في أحيان أخرى.. كما كانوا يفعلون مع الملوك ومن قبلهم المماليك والولاة.. لعل وعسى.

د. حمزة إبراهيم عامر
أستاذ الجيولوجيا التطبيقية

"نــون"

ثقافة الخوف وعقدة الاضطهاد

تجرى أحداث القصة فى العاصمة الأمريكية واشنطن عام ٢٠٥٤، أى بعد ما يزيد على ٥٢ عامًا من أحداث سبتمبر ٢٠٠١ التى قلبت مزاج أمريكا وتفكيرها رأسًا على عقب. أحداثها خليط من الخيال العلمى وحالة الهستيريا الواقعية التى اجتاحت أمريكا بقوة فى أعقاب واحدة من أشد الجرائم غموضًا وتعقيدًا فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.. وحين أخرجه المخرج الأمريكى الشهير ستيفن سبيلبرج للسينما فى فيلم يحمل نفس عنوان القصة «تقرير الأقلية» لم تكن الهجمات التى وقعت فى نيويورك وواشنطن قد حدثت، ولم يكن هناك لدى الأمريكيين ذلك الشعور الطاغى بالاضطهاد والخوف من الآخر وعدم الثقة بالنفس الذى يخيِّم على الحياة الأمريكية هذه الأيام. ولكن الفيلم يضع أمريكا مع ذلك فى الحالة التى تطمح أن تكون عليها، أو تظن أنها قادرة على أن تكون عليها: مجتمعًا خاليًا من الجريمة.. يملك من الوسائل العلمية والتقنيات الحديثة ما يُمَكّن القائمين على الأمن فيها من اكتشاف الجريمة قبل وقوعها، ومنعها قبل ارتكابها أى والجريمة مازالت فكرة طارئة أو خطة غير مكتملة لم تختمر بعد فى ذهن صاحبها.

إنه المجتمع المثالى الذى تعتقد أمريكا أن بقية شعوب العالم تحسدها عليه، وتكرهها من أجله، وتحقد عليها بسببه، وربما من أجل ذلك تعرضت لهذه المؤامرة الكونية الغامضة التى مازالت تحاول حل ألغازها.

وعلى الرغم من أن الفيلم أُنتج قبل أحداث سبتمبر، إلا أنه جاء يلبى حاجة نفسية وثقافة عامة أخذت تبسط تأثيرها على كل شىء فى أمريكا.. فالذين يرتكبون الشر ويقعون فى خطيئة الجرم أناس جبلوا على الشر، وفى جيناتهم ما يحملهم على ارتكابه.. وهكذا يمكن التنبؤ بما يحمله المستقبل. لأن المستقبل قد تم تحديده سلفًا، ولا خيار للإنسان فيما يصنعه من أفعال وما يرتكبه من ذنوب وأخطاء وجرائم.

وفيما يشبه الخيال العلمى تجرى أحداث الفيلم.. بطلها الممثل المعروف توم كروز الذى يلعب دور عميل مهم فى إدارة سرية أنشئت لاكتشاف الجرائم قبل وقوعها. وهو يحصل على الإشارة الأولى عن الجريمة من كمبيوتر بشرى.. عبارة عن أشخاص يملكون خاصية استشراف المستقبل. جرى تنويمهم والاحتفاظ بهم فى خزان يحتوى على محلول كيماوى، وقد أطلقوا على المعمل الذى يضم ثلاثة من هذه الكمبيوترات البشرية اسم «المعبد». وينصبُّ اهتمام هذه الإدارة على تعقب جرائم القتل تحديدًا والعمل على منعها باعتبار أن جرائم القتل هى أخطر ما يدمر نسيج المجتمع. تنتقل الرؤية المستقبلية من مخ أى واحد من أفراد هذا الفريق. الكمبيوتر البشرى. إلى شاشة كمبيوتر فعلى يستطيع ترجمة الرسالة وفك شفرتها لمعرفة مكان وشخصية وزمان الجريمة وكيفية وقوعها.. فيبادر توم كروز مع فريق عالى الكفاءة والتدريب من رجال الشرطة إلى مكان الحادث لإجهاض الجريمة.

وطبقًا لهذا البرنامج. تقول أحداث الرواية أو الفيلم. لم تقع فى واشنطن أية جريمة قتل طوال ست سنوات. ولكن عقدة القصة تبدأ حينما يكتشف توم كروز العميل السرى الأول فى هذه الإدارة أن التقارير التى تفرزها هذه الكائنات الكمبيوترية، ليست صحيحة مائة فى المائة، مالم تجمع عليها الوحدات الثلاث، ويتصادف أن تفرز واحدة منها تقريرًا يضع دائرة اشتباه حول اسم توم كروز نفسه كمرشح لارتكاب جريمة قتل فى المستقبل القريب.. هل هى مؤامرة من المباحث الفيدرالية «إف.بى.آى» لإفشال هذا البرنامج الناجح والاستيلاء عليه بعد تخريبه من الداخل؟ أم أن «تقرير الأقلية» أى الذى يصدر عن واحد من الثلاثة يمكن أن يصدق فى الواقع؟

وهكذا يصبح رجل الأمن نفسه مجرمًا مشتبهًا فيه، على وشك أن تُقطع رقبته ويطاح به قبل ارتكاب الجريمة. ولكن ممن؟ ينتهى الفيلم نهاية غريبة، حيث يتضح أن قوات من العسكريين الأمريكيين هم الذين دبروا للاستيلاء على هذه الإدارة السرية الجديدة، بعد أن انتهوا من خوض حروبهم ومعاركهم حول العالم، وأصبحوا مهيئين لبسط سيطرتهم على كل شىء حتى على قوات الشرطة فى أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية.

من أيسر الأمور أن ينظر المرء إلى مثل هذا الفيلم باعتباره فيلمًا من أفلام «الاكشن»، كما يطلق عليه أهل الحرفة، يختلط فيه الخيال العلمى بأعمال العنف والسرعة والمطاردات البوليسية فى إطار من الإثارة المحببة، ولكنه فى حقيقة الأمر يعيد إنتاج الأفكار التى طرحها «أورويل» إبان الحرب الباردة ضد الأنظمة الشمولية التى اتهمها بأنها تحاكم المواطن على أفكاره، لذلك تضع الدولة تشريعات شمولية للمحاكمة على أية «جرائم فكرية» أو «أفكار إجرامية» يمكن اكتشافها بواسطة «شرطة للأفكار» قادرة على استشفاف ما يدور بخواطر الناس وعقولهم.

وليست المحاكمة بالنوايا فى عصرنا الحاضر أمرًا مستغربًا.. فمازالت فى بلاد عربية كثيرة تشريعات تفتش فى ضمائر الناس وعقولهم وتحاسبهم على خاطرة عابرة أو فكرة شريرة هادرة نجمت عن دفقات من المشاعر المشبوبة أو الإحباطات القاصمة.

ومع ذلك فلم تكن مصادفة بعيدة عن الواقع، حين ألقت السلطات الأمريكية القبض فى شهر مايو. فى الأسابيع الأولى من عرض الفيلم. على شاب أمريكى قيل إنه من أصل عربى اسمه عبدالله المهاجر. وأعلن أشكروفت المدعى العام الأمريكى أن هذا الشاب كان ينوى صنع وزرع وتفجير «قنبلة نووية قذرة». وهنأت السلطات الأمريكية نفسها على هذه الضربة الإجهاضية الناجحة التى منعت الجريمة قبل وقوعها. ولكن أحدًا لم يسأل نفسه: أين هى المواد النووية الانشطارية القذرة التى يُفترض أنها كانت فى حوزته؟ وأين هى الأوراق والمخططات التى تضمنت تصميمات القنبلة وتركيبها؟ لم تعثر السلطات على أى من هذه الأدلة، ولكنها كانت على يقين من أن الرجل خطَّط ودبَّر «فى خياله» إمكانية القيام بهذه الجريمة. وعندما اكتُشفَ بعد ذلك أن «عبدالله المهاجر» ليس إلا «جوزيه باديللا»، وأنه من أصل لاتينى وله سجل حافل منذ صغره كعضو فى عصابات الشوارع فى نيويورك، اختفت القضية فى أضابير المباحث الفيدرالية ولم يعد أحد يسمع عنها شيئًا.

استباق الجريمة قبل وقوعها هو النظرية السائدة الآن على مستوى العالم.. وهى النظرية التى تحبذها الأجهزة البوليسية فى دول العالم الثالث وتطبقها بتجاوزات كثيرة فى ظل الموجة الكاسحة من الحرب ضد الإرهاب. ولكن أنصار الديمقراطية يرون فى اللجوء إليها وإساءة استغلالها، اعتداءً على الحريات والحقوق المدنية التى ضمنتها معظم دساتير العالم، وعلى رأسها الدستور الأمريكى، وحين تجنح الدولة إلى استخدام الأساليب البوليسية فى التفتيش على نيَّات الناس بحجة مكافحة المؤامرات والجرائم، من خلال تطويع الأفكار، وتأويل الكتابات، واستنطاق الأدلة التى تدين صاحبها، فإنها فى واقع الأمر تضع الأساس لقيام الدولة البوليسية وتشرع لحكم الطغيان الذى تختفى معه قيم العدالة والحرية.

هناك بغير شك فرق بين تتبع أنشطة إجرامية تحمل دلائل مادية ملموسة، وتسبقها استعدادات وتصرفات مريبة، كما يحدث فى الجرائم العادية «جنائية كانت أو مدنية» وبين استنطاق الأفكار والحفر وراء مدلولاتها بحثًا عن مخطط إجرامى ضد النظام والقانون، أو ضد مؤسسات الدولة.. هنا يصبح الأمر أشبه بقراءة فى مستقبل غير منظور، أو قراءة فى الفنجان التماسًا لقدر مغيب لا يملك الإنسان الوصول إليه، مهما امتلك من تقنيات البحث والمعرفة المسبقة بقوانين السلوك الإنسانى. ولم يحدث حتى الآن أن نجحت أدق الأساليب التكنولوجية فى قراءة الأفكار المضمرة والنوايا المبيَّتة. ومازالت أجهزة كشف الكذب أسلوبًا غير معتمد فى الأخذ به كدليل جنائى أمام العدالة.

غير أن «تقرير الأقلية» يضيف بُعدًا آخر.. فهو يضع المجتمع الإنسانى المعاصر بكل معطياته التى يتنبأ الكاتب بتحقيقها فى غضون نصف قرن، أمام معضلة حقيقية. وهى أن الإنسان حاكمًا كان أو محكومًا، رجل أمن أو قاتلاً محترفًا أو متآمرًا مأجورًا، يحمل فى طيات نفسه نوازع الشر والجريمة. ولن تكون هناك معايير قاطعة الدلالة تفرق بين «مواطن مثالى» و«مواطن خارج على القانون».. «حاميها هو حراميها». كما يقول المثل الدارج. وهو ما ينبئ بانهيار شديد للقيم الأخلاقية والمبادئ الإنسانية التى يفترض فيها أن تحول دون اضمحلال الحضارة وانحلالها!

سلامة أحمد سلامة